



سَيِّدَةُ الْمَوْتِ

مذكرات قنّاصة ستالين

لودميلا بافلتشنكو

مكتبة

t.me/soramnqraa

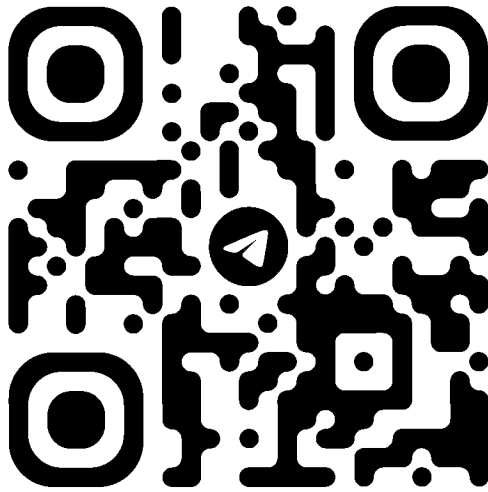
دار
الساقية

ترجمة

هيثم فرحت

سيّدة الموت

مذكّرات قنّاصة ستالين



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

مكتبة

t.me/soramnqraa

Lyudmila Pavlichenko, LADY DEATH, The Memoirs of Stalin's Sniper,
Copyright © Alla Igorevna Begunova. 2015
David Foreman English-language translation © Greenhill Books, 2018
Foreword copyright © Martin Pegler, 2018

الطبعة العربية
© دار الساقبي 2020
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2020

ISBN 978-614-03-2156-4

دار الساقبي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114-2033
هاتف: +961-1-866 442، فاكس: +961-1-866 443
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi 

دار الساقبي 

Dar Al Saqi 

لودميلا بافلتشنكو

مكتبة
t.me/soramnqraa

سيّدة الموت

مذكّرات قنّاصة ستالين

ترجمة
هيثم فرحت



”تُضارع مهارات لودميلا بافلتشنكو في استخدام البندقية، في هذه المذكرات الرائعة، إمكاناتها بصفتها كاتبة. فتصف في نثر ينبض بالحياة واضح كيف أن شغفها ما قبل الحرب بالرمي الموجّه ساعدها على أن تصير واحدة من قناصي ‘الجيش الأحمر’ الأكثر رعباً على الخط الأمامي من الجبهة الشرقية. ويمكن القول إنه الوصف الأدقّ لعملية القنص أثناء الحرب العالمية الثانية“.

إدريان غلبرت Adrian Gilbert

مؤلف *Challenge of Battle* [معركة التحدي]

”في غضون سنة من شنّ عملية بارباروسا Barbarossa، أي غزو هتلر لروسيا في حزيران/ يونيو ١٩٤١، تطوّعت طالبة التاريخ ذات الأربعة والعشرين ربيعاً من كييف في صفوف الجيش الروسي، وباتت واحدة من أكثر القناصين الحربيين فتكاً في العهود كلها، وفي أيّ جيش، وأيّ حرب. يُعدّ كتاب سيّدة الموت تجسيداً عملياً مشوّقاً لمذكرات لودميلا بافلتشنكو بوصفها ‘المرأة الأخطر في العالم’ التي حصدت ما يفوق خمسمئة قتيل بين مؤكّد أو مُحتمل. ونظراً إلى ترجمته عن اللغة الروسية الأصلية واستناده إلى ملاحظاتها في ما بعد الحرب ومذكراتها اليومية في زمن الحرب، يُعدّ الكتاب، بلا شكّ، وصفاً مميّزاً لعملية القنص في الأدب“.

تشارلز دبليو ساسر Charles W. Sasser

جندي أسبق في القوات الخاصة العسكرية الأميركية

ومؤلف *One-Shot, One-Kill* [القتل بطلقة واحدة]

”تقدّم لودميلا بافلتشنكو، بوصفها القناصة صاحبة الرصيد الأعلى في ‘الجيش الأحمر’، وصفاً دقيقاً لكفاح مقاتلي ‘الجيش الأحمر’ والعقبات التي واجهتهم وتجاوزوها مع اتساع رقعة الحرب على الجبهة الشرقية. فلم تُثبت ذاتها في ميدان المعركة فحسب، بل كانت واحدة من المواطنين السوفيات القلائل الذين أُتيحت لهم المشاركة من أجل المسعى الحربي في الخارج، وعليه تجود برأي إضافي فريد عن الغرب عبر نظرٍ محاربٍ سوفياتي قديم“.

يان مان Yan Mann

مؤرّخ عسكري

المحتويات

مكتبة

t.me/soramnqraa

٩	توطئة: بقلم مارتن بـغلر Martin Pegler
١٧	كلمة المحرّر الروسي
٢١	١ - جدران المصنع
٣٣	٢ - لو كان ثمة حرب غداً...
٤٧	٣ - من نهر بُرُوت إلى نهر دَنِيسْتِر
٦٥	٤ - تخوم النار
٩٧	٥ - معركة في تَتَاركا
١١١	٦ - عبر البحر
١٢٥	٧ - سيفاستوبول الأسطورية
١٤٣	٨ - دروب الغابة
١٦٧	٩ - الاعتداء الثاني
١٨٥	١٠ - النزال
٢٠٧	١١ - على مرتفع "بلا اسم"
٢١٩	١٢ - ربيع ١٩٤٢
٢٤١	١٣ - كلمة من قائد الجيش
٢٥٣	١٤ - نجوم موسكو
٢٧٣	١٥ - مهمة إلى واشنطن
٢٩٥	١٦ - حبيتي

توطئة

بقلم مارتن بـغلر Martin Pegler

مكتبة

t.me/soramnqraa

ضمن نطاق أدبيات القنص، تصنّف هذه المذكرات فريدة من نوعها، لأنها الأولى التي كتبها قناصة على الخط الأول. لم تكن لودميلا ميخايلوفنا بافلتشنكو Lyudmila Mykhailovna Pavlichenko مجرد قناصة عادية، لأنها على كلّ حال تحولت لتصير صاحبة أكثر سجلّ قص حافل لأثني، إذ سجلت رسمياً ٣٠٩ قتلى. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ "رسمياً" تعني أنّه تم توثيقها من طرف ثالث. وكما الحال مع الكثير من القناصين، قُتل العديد من ضحايا بافلتشنكو أثناء الهجوم، إذ إن التوقف من أجل تسجيل أعداد جنود العدو الذين تم تصفيتهم أمر غير عملي أو حكيم. ولهذا السبب، تبقى الحصيلة النهائية لعدد قتلها غير معروفة، ولكن قرابة خمسمئة سيكون رقماً معقولاً.

من جهة أخرى، وضعت هذه المذكرات المميّزة الأمور في نصابها في ما يخص الكثير من الانتقادات الواهية والكتابات غير الدقيقة التي استهدفها تبعاً، خصوصاً تلك التلميحات إلى أنّها لم تكن قناصاً على الإطلاق، وإنّما نتاج آلة البروباغاندا الخاصة بـ"الجيش الأحمر". فبمجرد أن يتجهز السوفيّات لتمجيد إنجازات فرد ما، إنهم حقاً يصنعون أساطير لا يشق لها غبار، لكنّ بافلتشنكو وزميلها القناص فاسلي غريغوريفتش زايّتسف Vasily Grigoryevich Zaitsev قد سطرّا جوهر الحقيقة. حقاً من السخرية بمكان أنّه لو لم تتسبب شهرتهم غير المرغوب فيها في سحبهم

من خط الجبهة وواجباته، لكانوا قد صاروا الآن دون أدنى شك مجرد أسماء على نصب تذكاري لضحايا الحرب. إن حياة القناص السوفيياتي عادة ما تكون قصيرة؛ في ستالينغراد من المتوقع أن يعيش القناص المبتدئ أسبوعين أثناء المعارك. وكلما نجوت أكثر، تصير قناصاً أفضل وتكون فرصك في الحياة أكبر... إلى حد ما. لكن أثناء العمليات الحربية ينطبق قانون المردود المتناقص عندما يتعلق الأمر بمعارك الخط الأول، وفي نهاية المطاف، سيوهن الإرهاق والتعب الشديد في المعارك وإرادة الحياة عزيزتهم، وستقع الأخطاء. لا تختلف حياة القناص في هذا الجانب عن الطيار، إذ من الممكن أن تنتهي بخطأ واحد، ونادراً ما يكون هناك فرصة أخرى.

لم يكن لدى بافلتشنكو أدنى فكرة عن أن القدر قد كتب لها مستقبلاً ستكسب به لقب "سيدة الموت"، وتحصد أرفع جوائز يمنحها الاتحاد السوفيياتي، وتقابل ستالين وتساfer إلى الولايات المتحدة وكندا وأوروبا. مثل عشرات الآلاف من اليافعين الروس، بدا أنه مقدّر لها العمل ضمن منظومة الحزب الشيوعي قبل الحرب. ولأنها امرأة ذكية، كان من الممكن أن تصير مسؤولة صغيرة وأن ترتقي إلى مصاف المخلصين للحزب. لكنّ فرصة التعرف إلى القناصة TOZ-8 من عيار ٠,٢٢ سيغيّر مسار حياتها. مع أنها عموماً غير معروفة خارج روسيا، صُنعت عشرات الآلاف من هذه البنادق الصغيرة التي ترمي دراكاً، وكانت تستخدم في نوادي الرماية وصيد الطرائد الصغيرة. كانت رخيصة لكن محكمة الصنع والدقة، كما كانت البندقية الأولى التي يستخدمها معظم الناس أثناء تعلّم الرماية. يمكن أن تنسب موهبة لودميلا الفطرية إلى إحدى طفرات الطبيعة، حين يمتلك شخص ما التوليفة المطلوبة تماماً من تناسق العين واليد، وثبات العضلات، والرؤية الجيدة والصبر. ولكن كان ثمة ميزة أكثر ضبابية لا يمتلكها كلّ رام جيد تميّز القناص عن الرامي العادي. هناك جدلٌ دائمٌ حول ماهية هذه الميزة. فبعضهم يعرفها أنها غريزة صيد باطنية لا يمكن رؤيتها دائماً بين الرجال، وهي نادرة بين النساء، فيما يعرفها آخرون أنها قوة الهدف، وامتلاك الإرادة إلى درجة أبعد بكثير من الحد الطبيعي.

من المؤكد أن إيمان لودميلا بوطنها، وسياساته، وعدالة القضية السوفيادية، لم يتزعزع إطلاقاً، ما أعطاهما تصميمًا استثنائياً كان يتجلى غالباً في مواجهة المحن

القاهرة. كما بقية عناصر الجيش السوفياتي، يستحق الوطن الأم أن نبذل أنفسنا في سبيله، وربما هذا ما دفعها إلى الاستمرار بعد تلقيها الإصابة مرات عدة، في حين كان الآخرون يقعون على جانب الطريق. في وقت لاحق لا بد أن رغبتها في الانتقام لمقتل زوجها قد دفعتها إلى الاستمرار. مع ذلك، ومن جوانب عدة، لم تكن بافلتشنكو المادة البطولية المناسبة التي يبحث عنها خبراء البروباغاندا. لم تكن غير جذابة في الواقع، لكنها امتلكت صفات القناص النموذجي. فهي متحفظة، شبه انطوائية، تخجل من الدعاية وترغب في أداء واجبها فقط، أو كما قالتها بكل صراحة، ترغب في "قتل الفاشيين".

يوجد بالتأكيد قناصون يفضلون الصحبة على العزلة، لكنهم نادرة، وإن نجاتهم لمدة طويلة في المجال الذي اختاروه غير محتملة. في الوقت الذي تعظم فيه الاهتمام بالدور الذي تؤديه بافلتشنكو، صرحت: "على القناص ألا يلفت الانتباه إلى نفسها أو نفسه. يظل البقاء متخفياً المتطلب الأساسي للعمل بنجاح". لا ينطبق هذا على أرض المعركة فقط، بل على قلقها من الشهرة. يحتاج القناص أن يمتلك مهارة القطة وصبرها أثناء التربص، والمكر الفطري وسلوكاً تجاه مهنته يصل إلى درجة الهوس. خير مثال على ذلك الجهد الذي بذلته في إيجاد وقتل القناص الألماني الذي كان يختبئ على الجسر. اقتضى ذلك ساعات من الرصد الحذر، ووضع نفسها في حالة القناص الألماني الذهنية، والعودة مراراً وتكراراً إلى الموقع والبقاء مستعدة لفعل ذلك دون أي ضمانات لتحقيق الهدف في الوقت المنظور. لم يكن هذا شيئاً يمكن للجندي العادي أن يطيقه.

قد يبدو هذا متناقضاً مع شخصية المرأة التي أجرت جولة حول العالم والنقت الرؤساء والساسة، لكن وجب عليها أن تقدم أفضل ما في وسعها في المهمة التي أوكلت إليها. كما لا يمكن تجاهل حقيقة أنها أصيبت أربع مرات، كان لكل منها أثره في حالتها الذهنية والجسدية، والأسوأ من هذا كله أنها قد دُفنت زوجها الملازم ألكسي أركاديفيتش كيتسنكو Alexei Arkadyevich Kitsenko الذي تزوجته منذ ثلاثة أسابيع فقط، في سيفاستوبول، قبل سحبها من الجبهة ببضعة أشهر فقط. وفيما يوجد اليوم كمية وافرة من البحوث في مجال الطب حول الآثار المديدة للمعارك في الجنود

الذكور، لم تُجَرَّ في الواقع أيّ بحوث عن ذلك عند الجنود الإناث، لأن قلة قليلة فقط منهن خدمن جنديات مقاتلات. ولهذا السبب، كان مستحيلاً تقدير الوضع الذي كانت تمر به عندما غادرت روسيا. فمن جهة، كان عليها إظهار الجيش الروسي بأبهى صوره أمام الحلفاء، دون أدنى خبرة في التحدث أمام العامة، أو مواجهة الصحافة والمراسلين الإذاعيين، أو حتى في السفر خارج حدود روسيا. وكما أوضحت، مجرد الذهاب إلى موسكو كان سفراً إلى بلد أجنبي، ولهذا لا بدّ أن التحديات التي واجهتها والضغط التي عانت منها هائلة. كان عليها الحذر أيضاً، فقد كان يرافقها مسؤولون في الحزب يسجّلون كل كلمة تنفوه بها. إضافة إلى ذلك كانت تحتقر معظم وسائل الإعلام التي تعاملت معها. على وجه التحديد، لم يكن بإمكانها إدراك الصعوبة في تفهّم حقائق الحرب من الأميركيين، حين سألها الصحفيون عن أنواع الزينة التي تزين بها على الخط الأول، وناقشوا بالتفصيل مسألة درزة زيّها الرسمي. كانت تنفعل في بعض الأحيان، كما حدث في إحدى المرات عندما أخبرت الحشد المجتمع أمامها أنّهم كانوا يتلطّون خلف ظهور الجنود المقاتلين منذ زمن طويل. ولم تكن مسرورة أيضاً عندما كان يُطلب منها استعراض مهاراتها في الرماية؛ كانت تمقت فعل ذلك في روسيا، وبدرجة أكبر خلال جولاتها الدولية. كانت دائماً ترفض ذلك، ما تسبّب في تداول نظريات تشكّك في قدرتها على إطلاق النار من بندقية. في واقع الأمر، كانت قناصة موهوبة، وليست موهبة استعراضية في سيرك، ولم تؤمن أنّه من واجبها القنص الاستعراضى، خصوصاً ببنادق ومناظير غير مألوفة لها.

ربما كان من المفيد في هذا السياق أن نعقب على أنواع البنادق التي لا تنفك تذكرها، وهي Mosin Nagant 1891/30 ذات المنظار PE (تم تزويدها لاحقاً بمنظار PEM المعدّل)، والبندقية النصف آليّة من نوع Mosin. وSVT-40 بندقية عسكرية قديمة النوع صُمّمت عام ١٨٩١، لها سبطانة بطول ٧٣ سم، ومخزن يتسع لخمس طلقات، ويبلغ وزنها ٤ كيلو غرامات. صُمّمت حجرتها لتطلق رصاصات ذات إطار من عيار ٧,٦٢×٥٤ ملم، التي هي بحدّ ذاتها نوع قديم أيضاً، إذ إنّ معظم الدول بدأت باعتماد الذخيرة دون إطار مع نهاية الحرب العالمية الثانية. يميّز نموذج البندقية القناصة من نوع Mosin بمنظار 4X PE، وهو عملياً نسخة عن منظار Zeiss الألماني.

وكان يتميز بالدقة حتى مسافة أكثر من ألف متر، لكن في حال كانت الظروف الجوية ملائمة جداً والقناص غاية في الحرفية فقط. كانت هذه بندقية بافلتشنكو المفضلة، فهي متينة جداً، وسهلة الصيانة في الميدان، وتتميز بأجهزة رؤية ذات نوعية ممتازة. لقد استمر إنتاج هذه البنادق حتى مطلع الأربعينيات، عندما ظهر نموذج جديد أصغر حجماً ومزود بمنظار PU الذي يتميز بمدى رؤية أقل تبلغ ٣,٥x.

بالمقارنة مع Mosin، تعتبر SVT-40 بندقية ذات تقنية حديثة، مبنية على نموذج SVT-38 الفاشل سابقاً. وبالمثل، صممت حجرتها لاستيعاب رصاصات ذات إطار من عيار R 54X7.62 ملم، لكن آلية العمل بالغاز زودتها بميزة الرمي السريع المهمة جداً أثناء الاشتباك عن قرب. كما أنها أيضاً مزودة بمنظار PU الذي يفتر إلى قوة التكبير التي يتمتع بها PE. على أي حال، نتيجة لآلية الغاز المعقدة التي تعمل بها، لا تمتلك SVT المدى ولا الدقة التي تتميز بها Mosin، بل إن مسافة ستمتة متر هي المدى المجدي الأقصى المعقول للبندقية. كان لهذه البندقية أيضاً مشكلات من ناحية الموثوقية والدقة. بالطبع، كانت بندقية بافلتشنكو مقدمة هدية لكنها ربما لم تكن لتختارها بنفسها رغم أنها تذكر مرّات عدّة كيف كانت قوتها النارية مفيدة إلى أبعد الحدود أثناء الهجوم على نطاق واسع. على العموم، لم تكن SVT بندقية قناصة على قدر التوقعات، وعام ١٩٤٢ استُوف إنتاج قناصة Mosin ثانية.

رغم أنّ مذكراتها تروي بعض الأحداث الأبرز للقصص في مسيرتها، فإنّ معظم رماياتها أثناء حصاري سيفاستوبول وأوديسا كانت في حقيقة الأمر من مسافة قصيرة نسبياً. يعود ذلك جزئياً إلى حقيقة أنّه كلما كانت مسافة الرمي أقصر، كان القتل مؤكداً أكثر. لكنها علّقت على الهدف من اتباع التكتيك الجديد والرهيب بخصوص إطلاق النار على الألمان في بطونهم بأنّه إجراء سيكولوجي أكثر من كونه أي شيء آخر. هذه دلالة على الوحشية التي اتّصف بها القتال على الجبهة الشرقية، ولم تكن لودميلا تبالي عندما قالت إنّها تحتفظ بالطلقة الأخيرة في مسدسها لنفسها؛ كإجراء روتيني، يُعذّب القناص حتى الموت في حال ألقي القبض عليه حيّاً. من المثير أيضاً أن نلاحظ من مذكراتها كيف بدأ الجيش الروسي إيفاء القناصين حقّهم من التقدير تدريجياً مع استمرار الحرب. وقد تحولوا من كونهم رماة مبجلين، يفترض بهم أن يتقدموا مع

المشاة أثناء الهجوم، إلى أكثر خبراء الخط الأول تقديراً. حقاً كانوا هم المفضلين لدرجة أنهم كانوا يُمنحون استراحة يوم أسبوعياً، وهذا امتياز لم نسمع بمثله من قبل، وبحد ذاته إجراء ينم عن الأهمية التي يوليها لهم الجيش. ببساطة أحد أسباب هذه المعاملة التفضيلية هو فعاليتهم أثناء المعارك. من غير الممكن تقدير الحصيلة النهائية لأعداد الألمان الذين قتلوا على أيدي القناصين الروس خلال الحرب بدقة. لكن بإمكاننا تكوين فكرة عن هذه الأرقام غير المؤكدة من حقيقة أنّ الحصيلة المقبولة لعدد الألمان الذين تمت تصفيتهم على يديّ ألفي قناصة إناث تخرّجن في مدارس الرماية الروسية يُقدّر رسمياً بنحو ١٢ ألف قتيل، كما سجل أفضل عشرة قناصين سوفيات ذكور ما يزيد عن أربعة آلاف وثلاثمئة قتيل ألماني. وبالقياص على تشكيلات الجيش الروسي كافة، ستكون الحصيلة مئات الألوف. وبالمقارنة مع الأرقام التي اعتدنا مشاهدتها في المعارك عبر أوروبا الغربية بعد ١٩٤٤، حين بلغت الحصيلة الرسمية لأفضل قناص بريطاني ١١٩ قتيلاً، يتعذّر علينا فهم هذه الأرقام. ولذلك ليس مستغرباً أنّ ما كينة البروباغاندا الروسية قد بدأت تنظر عن قرب إلى هؤلاء الأبطال الجدد، والنساء على وجه التحديد. في النهاية، كانت روسيا الدولة الوحيدة التي أوكلت إليهنّ مهمات قتالية على الخط الأول خلال الحرب العالمية الثانية، وكان الشعب بحاجة إلى التركيز على شيء جديد بغية حرق انتباههم عن التقدم الساحق لـ "قوى المحور" في ما بين ١٩٤١ و ١٩٤٣.

أصبحت بافلتشنكو إحدى أكثر النساء اللواتي تمّ تكريمهن في "الجيش الأحمر"، إذ نالت "وسام لينين" للاستحقاق مرتين، ومُنحت لقب "بطل الاتحاد السوفياتي". بعد انتهاء الحرب، بقيت في الخدمة العسكرية، وصارت مؤرخاً في معهد البحوث التابع للبحرية السوفياتية، إلى أن غادرته عام ١٩٥٣ برتبة رائد. ولم تتضاءل مرتبتها إذ إنّ اهتمامها بالرماية استمر في ما بعد الحرب. كما يظهر كتابها بوضوح، لم يكن هناك أيّ أساس على الإطلاق للانتقادات الكثيرة التي وُجّهت إليها. لكن، كما حال معظم المحاربين القدامى، لم تكن نجاحاتها دون ثمن؛ لقد تلقت الأذى على المستويين الجسدي والذهني. فبعد انتهاء الحرب، خاضت حرباً طويلةً مع الكحول وعانت الكثير من آثار الإصابات التي تلقتها بالرأس، ومن ضمنها العجز عن السمع. لم تتزوج

مرة ثانية أبدأ. وتوفيّت في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٤ عن ٥٨ عاماً، ودُفنت بمراسم شرف عسكرية كاملة في مقبرة Novodevichye بموسكو، على مسافة ١٥٠٠ كلم، ومسيرة عمر كامل بعيداً من حبيبها ألكسي.

كلمة المحرّر الروسي

تُعدّ بطلة الاتحاد السوفياتي، لودميلا بافلتشنكو، القناصة الأكثر نجاحاً لأنها حققت حصيلة شخصية قوامها ٣٠٩ قتلى من جنود وضباط العدو. فهي من أشهر الجنود المشاركين في الحرب العالمية الثانية، في بلادنا على نحو خاص، وفي العالم عموماً. فبين ١٩٤٢ و١٩٤٥، تم توزيع ما يفوق مئة ألف منشور يحمل صورتها (كانت امرأة مليحة) والمناشدة القائلة: "أطلق النار على العدو ولا تُخطئ الهدف!" على الجبهة السوفياتية-الألمانية. فبعد وفاتها عام ١٩٧٤، أُطلق اسمها على سفينة تابعة لوزارة الثروة السمكية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وعلى المدرسة رقم 3 في مدينة بلايا سر كوف الواقعة في إقليم كييف، التي داومت فيها من الصف الأول إلى السابع، وعلى شارع وسط سيفاستوبول Sevastopol.

تمكن قراءة السيرة الذاتية الموثقة والكاملة لهذه البطلة مثل رواية أسرة؛ تحتوي صفحات مأسوية لأن انخراطها في صفوف "الجيش الأحمر" في السادس والعشرين من حزيران/يونيو ١٩٤١، في الفوج الرابع والخمسين للرماة، سبّب قيامها بانسحاب مضن من التخوم الغربية إلى أوديسا. كما تحتوي صفحات بطولية لأنها أبادت ١٨٧ نازياً في غضون شهرين أثناء الدفاع عن المدينة. أنعم حصار سيفاستوبول على أفضل قناصة في فرقة شباييف الخامسة والعشرين للرماة بمجد إضافي، إذ ارتفعت حصيلتها من الأعداء القتلى إلى ٣٠٩. لكنها تحتوي على مقاطع غنائية أيضاً، ففي الحرب التقت لودميلا حبيب عمرها. فبات الملازم المتمرن الشجاع التابع لفوجها، ألكسي أركاديفيتش كتسنيكو، زوجها.

بناء على أوامر ستالين، ذهب وفد شبابي من "رابطة الشبيبة الشيوعية"، مؤلفاً

من نيكولاي كرازافتشينكو Nikolai Krasavchenko، وفلاديمير بشلنتسف Vladimir Pchelintsev، ولودميلا بافلتشينكو، إلى الولايات المتحدة جواً في آب/ أغسطس ١٩٤٢ للمشاركة في مؤتمر طلابي دولي. كان يتوخى منهم المطالبة بفتح عاجل لجبهة ثانية في أوروبا الغربية.

في تحدٍّ لحظر على هذا النوع من الأنشطة، احتفظت بافلتشينكو بمفكرة يومية عن الحرب، كانت تدون فيها ملاحظات مقتضبة للغاية بين فينة وأخرى. لم يكن في وسع قناص حمل قلم رصاص أو حبر يومياً. كانت المعركة في سيفاستوبول ضارية وقاسية. ولدى تقاعدها عام ١٩٥٣ برتبة رائد في خفر السواحل السوفياتية، تذكّرت لودميلا ملاحظاتها عن الجبهة. ونظراً إلى كونها مؤرخة بتحصيلها العلمي، اتخذت نهجاً جدياً بشأن مذكراتها، وشعرت بالحاجة إلى إجراء بحث في المكتبات والأرشيف قبل إمكانية نشرها. فالتحقت الخطوة الأولى بهذا الصدد عام ١٩٥٨، عندما فوّضتها دار النشر السياسية الحكومية كتابة كراسة واقعية من سبع وسبعين صفحة معنونة بـ *Heroic Past. The Defence of Sevastopol* [الماضي البطولي: الدفاع عن سيفاستوبول]. كما أسهمت في كتابة عدد من المقالات في منتخبات أدبية ومجلات متنوعة. لم تكن مجرد ذكريات عن خدمتها كقناصة، بل سرديات عامة عن الأحداث الرئيسية التي تكشّفت على الخط الأمامي، وفي مؤخرة منطقة الدفاع عن سيفاستوبول، بين تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤١، وتموز/ يوليو ١٩٤٢.

بعد أعمال النشر هذه، قُبلت بافلتشينكو عضواً في "نقابة صحافيي اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية" عام ١٩٦٤، وباتت أمانة سر قسم التاريخ العسكري في فرع موسكو. وتواصلها الدائم مع زملائها من حملة الأقلام ومشاركتها الفعالة في تثقيف الأجيال المقبلة، وغرس روح الواجب العسكري الوطني فيهم، توصلت إلى أن تأليف كتاب بقلم رقيب أول يقود فصيلة من "القناصين الممتازين"، مع تقديم وصف موثّق لتفصيلات كثيرة عن خدمة قوات المشاة، قد يكون مثيراً للاهتمام لدى القارئ المعاصر.

مع نهاية الستينيات، لم تكن ذكريات كبار القادة العسكريين لعمليات الجيش السوفياتي الناجحة عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ تجد طريقها إلى النور فحسب، بل كان

ثمة أوصاف موثقة من ضباط "الجيش الأحمر" والهيئة السياسية عن البدايات الصعبة والمأسوية للحرب في أرض الآباء والأجداد العظيمة. فمن هذه الكتب، يمكن للمرء أن يأتي على ذكر مذكرات إيليا أزروف Ilya Azarov، *Odessa Under Siege* [أوديسا تحت الحصار] المنشورة في موسكو، Voenizdat، ١٩٦٦، ومجموعة معنونة By *the Black Sea Fortresse* [عند قلاع البحر الأسود] المنشورة في موسكو، Voenizdat، ١٩٦٧، وتتضمن مقالات بقلم قائد فرقة شبايف الخامسة والعشرين الأسبق، تروفي كولوमितس Trofim Kolomiyets، وزميلته في الخدمة، لودميلا بافلتشنكو، ومنظم "رابطة الشبيبة الشيوعية" الأسبق في الفوج الرابع والخمسين، ياكوف فاسكوفسكي Yakov Vaskovsky، وأيضاً مذكرات جندي مشارك في الدفاع عن أوديسا، نيكولا ي ألشتشنكو Nikolai Aleshchenko، *They Defended Odessa* [دافعوا عن أوديسا]، المنشورة في موسكو، DOSAAF للنشر، ١٩٧٠. فما إن طالعت لودميلا هذه المذكرات، حتى انكبّت على العمل.

في الوقت الراهن، كانت تريد التركيز على دور القناص على الجبهة ووصف كل شيء متعلق بالمهنة العسكرية بإسهاب: أي طرائق التدريب، وتكتيكات ميدان المعركة، والسلاح على وجه الخصوص، إذ كانت ضليعة ومولعة به. لم يكن مسموحاً أثناء الأربعينيات والخمسينيات البوح بهذه المعلومات، لكن قصة معركة القناصين مع العدو لن تكتمل دونها.

بتذكرها الإرشادات السابقة، جمعت بافلتشنكو المادة العلمية بجديّة، وتوخّت الشكل الأدبي الأمثل لمخطوطها. فبدا جلياً لها أن فجوة السنوات العشرين التي انقضت منذ نهاية الحرب في أرض الآباء والأجداد العظيمة لم تساعد على إنجاز سريع لخطتها. كان يصعب تذكر أمور كثيرة، وتبيّن ضياع كثير من السجلات. فضلاً عن ذلك لقد أودعت كثيراً من وثائقها وصورها الشخصية الثمينة، إضافة إلى أمتعتها الشخصية، في المتحف، أي "متحف قوات اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية المسلحة" المركزي في موسكو، و"متحف الدفاع البطولي عن سيفاستوبول وتحريرها" الحكومي.

للأسف، منع مرض مزمن خطير بطلّة الحرب من إتمام العمل ورؤية مذكراتها

عن الحياة كقناصة منشورة. تم الحفاظ على جذاذات من هذا المخطوط بفضل جهود لوبوف دافدوفنا كراشنيكوف-بافلتشنكو - Lubov Davydovna Krashennikova -
Pavlichenko، أرملة ابن لودميلا، رستسلاف ألكسيفتش بافلتشنكو Rostislav
. Alexeyevich Pavlichenko

آلا أغروفنا بـُغْـنُـوفا A. I. Begunova
المحرّر

جدران المصنع

شَهِدَ صيف ١٩٣٢ تَغْيِراً مُهِمّاً فِي حَيَاة عَائِلَتِنَا، إِذْ انْتَقَلْنَا مِنْ بِلَدَةِ Boguslav النائية، الْوَاقِعَةِ جَنُوبَ مَنَاطِقَةِ كِييف، إِلَى عَاصِمَةِ أُوكرانيا، وَأَقَمْنَا فِي شَقَّةٍ حُكُومِيَّةٍ خُصِّصَتْ لَوَالِدِي، مِيخَائِيلِ إِفَانْفِتْشِ بِلُوفِ Mikhail Ivanovich Belov. بِوصفه مَوْظِفاً لَدَى "المَفُوضِيَّةِ الشَّعْبِيَّةِ لِلشُّؤُونِ الدَّاخِلِيَّةِ"، عُيِّنَ فِي مَنَصَبٍ فِي مَكَاتِبِ هَذِهِ السَّلْطَةِ المَرْكَزِيَّةِ تَقْدِيرًا لِأَدَاءِ وَاجِبَاتِهِ بِضَمِيرٍ حَيٍّ.

كَانَ رَجُلًا قَاسِيًا وَمُكْتَئِزَ الْبُنْيَةِ، مُخْلِصًا لِعَمَلِهِ. لَقَدْ بَدَأَ الْعَمَلَ فِي أَيَّامِ الصَّبَا بِوصفه مُصْلِحَ مُحَرِّكَاتٍ فِي مَصْنَعٍ كَبِيرٍ، وَأَمْضَى بَعْضَ الْوَقْتِ عَلَى الْجَبْهَةِ فِي الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى، وَالتَّحَقَّقَ بِالْحَزْبِ الشَّيْوعِيِّ (كَانَ يُدْعَى حِينَئِذٍ "حَزْبُ الْعَمَالِ الدِّيمُوقْرَاطِيِّ الْإِشْتِرَاقِيِّ الرُّوسِيِّ" الْبَلْشَفِيِّ)، وَشَارَكَ فِي الْأَحْدَاثِ الثَّوْرِيَّةِ فِي Petrograd، وَخَدَّمَ بِصِفَتِهِ قَائِدَ كَتِيبَةٍ فِي فِرْقَةِ Samara-Simbirsk الرَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ "الْحَدِيدِيَّةِ". كَمَا قَاتَلَ ضِدَّ قُوَّاتِ حَرَسِ Kolchak الْبَيْضِ فِي مَنَاطِقَةِ الْفُولْغَا الْوَسْطَى وَجِبَالِ الْأُورَالِ الْجَنُوبِيَّةِ. وَسَرَّحَ مِنْ "الْجَيْشِ الْأَحْمَرِ" عَامَ ١٩٢٣ عَنْ عُمُرٍ نَاهِزِ الثَّامِنَةِ وَالْعِشْرِينَ لَكِنَّهُ بَقِيَ مُتَعَلِّقًا بِالْبَزَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ إِلَى آخِرِ أَيَّامِهِ. عَمُومًا كُنَّا نَرَاهُ مُرْتَدِيًا الْبَزَّةَ نَفْسَهَا، أَيْ سُتْرَةَ عَمَلٍ مِنَ الْقَمَاشِ الْمَتِينِ بِلَوْنِ الْكَأَكِي، ذَاتِ الْيَاقَةِ الْمَقْلُوبَةِ، وَوِسَامِ الرَّايَةِ الْحُمْرَاءِ عَلَى صَدْرِهِ. كَانَ سُرْوَالُهُ كُحْلِيًّا وَاسِعًا عِنْدَ الْفُخْذَيْنِ مِثْلَ سُرَاوِيلِ الْفَرُوسِيَّةِ. وَاكْتَمَلَ الْهَنْدَامَ بِزَوْجِ أَحْذِيَّةٍ عَسْكَرِيَّةٍ مَصْنُوعَةٍ مِنْ جِلْدِ الْعَجَلِ يَرْتَدِيهَا الضَّبَاطُ.

بطبيعة الحال، كان لوالدي الكلمة الفصل في النزاعات العائلية في حال نشوبها. أما والدتي الحبيبة، إلينا تَرْفَمُنَا بلُوفَا Elena Trofimovna Belova، فكانت خريجة مدرسة ثانوية بريطانية للبنات في مدينة فلاديمير، وتعرف كيف تُهدئ طبيعة والدي القاسية. كانت امرأة مليحة ذات قدّ رشيق جعلها تبدو ممشوقة القوام. كما كان شعرها بُنيّاً غامقاً كثيفاً، وزادت عيناها البنيتان وجهها إشراقاً. كانت ضليعة باللغات الأجنبية وتُدْرَسها في المدارس حيث أحبّها تلاميذها. فبتحويل الدّروس إلى ألعاب، كانت تكفل إنجازهم حفظاً ممتازاً للكلمات الأوروبية كلّها الغريبة على الأذن الروسية. وفي ظلّ رعايتها، لم يكن الأطفال قادرين على قراءة اللغات على نحو رائع فحسب، بل نطقها أيضاً.

نَدَرْتُ نَفْسَهَا لَنَا بِالْقَدَرِ نفسه تماماً، أي أنا وأختي فالنتينا Valentina الأكبر سنّاً. بفضلها، سرعان ما تعرّفنا إلى الأدب الكلاسيكيّ الروسيّ، أي كانت أعمال بوشكين Pushkin، ولِرمُنُتُوف Lermontov، وغوغول Gogol، وليو تولستوي Leo Tolstoy، وتشخوف Chekhov، ومكسيم غوركي Maxim Gorki، وكُبرين Kuprin، في مكتبتنا المنزلية كلّها. ومن عكسها لشخصيتها اللطيفة والحالمة، برهنت أختي أنّها أكثر تذوّقاً للأدب والخيال. أمّا أنا، فاستهواني التاريخ، بالأحرى الحوليات العسكرية لتاريخنا العظيم.

لقد عشنا، قبل الانتقال إلى بُغْسلاف Boguslav، في مدينة بيلايا تسيركوف Belaya Tserkov في منطقة كييف لسنوات عدّة. درّستُ فيها في المدرسة رقم ٣، وقضيتُ سنوات طفولتي ومراهقتي دون هموم. وشكّلنا في شارع المحطّة زُمرة من الأصدقاء الحميمين، إذ لعبنا لعبة "خيالة القوزاق وقطاع الطّرق"، وتبلّلنا في قوارب مُسطّحة القاع في نهر روس Ros المحليّ في الصّيف، وجبنا مُنتَرَه الإسكندرية القديم والجميل جداً، وسطّونا على بساتين المناطق المجاورة في الخريف. كنتُ بمنزلة الروح القيادية لزُمرة من الصبية المراهقين لأنني أفضل الرماة بالمقلاع، وبمقدوري الجري أسرع من الجميع والسباحة جيداً، ولا أخشى الدخول في شجار إطلاقاً، ولأنني أوّل مَنْ يوجّه لكمة إلى خدّ أيّ مُعتد.

ما إنْ شارفتُ الخامسة عشرة، حتّى توقّفت مُطارِدَات الحيّ هذه، إذ حدث التغير

على نحو مفاجئ، أي خلال يوم واحد. بمراجعة للماضي، يُمكنني مقارنته بنهاية العالم، وبعمى طوعي، وبغياي العقل. تلك كانت حال حُبِّي الأول وأنا تلميذة مدرسة، إذ رافقتني ذكراه بقيّة حياتي على هيئة كُنيّة هذا الرجل، أي بافلتشنكو.^١

لحسن الحظ، يتّصف ابني، رُستسلاف Rotislav، بطبيعة هادئة ولطيفة وبمظهر مُميّز لعائلتنا، أي العينين البُنَيَّتَيْن والشعر الداكن الكثيف والقامة الطويلة والبُنْيَة المُكْتَنَزَة. إنّه من سُلالة بلوف Belov ومستمرّ في اتّباع تقاليدنا خدْمَة للوطن. لم يُشبه أباه إطلاقاً. أمّا سُلَافاً Slava، فتخرّج في كليّتي الحقوق في جامعة موسكو و”جامعة كي جي بي العليا“ KGB Senior College بدرجة امتياز. هو يحمل شرف لقب ضابط سوفياتي. وهذا ما يجعلني فخورة به.

استقرّت بنا الحال في منزلنا الجديد في كييف على نحو سريع للغاية، وأخذنا نعتاد صخب العاصمة الكبير. لم نرَ والدنا كثيراً، إذ كان يُطلب منه الدوام في العمل لوقت متأخر. كانت أحاديثنا الصريحة معه تجري عادةً في المطبخ بعد العشاء. وكانت والدتي تضع ”السَّامُوفار“^٢ على الطاولة، وكنا قادرين أثناء شرب كوب من الشاي على مناقشة أيّ موضوعات مع أهلنا وطرح الأسئلة عليهم. سرعان ما جاءنا السؤال الرئيسي.

تساءل والدي وهو يرشف الشاي الساخن: ”ما الذي تنويان فعله حالياً، يا ابنتي العزيزتين؟“

فأجابت فالتينا أولاً بموجب حقّ الأقدميّة: ”لا نعرف بعد“.
ثمّ أردف: ”عليكم التفكير في وظيفة“.
فسألته أختي باستغراب: ”أي نوع من الوظائف؟“
- وظيفة لائقة في مكان عمل جيّد وراتب جيّد.
عندئذ تدخّلت: ”لكن، يا والدي، لقد درستُ سبع سنوات في المدرسة فقط.

١ تقدم بافلتشنكو تفاصيل قليلة عن علاقتها بوالد ابنها، التي لم تكن، على ما يبدو، قصيرة الأمد فحسب، بل فضائحية أيضاً، الأمر الذي أقعق أهلها بالرحيل عن Belaya Tserkov. ولدى تطوُّعها، ادعت أنها لم تتواصل مع ألكسي بافلتشنكو ثلاث سنوات، وعليه شاب العلاقة الفئور. على ما يبدو، كان واحداً من عدد لا يُحصى من الجنود الروس الذين اختفوا أثناء الحرب، ليس غير.

٢ إناء معدني يُغلى فيه الماء للشاي. (م.)

وأريد متابعة الدراسة“.

فقال بحزم: ”لم يُفَتَّ الأوان لمتابعة الدراسة إطلاقاً، يا لودميلا. لكنَّ آن الأوان للشروع في حياتك العملية بإدخال المعلومات الصحيحة على طلب التوظيف لأنني اتخذت التدابير اللازمة مسبقاً، وهم مستعدون لتوظيفك“.

تجهَّمت أختي في استعراض من التحدي، قائلةً: ”أين هذا المكان؟“ فأجابها: ”في مصنع الذخائر“.

كان في مقدورك أن ترى من حديقة مَدْفَن Askold فسحة نهر Dnyeper المائية السلسلة والرَّحْبة الممتدة على يسارك. أما على يمينك، فيقع شارع الذخائر المستقيم والقصير نسبياً (أعيدت تسميته شارع موسكو عام ١٩٤٢). كان ثمة مبنى مهيب للغاية في بداية الطريق؛ إنها ورشات الذخائر المشيَّدة في عهد نيكولاس الأول Nicolas I. ويُحكى أنَّ القيصِر نفسه وَضَعَ اللَّبَنَةَ الأولى في أساساتها. فكانت سماكة الجدران مترين وبارتفاع طابقيْن. وكان لون الطُّوب أصفر فاتحاً، وهذا يُعلِّل سبب إشارة أهل البلد إلى المبنى بوصفه ”دار القرميد“.

مع ذلك، لم تكن للورشات ولا للمصنع المُجاور لها صلة بأعمال يدويَّة لينة من الصلصال. لقد أُسِّسَتْ بناءً على أوامر من الإمبراطورة كَاثَرْن Catherine العظيمة، وشُيِّدَتْ خلال مدة طويلة امتدت من ١٧٨٤ إلى ١٨٠٣. صُنِّعَت المدافع وعربات المدفعية والبنادق والحَرَابَ وسيُوف الفرسان والسيوف العريضة القاطعة وقطعاً أخرى متنوِّعة من العتاد العسكري.

كما أُنْفِثَت الورشات أثناء الحقبة السوفياتية إنتاج الأدوات اللازمة من أجل الاقتصاد، أي المحارِث والأقفال والعربات التي يجرّها حصانان ولوازم المطاحن ومصافي السُّكر. كان موظفو مصنع الذخائر يعملون بالتزام تامّ، إذ تلقّوا ”وِسَامَ رَايَّةِ اليد العاملة الحمراء“ مكافأة من حكومة أوكرانيا عام ١٩٢٣.

راق لي مبنى المصنع من النظرة الأولى، إذ يُشبه الحُصن إلى حدٍّ كبير. ولأنَّه شكّل مستقيم الأضلاع (١٦٨x١٣٥ متراً) وبساحة داخلية ضخمة وبرج وجدران خارجيّة مستديرة، والطبقة الأرضيّة مُزَيَّنة بتلبيس خشبيّ زُخرفي هائل، تبدَّى المبنى كأنَّه ناجم عن نَقش لمعركة قديمة. لم يكن ينقصه سوى خندق مائي تحت جدران

وجسر متحرك لعبور الخندق وبوابات ضخمة يحرسها محاربون يرتدون دروعاً لامعة.

بعد استكمال بعض الشكليات (على سبيل المثال توقيع تعهّد بالحفاظ على أسرار الدولة)، جُنِّدْتُ وأُخِيت للخدمة في حامية هذا "الحُصن"، فالتينا كُموْلَعَة بالتقدم كونها بَلَغَت الثامنة عشرة ونالت شهادة إتمام الدراسة، وأنا كعاملَة عاديّة بِحُكم صِبَايَ (كُنْتُ في السادسة عشرة فقط) وافتقاري أيّ مهارات مِهْنِيّة. استغرق مِنّي التكيّف مع إيقاع الحياة في المصنع ومُصادَقَة عَمال آخرين نصف عام. وَقِيلْتُ في "رابطة الشبيبة الشيوعية". وفي آيار/ مايو ١٩٣٤، نُقِلْتُ إلى ورشة عُمال الخِرَاطَة، حيث أمضيت قُرابة شهر في التدريب. ثُمَّ حَصَلْتُ على حقّ العمل بصورة مستقلة، الأمر الذي سرعان ما جعلني أحوز مُوَهَّلَ عامِلَة خِرَاطَة من المرتبة السادسة.

كان وقتاً مُمتعاً. وكان مصنع الذخائر يتغيّر على مرأى منّا، إذ جِيءَ بِمَلّاظِم سوفيّاتية الصّنع جديدة، ورُكِبَت مُعدّات مُعدّلة، وأخذت طاقات الإنتاج الجديدة تدخل حيّز التنفيذ، والمباني القديمة تخضع للترميم. بذل عَمال المصنع جهداً إضافياً لمواكبة مساعي السُلطات لتوسيع الصناعة. بالمناسبة، ارتفعت أسعار سلعنا بصورة ملحوظة أيضاً، وعَمِلَ مُشغَلو المَلّاظِم في ورشتنا على أساس القِطْعَة.

لم يكن لديّ ما يستوجب التذمّر. حَصَلْتُ على مِخْرطة تحويل لتشكيل البراغي مُزوّدَة بعلبة تُرْوَس من نوع 300DIP مصنوعة في مصنع البروليتاريا الأحمر في موسكو عام ١٩٣٣. وأتى الاختصار DiP من الأحرف الأولى للكلمات الروسية "Dogonim i Peregoni" (ترجمتها تعني: "سنلحق بالركب ونُباغت"). صُمِّمَت [المَلَزَمَة] لتصنيع أسطح أسطوانية ومخروطية ومركّبة من الخارج والداخل.

أَتذكّر مجمل تفصيلاته كأن الأمر وقع البارحة، أي أكوام من أعمدة لكلّ ترس مُمكن. فبضربة واحدة من أداة القِطْع، يُمكنني كشط من ٠,٥ إلى ٣ ملم (أو أكثر) من المعدن. وبمقدوري اختيار سرعة القِطْع بما يتناسب مع صلابة المادة ومتانة الأداة. على العموم، استُخدمت أدوات مُصنّعة من فولاذ عالي الكربون، رغم وجود أدوات أخرى مُزوّدَة بأقراص ملحومة من سبائك تيتانيوم وتنغستن فائقة الصلابة. لا يزال منظر بُرّادات المعدن البنفسجية الغامقة أثناء التفافها من تحت النّصل يبدو لي

جميلاً بشكل لا يُصدّق. فمهما كانت صلابة المعدن، تستكين للقوة البشرية. أنت بحاجة إلى اختراع أداة صقل تفي بالمُراد فقط.

في الوقت الذي كان فيه مصنعنا يُوحّد الناس في العمل، زوّدهم بفرصة تمضية أوقات فراغهم بطريقة معقولة. صحيح أنّ نادي المصنع لم يُدافع عن ديكوره البراق والمُسرف، فكان صغيراً، وحتى ضيقاً. مع ذلك، كانت مقرّاته كافية لأنشطة دوائر متنوعة، أي فرقة عمال الطبقة الكادحة المسرحية، واستوديو الفنون الذي كان يُعلّم الرسم، وتصميم أزياء السيدات، والخياطة (مفيدة للنساء للغاية)، وأندية تزلج ورماية. وكانت قاعة الاجتماعات مكاناً منتظماً لإقامة أمسيات احتفالية خاصة تحت شعار "ثلاثة أجيال معاً" يُكرّم فيها محاربو الثورة القدامى والحرب الأهلية وعمال الإنتاج الشباب الذين قد تجاوزوا حصصهم بـ ٥٠% وأكثر.

في البداية، اخترتُ وصديقتي دائرة التزلج لأنها أُنعتني بفعل ذلك. كان ثمة معلومات كثيرة في الصحف عن الملاحة الجوية ومناقب الطيارين. وعليه، حضرنا الدروس النظرية بحماسة، ودوّنا ملاحظات في المحاضرات التي أعطاهها ملازم أول أنيق في سلاح الجو عن القوة الرافعة لجناح طائرة. مع ذلك، خفّفت رحلتي الجوية الأولى بصحبة مُدرب حماسي حتماً. فعندما استعجل مهبط المطار العشبي لقاءنا وعليه انكفأ فجأة إلى مكان ما أدنى، بدأ رأسي بالدوران، وكدتُ أشعر بالغثيان في حلقي. ففكّرت بيني وبين نفسي: "بعبارة أخرى، الطيران ليس عامل قوتي. فأنا كائن أرضي إلى أقصى الحدود وعليّ وضع قدمي على أرض صلبة".

كان مُدرب دائرة رماية المصنع، فيودور كُشتشِنكو Fyodor Kushchenko، يعمل في ورشتنا ويحثّ الشباب باستمرار على القُدوم إلى ميدان الرماية. فقد أجرى هو نفسه خدمة طوارئ في "الجيش الأحمر"، وبات مولعاً بالرماية. طمأننا أنّ ثمة أمراً ساحراً حول خروج الطلقة والطريقة التي تُصيب فيها الهدف.

بوصفه شاباً جذاباً ومحبوباً، حاول فيودور إقناعي في الانخراط مُستعيناً بحجج مشابهة. مع ذلك، تذكّرتُ رحلتي الجوية في الطائرة الشراعية، الأمر الذي زعزع ثقتي بقدراتي الذاتية تماماً، رغم أنه لا حدّ لها عندما تكون شاباً. وليس هناك داعٍ للتظاهر بغير ذلك. بمعزل عن ذلك، رأيتُ حديث كُشتشِنكو هرعاً مُبتدلاً وراء النساء.

دفعتنى خبرتى المحدودة فى الحياة مع قساوتها إلى أن أكون حذرة فى التعامل مع المتتمين إلى الجنس الآخر.

فى أحد الأيام (فى اجتماع لـ "رابطة الشبيبة الشيوعية")، سئمت من الإنصات إلى قصص كُشتشَنكو. وأجبتُ فيودور بنبرة ساخرة. تذوّق الجالسون من حولنا طُرْفِي، وضحكوا بصوت عالٍ. فى تلك اللحظة، كان مُنظّم رابطتنا يقرأ تقريراً مُملاً للغاية عن عمل أعضاء الرابطة الأوكرانية إزاء الإنجاز المُبكر لخطة الورشة الربعية. واعتقد أن الضحك كان موجهاً إليه، ولسبب ما، استشاط غضباً. فنشبت مشادة كلامية بينه وبين بعض أعضاء الرابطة فى القاعة، استُخدمت فى مجرياتها نعوت متنوعة ومقارنات غير مرغوب فيها. فى النهاية، طردنى المُنظّم وكُشتشَنكو من القاعة بوصفنا مثيري الشغب.

نظراً إلى إصابتنا بالذهول من الطرد، شققنا، أنا وكُشتشَنكو، طريقنا نحو المخرج. كان يوم العمل منتهياً وتردّد صدّى خطواتنا عبر الممر الخاوي. فجأة، قال كُشتشَنكو: "نحن بحاجة إلى تهدئة روعنا حقاً".

"بالفعل"، وافقته القول.

– إذاً، فلنذهب إلى الميدان ونرمي بضع طلقات.

– أنظرنّ ذلك سيجدي نفعاً؟

– بالطبع. فالرماية رياضة الناس الهادئين. مع ذلك، المهارات الفطرية مطلوبة أيضاً.

لم أستطع الإحجام عن سؤال لاذع: "وأَيّ إمكانيات أخرى؟"

"الأنواع الأكثر عملية، مثل عين جيدة، أو إحساس دقيق بلمس السلاح"، ردّ وهو يُجلجل مجموعة من المفاتيح كان قد أخرجها من جيب سترته الجلدية.

كان ميدان الرماية متربّعاً على قطعة أرض من محمية المصنع متاخمة للمبنى الرئيسي. ممّا لا شك فيه أنّه كان مساحة تخزين سابقاً، أي مبنى طويل ومنخفض ومزوّد بقضبان على نوافذ تحت السقف تقريباً. يمكنني القول من علياء معرفتي الحالية إنّ ميدان مصنع الذخائر فى منتصف الثلاثينيات استوفى المعايير الضرورية كلّها. كان ثمة قاعة مزوّدة بمقاعد، وكراسي، وسبورة على الجدار من أجل الدروس

النظرية، ومستودع أسلحة صغير مزود بخزائن للبنادق والمسدسات قابلة للقفل، وخزنة حديدية للذخيرة، وخط لإطلاق النار يسمح للمرء بالإطلاق مُرتكزاً، وجائياً، وواقفاً، أو مُنبطحاً (على حصائر). وعلى بُعد خمسة وعشرين متراً منه، كان ثمة دروع خشبية سمكة تُركب عليها الأهداف.

فتح فيودور إحدى الخزائن، وأخرج بندقية شبه جديدة لم تكن طويلة جداً، ما يناهز (١١١) سنتيمتراً فقط، على وجه الدقة، لكنها مزودة بحاضن هائل من خشب البتولا وبسطانة سمكة. كان هذا الصنف القادم من مصنع السلاح في تولا Tula معروفاً في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية بالاسم التجاري TOZ-8. صُنِعَ بين ١٩٣٢ و ١٩٤٦. وإضافة إلى الطراز المُعدّل TOZ-8M، صُنِعَ، على ما يبدو، مليون منها تقريباً. أسدت هذه البندقية البسيطة والمُعَوَّل عليها، الصغيرة الجوف، نصف الآلية، المزودة بمزلاج انزلاقي بصورة طويلة، المُصمَّمة للذخيرة من عيار ١٦x٥,٦ ملم، خدمةً ليس للرياضيين فحسب، بل للصيادين. إنني أكتب عنها بشغف لأنّ حماسي لرماية البندقية بدأت باستخدام TOZ-8، أي تمرّسي بالتدريب كرامية ماهرة.

ثمة تعليمات تفصيلية عن التعامل مع الأسلحة النارية. بطبيعة الحال، كان في مقدور كُشتشنيكو الحديث عنها أولاً. بدلاً من ذلك فعلَ أمراً مُختلفاً. سلّمني البندقية وحسب، قائلاً: "استأنسي بها!"

بصراحة، اعتقدتُ أن الأسلحة النارية أثقل وأصعب على المرء أن يمسكها بيديه. غير أنّ هذه البندقية كانت تزن أقل من ٣,٥ كلغ. وانطلاقاً من خبرتي في تجهيز القطع الثقيلة والمتعبة للغاية أحياناً لمعالجتها على المخرطة، لم يتطلب حملها جهداً من ناحيتي. كما وجدتُ متعة في برودة معدن البسطانة والمستقبلة القارسة. تشير قبضة المزلاج المنحنية الشكل نزولاً إلى أنّ المُصممين قد أخذوا راحة الشخص المسؤول عن السلاح بالحسبان.

بادئ ذي بدء، اقترح فيودور التحقق من "مرونة البندقية" من أجل اكتشاف هل هي ملائمة لي. في هذا الصدد، تبين أنّ كل شيء كان على ما يُرام. تناسبت خلفية الأخمص مع تجويف كتفي بإحكام، إذ كان في مقدوري الإمساك بقبضة الأخمص بيدي اليمنى بسلاسة. وضعت سبّابتي، إذ لديّ أصابع طويلة، على الزناد بين السّلامية الأولى

والثانية. لم يبقَ سوى إمالة رأسي إلى اليمين، وضغط خدي على مشط الأخمص، وتركيز عيني اليمنى المفتوحة على المنظار. كان خطّ التسديد في منتصف الفريضة، وكان واضحاً بكامل حجمه.

قال فيودور: "يمكنك الرماية الآن".

- ماذا عن الطلقات؟

"انتظري دقيقة". أخذ المُدرّب البندقية مني، ولقّمها، وصوّبها على هدف. صدر صوت عالٍ، مثل قضيب حديدي يضرب صفيحاً معدنياً. بدأتُ بذهول. وابتسم كُشتشَنكو.

- مردّ هذا أنك لم تتعودي إياها. حاولي؛ يمكنك فعل ذلك.

استقرّت حال البندقية بين يديّ مجدداً. وتكرار الحركات المتعلقة بتثبيتها كلّها بشكل جادّ، رميّت طلقتي الأولى. لم يكن لـ Melkashka (كما كنّا نسمّي TOZ-8) ارتداد قوي. إضافة إلى ذلك، ونزولاً عند نصيحة فيودور، ضغطتها بإحكام إلى كتفي كي لا أشعر بأيّ إحساس مؤلم. سمح لي كُشتشَنكو بثلاث رميات إضافية، ثم ذهب للإلقاء نظرة على الهدف. عاد بالورقة الموسومة بدوائر سوداء إلى خط النار حيث كنتُ بانتظاره، لكن ليس دون بعض القلق. نظر إليّ بإمعان، قائلاً: "هذا مذهل بالنسبة إلى مُبتدئ. من الواضح أنّ لديك الإمكانيّة".

"لكن ليست فطريّة، بالتأكيد؟" شعرتُ أنّي مضطرة إلى المزاح لسبب ما. من غير ريب. كان مُدرّبي الأول جاداً. ولم يسبق لي أن رأيت فيودور كُشتشَنكو بهذه الجديّة.

كانت دائرة رمايتنا تعقد دورات لمرة واحدة أسبوعياً وفي أيام السبت. بدأنا دراسة آلية عمل بندقية صغيرة الجوف بالتفصيل، أي فكّ المغلاق وتركيبه، وتعود صيانة السلاح بدقة، أي تنظيفه وتزييته. وكانت الدروس تُعقد في القاعة المزوّدة بسبورة، حيث دُرّست مبادئ علم القذائف. وفوجئتُ عندما علمتُ أنّ الرصاصة لا تطير نحو هدفها مباشرة، لكنّ تبعاً لوقع الجاذبية ومقاومة الرياح، ترسم قوساً، إضافة إلى دورانها أثناء طيرانها.

كنّا نخضع لمحاضرات عن تاريخ الأسلحة النارية أيضاً. البداية في القرن الخامس

عشر بنادق الفتيل، عندما جعلت التطورات التقنية استخدام خصائص بارود المقدوف أمراً ممكناً في البداية. ثم أخذت الأسلحة المزودة بزرّ أمان تُستخدم على نطاق واسع، متبوعة بآلية قفل الغطاء. حدث التغير الثوري بالفعل في نهاية القرن التاسع عشر بظهور بنادق مزودة بمخازن، وبأخاديد في السبطانة، وبمزلاج انزلاقي بصورة طولية، الأمر الذي يُسهّل التلقيم السريع، والمدى الأطول، والدقة الأكبر.

بالنسبة إليّ، تُمثل الأسلحة النارية اليدوية، على ما يبدو، ابتكار العقل واليد البشرية الأمثل. لطالما استفاد تكوينها من أحدث الابتكارات. وسرعان ما تُصقل الحلول التقنية اللازمة لتصنيعها وتوضع حيزَ عملية إنتاج تُورّد آلاف بل ملايين القطع. أمّا في حال النماذج الأكثر نجاحاً، أي تلك الجديرة بالتقدير العالمي، فترتقي العبقرية الهندسية إنجازها في شكل خارجي مثالي وبارع. على طريقتها الخاصة، الأسلحة النارية... جميلة. إنّ حملها سهل واستخدامها مُريح. وحظيت بمحبّة الناس الذين خاضوا بها حروباً ضارية. لقد بات بعضها (مثل بندقية Mosin الثلاثية الخطوط، وبندقية Shpagin القصيرة، وبندقية Degtyarev الآلية الخفيفة، ومُسَدس Tula-Tokarev) رموزاً فريدة في عصرها.

مع ذلك، آثر أصدقائي الرماية الفعلية على أيّ شيء آخر. كنّا نتدرب في ميدان الرماية على التسديد على أهداف من مواضع متنوعة، أي واقفاً، ومُنبطحاً، ومُرتكزاً، وجائياً، ومُسَدداً بمساعدة حزام تحت الذراع اليسرى. كان لدى Melkashka منظار خلفي مفتوح فقط ومزود بحلقة مُتحركة، ومنظار أمامي أسطواناني مُزود بقاعدة مُنبسطة في نهاية السبطانة. رغم بساطة تكوينها كلّها، ساعدتنا على تطوير مهارات الرمي الأساسية، أي التسديد السريع، والضغط السلس على الزناد، وإبقاء البندقية في الوضعية الصحيحة، دون "إسداها" إلى اليسار أو اليمين. مُزودةً بفوهة سرعتها ٣٢٠ متراً في الثانية، بلغت طلقة TOZ-8 مسافات تتراوح بين ١٢٠ و ١٨٠ متراً. لكن لم يكن لهذا الأمر أهمية تُذكر في ميدان الرماية.

عندما حلّ الربيع، بدأنا السفر إلى ميدان رماية خارج البلدة والتدريب للوصول إلى معايير وسام "القناص فورشلوف" (Vorshilov) من الدرجة الثانية. لم يكن يشمل هذا الأمر دقة في الرماية فحسب، بل التحلي بالتركيز في الموقع، ورمي القنابل، والتدريب

البدني (الجري، والوثب، وتمارين الضغط). أنجزنا هذه المهمات كلها بنجاح، ثم اشتركنا في مسابقات الرمي في مدينة أُسُوأفياكِم Osoaviakhim.

أود الإشارة إلى أنّ دائرتنا كانت إحدى مئات الوحدات المتعددة في بنية أُسُوأفياكِم المتمثلة في "هيئة تطوير الصناعات الدفاعية"، والملاحاة الجوية والتركيب الكيميائي. أُسِّست هذه المنظمة العسكرية الوطنية الشعبية الطوعية الواسعة النطاق مبدئياً في بلادنا عام ١٩٢٧، وأدّت دوراً كبيراً في تدريب الشباب والشابات على الخدمة العسكرية. وبلغ عديدها قرابة ١٤ مليون شخص تلقوا تدريبهم في منظمات هذا الجهاز الرئيسية، واكتسبوا المهارات العسكرية المتخصصة، بدءاً من تلك التي يتمتع بها الطيار والمظلي انتهاءً برامي البندقية، ورامي الرشاش، وسائق الشاحنة، ومُدْرَب الكلاب.

حُزْتُ شهادة شرف في مسابقات أُسُوأفياكِم، ووضعتها في إطار علّقه على جدار الغرفة التي سكنتُ فيها مع فالتينا. لم تأخذ شقيقتي ولا أهلي حماسي للرمية على محمل الجد. ففي حياتنا المنزلية، كانوا يستمتعون بالمزاح بشأن شغفي بالسلاح. كما كنت عاجزة أن أشرح لهم ما شدّني إلى ميدان الرماية، وما كان آسراً بشأن جسم مزوّد بسبطانة معدنية، وأخمص خشبي، ومزلاق، وزناد، ومنظار، ومدى المتعة الكبيرة في التحكم بطيران رصاصة نحو هدفها.

بتفويض من "رابطة الشبيبة الشيوعية"، التحقّت نهاية ١٩٣٥ بدورة للرسمين والناسخين مدتها أسبوعان. أنهيتها بامتياز، وبدأت العمل رسّامة أولى في الورشة الميكانيكية. استمتعت بهذا العمل. بطبيعة الحال، كان مُختلفاً عن مُشغّل مخرطة التحويل، لكنه كان يقتضي التركيز والدقة أيضاً. كانت المخارط تعزف ألحانها على الطرف الآخر من الجدار، لكنّ كُنّا نعمل بصمت في مكتبنا وسط ألواح الرسم وحُزْم ورق الرسم، ونُدقق الخطط الأولية ونجهّزها بغية تحويلها إلى عمال الإنتاج. كانت العلاقات بين أعضاء الفريق ودية. فتمّ التعامل مع حماسي للرماية بتفهّم في هذا المكان.

إنّي ممّتة لمصنع الذخائر حيث اكتسبت خبرة تخصّصية في مجالين في السنوات الأربع التي قضيتها داخل جدرانه، وبّت معتادة العمل في منشأة صناعات دفاعية،

حيث كان الانضباط شبه العسكري معمولاً به. أصبحت راشدة، وبدأت أشعر أنني شخصية حقيقية قادرة على الإجابة عن أهدافي وتصرفاتي، وتحقيق هدف محدد، أي تلقيتُ تفويضاً في ربيع ١٩٣٥ للالتحاق بكلية إعداد العاملين في جامعة كيب الحكومية. ثم عملت في ورشة المخارط عاماً، وكنتُ أدرس في الأمسيات. بعد ذلك، نجحت في الامتحانات، وصرت في أيلول/سبتمبر ١٩٣٦ حاملة بطاقة طالبة في كلية التاريخ في جامعة كيب الحكومية. فتحقق حلم طفولتي بهذه الطريقة، رغم احتمال كوني الطالبة الأكبر سناً في الفصل.

لو كان ثمة حرب غداً...

بحكم خبرتي الإنتاجية، اخترت رئيسة لمجموعتي. ورغم أنني كنت أحضر المحاضرات، وأدوّن الملاحظات، وأطالع الأدبيات المطلوبة، وأعدّ التقارير من أجل المدارس، وأكتب الوظائف وأعدّ للاختبارات والامتحانات سلفاً، لم تبدُ لي هذه المهمات صعبة. فسرعان ما باتت موادّي المفضّلة واضحة، أي علم الآثار والإثنوغرافيا الأساسيين، وتاريخ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، والتاريخ القديم، واللغتان اللاتينية والإنكليزية بوصفهما خيارين للغتين أجنبيّتين. تذكّرت عبّر والدتي، وسارت الأمور على خير ما يرام. فبعد المعايير المطلوبة لنيل وسام "القنّاص فورشلوف"، وبرنامج "مستعدّون للعمل والدّفاع" الذي كنت قد خضعت له في المصنع، لم تُشكل دروس التربية البدنية الجامعية صعوبة أيضاً. فكانت الأيام التي كنت فيها طالبة بمنزلة حياة لهو وحرية؛ أفردت كثيراً من الوقت لتسليات مثل التردد على السينما والمسرح، والحفلات الموسيقية المتنوعة، والمعارض الفنية، والأمسيات المُشجعة على الاسترخاء والمتوّجة بالرقص.

بمعزل عن ذلك، كنّا جميعاً معيّنين بالسياسة. مثلاً كنّا متعاطفين مع الجمهوريين في إسبانيا الذين انخرطوا في نزاع مسلح مع الفاشيين والملّكين المحليين منذ ١٩٣٦. كان الفاشيون يتلقون الدعم من إيطاليا وألمانيا، والجمهوريون من الاتحاد السوفياتي. كانت الصحف تنقل، مراراً وبالتفصيل، أخباراً عن أحداث في هذا البلد

الجنوبي البعيد. ونُشرت مقالات ممتازة في صحيفة Pravda بقلم الصحافي ميخائيل كولتسوف. كان يكتب عن مناقب الألوية الدولية والمناوشات الجوية بين طياري فيلق Condor الألماني وبين طيارينا المتطوعين في طائرات سوفياتية. كما كانت ثمة معارك بالدبابات في السهول المنبسطة من شبه الجزيرة الأيبيرية، تعرض تقنية الدول الثلاث نفسها: إيطاليا، وألمانيا، واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية.

أثار القصف البربري لبلدة غيرنكا الصغيرة في إقليم الباسك موجةً من السخط. فلم تكن ثمة ضرورة عسكرية لتوجيه ضربة إليها. مع ذلك، شنّ ما يزيد عن خمسين طائرة ألمانية عام ١٩٣٧ هجوماً على الإقليم الواقع تحت سلطة الجمهوريين. كادت الغارة تُبيده برّمته. ولقي كثير من المدنيين حتفهم. لاحقاً رسم الفنان الإسباني المرموق بابلو بيكاسو، الذي هزّته هذه الجريمة، لوحة Guernica، وهي عمل مشهور عالمياً الآن. أزعجت قصة مأساة غيرنكا القلوب الروسية مدة طويلة. فضلاً عن تلك المشاعر كان يتعيّن علينا التفكير في ما ستبدو عليه حرب جديدة، وفي توقيت وصولها إلى عقر دارنا.^١

كنتُ في سنتي الثانية في كليّة التاريخ عندما شعرت بدافع إلى إنعاش مهاراتي في القنص لأنها قد تكون مفيدة الآن. نصّحني فيودور كُشتشِنكو بالالتحاق بدورة مدتها سنتان في مدرسة إعداد القناصين في أُسُوفياكِم التي فتحت أبوابها في كييف أخيراً. لا يحقّ إلا لمن نال شهادتي مرحلة "القناص فورشلوف" التسجيل هناك. كما وجب على المُنتسبين تقديم رسالة تركية من أماكن عملهم أو معاهدهم التربوية، وسيرة ذاتية قصيرة، موقعتين من دائرة الموظفين، إضافة إلى إشعار من لجنة طبية يُبين جهوزيتهم للخدمة العسكرية. فقَدِمْتُ الوثائق المطلوبة، وقُبلت. وسرعان ما تبدّى أنّ لديّ فرصة للارتقاء إلى مستويات جديدة في التعامل مع الأسلحة النارية اليدوية.

كانت الجلسات تُعقد مرّتين أسبوعياً، أي أيام الأربعاء من السادسة إلى الثامنة مساءً. ومُنحنا تصاريح تخوّلنا دخول حرم المدرسة. كما زُوّدنا بسترّات كحلية كنّا مُطلّبين بارتدائها. يُذكرنا هذا الأمر برّمته بمبادئ الجيش، لكننا لم نتذمر؛ على العكس، غُرِس

١ تعيد بافلتشنكو الموقف الحزبي في هذا المقام. رغم نقل الصحافيين الموالين للجمهوريين تقارير عن آلاف القتلى حينذاك، لا تقتضِ التقديرات الحديثة سوى موت بضع مئات. فضلاً عن ذلك رأى القوميون بقيادة الألمان الهجوم على غيرنكا جزءاً من هدف إستراتيجي أوسع حقاً.

في نفوسنا موقف جدّي وتوعية لتحمل مسؤوليتنا، وذلك في ضوء الأمل المُرتجى من الدروس قُدماً.

سأقول بضع كلمات فقط عن برنامج مدرسة إعداد القناصين. لقد درّبت "قناصين فوق العادة" فعلاً من أجل خدمة "الجيش الأحمر". وُخِصت عشرون ساعة للدروس السياسية، وأربع عشرة ساعة للتدريب في ساحة العرض العسكري، و ٢٢٠ ساعة للتدريب على الأسلحة النارية، وستون للتكتيك، وثلاثون للهندسة العسكرية، وعشرون للاشتباك بالأيدي. أمّا الاختبارات عن مضمون المُقرر، فشغلت ست عشرة ساعة. كان الأغرار الذين نجحوا في الامتحانات النهائية بتقدير "ممتاز" يُستثنون من قوائم خاصة في مكاتب التجنيد في المدن والمناطق، ويُستعدون لدورات تنشيطية ومسابقات رمي بصورة دورية على مستويات متنوعة. عموماً لم يُهمل القناصون، بل أُعطوا اعتباراً. وصولاً إلى حرب في أرض الآباء والأجداد العظيمة، كان لدينا، مع ذلك، قلة قليلة من المتفوقين الحقيقيين في البلاد، أي خبراء قادرين على إصابة الهدف من تسديدتهم الأولى والوحيدة؛ ربّما كان ثمة ١٥٠٠ متفوق تقريباً.

بيّنت الجلسة الأولى عن الأسلحة النارية أنّ التمارين التي تدرّبنا عليها في دائرة مصنعنا لم تكن سوى مقدمة للقصص، إذ كانت مفيدة جداً، لكنها غير كافية وحدها. تذكّرتُ صديقتي القديمة Melkashka بامتنان عندما التقطت بنديّة Mosin الحربية المزوّدة بمخزن، من نوع ١٨٩١/١٩٣٠، التي يُشار إليها غالباً بـ "ذات الخطوط الثلاثة". بطبيعة الحال، كانت أثقل وزناً (٤ كلغ من دون الحربة)، وأطول (١٢٣٢ ملم)، ومُعاريّة للطلقة R من عيار ٧,٦٢×٥٤ ملم، وبسرعة رصاصة أولية تبلغ ٨٦٥ متراً في الثانية ومدى يبلغ ألفي متر. كانت قبضة الأخمص الثلاثي الخطوط أقل راحة من تلك العائدة إلى TOZ-8. كان ارتدادها على كتف المرء أقوى. على سبيل المثال، كان التسديد واقفاً صعباً بالنسبة إليّ، بحكم وزنها وطولها الكبيرين. لكن لم يكن ذلك الأمر يعني شيئاً على الإطلاق.

وجب علينا التعرّف إلى بنديّة Mosin العادية، التي زوّد بها جنود "الجيش الأحمر"، حقّ المعرفة. وعليه، خُصّص وقت (عشر ساعات) لدراسة آليتها. أخذت بتعوّد "الثلاثية الخطوط" تدريجياً؛ في النهاية، كان في مقدوري فكّها وتركيبها وأنا

مغمضة العينين، رغم أنّ المزلاج وحده يحتوي على سبعة أجزاء. جعل المنظار الخلفي المكشوف والمنظار الأمامي المحمي بغطاء أشبه بحلقة تحقيق نتائج جيدة للغاية عند الرماية أمراً ممكناً.

كانت بندقية القناص مختلفة عن البندقية العادية في بضعة تفصيلات فقط. أولاً: كانت تحتوي على منظار يُطلق عليه "تلسكوب إمليانوف Emelyanov" (PE) مُركَّب على السبطانة، وهو أنبوب معدني طويل نسبياً (٢٧٤ ملم، وبوزن يبلغ ٥٩٨ غراماً) ومزوّد بأسطوانتين مُنظَّمَتين. ثانياً: كان هذا التعديل يعني منع المنظار مخزّن الرصاص من التذخير بواسطة المُلقم، إذ يجب وضع الرصاص هناك فرادى. أمّا ثالثاً، فكان جذع قبضة المزلاج منحنيّاً نزولاً بشكل حادّ. كما كانت ثمة اختلافات لا تُرى بالعين المُجردة، أي كانت سبطانات بنادق القنص تُصنّع من أفضل فولاذ، وتُعالج على مخارط ضبط من أجل دقّة أعظم، في حين كانت المكوّنات تُركَّب يدوياً وتُعدّل بطريقة خاصة.

في نهاية دراستي في مدرسة إعداد القناصين عام ١٩٣٩، تمّ إطلاعنا على نماذج جديدة من الأسلحة التي كان يُزوّد بها "الجيش الأحمر"، تمثّلت في البندقيتين (الآليتين)، Simonov (AVS-36)، Tokarev (SVT-38)، وهما ذاتيتا التلقيم. كان المبدأ وراء وظيفتهما الآلية يقوم على استخدام غازات البارود التي تواكب الرصاصة أثناء تسارعها على طول السبطانة دوماً. وكانت البندقيتان مُزوّدَتين بمخزني رصاص على هيئة صندوق قابلين للنزع يحتويان من عشر إلى خمس عشرة رصاصة. الأمر الوحيد الذي أفسح المجال للشك بيننا وبين معلّمينّا تمثّل في عدد المكوّنات في AVS و SVT وبنية آليتها أيضاً، التي كانت مُعقّدة للغاية مقارنةً بنموذج النقيب موسين Mosin.

أتذكّر المحاضرة الأولى في موضوع يُعنى بـ "مبادئ الرماية" التي خُصّص لها خمس وعشرون ساعة في البرنامج. كنّا جالسين في الصف ذات يوم عندما دخل رجل نحيل متوسط الطول، أربعينيّ تقريباً، وبندبة بارزة فوق جبينه الأيسر. صاح عريف الفصل: "واقفاً! انتبه!" قدّم المعلّم نفسه: "بوتابوف Potapov، ألكساندر فلاديميروفيتش Alexander Vladimirovich"، وشرح بإيجاز ما كان يعتزم تدريسه. ثمّ التزم الصمت، وأخذ يستطلع قاعة الاجتماعات بتجهم، قائلاً: "تناهى إليّ أنكم

مهرة في الرماية. لكن تذكروا: الرامي الماهر ليس قناصاً بعد^١.

هكذا بدأت علاقتنا مع بوتابوف، مُعلِّم المدرسة الأقدم. تبين لنا أنه بدأ مسيرته العسكرية في فوج فرسان الإنقاذ الملكي في بطرسبورغ، حيث كان تدريب الرتب الأدنى على القنص نموذجياً. ونظراً إلى مناقبه على الجبهة الألمانية في ١٩١٥ و ١٩١٦، حاز وسامي "صلبان القديس جورج" من المرتبة الثالثة والرابعة، ورتبة صف ضابط أيضاً. أمّا في الحرب الأهلية، فقد بوتابوف سرية في فوج مشاة لـ "الجيش الأحمر" وجرح بصورة بالغة أثناء العبور الاضطرابي لمنطقة سيفاش^٢. وانتدب من اللواء عام ١٩٢٩ من أجل تدريس مقررات دورة رامي الكومنتيرين^٣ "Vystrel" التكتيكية الموجهة لتحسين بنية "الجيش الأحمر" القيادية. ففي ذلك المكان، بدأت المجموعة الأولى في البلاد العمل بدراسة فنّ القنص. لكن لم يُطلب منه الخدمة في الجيش بوصفه مدرب قنص؛ أخذ جرح قديم ينكأ، وسرّح قائد الكتيبة بوتابوف. من هذه الناحية، حظيت أسوأياكم باختصاصي كانت بأمر الحاجة إليه.

بالمناسبة، لم تكن مدرسة إعداد القناصين في كييف، ضمن هذه المنظمة العسكرية الوطنية الشعبية الطوعية الواسعة النطاق، تشتهر بجودة معدّاتها ومرافقها التقنية فقط، بل بطاقتها التدريسية المتمرس على نحو رائع أيضاً. فكان ألكساندر بوتابوف متحمساً كبيراً للرماية وذوّاقاً للأسلحة ومخلصاً شغوفاً لها، ولـ Mosin الثلاثية الخطوط من نوع ١٨٩١/١٩٣٠ خصوصاً. وسرد خبرته وملاحظاته وتأملاته في فلسفة القنص في كُرّاسة صغيرة عنوانها *Instructions for Sharpshooters* [إرشادات للقناصين]، ونُشرت في كييف.

مما لا شك فيه أن بوتابوف كان مدرّساً بالفطرة، إذ كان مشرفاً دائماً على الأغرار ليس في المحاضرات فحسب، بل في ميدان الرمي. بطبيعة الحال، كان يعتقد أن المعرفة النظرية وممارسة الرمي أمران جوهريان بصورة كليّة، لكنهما غير كافيين لإعداد محترف في مهنته حقاً. يجب على المرء امتلاك ما يفوق العين الثاقبة (التي تهبها الفطرة بفضل الخصائص الفردية لمُقلّة العين). فالمرء بحاجة إلى شخصية

١ منطقة جغرافية تفصل شبه جزيرة القرم عن اليابسة. (م).

٢ الشيوعية الروسية الثالثة، أو الدولية الثالثة. (م).

متميّزة، أي هادئة ومُتزنة ورابطة الجأش أيضاً، وليست عُرضة لنوبات من الغضب والمرح واليأس، أو في أسوأ الأحوال الهستيريا. القناص صياد صبور يُسدّد طلقة وحيدة فقط؛ إن لم يُحكم التصويب، يمكن أن يدفع حياته ثمناً لذلك.

حذّرنا بوتابوف أنّه سيُطرد في غضون شهر، في رأيه، العاجزين عن اكتساب براعة مكر القناص. فسبّب لنا هذا الأمر بعض القلق. لكن نالت طرائق تدريسه الاحترام، كما الحال دوماً. قد يذهب المرء إلى حدّ القول إنّنا أحببناه. وعليه، سعينا بكلّ ما أوتينا من قوة. حاولتُ، على أقلّ تقدير. فضلاً عنّي تضمنت مجموعتي مُمثلتين اثنتين عن الجنس الألف. بذل قصارى جهده من أجل أن يكون مُهذباً معنا، لكن بوصفنا بنات يبلغن التاسعة عشرة والعشرين والاثنتين والعشرين كنا نميل إلى الخوف من لباقة هذا الضابط بدلاً من انشراح صدرنا بها. خشينا أن نكون أول المرشحات الخاضعات للطرد. مع ذلك، اتضح أن الأمور جاءت خلافاً لذلك.

شكّل الذين انتهى بهم المطاف بفراق ستراتهم الكحلية في أُسُوفياكم عدداً من ثلاثة شبان غير مؤدّين إضافة إلى ثلاثة حائزين شهادة "قناص الجيش الأحمر من المرتبة الأولى". شرح بوتابوف أنّه لا يُعير الفروق الذكورية والأنثوية بين تلاميذه أي أهمية، إذ كان متأكداً من أنّ النسوة، ليس جميعهن بطبيعة الحال، أجدر بعمليات القنص؛ كنّ جسورات وسريعات الملاحظة، ومُنحنّ حداثاً مُعزّزاً بالفطرة نفسها. وعند خضوع النسوة لدورات عسكرية، كنّ يُنفّذن التعليمات كلّها بدقة، ويمتلكن مقارنة مدروسة ومتأنية لعملية الرمي. أمّا في حالات التنكّر المبتكرة البالغة الأهمية للقناص في ساحة القتال، فببساطة، لم يكن لهنّ أُنداد.

كادت إشادة المدرّس الأقدم بنا أن تصرع ذوي الألباب جميعهم، لكن لم يُعطنا ألكساندر فلاديميروفتش وقتاً للتمتّع بها، إذ بات أكثر صرامة ونزوعاً إلى اكتشاف عيوب ونقائص الأغرار الباقين في المجموعة، وأولى كلاًّ منّا مزيداً من الاهتمام. ناقش تحسينات لم تخطر على بالنا إطلاقاً. مثلاً جعلنا نرصد موقع بناء لمبنى قيد الإنشاء مؤلّف من ثلاثة طوابق في شارع فلاديمير لمصلحة المدرسة رقم ٢٥، ثم أخذ يسرد لنا ما تمكّن العمال من إنجازه خلال ساعتين، والتغير الذي طرأ على وضع الموقع، ومكان الأبواب الجديدة، وفتحات النوافذ، والسلالم والجدران

الداخلية، وأكثر المواضع مناسبة لرمية من أجل تحديد مُراقب عمال الموقع الذي كان يجري من طابق إلى آخر صعوداً ونزولاً عبر ممرات للمشاة ذات ألواح خشبية. كأنه تلسكوب، علّمنا بوتابوف ببطء، لكن بلا هواده: رصد العالم المحيط عن كُتب، وتقصى تفصيلات وقع الحياة السريع بكلّ شغف، وتكوين تصور عن الصورة برمتها من التفصيلات الثانوية. بموجب هذه المقاربة، يفقد أمر ما أهميته دوماً، مُنكفئاً إلى الخلفية أو مُندمجاً بها، أو أنّ أمراً ما قد يصير مُهماً خصوصاً. جعل الجوهر الحقيقي لكلّ موضوع جديد واضحاً، كأنه مُكبّر بعدسة.

تبدى أحياناً أنّ "مُعلّمنا العزيز" يتصيّدني بالنقد. ثمة أوقات بدأت أشعر فيها بالانزعاج عند التصدي لمهمة يصعب التوصل فيها إلى قرار سريع. بتّ مغلظة من وجوب قضاء مزيد من الوقت والطاقة على أمر بدا عادياً برّمته للوهلة الأولى. كان بوتابوف يوقف جلسة التدريب برزانة، وبإصرار، وبأسلوب مُمل، ليبدأ تحليل كلّ شيء، والشرح، واكتشاف الخطأ، واتباع الطريقة التي صوّبته فيها. كنتُ مذهولة من مدى مضايقته لي. ردّ المدرب الأقدم: "الناس تطمع في كرم الكرام".

ما دام لا نية لديّ لوصف مجموعة المهارات والإمكانات الضرورية لقناص ما في هذا المقام (لا جدوى من ذلك إطلاقاً بالنسبة إلى القراء المدنيين)، سآتي على ذكر أنّ المدرسة وضعت ثقلًا كبيراً للدروس النظرية، بمعزل عن التدريب الفعلي على الرماية. تعرّفنا إلى قوانين علم القذائف، أي أعطينا تصوراً عن "ملّ الزوايا" في

١ اخترع "المُراديان"، "مل" أو "ملراد" اختصاراً، في القرن التاسع عشر من أجل تجاوز الصعوبات التي واجهت نظام الدرجات والدقائق والثواني التقليدي، الذي كان يعوق الحساب السريع غالباً. تلقف علماء المدفعية وحركة المقذوفات الفكرة، ممن رأوا السهولة التي يمكن بموجبها إجراء التعديلات التي تأخذ بالحسبان المدى والانحرافات بفعل الرياح أو الانزياح الجانبي للمقذوف الدوراني. تمثل القاعدة الراديان، أي الزاوية التي تحدّد قوساً طوله مساو لنصف قطر الدائرة، مقسّماً إلى ألف جزء (المُراديان). ثم يُقسّم محيط الدائرة إلى هذه "الملرادات"، وينجم عن عدم دقة π حاصل قدره ٦٢٨٣ تقريباً. مع ذلك، بدءاً من الفرنسيين وقوات "الناو" اليوم، قربت معظم الجيوش الرقم إلى حاصل ٦٤٠٠. رغم خطأ هذا الأمر رياضياً، فإن الفرق ضئيل للغاية ليحدث تأثيراً عملياً في رماية بندقية حربية. على أي حال، كان النظام الروسي قائماً على تقسيم المثلثات المتساوية الأضلاع الستة المنطوية داخل الدائرة، فيُقسّم كل منها إلى مئة وحدة، ثم إلى ألف وحدة بعد ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩١٨. في النتيجة، كان "المل" المستخدم من بافلتشنكو يساوي ١/٦٠٠٠ جزءاً من محيط الدائرة. مع ذلك، لم تكن الفروق بين هذا النظام ونظام ١/٦٤٠٠ مؤثرة في ميدان القتال. كانت أسطوانات المناظير السوفياتية المعدّلة وعدد من المناظير الأخرى تُصدر طقطقة أثناء دورانها

تقدير المسافات خاصة، وتعلّماً آلية حساب المدى بسرعة تبعاً للزوايا، باستخدام صيغة خاصة وشبكات مناظير PE، ومناظير الميدان، ومناظير الغواصات والخنادق. تعلّماً إلى أيّ مدى ستنحرف فيه الرصاصة الدوّارة بشكل سريع جانبياً أثناء مسارها من الفوهة إلى الهدف. كما كنّا نحفظ جداول متنوعة، مثل جدول الانحرافات الزائدة عن المسارات المتوسطة عند الرمي ببندقية Mosin المزوّدة برصاص تحتوي على رصاصات تتراوح بين "الخفيفة" و"الثقيلة"، وغير ذلك.

تكاتفت مجموعتنا خلال أربعة أشهر من التدريب. حلّ الربيع، وبدأنا الترحال، ليس إلى ميدان الرمي فحسب، بل إلى الريف حيث أعدّ بوتابوف الذي لا يكلّ ولا يملّ تدريبات إضافية في طرائق التمويه. ففي أرض مقطوعة الشجر نائية، كان الأغرار ييسطون غطاء المائدة واضعين عليه زجاجات مياه معدنية بنكهة الليمون وشراب الليمون، وعارضين أنواع المأكولات كلّها التي أحضروها من منازلهم. أمّا المدرب الأقدم، فيُحاضر ويعرض الآلية التي يمّوه فيها المرء نفسه في وسط طبيعي. كنّا في بعض الأحيان عاجزين فعلاً عن العثور عليه لنصف ساعة أو أكثر. في تلك الحالات، كنّا نصيح: "نُقرّ بهزيمتنا". كان مدرّبنا يظهر بيزة عمل فستقية اللون مُزوّدة بقناع ومزيّنة بمزق من القماش وأغصان جافة وأجمات من العشب، بشكل لا يمكن تصوره.

في أحيان أخرى، كنّا عموماً نصطحب ببندقية قناص إلى الغابة، ونلعب لعبة أطلقنا عليها "قاعدة الزجاجاة". عند فراغ زجاجات المشروبات الغازية بعد الغداء، نضع إحداها على جنبها في عصا مشقوقة وعنق الزجاجاة مُوجّه نحونا على مسافة تُقارب ٢٠ أو ٣٠ متراً من خط النار. كان يتعين علينا إصابة قعر الزجاجاة بطلقة واحدة، أي يُفترض من الرصاصة دخول عنق الزجاجاة دون تحطيم جوانب الوعاء الزجاجي، وخروجها من قعر الزجاجاة، الأمر الذي يؤدي إلى تهشيمه في العملية. كان بوتابوف عادةً يُصيب الزجاجاة الأولى بنفسه. ثمّ يُسلّم البندقية لأحد تلامذته إيداناً بانطلاق مسابقة الدقّة والمهارة. كان بصحبتنا بعض الأطفال الطموحين للغاية، صغار السنّ عموماً، الذين سيضخّون بكلّ شيء من أجل تسيد الميدان

كلّ عشر من "المل". فتغيّر من "ثلاث طقطقات" يساوي ٠,٣ "مل".

وكسب ثناء بوتابوف. أولاً: كُنَّا مُطالِبين بالرمي بوضع "جائياً"، أي بثبيت ركبتيك اليمنى على الأرض والارتكاز على كعبك. ثانياً: وَجَب علينا تثبيت البندقية بحزام يمرّ تحت مرفق الذراع اليسرى المنحني. نظراً إلى تحريك يده أقرب إلى نهاية الفوهة، في مقدور القناص بهذه الطريقة الارتكاز على الركبة اليسرى والإمساك بواقية يد البندقية. كان هذا الأمر برمته يقتضي قوة وثباتاً وتوازناً جيداً.

كُتِبَ على من أخطأ الهدف الخروج من اللعبة وسط دعابات الحاضرين وضحكهم. كافأ بوتابوف المنتصرين؛ تلقوا لوحاً صغيراً من الشوكولاتة وتعليقاً خفيف الظل. لبعض الوقت، لم يكن لديّ ثقة كاملة بقدراتي. فضلاً عن ذلك لا أحبذ التباهي بكوني قبلة الأنظار لأنّ إحدى المُسلّمات التي غرسها فينا "مُعَلِّمنا العزيز" تُنادي بما يلي: "إنّ كشف نفسك خطير. فالقناص مُحصّن ما دام مُختفياً".

وجاء اليوم الذي كنت فيه المرء الذي سلّمني بوتابوف البندقية. ضابطة أعصابي أخذت السلاح، وثبتت الأخمص في تجويف كتفي كالمعتاد، ووضعت سبابتي على الزناد. وبضغط خدّي على مشط الأخمص، حدّقت في التلسكوب بعيني اليمنى. وفرّ المنظار PE تكبيراً رباعيّ الأضعاف. مع ذلك، تلاشى عنق الزجاجة بين الخطوط السوداء الثلاثة، وتبدّى كأنّه نقطة لنهاية جملة بخطّ عريض. لم يكن ناقصاً سوى الركون إلى الحدس، أي إلى "الإحساس بالهدف" الذي يُطوره القناص أثناء عملية التدريب.

يُعد قضاء وقت طويل في التسديد خطأ مُبتدئ شائع تخلّصت منه منذ مدة طويلة. وعليه سارت الأمور تبعاً للتعليمات تماماً، أي في غضون ثوانٍ ثمان. احبس نفسك، وسدّد وتنهّد وأنت تضغط على الزناد ضغطاً ناعماً. كان ارتداد البندقية مصحوباً بطلقة مدويّة ودفعة للكشف. كانت جوانب الزجاجة البيضاء لا تزال تلمع تحت الشمس، كما سلف، لكنّ لم يعد قعر الزجاجة... في مكانه!

"أحسنّت، يا لودميلا"، قال المدرّس الأقدم.

– هل يمكنك إعادة الكرة؟

وافقتُ لأنّ الحماسة غمرتني، بقولي: "حسناً، فلنُحاول".

أدرك بوتابوف هذا الأمر، وابتسم، قائلاً: ”هذه من روعك، يا حلوة الجداول الطويلة“.

تلك كانت الطريقة التي كان المُدرس الأقدم يشير فيها، مُمازحاً أحياناً، إلينا، نحن الصبايا، في مجموعته.

- الفرصة أمامك لتحقيق الانتصار.

أما الآخرون، فسرعان ما جهّزوا زجاجة جديدة في الشوكة. أعطاني بوتابوف رصاصة مزودة برصاصة ”ثقيلة“ وضعتها في حجرة الانفجار عبر فتح المغلاق. بطبيعة الحال، ستعمل الآلية لا محالة. سأضغط على الزناد، وبموجب ضغط نابض الفعل، تتحرك المطرقة إلى الأمام بشدة. وتخترق نهايتها، مثل لسعة أفعى، كبسولة الاشتعال في قاعدة الرصاصة. وتنفجر حشوة البارود فيها، وتناثر الرصاصة، المُثَبِّتة في غلاف نحاسي أصفر بوساطة حلقة، حرقتها في نهاية المطاف.

اتضح أن اليوم كان صحواً ومُشمساً. وبانصياعها لإرادتي، انطلقت الرصاصات بشكل ممتاز. فكانت حصيلتي النهائية من المسابقة في الغابة ”ثلاث قواعد زجاجات“. ونظراً إلى حسد الأعرار الآخرين، لم يُقدّم المُدرس الأقدم إليّ لوحاً من الشوكولاتة فحسب، بل نسخة من كُراسه *Instructions for Sharpshooters* موقّعة بخطّ يده: ”إلى لودميلا بافلتشنكو، تلميذتي الكفوءة، إحياء لذكرى عزيزة. إي بوتابوف“. لا أتفق مع طريقة التعبير هذه بالضرورة. مع ذلك، تأتي القدرات بالفطرة والغريزة. لكن عندما يتعلق الأمر بدقة فائقة في الرماية، يجب على المرء إضافة قوّة الشخصية، والمثابرة، واليقظة، والوازع، والرغبة المستمرة في التعلّم.

تخرّجتُ في مدرسة إعداد القناصين بنتائج جدية بالاحترام. تضمنت شهادة إتمام الدورة، المطبوعة على ورق مصقول والمُزخرفة بختم دائري لشعار النبالة، أسماء المواد والدرجات. وشكّلت الحروف السوداء كلمات كنتُ راضياً عنها: الرماية العملية: ممتاز، آلية الأسلحة النارية: ممتاز، التدريب التكتيكي: ممتاز، تدريب الهندسة العسكرية: جيّد. كانت أمسية تخرّجنا مريحة وصاخبة ومريحة. وتحدّثنا عن المستقبل. كان كثير من الشباب يعتزمون الانتساب إلى الكليات

العسكرية. كانت الصبايا يُخطّطن لمتابعة الرمي ضمن نظام أُسُوفياكم والمشاركة في المسابقات والمنافسة على لقب "عميد الرياضة في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية". على أيّ حال، كان عام ١٩٣٩ سلفاً.

في الأول من أيلول/ سبتمبر، هاجمت ألمانيا النازية بولندا، وبدأت الحرب العالمية الثانية. قاوم البولنديون الغزاة، لكنّ الألمان وصلوا وارسو بحلول الثامن من أيلول/ سبتمبر تقريباً. واستمر الحصار عشرين يوماً. عندئذ، فرّت الحكومة إلى رومانيا، ووقعت بولندا برمتها تحت الاحتلال الألماني. وفي نيسان/ أبريل ١٩٤٠، زحف النازيون إلى الدنمارك والنرويج. صمد النرويجيون شهرين بفضل مساعدة بريطانية وفرنسية، لكنهم استسلموا في حزيران/ يونيو. ثم جاء دور بلجيكا وفرنسا. بدأ الزحف الألماني في العشرين من أيار/ مايو، والجزء الأكبر من الجيش البلجيكي ألقى سلاحه بحلول الثامن والعشرين. وبعد تطويق القوات البريطانية والفرنسية والبلجيكية الحليفة في دَنكيرك في الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٤٠، انكفأ البريطانيون من القارة الأوروبية إلى جزيرتهم الخاصة، مُخلفين للمتصرّين مدفعيّتهم ودباباتهم كلّها، وما يفوق ستين ألف عربة، وما لا يزيد عن نصف مليون طن من العتاد والذخيرة الحربية، إضافة إلى أسر أربعين ألف جندي وضابط. في الثاني والعشرين من تموز/ يوليو من العام نفسه، سلّم ورثة محاربي الإمبراطور نابليون بونابرت الأشاوس باريس للألمان من دون معركة! Blitzkrieg حقاً، أي "حرب خاطفة".

من ملاحظتنا التراجع السريع في الأحداث الأوروبية، لم نستطع تفادي التفكير في أنّ المُعتدي سينقُص على دولتنا، دولة العمال والفلاحين الأولى في العالم. فأنشاءً أمسينا التقليدية في شرب كوب من الشاي، تحدّث والدي، الذي كان لديه معلومات سرية بحُكم عمله، كثيراً وكثيراً، على الأغلب، عن الأوقات الصعبة قُدماً. تجادلتُ معه، مُصرّةً بكلمات أغنية الحرب الأهلية أنّ "جيشنا الأحمر أفضل ما يكون بدءاً من غابتنا الأم وانتهاءً بالبحر البريطاني"، وأنّ القتال في أرض أجنبية سيكون قضيّتنا.

كما بيّنت الأحداث، كان والدي مُحقّقاً، بينما كنْتُ (إلى جانب ملايين من

المواطنين السوفيات الآخرين) مُخطئة بشدة. يمكنني شرح ثقتي في غير موضعها بوصفها انعكاساً لحالة شؤوني الشخصية التي كانت تسير على نحو رائع. ونظراً إلى نجاحي في موادّي الجامعية كلّها بدرجات ممتازة، أُجيز لي الجمع بين الدراسة والعمل المرتبط بموضوع تخصصي. عُيّن في نهاية ١٩٣٩ بوظيفة رئيسة قسم أحدث إصدارات الكتب في مكتبة التاريخ الحكومية. مثلما فعلت في مصنع الذخائر من قبل، بدأت مجدداً الإسهام في ميزانية الأسرة العامة وإنفاق المزيد من الأموال على ابني الذي بلغ السابعة.

نجحت في امتحانات سنتي الرابعة في كليّة التاريخ إلى جانب زملائي الطلبة في كانون الثاني/يناير ١٩٤١، بدرجات تتراوح بين الممتازة والجيدة. وعرضت عليّ إدارة مكتبة التاريخ الحكومية في كييف فرصة انتداب مُطوّلة مدتها أربعة أشهر إلى مكتبة أوديسا العامة بوصفي مساعداً أقدم لشؤون الأبحاث من أجل دعم فريق الباحثين المحليين. كنت مُطلعة على مصادر هذه المكتبة الغنية التي كانت إحدى أقدم المكتبات في أوكرانيا. تخيلت أنني سأكون قادرة على كتابة أطروحة الدبلوم في هذا المكان عن بوغدان كميلنيتسكي Bogdan Khmelnytsky، وانضمام أوكرانيا إلى روسيا عام ١٦٥٤، ونشاطات مجلس بيريسلاف Pereyaslav بسهولة. كنت في السنة اللاحقة على موعد مع الدفاع عن هذه الأطروحة في جامعة كييف الحكومية ونيل شهادة دبلوم في التعليم العالي.

جهّزتُ للمغادرة بمزاج باعث على السرور. مع ذلك، كان لأحاديثي مع والدي وقعه عليّ، لحسن الحظ. وعليه، لم أضع في حقيبة سفري جواز سفري، وبطاقة الطالب، وكُتِب السجل الأكاديمي، بل شهادة التخرج في مدرسة إعداد القناصين، وكُرّاسة مُعلّنا، ومجموعة من المُذكرات مُعنونة بـ *Combat in Finland* [معركة في فنلندا] ومنشورة في موسكو بداية ١٩٤١.

كان القطار من كييف إلى أوديسا يغادر مساءً. قدّمت أسرتي كلّها إلى المحطة. كعادته دوماً، كان والدي جاداً وقليل الكلام. وأسدت والدتي إليّ بعض النصائح الأخيرة بشأن الأكل الصحي. وكانت شقيقتي فالتينا وصغيرها بؤرس Boris يتهامسان في أمر ما. لم يُرد ابني، رُسْتسلاف، ترك يدي على الإطلاق، وطلب مني

اصطحابه معي، واعدأ بمساعدتي في العمل. اغرورقت عيناه بالدموع، وحاولت تطييب خاطره قليلاً ومُلاطفته. لم أستطع تخيّل بُعدي عنه ثلاث سنوات تقريباً.

من نهر بُروت إلى نهر دَنِيسْتَرِ

لم يكن ثمة شيء غريب بشأن ذلك الأحد الواقع في الثاني والعشرين من حزيران/يونيو ١٩٤١، فهو يوم مغروس في ذاكرة الجميع. كانت السماء الصافية لامعة والشمس الجنوبية الحارّة ساطعة فوق أوديسا. وكان البحر هادئاً هدوءاً مطلقاً. كان سطحه الأزرق الأملس ممتداً إلى الأفق، وتبدّى كأنه، في مكان ما من ذلك المكان البعيد المدى، التحم مع السماء الزرقاء على حدّ سواء.

أمضيتُ وصديقتي صوفيا تشوباك Sofya Chopak، التي كانت تعمل في مكتبة أوديسا العامة، وشقيقها الأكبر، الصباح الباكر على الشاطئ. قرّرنا تناول الغداء في مقهى Cheburek (يقدم فطيرة اللحم القوقازية) في شارع بوشكين. وخططنا لقضاء المساء في المسرح المحلي لحضور عرض لأوبرا فيردي Verdi المعنونة *La Traviata* [الساقطة]، واشترينا البطاقات سلفاً.

بينما كنّا جالسين على شرفة Cheburek المفتوحة وقت الظهيرة، ننتظر طلبنا، سمعنا إعلاناً من متحدث في الشارع أنّ نائب رئيس مفوضي مجلس الشعب ومفوض الشعب للشؤون الخارجية، الرفيق مولوتوف Molotov، سيُلقي كلمة في أيّ لحظة. إنّ ما قاله، تبدّى لنا، أمراً لا يُصدّق إطلاقاً، أي في ذلك اليوم، وفي الرابعة صباحاً، هاجمت ألمانيا الاتحاد السوفياتي على نحو غادر.

أخذ صوت مولوتوف القوي، لكن المرتبك، يُرْتَل:

يجب على أمتنا برمتها التوحد الآن ورض الصفوف كما لم يسبق لها.
ويجب على كل منا مطالبة نفسه والآخرين بالانضباط، والتنظيم، وبذل
النفس المستوجب من وطني سوفياتي حقيقي من أجل تأمين متطلبات
"الجيش الأحمر" وسلاح البحرية والقوى الجوية كلها لضمان الانتصار
على العدو. سيكون النصر حليفنا!

دام الخطاب بضعة دقائق، وكان استيعاب ما حدث صعباً في البداية. جلسنا على
الطاولة كأنا مسحورون، ونظرنا إلى بعضنا بعضاً بذهول. وسرعان ما أحضر النادل
طلبنا من فطائر اللحم القوقازية وزجاجة من النبيذ. غرقنا في حديث صاحب لا علاقة
له بالموضوع، كأنا غُدنا إلى العالم العادي من وراء المرأة.

في هذه الأثناء، كان شارع بوشكين يمتلئ تدريجياً. كان الناس يتجمعون تحت
الخطيب، منخرطين في تبادل للآراء نابضة بالحياة. كان قلقهم الصادر عن القلب وراء
خروجهم من منازلهم إلى الشوارع. أرادوا رؤية إخوتهم في الوطن، ومعرفة الطريقة
التي تلقف فيها الآخرون الأخبار المريعة، وسبر المزاج العام، ولمس الوحدة التي كان
مفوّض الشعب للشؤون الخارجية ينادي بها. لم ينتب الحشد شعور بالهلع والحيرة،
إذ كان الجميع يقولون بثقة: سنسحق النازيين!

لم يخطر في بال أحد في أوديسا إلغاء الزيارات المقررة إجراؤها إلى السينما،
والمسرح، أو قاعة الحفلات الموسيقية، ولا مشاورتهم التقليدية أيام الأحد على
طول الكورنيش البحري على وقع فرقة موسيقا نحاسية. على العكس، كانت الصالات
مكتظة، في الأوبرا، ومسرح الدراما الروسية، ومسرح الشباب، وعلى مقربة من
بعضها في الشارع اليوناني في مدينة فلهرمونيا. لا يزال المواطنون تواقين إلى الدخول
إلى السيرك لحضور عمل يعرض نموراً مروّضة.

لم نفكر في إلغاء زيارتنا إلى الأوبرا أيضاً. فكّنا، بعد السابعة تماماً، جالسين في
مقاعدنا في الشرفة ١٦ المخصصة للمُرتدين ملابس رسمية، نشاهد الفصل الأول من
La Traviata. غرّر بالجمهور للاعتقاد بأنهم موجودون في بيت المحظية الباريسية
الفاخر، فيوليتا فاليري Violette Valery. كانت مجموعات المسرح، والملابس،
وأصوات المُغنين، وعزف الأوركسترا، وديكور الصالة نفسه بقوالها المذهبة،

وُثْرِيَا ضخمة من الكريستال، والسقف المدهون بصورة جميلة من فَنان فرنسي، هذه العناصر كلّها متناغمة تناغماً تاماً مع بعضها بعضاً. لكنّ أمراً ما منعني من الاستمتاع بهذا المشهد الرفيع. كما لو كان يعود إلى حياة مختلفة، أي حياة كانت تنحسر عنا بسرعة. أثناء الاستراحة بعد الفصل الأول، اقترحت على أصدقائي مغادرة المسرح. ذهبنا إلى البحر. كانت الفرقة الموسيقية النحاسية في الكورنيش البحري تعزف موسيقا استعراضات عسكرية سارّة على خشبة المسرح الصيفي. فدوّى صوت الأبواق وقرع الطبول العالي على الشريط الساحلي. تمكن رؤية معالم السفن الحربية التابعة لأسطول البحر الأسود على السطح الأملس للفسحة المائية في خليج أوديسا، أي الطرّاد القديم "Komintern" الذي أُعيد تجهيزه بوصفه زراعة ألغام، والمدمّرات "Shaumyan" و "Boykiy" و "Bezuprechnyy"، والزوارق الحربية "Krasnaya Abkhaziya" و "Krasnaya Gruzhiya" و "Krasnaya Armeniya". وكانت الهياكل الفولاذية، وأبراج المدفعية الهائلة بسبطاناتها الطويلة أكثر انسجاماً مع مزاجنا. مع ذلك، أعلنت الحرب.

تبعاً لتعليمات التعبئة التي أُعلنت في اليوم اللاحق، كان المولدون بين ١٩٠٥ و ١٩١٨ والمكلفون الخدمة العسكرية خاضعين للتجنيد في الجيش. كوني من مواليد ١٩١٦، اندرجتُ في هذه الفئة. ولأنه لم يكن لدي أيّ شك في أنهم سيسوقوني مباشرة بكلّ سرور، قصدت المفوضية العسكرية في إقليم أوديسا للنقل المائي. تبدّى لقائي مع مكتب التجنيد رسمياً للغاية، وارتدّيت فستاني المُفضل من الحرير الصيني وزوجين من الصنادل البيضاء ذات الكعب العالي. وضعت في حقيتي اليدوية جواز سفري، وبطاقة الطالب، وشهادة تخرجي في مدرسة كيبف لإعداد القناصين في أسوأياكم.

كان كثير من الناس عند أبواب مكتب تجنيد الإقليم. استغرق مني الدخول إليه قرابة ساعتين. كانت الغرفة فاسدة الهواء ومليئة بالدخان. ثمة أبواب تغلق بعنف كلّ دقيقة. ويحاول أمين السجلات العسكرية الأجش الصوت وذو الوجه المُلطّخ ببقع حمراء وزرقاء شرح أمر ما لفتّين اثنين ريفيّين المظهر كانا قد راجعاه. نظر إليّ بتعبير مُرهق قائلاً: "سَيُجَنّد أعضاء الهيئة الطبية اعتباراً من الغد".

فأجبتة: "أنا لست مُسعدة". لكنه انصرف عني فوراً، مشيراً إلى انتهاء حديثنا. على أي حال، لم أكن مستعدة لقبول هذا الأمر، ووضعت شهادتي في القنص على المكتب أمامه. قال أمين السجلات المغتاز إنه ليس هناك ذكر لفئة "قناص" على لائحته. ثم أضاف تعليقاً ساخراً عن أسوأ أياكم والنسوة اللاتي أردن أن يُصبحن جنديّات دون أن يكون لديهن أدنى فكرة عن صعوبة هذا الأمر. باختصار، أرغمني على مغادرة مكتبه. لدى عودتي من مكتب التجنيد، تفكّرت في الوضع ووصلت إلى نتيجة مفادها أنّ العقبة تمثّلت في محل إقامتي المُسجل. فاسمي مُدرج في لائحة القناصين في مكتب تجنيد منطقة بتشورسك Pechorsk في كييف. لقد نافست في العام الماضي في مسابقات الرماية في المدينة، ونجحت في دورة العودة إلى التدريب. ربّما كانوا يبحثون عني في العاصمة الأوكرانية، لكنني كنت على شطآن البحر الأسود. كنت بحاجة إلى الطلب من مكتب التجنيد إجراء مكالمة مع كييف.

قصدت، في اليوم اللاحق، المفوضية العسكرية في إقليم النقل المائي مجدداً. رحّب بي أمين السجلات بأسلوب أكثر وُدّيّة. نظراً إلى ردّ فعله، كان يعرف ماهية القناص سلفاً. فقلّب صفحات جواز سفري ووجد الختم المُسجّل زواجي بيافلتشنكو إي. بي.، وسألني هل لدى زوجي أي اعتراض على تطوّعي في "الجيش الأحمر". لم أرَ ألكسي بيافلتشنكو ثلاث سنوات، وأجبتة أنّه لم يكن معترضاً. بقي جوازي بحوزة أمين السجلات، وأخذوا يُصنّفون وثائق عسكرية في مكتب مجاور.

في مساء الرابع والعشرين من حزيران/يونيو ١٩٤١، ونظراً إلى تجمهرهم في محطة القطار، حُشِرَ المجنّدون الجُدد كلّهم، بعضهم يرتدي البزة العسكرية جزئياً وبعضهم اللباس المدني، في قطار عسكري خاص. تحرك القطار ببطء، واتخذ خطأً متجهاً غرباً عبر السهوب القريبة من البحر الأسود. وسرعان ما صار سطح مصب نهر دنيستر Dnyestr الأملس مرئياً ولا معاً على اليمين. ثمّ عبرنا المحطات الآتية: Shabo، Hlavani، Artsiz، Sarata، Kolyesnoye. كان توقف القطار في المحطات مطولاً في بعض الأحيان، وكان يُقدّم إلينا الطعام في ذلك المكان. لكن لم يشرح لنا أحد أو يُعلّمنا عن وُجهتنا النهائية. قالوا إنّنا ذاهبون إلى الجبهة فحسب، وكان قلبي يخفق لا إرادياً: "أسرعوا، أسرعوا". صار الشباب في عربتنا ساخطين بقولهم: "لن نبلغ وُجهتنا في

الموعد المُحدد! سيَهْزِمُون النازيين دوننا!“ تلك كانت الطريقة الهزيلة التي استوعبنا فيها حجم الكارثة التي أُطلق العنان لها فجأة بحق بلادنا الجميلة والمزدهرة.

توقّف القطار في محطة صغيرة ما في الثالثة من صبيحة السادس والعشرين من حزيران/ يونيو. أمرنا بمغادرة العربات والوقوف في صف. مشى المجندون الجدد بخطى واسعة على طول طريق ترابي مُرتعشين قليلاً من رطوبة البرد الصباحي، وبلغنا غابة كثيفة نسبياً في الساعة السابعة. تبين أننا كنّا على التراب البسراي^١، بين الوحدات الخلفية التابعة لفرقة الرماة شَبَائِف الخامسة والعشرين.

حصلت على بزّي العسكرية الأولى في هذا المكان، إذ صرت جنديّة في فوج رماة سِتَبَان ريزن Stepan Razin الرابع والخمسين في ”الجيش الأحمر“. كانت المواد جديدة تماماً، الأمر الذي كان يشهد على الحالة الممتازة لخدمات مفوضية الفرقة وتنظيم مؤنّها. فكانت مخيطة من مواد قطنية كاكية، أي قُبْعَة، وسروال واسع عند الفخذين مثل سراويل الفروسية، وأحذية kirza الطويلة من الجلد الاصطناعي (قياسان أكبر من اللازم). كما وُزعت أغراض مثل حزام مزوّد بـكِلّة نحاسية، وكمّامة واقية من الغاز في كيس من قماش القنب، ورَفْش مهندس عسكري صغير مزوّد بغطاء، وقارورة من الألمنيوم (مزوّدة بغطاء أيضاً)، وخوذة SSH-40 (ثقيلة للغاية)، وحقبة لوازم داخلها مواد متنوعة مثل منشفة وقمصان وسراويل داخلية إضافية، وزوجين إضافيين من مشدّات للقدمين، وحقائب للموّن، وأدوات النظافة، ومواد أخرى. أخفيتُ في حقبة الظَّهر فستاني المزوّد بياقة دنتيل وأربطتي المُرِيحة من قماش القنب. وداعاً للحياة المدنيّة!

تبدّى فطوري العسكري الأول شهياً جداً، أي تُريد قمح أسود ساخن، وشاي حلو، وقطعة خبز قاسية. تَمّت الوجبة في حالة تُقارب أوضاع المعركة. كان في مقدورنا سماع نيران الرشاشات البعيدة وصدى القذائف المنفجرة بين فينة وأخرى من مكان ما من جهة الغرب. كنّا، نحن المجندين جميعاً، نقفز من وقع صوت الانفجارات، لكنْ شَرَحَ الرقباء والرقباء الأولون المحنّكون أنّه لا داعي للخوف من قذيفة طائرة أو

١ نسبة إلى بساريا Bessarabia بوصفها دولة تقع بين دولتي أوكرانيا من الشمال والشرق ودولة رومانيا من الجنوب والغرب، أي مولدوفيا حالياً. (م.)

منفجرة، أي أنها لن تُلحق بأيّ شخص الأذى. وعليه، انقضى اليوم بالأحداث. مُنحنا إذن بالخلود إلى الراحة، لكن لم يُسمح لنا بمغادرة الغابة.

جرت مراسم أداء القسم العسكري في الثامن والعشرين من حزيران/يونيو. جاءنا المُعلم السياسي الأقدم، يِفم أندريافيتش مالتسيف Yefim Andreyevich Maltsev، والمفوّض العسكري في الفوج الرابع والخمسين. وتحدّث عن التاريخ القتالي لفرقة الرماة شَبَايف الخامسة والعشرين (التي كانت عام ١٩١٩ تحت إمرة بطل الحرب الأهلية الأسطوري فاسلي إِفَانُفِتش شَبَايف Vasily Ivanovich Chapayev)، وعن أفواج الرماة العظيمة، أي أفواج فورمنوف-بوغتشوف Furmanov-Pugachov الحادي والثلاثين، وسِتَبَان ريزن الرابع والخمسين خاصتنا، وفُرْنَز دُمَشكين Frunze Domashkin مئتين وخمسة وعشرين. عام ١٩٣٣، باتت الفرقة الأولى في "الجيش الأحمر" التي مُنحت "وسام اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية" الأرفع الصادر حديثاً، أي "وسام لينين". كان ذلك بمنزلة عرفان بمنابها الفائقة على جبهات الحرب الأهلية وبإنجازاتها المتألّقة في التدريب العسكري زمن السلم.

ثم جاء الأمر الآتي: "استعدا!" جيء براية الفوج الرابع والخمسين إلى مقدّمة الجنود المتجمعين. وبأصوات تختلج بالتأثر، ردّدنا: "قَسَم جندي 'الجيش الأحمر'، نحن، مواطني اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، المنخرطين في صفوف جيش العمال والفلاحين الأحمر، نُقسِم يميناً مُعظّمة أن نكون جنوداً مُخلصين، وجسورين، وملتزمين، ويقظين، ونحافظ على الأسرار العسكرية والحكومية بصرامة". ثم وضعنا تواقيعنا على أوراق تحمل نصّ القَسَم المطبوع. بفعلنا ذلك، حوّلنا إلى أناس باتت حياتهم كلّها الآن مُلكاً لوطننا. وفُرَزنا بين وحدات الفوج الرابع والخمسين. انتهى بي المطاف في الفصيلة الأولى من السريّة الثانية في الكتيبة الأولى.

كانت الفصيلة بقيادة الملازم أول فاسلي كُفتون Vasily Koftun الذي تخرّج في كليّة Mogilyov العسكرية للمشاة العام المنصرم، وكان أصغر منّي. كان سبب تطوعي في الجيش الأمر الأول الذي سألني عنه لأنّ الحرب ليست شغل النساء على الإطلاق. أخرجت "عصاي السحرية"، أي شهادة تخرّجي في مدرسة إعداد القناصين في أُسُوفايَاكِم. كان الملازم أول مُشكّكاً للغاية فيها، قائلاً إنّه سيطلب من قائد الكتيبة،

النقيب سِرْغِينْكو Sergienko، نقلني إلى الفصيلة الطبية لأنّ التمرّض هو العمل الوحيد الذي في وسع النساء فعله على الجبهة.

قصدنا مقر قيادة الكتيبة الأولى. وأُعيد الحديث نفسه هناك، أي لماذا، ولأيّ غرض، وهل أدركت خطورة الخطوة، وإلى ما هنالك. رداً على هذه التساؤلات تحدثت عن والدي الذي خدم في فرقة Samara لبعض الوقت (سُمّيت فرقة شَبَايَف Chapayev الخامسة والعشرين لاحقاً) أثناء الحرب الأهلية ولقائه شَبَايَف، وعن عملي في مصنع الذخائر الذي كان يُنفَّذ أوامر من مفوضية الشعب لشؤون الدفاع، وعن التاريخ العسكري لبلادنا الذي كنت قد درستّه بالتفصيل في كليّة التاريخ في جامعة كييف.

سمعتني إيفان إِفَانْفِشْ سِرْغِينْكو Ivan Ivanovich Sergienko، وهو رجل عميق التفكير وخبير وجاد، بانتباه، وأمر كُفْتون بنسيان فكرته السخيفة في نقل القناصة بافلتشنكو إلى قسم الخدمات الطبية. طرُتُ فرحاً قائلة: "أيها الرفيق النقيب، أنا جاهزة لاستلام السلاح الملائم بالنسبة إليّ".

ردّ عليّ: "لكن ليس لدينا بنادق قناصين، يا لودميلا".

- حسناً، البنادق الثلاثية الخطوط العادية، إذاً.

أجابني: "ليس لدينا هذا النوع من البنادق أيضاً".

- إذاً، كيف يمكنني القتال، سيّدي الرفيق النقيب؟

أردف: "السلاح الرئيسي في الوقت الراهن سيكون الرفش بالنسبة إلى المجندين الجدد. ستساعدون الجنود في حفر الخنادق وممرات الاتصالات وإصلاحها بعد القصف المدفعي وغارات القصف. بمعزل عن ذلك، سنزوّدكم بقنبلة من نوع PGD-33 في حال أحدث النازيون خرقاً. هل أنت خبيرة بآلية عمل هذه القنبلة؟"

- أجل، سيّدي الرفيق النقيب.

ابتسم، قائلاً: "ممتاز. ليس ثمة عمل آخر مطلوب منكم في هذه المدة بالذات". لقد قرأت ذكريات كثيرة عن الأيام الأولى للحرب في أرض الآباء والأجداد العظيمة، إذ كتبها جنرالات يقودون وحدات عسكرية ضخمة، وضباط مسؤولون عن أفواج وسرايا وفصائل، ومن الكادر السياسي. نظراً إلى انتشار المعارك على طول حدودنا برمتها، رسم المشاركون في الاشتباكات صوراً مختلفة تماماً. مثلاً

كان هناك حصن برست Brest الذي استمر المدافعون عنه في المقاومة شهراً تقريباً. وثمة مناوشات عنيفة دامت أسبوعين وانتهت بعمليات انسحاب شبه مُروعة مترافقة بخسارة فيلق وفرق بأكملها، مع التخلي عن الآليات العسكرية، وتطوير واستسلام مفارز كثيرة من القوات السوفياتية. على سبيل المثال، حدث هذا الأمر على الجبهات الشمالية الغربية، والجنوبية، والجنوبية الغربية. في ذلك المكان، قطع الغزاة الألمان النازيون، في غضون ثلاثة أسابيع، مسافات تتراوح بين ثلاثمئة وستمئة كيلومتر عبر أراضي اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. لكن كانت فرقة شبايف الخامسة والعشرين خاصتنا مرابطة في الجبهة الجنوبية في أقصى الخاصرة اليسرى، إذ كانت تشغل خطاً دفاعياً مُعدّاً سلفاً من ستين كيلومتراً على طول نهر بروت Prut. في هذه النقطة، تطوّرت الأوضاع بصورة مختلفة، وعلى نحو أكثر إيجابية بالنسبة إلينا.

ففي الثاني والعشرين من حزيران/يونيو ١٩٤١، حاول الرومانيون، الذين كانوا حلفاء ألمانيا النازية، عبور النهر ورُدّوا على أعقابهم. مرّ الأسبوع اللاحق بمناوشات ثانوية، ونزالات مدفعية استمر أثناءها الشبايفيون في الاحتفاظ بمواقعهم. كانت ثمة محاولات لنقل العمل العسكري إلى الجانب المعادي. أجرت كتيبة من فوجنا (مرابطة في بلدة Kagul) إنزالاً على الأرض الرومانية، ودحرت سريّتين فاشيتين هناك حيث أسرت قرابة سبعين جندياً وضابطاً. كما استولت قواتنا على مدينة Kilia-Veke الرومانية حيث وقعت ثمانى قطع من العتاد الحربي وثلاثون رشاشاً في الأيدي الروسية بوصفها غنائم. الوحدات الرومانية التي عبرت نهر بروت في الثالث والعشرين من حزيران/يونيو رُدّت على أعقابها أيضاً، واستسلم قرابة خمسمئة جندي معاد في هذا الاشتباك. على العموم، خسر العدو خلال ثمانية أيام، من ٢٢ إلى ٣٠ حزيران/يونيو، ١٥٠٠ رجل، وأخفق في الاستيلاء على بوصة من الأرض السوفياتية.^١

كانت الأحداث، على الأغلب، تتخذ منعطفاً مختلفاً. فخلال الأيام الأولى من تموز/يوليو، اختُرقت دفاعاتنا على نهر بروت إلى الشمال في قطاعي Iasi-Beltsy و Mogilyov-Podolski. نظراً إلى تقدّمهم الكبير في القوة البشرية والتقانة، سرعان ما

١ تم اقتباس البيانات الإحصائية في هذا المقام وأدناه من كتاب إن. إم. خلينكوف، وب. إس. يفلامبيف، وواي. إي. فولودخين، بعنوان *The Legendary Chapayevs* [الشبايفيون الأسطوريون]، المنشور في موسكو عام ١٩٦٧.

شَنّ الغزاة زحفاً، وأخذت الجنوبية بالتداعي. أسفر هذا الأمر عن "العقدة البسارية Bessarabian" التي وجب إنقاذ فرق الرماة الخامسة والعشرين، والخامسة والتسعين، والحادية والخمسين، والمئة والسادسة والسبعين، منها. لذلك، شهد منتصف حزيران/ يونيو انسحاباً عسيراً عبر سهوب البحر الأسود مترافقاً بمعارك مستمرة لحماية مؤخرة القوات.

كان فوجنا الباسل مرابطاً في التاسع عشر من تموز/ يوليو على الخط الممتد من Cairaclia إلى Bulgariyka؛ وفي الحادي والعشرين على الخط الممتد من Novo-Pavlovsk إلى Novy Artsiz؛ وفي الثاني والعشرين على خط Artsiz؛ وفي الثالث والعشرين على الخط الممتد من Karolino-Bugaz إلى مصب نهر دُنِسْتَر. وفي الرابع والعشرين من تموز/ يوليو، كانت أفواج الفرقة منتشرة على خطوط متنوعة، أي في محيط قرية Starokazachye، والمرتفع ٦٧ في مدينة تشير كاسي Cherkasy، وفي محيط قرية Sofiental.

أجرينا الانسحاب على ما يُدعى "مراحل". وكانت بعض الوحدات تُغطّي الانسحاب، في حين كانت وحدات أخرى تنسحب، ووحدات أخرى تُجهّز مواقع رمي جديدة. نجح الأمر بهذه الطريقة، أي كان فوجا الرماة بوغاتشوف Pugachov الحادي والثلاثون، ومئتان وسبعة وثمانون، يتوليان الدفاع، في حين كان فوج الريزن الرابع والخمسون يتولّى الانسحاب، والفوج دوماشكين Domashkin مئتان وخمسة وعشرون حفر الخنادق. ثم تبادلت الوحدات الأماكن، أي تولّى الدوماشكيون القتال، والبوغاشفيون الانسحاب، ورجال الريزن حفر الخنادق.

من أجل تفادي ضربات الطيران الألماني والروماني، كان الانسحاب أحياناً نهاراً، وأحياناً ليلاً. تنقلنا بمركبات خفيفة، لكن لم تكن متوافرة بكثرة في الفوج، ثماني عشرة فقط في المجمال. فضلاً عن ذلك كانت تسع منها (من نوع GAZ-AA وحمولتها طنّ ونصف ومن مصانع Gorky) تابعة لسرية الخدمات الطبية. على أيّ حال، كان ثمة عدد كبير من العربات التي يجرّها حصانان (رسمياً ٢٣٣، لكن بأقل من ثلث تقريباً في منتصف تموز/ يوليو). أيضاً خضنا مسيرات إلزامية سيراً على الأقدام. كانت السهوب، مثل كتاب مفتوح، منتشرة على طرفي الطريق. وتقع أماننا في

ليالي تموز/ يوليو الدافئة هادئة وغامضة. لكنها كانت تُدوي برشقات المدافع أثناء النهار، وتشتعل بالنيران وتفوح برائحة البارود المحروق. فانسحب السكان معنا من منطقة بساريبا Bessarabia.

كانت الآليات الزراعية (حصّادات، درّاسات، جرّارات، بزارات...) تتحرك على طول الطرق. وثمة قوافل كاملة من الشاحنات المُحمّلة بصناديق خشبية كبيرة؛ على ما يبدو، كان يتم إخلاء معدات المصانع. والمزارعون الجماعيون يسوقون قطعان الماشية، إذ كانت أرتال من العربات المحملة بالأدوات المنزلية تتحرك معها بتثاقل على طول الطرق، ناهيك عن ليف من النسوة بصحبة أطفال صغار والمراهقين والمسنين وهم يمشون بتثاقل وكآبة على قارعات الطرق الترابية، ويرمقون السماء بتوجّس، وترتعد فرائصهم من القصف المدفعي.

في الغالب ثمة "هيكل" يحوم فوق طرق السهوب، أي طائرة Focke-Wulf 189 ذات المحرّك المزدوج التي كان الألمان يطلقون عليها Fliegende Auge (العين الطائرة)، لكنها كانت معروفة في لغة "الجيش الأحمر" العامية بوصفها Rama (هيكل) بحكم بنيتها، أي عربة مستطيلة مزدوجة تُعلّق بالجانب الأدنى من الطائرة، ومزوّدة بمقصورة منفصلة للطاقم مُثبتة وسطانياً. كانت تُنفّذ عمليات استطلاع، وتوجّه القاذفات إلى الأرتال المُنسحبة نحو نهر دنيستر، وترصد نيران المدفعية البعيدة المدى. لم تكن "الهيكل" تطير بسرعة لكنها كانت تُحلّق على ارتفاع عالٍ للغاية. لم تفلح مقاتلات Yastrebki خاصتنا ("الصقور"، في إشارة إلى الطيارين المقاتلين عادة) في الهجمات عليها كلّها؛ هذا لا يعني وفرة مثل هذه الهجمات.

كان النازيون يُنفذون غارات جوية منتظمة، مستهدفين الطرق والقرى المتاخمة لهم. شاهدنا حقول قمح محروقة بكاملها، وبيوتاً سكنية، ومرافق تخزين، ومنشآت إنتاج، مُدمّرة بفعل القنابل، وآليات محروقة ومتروكة. في بعض الأحيان، كانت قاذفات "Stuka" Junker 87 على مرأى منّا، تخرج من بين الغيوم فجأة، وتنقضّ على

١ ذكريات بافلتشنكو مشوشة. رغم اختبار الطائرة Fw 189. جواً، وتزويد سرب التدريب بطائرة Fw 189A-0 في خريف ١٩٤٠، كان الطيارون المنخرطون في سرب الاستطلاع، في أعقاب غزو اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، يطيارون بطائرة Henschel Hs.126 الأحادية المحرك التقليدية. لم تصل أولى طائرات Fw.189A-1 و 189A-2 الجبهة الشرقية حتّى ربيع ١٩٤٢.

الطرق، وتقصّف المدنيين الذين لا حول لهم ولا قوة للدفاع عن أنفسهم، وتُجهز عليهم بالرشاشات. لم يكن هذا الأمر برمّته شبيهاً بحرب طبيعية كثيراً جداً، حين يُقاتل جيشان متساويان في القوة بعضهما بعضاً، بل إبادة شعبنا إبادة مُتعمّدة، بالأحرى. كنّا، نحن المدافعين عنهم، إمّا مُختبئين في الغابة، وإمّا مُتجهين شرقاً على طول الطرق نفسها. انطلاقاً من أنّنا لم نكن نقدّم إليهم أيّ مساعدة، احتجّ الناس العاديون بمرارة: "فلتذهبوا إلى الجحيم! لماذا لا تُقاتلون الأعداء؟ لماذا لا تتصدّون لهم؟" كان صدى صور الدمار الشنيع والحزن الشخصي الهائل يتردّد في قلبي مترافقاً بألم يستحيل تجاهله. بات بعضهم مكتئباً، وفقد بعضهم الثقة بالانتصار وتهيّبوا من المستقبل. أمّا أنا، فكنت أفكر في الانتقام بوصفه أمراً محتوماً ولا يُقاوم. لا بدّ أن يلقي الدّخلاء من الغرب، الذين انتهكوا حياة وطني الآمنة على نحو فظيع، عقوبة قاسية، وسيكون في مقدوري معاقبتهم حالما أحوز سلاحاً. لكن لم تكن حالة التسليح جيدة، إذ لم يكن ثمة نقص في القذائف بالنسبة إلى مدفعية الأفواج والفرق فقط، بل في البنادق.

ثمة فصل في مذكرات اللواء البحري إيليا أزروف، عضو المجلس العسكري للدفاع عن إقليم أوديسا في صيف ١٩٤١، بعنوان فاضح: "أعطينا سلاحاً!" كان يصف الآلية التي كان يفتش فيها مستودعات الجيش بحثاً عن بندق، وبندق نصف آلية، ورشاشات عادية وخفيفة، أثناء الاعتداء النازي الهائل، وقوبل وصوله إلى أي مكان بالرّفُض. تمكّن بمحض المصادفة من تسليح وحدة عسكرية مُشكلة حديثاً على الجبهة الجنوبية، قائلاً: "كان لدينا خمسون بندقية للأغرار... بحجرات انفجار رصاص مثقوبة جميعها. أغلق المصنع الثقوب بناء على طلبنا. فكان في مقدورنا وضع معظم البنادق في الخدمة. وجربناها في ميدان الرماية، وتبيّن أنّها، لشدة فرحنا، صالحة للاستخدام".^١

وقعت بندقية Mosin عادية، من نوع ١٨٩١/١٩٣٠، في يدي في النصف الثاني من تموز/ يوليو بعد خضوع فوجنا لنيران مدفعية ثقيلة من نوفوبافلوفسك NovoPavlovsk إلى خط Novy Artsiz. كانت مراقبة مجرى المعركة بقنبلة وحيدة بيدك فقط مُحبّطة جداً. والأمر الأشدّ مرارة بمليون مرّة لزوم الانتظار إلى أن يُصاب رفيقك الواقف

1 I. I. Azarov, *Odessa Under Siege* (Moscow, 1966), pp. 26-32.

بمحاذاتك بجروح ويناوذك بندقية. آذت شطية قذيفة بشكل خطير زميلاً في الفوج كان يحتمي في خندق. نظراً إلى تضرّجه بالدماء ناولني بندقية الثلاثية الخطوط. بعد بعض الرمي التمهيدي، كان الرومانيون يستعدّون للهجوم. فبصحبة الجنود الآخرين من فصيلتنا الأولى، وضعت بندقيتي على سائر خندق سطحي، وضبطت المنظار الخلفي على العلامة ٣ (أي لمسافة ٣٠٠م) وسحبت المزلاج إلى الخلف. كفلت دفع المزلاج إلى الأمام رصاصة في حجرة الانفجار، وكانت رصاصة خفيفة، يُطلق عليها Ball L أو ١٩٠٨، تنتظر إطلاقها. أطلقنا النار بناءً على أوامر الملازم المتمرّن، كُفتون. كما دخلت بنادق السرية الخفيفة المعترك. حسم هجومنا المُعاكس الناجح نتيجة هذا الاشتباك الثانوي. فبخروجنا من خنادقنا، ردّدنا الفاشيين على أعقابهم لمسافة طويلة. كان ميدان المعركة ميداننا، وأخذ جنود فوج الرماة الرابع والخمسين يجمعون أسلحة قتلى العدو. تضمنت الغنائم أربعاً وعشرين بندقية Mauser تشيكية من عيار ٧,٩ ملم vz. لم تتطابق مع رصاصنا، الأمر الذي اضطرّنا إلى أخذ حقائب الرصاص من الجثث أيضاً. بطبيعة الحال، حلّ هذا الأمر مشكلات سلاح جنودنا بصورة جزئية.

جاءني الملازم المتمرّن، كُفتون، بعد رصدي ببندقية ثلاثية الخطوط فوق كتفي. كنت خائفة أن يأمرني بتسليمها لأحد الجنود. لكن بعد الانتصار الأخير على العدو، كان قائد الفصيلة في مزاج جيد.

- إذاً، شاركت في الهجوم مع الآخرين، يا جنديّة لودميلا؟

- بالضبط، سيّدي الرفيق القائد.

- كيف تشعرين حيال ذلك؟

- ممتاز، سيّدي الرفيق القائد.

- هل اضطررت إلى إطلاق النار؟

- أجل، استهلكت مشط الطلقات بأكمله.

- رائع. سيُسجل الرقيب أول هذه البندقية باسمك. سنرى أي نوع من القناصين تمثّلين.

أردفت: "أحبّذ اقتناء سلاح مزوّد بمنظار، سيّدي الرفيق القائد. فالتائج ستكون

مختلفة غالباً“.

- لا أستطيع أن أعدك بذلك حالياً. لكن سأحاول تلبية طلبك في أوّل فرصة.
كان الملازم المتمرّن يتسم، وكنت أعرف أنني سأكون جزءاً من الوحدة الفرعية المنوطة به حتماً.

في هذه الأثناء، استمر الانسحاب. وبلغت قوات شَبَايف الضفة الغربية من نهر دَنِيسْتَر، وعبرته. وفي السادس والعشرين من تموز/ يوليو، اتخذنا مواقع دفاعية على الضفة الشرقية، أي على خط قرية Gradenitsa-Mayaki، وFrantzfeld، وKarolino-Bugaz. أما إلى الشمال، فكانت تقع تحصينات منطقة Tiraspol المنيعة رقم ٨٢. لقد شُيّدت قبل الحرب بمدة طويلة، وكانت مُجهزة تجهيزاً جيداً بنقاط رمي، ومخابئ، وخنادق عميقة إسمنتية، وترايبية مُسلّحة، وحجرية. كان نحو مئة قطعة من الذخائر المتنوعة العيارات ومئات عدّة من الرشاشات العادية والخفيفة موجودة هنا في هذه التحصينات وشبه التحصينات. كما كانت منطقة UR-82 تتضمن مساحة تخزين تحت الأرض تحتوي على معدات عسكرية متنوعة.

كانت القيادة السوفياتية العليا تُعوّل على وقف موجة تقدّم العدو في هذا المكان، وسَحَق فرق المشاة الرومانية والألمانية على ضفتي نهر دَنِيسْتَر، وردّهم على أعقابهم إلى التّخم الغربي. إنني أكتب عن منطقة UR-82 بالتفصيل لأنّ مستودعاتها العسكرية أثبتت جدواها بالنسبة إلى فرقتي الرماة الخامسة والعشرين والخامسة والتسعين. أخيراً استلم فوجنا الرابع والخمسون بعض رشاشات Maxim المتوسطة، ورشاشات Degtyarev الخفيفة للمشاة (DP)، وبنادق Mosin الثلاثية الخطوط، وبنادق SVT-40 الآلية التلقيم، وسدّت النقص في مخزونها من الذخائر كلياً. وأخيراً أُتِحَتْ بقناصة Mosin جديدة تماماً (لا يزال شحم المصنع عليها) مزوّدة بمنظار PE (Emelyanov). على أيّ حال، لم تبلور خطط جنرالنا من أجل نقطة تحول جذرية في الوضع العسكري بالركون إلى UR-82. كان الرومانيون والألمان ينقضّون بقوة نظراً إلى تفوقهم العددي بنسبة خمسة إلى واحد. فتّم خوض معارك ضارية، من السادس والعشرين من تموز/ يوليو إلى الثامن من آب/ أغسطس، على حدود

١ كانت تُدعى UR-82 أيضاً.

منطقة تيراسبول Tiraspol المنيعة. على الأغلب، كانت الوحدات العسكرية العاملة في الجبهة الجنوبية تضطر إلى الانسحاب إلى ضواحي أوديسا. كان الدفاع الروسي يتمركز الآن على الخط الواصل بين المراكز السكانية، أي Alexandrovka، وBuyalyk، وBrinovka، وKarpovo، وBelyayevka، وOvidiopol، وKarolino-Bugaz.

كانت Belyayevka، في الثامن من آب/ أغسطس ١٩٤١، مكان وزمان ظهوري الأول بصفتي قناصة في زمن الحرب، وفي الحرب، إذا جاز التعبير. لن أنسى ذلك اليوم على الإطلاق. كانت Belyayevka قرية قديمة وضخمة للغاية شيّدها قوزاق Zaporozhye بالقرب من بحيرة Byeloye، وتبعد من أوديسا قرابة أربعين كيلومتراً. كان جزء بارز من المستوطنة مؤلفاً من أكواخ مُثَبَّتة بالطين وبسقوف من القصب. وثمة أبنية حجرية، مثل كنيسة، ومدرسة من طابق واحد، وبيوت شتّى تعود إلى محليين أثرياء قبل الثورة. أحدها يضم مكاتب المجلس الريفي. بعد اشتباك مُطوّل، بقيت Belyayevka محتلة من قوات الملك الروماني، ميهاي الأول. رغم خسائرنا البليغة، لم يتقدّموا على الإطلاق. فمع حلول المساء، ثبتت كتيبتنا الأولى في موقع على الجانب الشرقي من القرية. استدعاني النقيب سرغينكو إلى مقر القيادة، وأشار إلى الطرف الأقصى من Belyayevka. بان من بين الأشجار المُفَرَّطَة في النمو بيت ضخم برواق ذي سقف مُخَدَّد، مناراً بفعل غروب الشمس. خرج رجلان إلى الرواق يرتديان بزّي ضابطين وخوذتين تُدْكَران بأحواض المهلبية الريفية. جاءت المملكة الرومانية بهذه المواد الفولاذية لجيشها من الموردين الهولنديين قبل الحرب.

سألني قائد الكتيبة: "يبدو أنّ ذلك مقر الأركان. هل يُمكنك الوصول إليه؟" أجبت: "سأحاول، سيّدي الرفيق النقيب".

- هيا، اذهبي.

ابتعدت عني متأهباً لمراقبتي أثناء تنفيذ الأمر.

كانت إقامتنا بالقرب من UR-82 أسبوعاً مُريحاً تقريباً. وبعد الانسحاب إلى المؤخرة، كنتُ قادرة على تجهيز قناصتي لجو المعركة. من أجل إنجاز هذا الأمر، وَجِبَ عليّ فكّ البندقية بكاملها والعمل على مكوّناتها. مثلاً انتزعت الخشب الممتد

على طول أهدود واقية اليد بكامله، بشكل لم يعد فيه الجزء الخشبي يُلامس السبطانة، وبردت حُرْف قبضة البندقية على نحو تُركب السبطانة فيه بشكل مريح، وراصفتُ السبطانة في الطرف الأمامي بشكل مناسب، وبطنتُ ما بين المُستقبلة والمخزن. ولضمان عمل أجزاء آلية المزلاج المتنوعة، كان يُوصى باستخدام مبرّد إبري صغير للتحقق من صيانتها بدقة. تتطلّب آلية عمل زناد البندقية الكفاءة، والثقة، والتوازن.

كان الطقس الصافي والساكن المسيطر على سهوب ضفّة نهر دَنِيسْتَر الشرقية مُساعداً على ضبط البنادق المزوّدة بمناظير مفتوحة أولاً، ثمّ بتلك المزوّدة بتلسكوب. باشرتُ المرحلة الأولى بمسافة مئة متر عن هدف مربّع بقياس ٣٥x٢٥ سم. أمّا المرحلة الثانية، فتمثّلت في تثبيت البندقية على منصّب (أو شيء مشابه) لضمان استقرارها. كان الهدف من ذلك ضبط منظار التلسكوب بمساعدة المنظار المفتوح. اعتلتُ البندقية كتفي، وتدلتُ ثلاث جُعبٍ جلدية محتوية رصاصاً منسّقاً وفق النوع، من حزامي، أي الأولى مزوّدة برصاصات خفيفة Ball L نوع ١٩٠٨؛ والثانية مزوّدة برصاصات ثقيلة صفراء الرأس Ball D نوع 1930؛ والثالثة مزوّدة برصاصات خارقة وحارقة للدروع خاصة، B-32، ذات رأس أسود أمام طوق أصفر. أمسكتُ بندقيتي بيديّ، ونظرت عبر التلسكوب. كان الخط الأفقي يغطّي شكل الضابط، إلى حدّ خصره تقريباً وهو ينزل الدّرج. أعددتُ معادلة رياضية من دورة في علم القذائف العملي التي أجريناها في المدرسة، كان الحلّ: مسافة الهدف أربعمئة متر. وبوضعي رصاصة مزوّدة برصاصة خفيفة في حجرة الانفجار، أجَلتُ النظر من أجل انتقاء مكان للرمي منه.

كنتُ والنقيب في منتصف كوخ ريفي قد تعرّض للتدمير بإصابة مباشرة من قذيفة. كان السقف مُهشّماً، والأحجار وشظايا الأعمدة المتفحمة منتشرة في كلّ مكان. لم يبدُ الرمي مُنبطّحاً وارداً. فقررت الرمي جاثية من وراء الجدار، مستخدمة حزاماً، أي بالارتكاز على كعب حذائي الأيمن، والاتكاء على ركبتَي اليسرى المنحنية بمِرفقي الأيسر، وجعل الحزام تحت المِرفق الأيسر يحمل وزن البندقية. على الأغلب، لم يكن بوتابوف يذكرنا بقول القناصين عبثاً: "إنّ مَنْ يرمي هي السبطانة، لكنّ مَنْ يُصَب هي قبضة البندقية!" يتوقّف كثيرٌ على الموقع الذي يتخذه القناص عند إمساك البندقية.

أصبت الهدف الأول بالطلقة الثالثة، والهدف الثاني في المحاولة الثالثة، نظراً إلى أنني ملأت البندقية بإحدى الرصاص النادرة المحتوية رصاصة ثقيلة من نوع D. لا أستطيع أن أقول إنني كنت متوترة أو مترددة. كيف يُمكن للتردد أن يبرز بعد ثلاثة أسابيع من انسحاب يائس تحت قنابل وقذائف العدو؟ مع ذلك، وقف أمر ما حجر عثرة في سبيل تركيزي. يقولون إن هذا الأمر يحدث أحياناً عند انتقال القناص من تدريب الرمي على أهداف كرتونية إلى الرمي على عدو حي.

- يا لوسي، أنت بحاجة إلى الحفاظ على الرصاص. سبع رصاصات على نازيتين اثنتين.

”هذا كثير“، قال قائد الكتيبة بعين العطف، ناظراً عبر منظار الميدان على ضباط العدو المستلقين بلا حراك في محيط الرّواق.

- آسفة، سيدي الرفيق القائد. سأصوّب الأمر.

- حاولي، وإلا سينسلّون نحوك مثل الصراصير، سواء أكنت مرئية أم مخفية. وبمعزل عنا، لا أحد سيوقف الغزاة.

في هذه الأثناء، شعر الرومانيون بأنهم منتصرون.

في الثامن من آب/ أغسطس ١٩٤١، صرّح الديكتاتور أيون أنتونسكو Ion Antonescu، نظراً إلى هزيمة الروس، أنّ قواته الباسلة ستدخل أوديسا في الخامس عشر من آب/ أغسطس ١٩٤١ وتسير في شوارعها مزهوة بالنصر. كان ثمة أسباب لهذه الغبطة الناجمة عن النجاح. ونظراً إلى استيلائهم على كيشناو في السادس عشر من تموز/ يوليو، تحرّكت قوات التحالف الألمانية-الرومانية على جناح السرعة من نهر بروت إلى نهر دنيستر، واستولت في غضون ثلاثة وثلاثين يوماً على مساحة كبيرة من الأراضي السوفياتية التي أطلقوا عليها Transnistria، كأنها تعود إلى المملكة الرومانية منذ عهود غابرة. أمّا الآن، فكانوا يستعدون لتطهيرها من الروس والأوكرانيين واليهود والغجر (أي إبادتهم في معسكرات اعتقال)، وتسليم أراضيهم وبيوتهم لضباط وجنود من جيشهم الخاص، وحظر استخدام اللغتين الروسية والأوكرانية بوصفهما ”تحطّان من قدر كرامة الأمة الرومانية العظيمة“، وإزالة النُصب كلّها، وإعادة تسمية البلدات والقرى كلّها بما ينسجم مع أهوائهم الشخصية، وتسمية أوديسا ”أنتونسكو“ على

وجه الخصوص.

كان الرومانيون حريصين على دخول اللجنة على حساب جهود شخص آخر. فلولا ألمانيا هتلر وصناعتها القوية، وتقانتها العسكرية الفائقة، وقواتها المسلحة المعبأة جيداً والمحكمة في المعارك، إضافة إلى "عملية بارباروسا"، ما كان لرعايا الملك ميهاي أن يحلموا بأي Transnistria. عام ١٩٤٠ استعاد الاتحاد السوفياتي بساريا وبوكوفينا Bukovina الشمالية المسلوبتين من روسيا على يد الرومانيين أثناء أيام الثورة والحرب الأهلية المضطربة. وقتئذ، انسحبت القوات الملكية على جناح السرعة القصوى أمام الوحدات المتقدمة من جيوشنا الخامسة، والثانية عشرة، والتاسعة، متفادية الاشتباكات العسكرية ومتخليّة عن مخابئ أسلحتها.

أمّا الآن، فلقد أثار طريقهم الانتصاري عبر سهوب البحر الأسود في جنود هذه الدولة المتخلفة شبه الإقطاعية وهم الانتصار على جارتها الشمالية المرعبة. على الأرجح، قرر الجنرالات الملكيون أنّ "الجيش الأحمر" مُحبط ولن يبذل مقاومة إضافية. كلّف هذا الوهم الرومانيين ثمناً باهظاً بالقرب من أوديسا.

على الأغلب، كنتُ أشاهد من خلال منظاري أساريهم المُكدّرة، وأنوفهم المعقوفة، ونصف الغجرية، ونصف المشرقية. قد يكون أنتونسكو ادّعى أنّ الرومانيين ورثة روما القديمة، لكنّ في واقع الأمر كانت مملكة ولاشين^١ منذ القرن الخامس عشر تحت حكم الإمبراطورية العثمانية. إن كان لأحد نفوذ على سكان الأمة، فقد كان الأتراك الذين أبقوا على حاميات في المدن الرئيسية حتى سبعينيات القرن التاسع عشر تقريباً، وكانت لديهم تجارتهم الخاصة، وفرضوا على الرومانيين الخدمة في جيشهم. لا تزال فرق غجرية كثيرة تجوب بحرية البلدات والقرى في ذلك البلد الريفي.

تدبّر الرومانيون أنفسهم، مُرتدين بزات رملية اللون وخوذاً تغطّي الأذنين، في بداية آب/أغسطس ١٩٤١ بصورة واثقة ومريحة على نحو استثنائي، مُبدين ازدراءً لقواعد الحرب. كانوا يجولون خطوطهم بخطى واسعة منتصبي القامة كلياً، ولم يحاولوا الحفاظ على الأمن العسكري في المناطق كلّها، وأجروا استطلاعاً غير واف، ونشروا وحدات من مؤخرة القوات (كتائب خدمات طبية، ومطابخ، ومراكز ربط، وسلاسل

من العربات، وورشات...) على مقربة من الخط الأمامي. باختصار، خلقوا أوضاعاً ممتازة للقناصين. فلم يكن ازدياد حصيلة قنصي يوماً بعد يوم مفاجئاً. من نافلة القول أنّ أمر أنتونسكو للاستيلاء على أوديسا في الخامس عشر من آب/ أغسطس ١٩٤١ لم يرَ النور، رغم أنّ عديد الجيش الرابع بقيادة الجنرال نيكولاي كيوبيرك Nikolae Cuperke ناهز ثلاثمئة ألف جندي وضابط، وكان لديه ثماني طائرات حربية وستون دبابة تحت تصرفه. وثمة بعض المفارز التابعة لفرقة المشاة الثانية والسبعين في ذلك المكان. بغية التصديّ لهم، كان لدينا خمس وثلاثون طائرة حربية، ومن خمس إلى سبع دبابات في حالة صالحة للتشغيل، وخمسين إلى ستين ألف جندي.

تخوم النار

عملت وحدات الهندسة العسكرية السوفياتية، وكتائب خبراء الألغام، وسكان المدينة بجهد عالٍ في الجهوزية لحصار مُطوّل. كان الحد الأمامي الأقصى من خط الدفاع الرئيسي (بمحيط ثمانين كيلومتراً وبعمق ٣,٥ كلم) يخترق القرى المتاخمة لأوديسا. يتضمن هذا الخط مناطق دفاعية من ٣٢ كتيبة، ونقاط دعم للسرّايا والفصائل، ومواقع رمي لمدفعية الميدان والهاون. لقد تمكّنوا بحلول العاشر من آب/ أغسطس من إنشاء ٢٥٦ نقطة رمي من التراب المُسلّح والطوب والإسمنت المُسلّح، ومن حفر ١٥٠٠ عمل ترابي لأغراض متنوعة، إذ رُبِطت هذه الأعمال بواسطة نظام موحد بخنادق وممرات اتصالات طويلة ومتعرجة. كانت الخنادق كبيرة الحجم، أي بعمق يزيد عن ١,٥ متر، وتحتوي على جدران مدعومة بألواح خشبية. وثمة مخابئ مغطاة بثلاث طبقات من قطع جذوع خشبية ثخينة. كانت الفسحات المُسطّحة من سهوب البحر الأسود تتقاطع مع خنادق مضادة للدبابات بعرض سبعة أمتار وبعمق ثلاثة. أما أمام مواقع المعركة، فثمة حقول ألغام ومناطق كبيرة مزودة بصفوف من دعامات مربوطة بأسلاك شائكة أو ناعمة. كان خط الدفاع الثاني الرئيسي يبعد أربعين كيلومتراً عن المدينة، والخط الثالث على بُعد ٢٥-٣٠ كلم، والخط الرابع على بُعد ١٢-١٣ كلم^١.

1 Engineering Forces in the Battle for the Soviet Homeland, (Moscow, 1970), p. 114.

لقد حلمنا بمثل هذه التحصينات. وحمانا هذا الحلم في بلدات Novo-Pavlovsk وNovy Artsiz، إضافة إلى محيط قرية Starokazachye، عندما كنا نحفر خنادق بإشعار عاجل، بمعاول خبراء الألغام الصغيرة ليلاً تحت ضوء القمر، أو نهاراً بينما كنا نتعرّض للقصف من مدفعية العدو البعيدة المدى، أو عندما كنا نعبّر طرق السهوب السريعة دون طعام أو ماء، ونُوري رفاقنا الذين سقطوا الثرى في حُفر القنابل، أو في قتال النازيين ومحاولة الاقتصاد في استهلاك الرصاص. كنا نعتقد أن فوضى وبليلة الأيام الأولى من الحرب الناجمة عن طبيعة هجوم العدو المفاجئ والغادر ستنتهي. لم نكن نعرف مكان توقفها وزمانه، لكن لم يساورنا شك أن نقطة قوة ما ستظهر قريباً على طول مسارنا الصعب، أي حصناً ما لا يمكن الوصول إليه سُدافع عنه، كوننا تحمّلنا معموديّة النار حتى آخر قطرة من دماننا، وسيشعر العدو السفيه بقوة السلاح الروسي الحقيقية.

أُعلنت حالة الحصار في أوديسا في الثامن من آب/ أغسطس. آنذاك، كانت الوحدات العسكرية التابعة لفرقة الرماة شبايف الخامسة والعشرين خاصتنا مرابطة على خط Belyayevka-Mangeim-Brinovka. دحرنا هجوم قوات نخبة العدو، ومنعنا الرومانيين من فتح ثغرة نحو الجنوب. تبع ذلك إعادة تجمع القوات السوفياتية. فانضمّ فوج سِتَبان ريزن الرابع والخمسين (بقيادة المقدم آي. آي. سفدنتسكي I. I. Svidnitsky)، لكن ليس كلّ، إلى مفرزة مشتركة بقيادة قائد اللواء إس. إف. موناخوف S. F. Monakhov الموكلة قطاع الدفاع الشرقي، جنباً إلى جنب الفوج الأول من مشاة البحرية وفوج جهاز الأمن الداخلي السادس والعشرين. وبقيت الكتيبة الأولى في موقعها السابق واستُخدمت كقوة ضاربة مُتنقّلة من قطاع في الجبهة إلى آخر من أجل التعامل مع الخروقات المعادية.

كان صُلب الكتيبة مؤلّفاً من سَرَيّتنا الثانية بقيادة دمتری لوبفي Dmitry Lubivy. ونظراً إلى تلقينا الأمر بـ"استعادة الوضع بالقرب من القرية سين"، نصعد إلى شاحناتنا التي تزن ١٥٠٠ كلغ (مع هذا، كنّا نذهب سيراً على الأقدام غالباً)، ونبلغ الهدف وننخرط في الهجوم من أجل إخراج الأعداء من المواقع التي احتلّوها أخيراً. بطبيعة الحال، تمكنا من تنفيذ هذا الأمر في الغالب.

كان لدى السرية الآن سلاح ممتاز. وحُزننا كثيراً من الأسلحة في المعركة، أي بنادق من نماذج متنوعة، ورشاشات (الرشاش الألماني MP. 40 أكثر شيوعاً بالنسبة إلينا باسم Schmeisser)، ومسدسات TT السوفياتية، ومسدسات أجنبية، مثل: Mauser و Beretta و Steyr، ومسدسات Nagant، ورشاشات DP الخفيفة، ومخزوناً كبيراً من الرصاص. لقد تعلمنا من دروسنا المريرة عن المناوشات الحدودية. وعندما كان ثمة نقص في السلاح، كنا نقيم مخابئ سريتنا الذاتية. فكان سحب هذا السلاح كله من مكان إلى آخر شاقاً، لكننا لم نرد تسليم أي شيء لمستودع الفوج، مع أننا مُنحنا أنواع أجهزة الاتصالات كلها.

يُسِّرَت جهوزية وحدتنا للمعارك إلى حد كبير بتقارب أعمار أعضائها وتربيتهم وتعليمهم. كانت أعمارنا تتراوح بين العشرين والخامسة والعشرين. وكنا جميعاً أعضاء في "رابطة الشبيبة الشيوعية"، إذ استُدعينا من قطاع الصناعة الثقيلة بصورة رئيسية، أو في مثل حالتي، متطوعين من الطلاب من معاهد التعليم العالي الأوكرانية. وتشكل إحساسنا بالأخوة داخل الجيش في المعارك في محيط نهر بروت. فتعلمنا أن نثق ببعضنا بعضاً، وكنا نعرف أن حكمة الجنرال سوفروف Suvorov، "ضَحَّ بنفسك، لكن احم رفيقك!"، مبدأ ثابت لدينا.

كنّا، في أوقات الراحة بين الاشتباكات، نقرأ الرسائل القادمة من الوطن معاً، ونكتب الرسائل معاً، حتّى إلى خطيبنا وخطيبتنا. كان الجميع يعدّ الإتيان بعباراة لافتة أو ظريفة واجباً عليهم. كما كان بيننا من لديهم أذن موسيقية وصوت جيد، وكنا نُغني معاً في الغالب. كان المخزون الفني يتألف من أغنيات تعود إلى الحرب الأهلية، أو من أفلام شهيرة، مثل The Woman of Warsaw [امرأة وارسو]، و The Gun Carriage [عربة المدفع]، و Over there Across the River [هنالك، عبر النهر]، إضافة إلى Merry Wind [ريح مرحة] من فيلم فينشتوك Vainshtok المعنون The Children of Captain Grant [أطفال الكابتن غرانت]، و Broad is my Native Land [شاسعٌ وطني] من فيلم ألكساندروف Alexandrov المعنون Circus [السيرك]، و The Blue Balloon Twists and Turns [لَفَات ودوران البالون الأزرق] من فيلم كوزينتسيف Kozintsev وتروبيرغ Trauberg المعنون Young Maxim [مكسيم الشاب]، وأفلام أخرى كثيرة.

لقد ساعدتنا الأغاني في المعركة. وثمة أوقات أثناء تبادل إطلاق نار كثيف سيغني فيها أحدهم في أذنك بصوت أجش مقطعاً واحداً فقط من أغنية مُفضلة، أو يصيح عند مروره بك: "تَشَبَّثُوا بمواقعكم، أيها المشاة" (من بيت الشعر الشهير)، وسرعان ما ينشرح صدرك.

لا تشعر قبل هجوم ما أنك على خير ما يُرام إطلاقاً. ثمة خواء في رأسك نوعاً ما، إذ يتردّى مزاجك. إنّه إحساس ثقيل الوطأة وبغيض. في سرّيتنا، كافحنا هذا الإحساس على النحو الآتي: كنا نروي كلّ حكاية مسلية مُمكنة، ونتذكّر وقائع المعارك الناجحة، ولا نسمح للناس بالانصياع للقلق. وغالباً ما نسمع صوت الملازم لوبفي يُدوي: "أيتها السريّة، سيري قدماً إلى الأمام! من أجل الوطن، من أجل ستالين، يعيش!" وبرص صفوفنا معاً. كنّا نندفع إلى المعركة وننسى كلّ شيء آخر في العالم. بددت كراهية العدو المشاعر الإنسانية الأخرى، وكان الرومانيون يفرّون أمامنا مثل الأرانب البرية. تلك كانت الآلية التي جعلت سرّيتنا الثانية استثنائية! رغم البسالة التي قاتلنا بها، نحن الشبايفيين، تغلّبت علينا ظروف المعركة القاسية دفاعاً عن أوديسا أحياناً. كان العدو يتمتّع بتفوق في المدفعية، والأهم من ذلك أن لديه لوازم عسكرية هائلة للمدفعية والهاونات التي كان المدافعون عن المدينة يفتقرون إليها. كان جنود مدفعيتنا يرذّون بصلية واحدة فقط مقابل كل ثلاث صليات يُطلقها الألمان والرومانيون. سبق أن تعرّضت سرّيتنا للاحتراق بموجة من النيران. وقع هذا الأمر في صبيحة التاسع عشر من آب/ أغسطس. أصابت قذيفة هاون ساتر الخندق، ليس أمامي مباشرة، بل بنحو مترين إلى اليسار. فهشّمت موجة الصدمة بندقيتي المُفضّلة إلى فتات، ورمتني خلفاً إلى قعر الخندق، وطمرتني بالتراب. استردت وعيي في المستشفى. لقد أخرجني أصحابي في الفوج وأخذوني إلى أوديسا برفقة جنود "الجيش الأحمر" الجرحى والمصدومين التابعين للكتيبة الأولى.

حظيتُ بمنظر شامل ورائع أمامي عبر نافذة جناحي في الطابق الأول من المستشفى. كانت أغصان أشجار التفاح والأجاص والدّراق، في بستان مهجور، تتمايل بفعل الرياح القادمة من البحر، والأوراق المُصفّرة ترتعش، والفاكهة الناضجة

تسقط على الأرض. كانت عصافير رمادية صغيرة وزراير سوداء الرأس تطير من غصن إلى آخر. من المحتمل أنهم كانوا يصفرون لبعضهم بعضاً، لكنني لم أستطع سماع أي شيء. كان مشهد الخريف الصامت الفارض ذاته مُطمئناً لسبب ما وباعثاً على التأمل. كنت أستعيد سمعي ببطء. أما الألم في مفاصلي وعمودي الفقري، فكان يلوعني ليلاً.

بينما كنت مستلقية على شراشف متموجة بفعل النشاء في الغرفة النظيفة والمُرْتَبَة وأشرب شاي الصباح الحلو والثقيل، الذي كان يُقدَّم في الثامنة، مع كعكة دوماً، تذكّرتُ السهوب المحمومة تُدَوِّي بالانفجارات. تبدّى الأمر في هذا المكان، وفي الصمت المُطبّق، مثل حلم بعيد وغريب، ومرعب أيضاً، ومُنْفَصَم عن الواقع. على أي حال، لا يزال رفاقي في السلاح موجودين هناك ومكاني محفوظاً بينهم. سرعان ما وصلني عبر الفوج عدد من الرسائل ممن هم أعزاء عليّ. كانت والدتي المحبوبة، يلينا تروفموفنا، قلقة على صحتي، ونصحتني ألا أشرب مياه غير مُعالجة من قنوات مياه مكشوفة أثناء المسير. أما والدي، ميخائيل إفانوفتش، فكان يتذكّر الحرب العالمية الأولى والحرب الأهلية، مؤكّداً أنّ آل بلوف محظوظون في المعارك دوماً. وكانت أختي الكبرى، فالنتينا، تصف سير عملها في وظيفتها الجديدة. كانوا جميعهم بعيدين جداً عني، في أودمورتسكيا Udmurtia، حيث أجليّ مصنع الذخائر عن كيف. متحاملة على نفسي، جلست للرد على رسائلهم، وحاولت جاهدة رسم الحروف بيدي اليمنى التي كانت تتماثل للشفاء تدريجياً، مستعيدة قوتها ودقتها السابقتين. كانت الكتابة قاسية بعض الشيء، لكنها نابعة من القلب، على أقل تقدير.

فالنتينا ميخايلوفنا بلوفا

مكتب البريد الرئيسي، فوتكيسك، يُحفظ بمكتب البريد،
جمهورية أودمورتسكيا،

عزيزتي فال،

تمكنت من الخروج من المستشفى إلى المدينة البارحة. تلقيت بطاقة
لينا البريدية التي استغرقت شهراً ونصف لتصل من كيف إلى أوديسا.

أعطتني ليña عنوانك. لماذا لم تأخذها معك؟ لقد مضى على وجودي في الجيش شهر وعشرة أيام. لقد تمكنت أن أكون شرسة مع الرومانيين والألمان، وخدمت على الخط الأمامي. فالحنازير طمروني بالتراب... أنا في المستشفى الآن. سأغادر في غضون يومين وألتحق بوحدتي، حيث دوري الخاص هو جنديّة-قناصة. ما لم أتعرض للقتل، أعتزم الوصول إلى برلين، وتلقين الألمان درساً والعودة إلى كييف. فحساباتي بسيطة، أي ألف ألماني، عندئذ يمكنني أن أرفع رأسي عالياً بكل فخر. يُمكن القول إنني حددت أهدافي ولن أنسحب أكثر من ذلك. باختصار، لست ضجرة. إنها حياة مرحلة. لو تكرّمت، راسليني عن طريق: Chopak، مكتبة الأبحاث، ١٣ شارع Pasteur، أوديسا. فستُرسَل إليّ.^١

في اليوم قبل الأخير من آب/ أغسطس ١٩٤١، خُرجتُ من المستشفى من أجل الالتحاق بالخط الأمامي مزوّداً بوثيقة تُثبت شفائي التام من صدمة حادة. قررت زيارة صديقتي، صوفيا تشوباك، التي كانت لا تزال تعمل في المكتبة. في الطريق إلى ذلك المكان، أوقفت مرّتين من دوريات للتحقق من وثائقي. من المحتمل أن سترتي العسكرية، التي نُظّفت في مَصْبغة المستشفى وكُوِيَتْ بشكل محترف، وتحتوي عُرى استعراض عسكري أوروبية غامقة مخيطة على الياقة بدلاً من العُرى الميدانية النظامية الكاكية، أثارت الشبهات، أو ربما مظهري وراء ذلك. مع كلّ ذلك، ثمة قلة قليلة جداً من النسوة في الخدمة العسكرية حينذاك.

لقد مرّت أوديسا الهادئة والجميلة مسبقاً وسكانها الظريفون بتغيّر مفاجئ في غضون شهرين من بداية الحرب. فرُفِعَت متاريس من أكياس الرمل في بعض الشوارع، وزُوِّدت الساحات بمدافع مضادة للطائرات. دكاكين كثيرة أغلقت أبوابها، في حين عملت الدكاكين الأخرى على تثبيت شريط لاصق متقاطع على واجهاتها. لقد اختفى الكادر العامل في المصايف. وهُجِرَت المنتزهات والشوارع العريضة المُشجرة

١ رسالة بافلتشنكو إلى شقيقتها الكبرى بتاريخ السابع والعشرين من آب/ أغسطس ١٩٤١. إنها مودعة في الوقت الراهن في "متحف القوات المسلحة الفيدرالية الروسية" المركزي، وبرقم إيداع ١٨،٦٨٠/٤.

والطرق والساحات. كانت دوريات "الحرس الوطني" المزودة ببنادق فقط تسير على طول الطريق المرصوف بالحصى. وكانت المنشآت الصناعية، والمرافأ، ووسائل النقل والاتصالات، ومحطات المياه، تحت حراسة مُشدّدة.

كانت المدينة تشعر بالقلق إزاء المخرّبين، وليس دون أسباب موجبة. كان النازيون يقصفون أوديسا بانتظام. ففي أوقات شتّى، كان أحدهم يُرسل إليهم إشارات من عليات المباني المتعددة الطوابق، ويوجّه القاذفات إلى أهدافها. على هذا المنوال، عانى المرفأ من أضرار على وجه الخصوص.

في إحدى الحوادث، هبطت طائرة حربية صغيرة مجهولة الهوية في مطار أوديسا المدني. كما يقول المثل، تركتها دفاعاتنا المضادة للطائرات تفلت من المراقبة. قفز منها سبعة عشر ألمانياً يحملون بنادق نصف آلية وأطلقوا النار. كانوا يحاولون الاستيلاء على المطار تمهيداً لهبوط آخر مترافق بعدد كبير من الجنود. سرعان ما ثاب جنود كتيبة الدمار، إليشيف Ilyichchev، إلى رُشدهم نسبياً. فتم تطويق الأعداء وإبادتهم. وصودرت الطائرة. ولم يُكتب للألمان النجاح في أيّ حالات هبوط أخرى على الإطلاق.

تحدّثت صوفيا عن هذا الأمر وعن مزيد من الأمور عندما التقينا في مستودع الكتب والمخطوطات النادرة في مكتبة الأبحاث. كان المكان أشبه بخلية نحل حقاً، إذ يملأ الموظفون صناديق خشبية كبيرة بالملفات، والمجلدات الجلدية المحتوية مخطوطات قديمة، وبالتحف القيّمة المتنوعة، ويعدّونها، ويحدّدون أوصافها. بعد إعلان الحصار في المدينة، أخذت مؤسسات ثقافية كثيرة، بما فيها مكتبة الأبحاث، تستعدّ للرحيل إلى القوقاز. لم تُقرر صوفيات تشوباك هل ستلتحق بالركب أيضاً. قد يكون لقائنا هذا الأخير أيضاً.

أمضيت بقية اليوم لدى عائلة تشوباك الودودة والمضيافة حيث استمتعت بعشاء بسيط في شقتهم في شارع الإغريق. لقد جعلت اللجنة التنفيذية لمجلس أوديسا الإقليمي بيع الخبز الطازج، والسكر، والحبوب، والدّهون، بموجب بطاقات تموينية بدءاً من ٢٥ آب/ أغسطس. على أيّ حال، استمر السوق الشهير في ساحة Privoz بالعمل. مبدئياً كان لا يزال يبيع كلّ شيء قد تحتاجه، لكن الأسعار ازدادت ضعفين

أو ثلاثة. تبين أنها أمسية هادئة.

لقد دمر جنود المدفعية في قيادة مدمرة الأسطول طشقند في التاسع والعشرين من آب/ أغسطس بطارية مدفعية رومانية كانت ترمي من مصب نهر Bolshoi Ajalyk. لقد استهدفت المدينة والمرافأ وقناته الملاحية الرئيسة ثلاثة أيام، مانعة بذلك سفن أسطول البحر الأسود من إفراغ الكتائب المُجنّدة حديثاً، والأسلحة، والذخيرة، والأطعمة، والعتاد، للقوات السوفياتية المُحاصرة. إضافة إلى ذلك صدّ الجيش الساحلي اعتداء رومانياً آخر، رغم تمكّن النازيين من الاقتراب من أوديسا، أي على مقربة من بلدة Fontanka في قطاع الدفاع الشرقي، وبلدات Freidental و Krasny Pereselyenyets في القطاع الغربي.

حصلت في الصباح الباكر على توصيلة خارج المدينة في شاحنة متوجهة إلى مصبي نهري Bolshoi Ajalyk و Kuyalnik. كان مركز قيادة الكتيبة الأولى يقع بالقرب من قرية صغيرة. أبلغت النقيب سيرغينكو بالتحاقى بوحدتي من أجل استئناف العمل. وختمت حديثي بهذه الكلمات: "جندية الجيش الأحمر" بافلتشنكو "فابتسم الكابتن، قائلاً: "لقد ارتكبت خطأ، يا لودميلا".

- أيّ خطأ، سيدي الرفيق النقيب؟

- أنت لست جندية الآن، بل عريفة. تهانينا.

- أنا أخدم الاتحاد السوفياتي!

كنت أريد الصراخ بأعلى صوتي من الفرح: "يعيش!" لكن وفق الأصول المتبعة كان عليّ التصرف برصانة وانضباط. مع ذلك، كانت ترقيتي العسكرية الأولى. كوني التحقت بـ "الجيش الأحمر" متطوعة، كنت أفكر في مسيرة عسكرية، لكن لم أكن أتوقع أن تحظى حماسي ونجاحي وأنا فتاة على تقدير القيادة في غضون شهر ونصف فقط. على أيّ حال، كانت الخسائر الفادحة في صفوف قواتنا باعثاً على الترقية السريعة في سلم الخدمة، أي بالنسبة إلى من بقوا على قيد الحياة.

استمر الحديث في مركز القيادة، وعلمت أثناء إقامتي بالمستشفى أنّ ثمة تغييرات في سريتنا الثانية. أولاً: لقي قائد فصيلتي، الملازم فاسلي كُفتون، حتفه مع ثلاثين رجلاً آخرين تقريباً. حدث هذا الأمر أثناء المعارك الدامية بين الرابع

والعشرين والسادس والعشرين من آب/ أغسطس بالقرب من مصب نهر Kuyalnik. ثانياً: سُدَّ النقص في الفوج ببخارة متطوعين من سفاستوبل. كانوا مُستميتين لقتال العدو، لكن لم يكن لديهم خبرة في الخدمة ضمن سلاح المشاة. كما التحق بنا نحو مئة من سكان أوديسا.

قال إيفان سيرغينكو: "أنا سعيد لعودتك إلى الفوج. كنت آمل أن يحدث هذا الأمر، ولقد أحضرت بعض الهدايا لك. فالهدية الرئيسية هي بندقية قنص Mosin جديدة بدلاً من القديمة المكسورة".

– شكرًا لك، سيدي الرفيق النقيب.

– أما الهدية الثانية، فهي أبسط. لكن أخال أنها ستنال إعجابك أيضاً. سلّمني قائد الكتيبة علبة رمادية صغيرة من الكرتون المقوّى مثل العلب التي تُعلّب فيها السلع العسكرية.

فتحتها، وكان داخلها مثلثان نحاسيان، وشارة رتبتي العسكرية الجديدة. اقْتُضي تثبيتها في العُرى الأرجوانية الغامقة الفارغة في زوايا ياقتي العلوية. كيف تسنّى له العثور على مثل هذه الأشياء المعدنية الدقيقة في السهوب التي أمطرت بوابل من الأسلحة النارية وحوّلت إلى خنادق؟ لقد أبدى القائد اهتماماً بي، الأمر الذي أثلج صدري. لم يكن القائد سيرغينكو مهتماً بي فحسب، بل بجنود الكتيبة الأولى كلّهم أيضاً. كان ضابطاً محنكاً جداً، واستباقياً، وصارماً، ورجلاً مُنصفاً. وعندما جُرّحَ المقدم سفدنتسكي Svidnitsky وترك فوجنا الرابع والخمسين، كان جميعنا يتوقع أن المهمات المنوطة بالقائد إضافة إلى رتبة رائد (التي كان يستحقّها من حيث الخدمة) ستنتقل إلى سيرغينكو. لكنّ القيادة قررت خلاف ذلك، وعيّنت الرائد إن. إم متوسيفيتش N. M. Matusyevich الذي كان له باع طويل في العمل ومشاركة في الحرب الأهلية كجندي صغير في جيش الفرسان الأول.

ففي مقر قيادة الكتيبة، ثَبَّتَ المُثلثين على عُراي، وانطلقت قاصدةً خطوط نار السريّة الثانية بوصفي عريفة نظامية. رافقني سيرغينكو مودّعاً ببعض كلمات مفادها أنّه يجب عليّ البحث عن أناس بين الأغرار الجدد قادرين على الخضوع للتدريب في فن القنص. وفي الخنادق من المحزون أنّ بضعة جنود من الفرقة القديمة فقط كانوا

ينادونني باسمي. أما الآخرون، فكانوا يراقبونني بدافع الفضول. لم يكن البحارة، الذين كانوا يُبحرون في الفسحات المائية حتى تاريخه، يريدون الانتقال إلى البزّة الكاكية، أو خلع قبعاتهم البحرية المفتقرة إلى واقيات الوجه، وستراتهم العسكرية الكحلية، وصدرياتهم الزرقاء والبيضاء، وسراويلهم الشرلستون السوداء. رغم أنهم خبراء معنيون بالسفن، لم يتسنّ لهم حمل بندقية بأيديهم على الإطلاق، ولم تكن كلمة "قناص" تعني شيئاً لهم. بكلّ صراحة، لم يكن تحويل بحّارة إلى قناصين فائقين في مدة قصيرة احتمالاً سهلاً. فبدأنا إقناعهم بارتداء خوذ وسترات وأحذية عسكرية بدلاً من العادية.

في هذه الأثناء، حددت القيادة العليا في منطقة الدفاع عن أوديسا بعض الأهداف الخاصة للقناصين، أي احتلال أفضل المواقع من أجل المراقبة والرمي، وألا يجعلوا العدو يشعر بالأمان، وحرمانه التحرك بحرية في الخطوط الأقرب إلى الجبهة، وإضعاف معنوياته. لم يكن ثمة شيء جديد أو أصيل في هذا الأمر، لكنّ مسرح النشاط العسكري نفسه، أي سهوب مُسطّحة مصحوبة بهضبة عَرَضِيَّة، غير مشجّرة تقريباً، وبمراكز سكانية متفرّقة، قدّم فرصاً ضئيلة لإعداد مخابئ قناصين، لكن التموية كان أكثر صعوبة.

وجب علينا البحث عن طرائق لمقارعة الغازي. قررنا إعداد مخابئ بعيدة عن خطنا الأمامي ونقلها قُدماً إلى منطقة منزوعة السلاح تبعد ٤٠٠-٦٠٠ متر، والأقرب إلى العدو. فعلنا ذلك بعد استطلاع دقيق أنجزناه بأنفسنا عبر دراسة الموقع عن كثب وتحديد ملاءمته للرمي الموجّه وتأمين آلية مغادرة المخبأ لاحقاً والعودة إلى وحدتنا.

سأصف غارتنا الأولى على أنها مثال. استطلع كلّ شيء، وانطلق ثلاثة منّا في المهمة ليلاً، أي جندي مزوّد برشاش Degtyarev خفيف (DP) خاص بالمشاة، ومُبيدة القناصين (أي أنا)، ومراقب القناص (بيوتر كولوكولتسيف Pyotr Kolokoltsev). مُلئت حقائب أقنعة الغاز بالرصاص، وتدلّت البنادق من أحزمتنا. بمعزل عن بندقية، زوّد كلّ منّا بمسدس TT (Tula-Tokarev)، وهو خيار من بين المسدسات بحكم رصاصته النافذة. لدى إعدادنا المخبأ، أدركنا أنّه قد لا تكون كلّ طلقة هي النهائية بالنسبة إلى

العدو. ستعتمد دقة رمينا على ظروف كثيرة كانت خارج سيطرتنا أحياناً. اخترنا دغلاً من شجيرات طويلة وكثيفة للغاية بوصفه موقع الاختباء. كان مُعَيَّن الشكل يبلغ طوله ١٥٠ متراً تقريباً وعرضه ١٢-١٥ متراً. كانت إحدى نقاط المُعَيَّن مُسقطه على الخط الدفاعي الروماني وتنتهي في مجرى مائي ضحل في منطقة نسق العدو الثاني. كان المخبأ يقع على بُعد ستمئة متر تقريباً من الخط الأول لخنادق الفوج الرابع والخمسين. بطبيعة الحال، كانت المسافة طويلة للغاية، لكننا نسقنا مع رماة الرشاشات البقاء تحت مراقبتهم وتغطية انسحابنا عند تلقّيهم إشارة من طرفنا (مثل رفع معول خبير ألغام صغير).

لدى خروجنا من المخبأ بعد منتصف الليل، كانت تغطية المسافة إلى المخبأ تستغرق منّا ساعة. وكان القمر في السماء الصافية يُنير البيئة المحيطة، الأمر الذي جعل الممرات والمساحات الوعرة وحُفر القذائف كلّها تظهر بوضوح. فكانت ليلة البحر الأسود اللطيفة والدافئة والهادئة تُعاق الريف من حولنا. لم ينخرط أيّ من الطرفين في زعزعة الاستقرار لنيران البنادق والرشاشات الاعتيادي. كان كلّ شيء محيط به جميلاً وآمناً للغاية! كان احتمال ملاقات العدو في دغل الشجيرات فقط مُعكّراً لصفونا. فوجب علينا الاحتراس أثناء سيرنا قدماً بخطى واسعة، ووضع أسلحتنا بحالة التأهب. تبيّن أنه لا رومانيين في الدغل. لم نستطع استيعاب أنهم لم يحتلوه ويضعوا مركز مراقبة على أقل تقدير. أغزو هذه الحقيقة إلى استهتارهم العجري. حاول الألمان الدقيقون والواعون تعليم حلفائهم الحرب الحديثة، لكنهم لم يفلحوا.

كرّسنا بقية الليل لتجهيز مواقعنا. فحفّرنا خنادق مزودة بسواتر صغيرة، ودعّمناها بالحجارة والتراب، ووضعنا بنادقنا عليها، وجعلنا كلّ شيء صالحاً، وحسبنا المسافات. جهّز رامي الرشاش سلاحه.

سطع الضوء. كان ثمة حركة ما في الخطوط المعادية في الخامسة صباحاً. كان الجنود يتنقلون منتصبين القامة تماماً، ويتحدثون بصوت عالٍ، وينادون بعضهم بعضاً. وصل المطبخ الميداني في السادسة. وباتت الأمور تنبض بالحياة أكثر. ظهر الضباط، وأعطوا أوامر بصوت عالٍ. فعلى مسافة بعيدة نسبياً ظهر ما تبدّى،

في غالبية الظن، مركزاً طبياً، إذ كانت مراييل الكادر الطبي الناصعة البياض واضحة كلّ الوضوح لنا.

على العموم، ثمة كثير من الأهداف. فقسمنا قواتنا، أي سأتولّى الجناح الأيسر، وبيوتر كولوكتسيف الجناح الأيمن. أمّا رامي الرشاش، فأبقى المركز تحت المراقبة. وانتظرنا حتّى العاشرة صباحاً، مُستعرضين الآلية التي تصرّف بها الأعداء عندما كانوا على مسافة بعيدة نسبياً عن الخط الأمامي، ثم أطلقنا النيران.

أصاب الرومانيون رعب حقيقي. فلدقائق، لم يستطيعوا تحديد الجهة التي أتت منها الطلقات، وأخذوا بالتدافع والانتشار، الأمر الذي زاد ذعرهم المصحوب بنواحهم المسعور. لكننا قسنا المدى، وضبطنا مناظيرنا. وبلغت كلّ طلقة هدفها تقريباً. فخلال عشرين دقيقة على وجه التقريب، أطلقنا وكولوكتسيف سبع عشرة طلقة لكلّ منا، فجاءت النتيجة: بلغت حصتي ستة عشر صيداً. أمّا حصّة بيوتر، فكانت اثنا عشر. ورامي الرشاش، الذي كان يُفترض به تغطيتنا في حال هجوم معادٍ ومباشر على مخبئنا، لم يرم لأنه لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك.

نظراً إلى تمالكهم أنفسهم، أطلق الرومانيون قذائف الهاون ونيران الرشاشات على الدّغل. على أي حال، لم يتمكنوا من رصدنا، وعليه باءت رمايتهم بالفشل. وجب علينا أن نلوذ بالفرار؛ تمكنا من العودة إلى خطوطنا الذاتية بخير وعافية، وكتبنا تقريراً لقائد الفوج، وتلقينا رسالة شكر رسمية لقاء عملنا الجسور.

كنّا نفكر فيه، وقررنا الذهاب إلى المكان نفسه مجدداً من أجل الرصد ليلاً. تقدّمنا بهدوء ومن دون توتّر. لكن لدى وصولنا إلى الدّغل شعرنا بجزع كبير. لقد أخذنا زجاجات المياه معنا في اليوم الأول، لكننا لم نحضر الزجاجات لدى عودتنا. بدلاً من زجاجات المياه الثلاث التي تركناها وراءنا، اكتشفنا ست زجاجات، وكانت جميعها تحتوي نبيذاً حلواً. أرغمتنا الزجاجات على التفكير ملياً وبجدية: "ألا ينبغي لنا الخروج من هذا المكان كلياً؟" كما عثرنا على رصاصتين وأخدود ضيق على العشب ناجم عن رشاش Schwarze. فقداننا الأثر نحو العدو. كان الأمر واضحاً، أي كان الحراس الرومانيون موجودين في هذا المكان أثناء النهار. لقد استنبطوا أخيراً أنّ الدّغل مَقْتَلٌ في خطّهم الأول، لكن أبقوا عليه من أجل الليل ولسبب ما. من المحتمل

أنهم لم يتوقعوا هجوماً مُعاداً من الموقع نفسه. استطلعنا قطاعنا مجدداً، وأقنعنا أنفسنا أن كل شيء على ما يرام، وقرّرنا... البقاء.

أطلقنا النيران عند الظهيرة. كان إعادة لمشهد اليوم السابق، أي كانت حصيلتي عشرة قتلى، بما فيها ضابطان، في حين كانت حصيلة بيوتر كولوكلتسيف ثمانية قتلى. في هذه المرة، استعاد الرومانيون هدوءهم بسرعة وأخذوا يردّون بالرمي على الدّغل برشاشين. فأخذت الصّليات تقترب أكثر فأكثر من خنادقنا. أوقفنا إطلاق النار، وانسحبنا، وتحركنا بشكل متخفّ إلى أحد الجوانب، ودنونا من رامبي الرشاشين من الجناح. أطلقنا خمس طلقات بقنّاصاتنا من مسافة مئة متر وقضينا على الدورية. أعجب بيوتر برشاشات العدو؛ كانت جديدة للغاية ومكوّناتها لامعة كلّها. باختصار، أخذنا أحد الرشاشين معنا، وطمرنا كتلة مغلاق الرشاش الآخر. وعثر عليه كشافة الفوج لاحقاً باتباع إرشاداتنا، وأخذوه مع الرشاش بوصفه غنيمة لهم الشخصية. كان ثمة غلب رصاص وافية ملقاة هنا وهناك، واستمر الرشاشان النمساويان في خدمة "الجيش الأحمر".

كان استخدام هذا الموقع كمخبأ للقناصين للمرّة الثالثة أمراً غير منطقي. وعليه، وجدنا مخبأ آخر، أي بيتاً أبيض مُدمراً نصفه ومهجوراً من سكانه. كان يقع في المنطقة المحايدة نفسها، وعلى بُعد أربع مئة متر من الدّغل. نظراً إلى احتلالنا له راقبنا السيناريو الآتي من العلّة في اليوم اللاحق: شن الرومانيون في السابعة والنصف هجوماً عنيفاً بالهاون على الدّغل وقصفوه ثلاثين دقيقة تقريباً بلا هوادة. لم يكن الأمر سيئاً عندما يُبدّد العدو ذخيرهته بلا هدف.

بالنسبة إلى ستة وعشرين رومانياً سيقون في سهوب أوديسا إلى الأبد (في حين كان مجموعي الإجمالي يقترب من خمسة وستين)، لم أشعر أنني أستحق أيّ مكافأة. لم نكن نتوقع في الأشهر الأولى من الحرب أيّ أوسمة، بل فكّرنا ملياً في الدفاع عن وطننا ضد الغزاة المسعورين. لاحقاً، عام ١٩٤٣، بعد إحداث وسام المجد للجندي، مُنح من المرتبة الثالثة أو الثانية لأولئك القناصين الذين قضوا على عشرة أو خمسين إلى سبعين جندياً وضابطاً معادياً. مثلاً مُنحت أربع عشرة امرأة شابة، من خريجات مدرسة تدريب القناصين المركزية للنساء، أوسمة مُضاعفة مشابهة، من المرتبة الأولى

والثانية. رغم أنها ليست خريجة مدرسة القنص المركزية للنساء، تلقت المساعد أول نينا بافلوفنا بتروفا Nina Pavlovna Petrova فقط وسام المجد في مراتبه الثلاث كلها، أي الثالثة والثانية والأولى (تُمنح المرتبة الأخيرة بعد الوفاة). بلغت حصيلتها ما يزيد عن مئة وعشرين نازياً.

لم أكن أكثر البطلات شهرة في حصار أوديسا ضمن فوج الرماة سْتَبَان ريزن الرابع والخمسين، بل رامية الرشاش نينا أنلوفنا Nina Onilova. نظراً إلى كونها يتيمة، ونشأتها في دار للأطفال، وعملها في مصنع في أوديسا، التحقت نينا ذات العشرين ربيعاً بنا، بوصفها ممرضة في سرية خدمات طبية، في النصف الثاني من آب/ أغسطس ١٩٤١، إضافة إلى سكان المدينة المتطوعين. سرعان ما طلبت نقلها إلى وحدة ميدانية لأنها درست رماية الرشاش في منظمة أسوأياكم التعليمية. كانت قيودها في كيبيتنا، وخدمت في السرية الأولى. وعليه، من البديهي أننا كنا نعرف بعضها بعضاً.

نظراً إلى أنني لم أشاهد مناقبها بنفسي، أودّ الانتقال إلى ذكريات محاربي أوديسا القدامى الذين عاصروا نينا في ميدان المعركة وخارجه. فعلى حدّ تعبير اللواء البحري أزروف

أخذوا في البداية يتحدثون عنها بعد المعركة في محيط قرية Gildendorf. في لحظة حرجة، نقلت نينا والجنديّة زابرودين Zabrodin، رقمها الثاني في التعيين، رشاشيهما على عجلات إلى فسحة مكشوفة وصوّبتا نحو العدو المُهاجم. كان رميّهما دقيقاً. اختفى الفاشيون، وزحف من بقي منهم على قيد الحياة نحو جانبيهم الذاتي. فضدّ الهجوم.^١

يتذكر الجنرال تروفيَم كُولُومِيِتْس Trofim Kolomiyets:

عندما عدت إلى القاعدة، دخل رئيس القسم السياسي ومفوض الكتية الأقدم، إن. إي. بردوفسكي N. A. Berdovsky وبصحبه فتاة قصيرة القامة مرتدية بزّة "الجيش الأحمر". استوقفت بردوفسكي نظرتي

1 I. I. Azarov, *Odessa under Siege* (Moscow, 1966), p. 81.

الفضولية، الأمر الذي دفعه إلى تقديمها: "رامية الرشاش نينا أنلُوفاً من فوج الريزن. أُصِيبَتْ بجروح أثناء الدفاع عن أوديسا ونُقِلَتْ إلى مستشفى في مؤخرة القوات. أمّا الآن، فهي تقول إنَّها بخير وبصحة جيدة..." وتلك كانت حالها، نينا أنلُوفاً هذه، التي أردت مئات الفاشيين، والمُلقَبة "أنيا الثانية"^١ في فوج شَبَاف. سرَّحوا بصركم في شابة ذات وجه دائري ضارب إلى السُّمرة، وعينين ضاحكتين وجذابتين، وابتسامة خجولة نسبياً... على الأغلب، لم يكن ثمة جندي واحد في الجيش الساحلي لم يسمع بها.^٢

وصف منظم "رابطة الشبيبة الشيوعية"، ياكوف فاسكوفسكي، أعمال نينا النبيلة بإسهاب أكبر في مذكراته الشخصية:

أثار اهتمامي هجوم معاد آخر على مقر قيادة الكتيبة الأولى. فجأة صرخ قائد الكتيبة إيفان سيرغينكو، الذي كان يُراقب ميدان المعركة من خلال شقّ في الجدار، على سماعة الهاتف مُهدداً: "لماذا لا يرمي الرشاش على الجانب الأيسر؟ تحققوا من ذلك فوراً. قوموا بالرمي بأنفسكم إذا لزم الأمر!" كان هذا الكلام موجَّهاً إلى قائد السرية، الملازم إيفان غرنتسوف Ivan Grintsov. فركض على طول خندق في الجانب الأيسر. كان الوضع خطيراً حقاً. على ما يبدو، عندما لاحظ الفاشيون المهاجمون أنّ الرمي في ذلك المكان لم يكن قوياً بما فيه الكفاية، أخذوا يتحركون نحو ذلك الجانب. كانت مفرزة الرشاشات جديدة، ولتّوها التحقت بالكتيبة، ولم يتسنَّ لقائد السرية التعرّف إلى الأفراد قبل المعركة.

لدى جريه نحو رامي الرشاشين، شاهد غرنتسوف الرامي الأول منحنيّاً لا حراك به، بينما كان الثاني واقفاً في الخلف كأن المسألة بسيطة. قال رامي الرشاش الأول بأسلوب هادئ تماماً ومن دون التفات: "لا يزالون بعيدين

١ في إشارة إلى صديقة شباف الحميمة.

٢ من مجموعة مذكرات الحرب By the Black-Sea Fortresses، موسكو، ١٩٦٧، ص. ٢٠٥.

للغاية. دعوهم يقتربون قليلاً...“. لكن كان ثمة سبعون متراً تقريباً فقط تفصلنا عن صفوف العدو.

لم يستطع غرنتسوف ضبط نفسه وصرخ: “ماذا أنت فاعل؟ سيمطرونك بوابل من القنابل في أي لحظة!“ كان مستعداً أن يدفع الرامي جانباً من أجل أن يرمي بنفسه. لكن الرشاش بدأ العمل في تلك اللحظة. كانت القوات المعادية محتشدة في قطاع ضيق. فحصدت الصلية الأولى نصفهم تقريباً، إذ كانوا قريبين جداً لدرجة أنه لم يكن لديهم مكان للاختباء فيه. أما الآخرون، فسقطوا على بعد ثلاثين متراً من الرشاش تقريباً. كانت صيحة “يعيش!“ تصدر عن خنادقنا. على ما يبدو، لم يرَ أحد في السرية نيران رشاشة مثلها.

هتف غرنتسوف: “أحسنتم! انظروا فقط إلى عدد الفاشيين الملقين في ذلك المكان! فالوسام لن يوفيكُم حقّكم!“ أخيراً التفتت رامية الرشاش إلى قائد السرية الذي رأى أمامه شابة ضاربة إلى السُمرّة ذات وجه دائري بشوش وقصّة شعر قصيرة مثل صبي... سرعان ما سمع الفوج برمته برامية الرشاش، أنلّوا، “أنبار رقم اثنان في فوج شباييف“. وسمعت بها فرقة الرماة الخامسة برمتها أيضاً...^١

نالت نينا أنلّوا “وسام الراية الحمراء“ مبكراً جداً أيضاً، في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١ على جبهة سيفاستوبول. وتبعاً للبيانات الناجمة عن الدفاع عن أوديسا، مُنحت أوسمة في تلك المناسبة لعشرة جنود من فوجنا العظيم والمقدام الذي ضحّى بذاته من أجل المدينة وتحمل خسائر جسيمة في المعارك مع الفاشيين.

بكل صراحة، لم نكن جميعاً مذهولين بابتكار نينا التكتيكي. كان النقيب سيرغينكو متوتراً على وجه الخصوص. كانت أنلّوا تشغل وكر رشاش وحيد، لكنّه كان مسؤولاً عن كتيبة الخط الأمامي برمتها. لدى استدعائه الرامية، مدحها قائد الكتيبة على شجاعتها، لكنه حذّرها أنّ الرمي من مثل هذه المسافات القصيرة أثناء هجمات العدو الجبهية خطر كبير جداً. فضلاً عن ذلك قد تقتحم جماعة مستقلة من

1 By the Black-Sea Fortresses (Moscow, 1967), p. 135.

الجانب وتمطرها بوابل من القنابل. كانت رشاشات Maxim الثابتة في الفوج قديمة للغاية، ومن نتاج ما قبل الثورة، إذ كانت آلية عملها تتوقف باستمرار عند الحمولة الثقيلة، وإذا ما حدث هذا، لاشيء سيحامي نينا والجنود الآخرين معها. لم تكن تؤدّي دور البطولة في فيلم Chapayev [شبايف]، حيث لم يتمكن البيض فيه من الوصول إلى الخطوط الحمراء. كان الأمر حرباً حقيقية، وقد تتطور الأوضاع في ميدان المعركة بطرائق مختلفة.

نتيجة لذلك لم يُسمح لأُنلُوفًا باستخدام نهجها الابتكاري، على الأغلب، وفُرضَ عليها التزام توجيهات الخدمة حرفياً. على أيّ حال، لم يعد الأمر مهماً. طبعت صحيفة الفرقة الخامسة والعشرين الأوسع انتشاراً، *The Red Army Soldier* [جندي الجيش الأحمر]، ومنشورات عسكرية أخرى، حكايات ساحرة عن أعمال هذه الفتاة الجسورة، إذ جنى الكادر السياسي المعني بالدعاية ضمن الجيش أموالاً طائلة من صورة رامية الرشاش الشهيرة هذه التي استوحت خصالها العظيمة من أبطال الحرب الأهلية الرومانسيين.

لكن لم يرَ أحد أي شيء رومانسي في فن القنص آنذاك. في المقام الأول، كانت كلمة "قناص" غريبة ومُلتبسة. ثانياً: كانت عمليات رامي الرشاش والرشاش حافلة بالعمل، وتبدّت أكثر تشويقاً من الرمي من مخبأً بكثير. كانت صلية من النيران تنفجر وثُلّة من الأعداء تسقط أرضاً فوراً. لكنّ الطريقة التي ينال فيها قناص من ضابط في خط متقدّم، وعليه يصدّ الهجوم، لم تُطرح على نحو رائع. ثالثاً: الأمر يتعلّق بالقناصين أنفسهم. أيّ نوع من الناس هم؟ إنهم قليلو الكلام، وانطوائيون، ومتجهّمون أيضاً. كانوا عاجزين عن تقديم وصف تفصيلي دقيق للآلية التي قنصوا بموجبها الأعداء (ليس من قبيل أنّه مسموح لهم فعل ذلك، كونهم وقّعوا بند الأسرار الرسميّة).

في بداية أيلول/ سبتمبر ١٩٤١ (أعتقد بين اليوم الثالث والخامس)، اكتشفنا، أثناء بقائنا في القطاع الشرقي من منطقة أوديسا الدفاعية، أنّ فوجنا سيلتحق مؤقتاً بفرقة رماة مُشكّلة حديثاً، المعروفة مبدئياً بالفرقة الأوديسية الأولى، لتُعطى الرقم ٤٢١ لاحقاً. انتهى المطاف بمعارفنا القدامى بصحبتنا، أي فوج مشاة البحرية الأول بقيادة العقيد واي. آي. أُسبُوب Y. I. Osipov، ورقمه الحالي ١٣٣٠،

وفوج جهاز الأمن الداخلي السادس والعشرين، ورقمه الحالي ١٣٣١، المُعزَّز بجنود من المنطقة المُحصَّنة رقم ٨٢ السابقة، إضافة إلى فوج مدفعية، وكتيبة خبراء ألغام، وكتيبة رشاشات، وبعض الوحدات الأخرى. كان جي. إم. كوشنوف G. M. Kochenov يشغل منصب قائد الفرقة. وكانت مقرات قيادة الأركان في مستشفى Kuyalnik ومقر قيادتها المُتقدِّم في قرية Ternovka. كانت تواجه الفرقة مهمة الحفاظ على جبهة بطول ١٧ كلم ومقاومة فرقتي مشاة رومانييتين كاملتي العديد. فصَدَّينا هجماتهم طوال السادس من أيلول/ سبتمبر. وفي اليوم السابع، شرعنا في الهجوم بأنفسنا. فانسحب الرومانيون من ٥,٠ إلى ٢ كلم في القطاعات المختلفة من الجبهة، مُخلِّفين في الميدان قرابة سبعمئة قتيل وجريح في حال الخطر من الجنود والضباط. ووقع مئتان منهم أسرى بأيدينا، وُودر عتاد ومدافع هاون ورشاشات عادية وقصيرة وكثير من الذخيرة.

في اليوم اللاحق، الثامن من أيلول/ سبتمبر، انقضَّ الرومانيون على الكتيبة الثالثة من فوجنا الذي كان يتخذ مواقع له في البرزخ الفاصل بين مصبي نهري Khajibeisk وKuyalnik. فهرعنا لمساعدة زملائنا في الفوج، وصَدَّينا الهجوم المعادي بمؤازرة من قواتنا المشتركة. استمر القتال العنيف المترافق بقصف مدفعي شديد في التاسع والعاشر والحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. وتمكَّن حرس الحدود السابقين، الجنود الشجعان والمنضبطون الذين باتوا فوج الرماة ١٣٣١ حالياً، من الاختراق قُدماً. لقد ركزوا أنفسهم بثبات على الخط الفاصل بين قرية Bolgarka، وقرية Avgustovka، وتخوم قرية Protopopovka الشمالية.

ماذا يُتوخى من القناص فعلة في اشتباكات مثل هذه كانت تلتحم فيها حشود هائلة من القوات على سهل فسيح؟ كان الجواب بسيطاً: من أجل احتلال تحصينات مُعدَّة مسبقاً (كان بعضها موجوداً في هذه المنطقة) بمؤازرة جنود آخرين، وتنفيذ رمي موجّه من خنادقهم، وذلك من باب أولى ما دام الأعداء يتقدّمون رغم أيّ خسائر.

عند هذه المرحلة، رأيت مشهداً أقرب إلى الخيال في سياق الحرب العالمية الثانية. لقد شنَّ الرومانيون "هجوماً نفسياً". أولاً: كانت المدفعية تدوّي عشرين دقيقة تقريباً،

كما كانت الحالة عادةً. كان الجنود والضباط السوفيات يترقبونها في مخابئ وخنادق عميقة مُجهزة جيداً. لم يلحق أي ضرر كبير بالفوج الرابع والخمسين. ثم حل صمت. فعاد الجنود إلى مواقعهم، وأخذوا يعاينون المسافة. في ذلك المكان، ثمة أمر غريب يحدث.

بلغت أصوات الموسيقى المثيرة أذاننا. كنّا نشاهد المشاة المرتدين خوذهم المعدنية لا ينتشرون عبر السهوب، بل على العكس، يلتحمون مع بعضهم بعضاً في صفوف وثيقة ومُكثّظة، ويطراصفون كأنهم يسيرون في استعراض، ويرفعون أرجلهم عالياً على وقع قرع الطبول الإيقاعي. ففي مكان ما في الصف الثاني أو الثالث، ثمة راية تموج فوق رؤوس الجنود. وبتحاشيهم الاختلاط بهم وتنكيبهم سيوفهم المُسلّطة، كان الضباط يسيرون بخطى واسعة في الفجوات بين الصفوف. وثمة قسيس بلباسه الرسمي الكامل. تبدّى رداؤه المطرّز بالذهب اللامع في أشعة شمس الخريف الساطعة غريباً إزاء خلفية التشكيل العسكري الموحد. وتبعته ثلاث رايات كنسيّة يحملها جنود رومانيون. تبيّن لاحقاً أنّ القسيس أوكرانيّ.

لم يخلُ الأمر من بعض الذهول. كنت أراقب القوة المهاجمة من خلال منظار الميدان. كانوا يقتربون أكثر فأكثر. وسرعان ما بات واضحاً أنّ الجنود سُكّارى، إذ لم يكونوا يحافظون على تشكيلهم بدقة متناهية، ولم يكن مسيرهم مضبوطاً للغاية. لكن هل إرغام رجال متزين على المشي على سهل فسيح بكامله ومستهدف بسهولة، حتّى إن كانوا مُقتنعين بتفوّقهم العرقي على من يعزّمون إبادتهم، أمر ممكن؟ من المحتمل أنهم كانوا يتحلّون بالثقة بالانتصار بواسطة تفصيل آخر، أي تفوّقهم العددي الكبير. كان فوج مشاة قوامه في زمن السلم ألفا حربة يسير في مواجهة كتيبتنا الأولى التي لم يبقَ منها سوى أربعمئة، على وقع موسيقا صاخبة من فرقة موسيقية عسكرية.

أخذت المسافة تزداد قصراً بلا هوادة. كان الرومانيون يقتربون من سبعمئة متر، وأطلق مريض مدفعنا الهاون ضربة أولى ضدّهم. كانت نوافير من التراب تعانق السماء وسط الصفوف الرمادية الرملية. فانهار تشكيلهم لبعض الوقت. لكن، نظراً إلى ترك قتلاهم وراءهم، لملم من بقوا على قيد الحياة صفوفهم وتابعوا تقدّمهم. بناء على أوامر

الضباط، رفعوا وتيرة سيرهم، وأخذوا بنادقهم بأيديهم. وكانت شفرات الحراب تلمع مثل البرق على فسحات السهوب المُعْبِرة.

كنت أنتظر بصبر إلى حين وصول الطابور المعادي الأول إلى سياج على طرف حقل ذرة. فرسمت مخطط رمي أولي، وعيّنت المسافات على طوله. كان السياج يبعد ستمئة متر عن خندقي، وبعض أدغال التوت البري خمسمئة متر، وشجرة يتيمة بتاج مكسور أربعمئة متر. كان جنود ميهاي الأول يتحركون، من دون درايتهم، إلى مدى الرمي المباشر.

تُعدّ طلقة قناص مباشرة أمراً مُذهلاً برمته! بالنسبة إلى هذه الطلقة، لم يرتفع مسار الرصاصة فوق الهدف بالنسبة إلى مسافة الطلقة كلها. على سبيل المثال، كما في هذه الحالة المفترضة، كان رمي طلقات شتى دون إعادة ضبط التلسكوب أمراً ممكناً باستخدام بيئة مكونة من ستة جنود والتسديد على أعقاب جنود العدو السائرين. سيُصاب الأعداء في الرجل في البداية، ثم في المعدة لدى اقترابهم، وفي الصدر لدى اقترابهم أكثر، أي على مسافة ثلاثمئة متر، وأخيراً في الرأس. وفي حال اقترابهم من القناص أكثر فأكثر، سيُعكس الترتيب على النحو الآتي: الصدر، والمعدة، والرجل. عندئذ، طوّرت طريقة مُفضلة للرمي، أي إصابة العدو بين العينين أو في الصّدغ. لكن بينما كنت أنظر إلى حشد المشاة السائرين على وقع الطبل، اعتقدت أن طلقة على الرأس وحدها هذه المرّة ستكون ترفاً محظوراً. أما الآن، فكان إطلاق النار، وإطلاق النار، فإطلاق النار، أمراً رئيسياً من أجل وضع حدّ لهجوم الجنود السّكارى النفسى، الذين لم يكونوا يدرون ما يفعلون، ولمنع الرومانيين من بلوغ خنادقنا. مع ذلك، نظراً إلى ميزتهم العددية الخماسية الأضعاف، سيسحقون كتيبتنا الباسلة بأقدامهم ويبيدون رفاقي في السلاح كلّهم.

لكنّهم لم يفلحوا...

كانت الشمس تغيب، مُضيئة عشب السهوب الريشي الساكن بأشعة مائلة وضعيفة. وأثناء انسحابهم، كان الرومانيون يحملون جرحاهم، لكنهم تركوا قتلاهم (على ما يبدو، قرابة ثلاثمئة) وراءهم. وبينما كنت أمرّ فوق جثث الأعداء الصرعى برفقة الملازم فورونين Voronin، الذي حلّ محل قائد سريتنا الأسبق والجريح حالياً، الملازم بُفي،

بحثُ عن صيداتي ”الشخصية“، ودونتهم في مفكرة القنص خاصتي. كان رماة رشاشاتنا والرماة الآخرون، إضافة إليّ، يرمون بتوفيق عظيم أيضاً. كان لدى الجميع رصاص البنادق نفسها، من عيار ٦٢، ٧ ملم. فاعتبرت من لديهم ثقوب رصاص في رؤوسهم، أو أعناقهم، أو الطرف الأيسر من صدورهم، حصّتي الشخصية. كانوا تسعة عشر، بمن فيهم سبعة ضباط وضابط صف وحيد.

سألني الملازم: ”هل كنت تُسدّد على الضباط خصوصاً؟“

– أجل. هذا ما كانت تُملّيه التوجيهات.

– نتيجة ممتازة، يا لودميلا.

– أنا أخدم الاتحاد السوفياتي.

قال فورونين بجديّة: ”كانوا مُصممين على هجوم نفسيّ. ألم يشعروا بشيء من أجل رجالهم؟“

– إنهم يروننا ضُعفاء، ليس إلّا.

– هجومان في ساعة. أمّا الآن، فتراجعوا كيلومتراً. ولم يبقَ لهم أثر.

قلتُ مازحة: ”إنها الطبيعة الرومانية المتقلّبة. هاجمَ ضمن مجموعة مصحوبة بكثير من الضجيج والصخب. وإن لم يكن النصر حليفك، أطلق ساقيك للريح.“

لقد تخرّج الملازم أندريه الألكساندروفيتش فورونين Andrei Alexandrovich Voronin في كلية الراية الحمراء للمشاة في كيروف Kirov ب لينينغراد عام ١٩٣٩، وكان يخدم قبل الحرب في منطقة فولغا العسكرية، وانتهى المطاف به أخيراً في أوديسا بصحبة التعزيزات المُجنّدة، لكن لم يكن لديه أيّ خبرة على الخط الأمامي. كان مولعاً جداً بعمليات القنص، وكان يستفسر عن تفصيلات متنوعة. كان الملازم عازماً على مكافأتي لرمي الدقيق بترقيتي في الرتبة العسكرية قبل مواعدها، وفعل ذلك. بتّ عريفاً متمرناً، وكنت أكنّ كثيراً من الاحترام للضابط الشاب، إذ جاء من أسرة لينينغرافية أصيلة. بوصفه باحثاً في التاريخ، كان والده يعمل في متحف الإرميتاج، ويريد ابنه أن يحذو حذوه، لكنّ أندريه كان يحلم بمسيرة عسكرية منذ الطفولة. مع ذلك، كان مُلمّاً بالتاريخ، وكنا نتحدث عن أعمال أجدادنا الحربية. كافحت ما استطعت من أجل الحفاظ على الوسام الجديد من قائد السرية. أرسلني

في مهمة للقضاء على رشاش معاد كان يوجّه نيراناً دقيقة وقاتلة حقاً من جهة قرية Gildendorf^١، الأمر الذي جعل رفع رؤوس جنودنا أمراً مستحيلاً.

كانت القيادة العليا السوفياتية تُعدّ في الأيام العشرة الأخيرة من أيلول/ سبتمبر لإنزال ضربة بالعدو في القطاع الشرقي، مستعينة بقوات فرقتي الرماة ٤٢١ و ١٥٧. وصلت الفرقة الأخيرة أوديسا قادمة من نوفوسيبيرسك Novosibirsk في السابع عشر من أيلول/ سبتمبر، بقوة قوامها يزيد عن ١٢ ألف جندياً، ومدفعية مكونة من أربعة وعشرين مدفع ميدان من عيار ٧٦ ملم، وستة وثلاثين مدفع هاوتزر من عيار ١٥٢ ملم، إضافة إلى إمداد بالذخيرة ثلاثي الأضعاف.^٢ كان هذا الأمر بمنزلة عون هائل لأنه لم يكن لدى أفواج الفرقة ٤٢١ أيّ مدافع تُذكر (ثلاثة مدافع تغطي كيلومتراً على طول الخط الأمامي مقابل ثمانية عشر على الجانب الروماني). تبعاً للخطة سيوّازر التقدم سلاح الجو، والبطاريات الساحليتان السابعة والثلاثون والثامنة والثلاثون، وسفن أسطول البحر الأسود بمدافعها. كانت قرى Gildendorf، و Bolgarka، و Alexandrovka، ومزرعة Voroshilov التعاونية، تقع في قطاع الهجوم الرئيسي. كان اجتياح Gildendorf يعود إلى كتيبتنا التابعتين للفوج الرابع والخمسين، إضافة إلى فرقة الرماة ١٥٧.

لقد أخرج جنود فوجنا أخيراً الأعداء من المقبرة الواقعة على بُعد مئتي متر من طرف القرية الجنوبي. كانت ثمة أشجار تنمو في المقبرة، أي خمسة أشجار قيقب باسقة ذات تيجان منتشرة وجذوع رمادية ثخينة تمكّنت من النجاة من غارات القصف والهجمات بالمدفعية. تذلّت الصعوبات المتعلقة بالتمويه على السهوب في هذا المكان. كنت أعرف من كتاب عنوانه *Combat in Finland* [معركة في فنلندا] أنّ القناصين الفنلنديين، الذين يُسمون "الوقاق"، في غابات Karelian، كانوا منخرطين في رمي موجّه على قواتنا أثناء اختبائهم في أغصان أشجار الصنوبر والشّوح والراتينج. فلم لا أستطيع الاستفادة من هذه التجربة؟

وافق الملازم على خطتي. أمضيت المساء كلّهُ أطرّز سترتي المموّهة الجديدة بقلنسوها الخضراء ونقشها البنيّ. لقد أعطاني المساعد أول بعض الجذاذات من شباك

١ قرية Krasnoselovka العصرية، منطقة Comintern، إقليم أوديسا.

2 I. I. Azarov, *Odessa under Siege* (Moscow, 1966), pp. 141, 143.

التمويه وسترة أحدهم القديمة التي قَطَعْتها إلى شرائط وأشرطة قصيرة. أثبت الشريط الخشن جدواه في تغليف سبطانة البندقية. ووزعت البقية الباقية منها، إضافة إلى أوراق القيقب، والأغصان، وباقات العشب، لدرجة فقدت فيها السترة العسكرية تصميمها الواضح الأسبق، وأخذت تُشبه سترة عفريت خشبيّ، أو شيطان المستنقعات. انطلقت نحو المقبرة قبل ساعة ونصف من الضوء الأول. لم يكن سكان قرية Gildendorf، وهم مستوطنون قادمون من ألمانيا، فقراء جميعاً. فبالدقة الألمانية، لم تبُنْ القرية فحسب، بل فناء الكنيسة الذي لم يكن بعيداً منها، بطرقها المستقيمة، وقبور بنُصب حجرية وشبكات منقوشة. كانت الأشجار تُظلل قبر رئيس بلدية Gildendorf الأول، الشريف فلهِم شمِت Wilhelm Schmidt، الذي توفي عام ١٨٩٩ تبعاً للنقش على النُصب الرخامي. ما إن وطأت رجلاي البلاطة السوداء، أخذت أتسلق بجهد جذع شجرة قيقب هائل كان مُتَكئاً على القبر.

كان عتادي يحتوي الأشياء الأساسية، أي قناصة Mosin مزودة بمنظار PE، وزناراً مزوداً بجُعبَتَي ذخيرة مليئة برصاص خفيف من نوع L، ورصاص خارق للدروع من نوع B-30 برووس سوداء (لأنني لم أكن أعترم رمي رماة الرشاشات فقط، بل إبطال مفعول أكتهم الشيطانية أيضاً)، ومطرة بحمالة قماشية، وسكيناً حربية فنلندية. لم أستلم منظاراً ميدانياً ولا خوذة فولاذية لأن سمعي قد تدهور عقب صدمة انفجار القنابل، وجعلت الخوذة اكتشاف الأصوات الخافتة أمراً صعباً بالنسبة إليّ.

هبت ريح عاتية قبيل شروق الشمس تماماً. وأخذت أوراق القيقب بالحفيف، لكن الأغصان الشخينة المنتشرة من جذع الشجرة الهائل لم تتمايل. ما إن وطأتها قدماي، نصبت بندقيتي بشكل ملائم على غصن آخر مكافئ لمستوى أكتافي، ونظرت إلى القرية عبر التلسكوب. كان شارعها الوحيد المصفوف ببيوت حجرية أحادية الطابق، والمطحنة، والكنيسة، والمدرسة، مرئياً أمامي بوضوح. ورصدت في بستان محيط بيت ضخم مُتداع رشاش MG. 34 ألمانياً متعدد الأغراض على منُصب، وعلب شرائط طلقات بالقرب منه. كان الرشاش مزوداً بمنظار؛ كان ذلك السر وراء وقعه المُدمر! حسناً، أيها الكلاب الفاشية الخبيثة، سألقنكم درساً...

تبدّل الحرس في تمام الساعة صباحاً. على أي حال، لم يستهوني الجنود

الحاملون بنادق. كنت أنتظر رماة الرشاشات. فظهروا لاحقاً: ثلاثة رومانيين يرتدون سترات رمادية رملية وقبعات بتيجانها المضحكة المنبسطة لتشكل حافيتين ناتئتين من الأمام والخلف. كانوا يشغلون أنفسهم بالرشاش في البداية، ثم كانوا يجلسون تحت الأشجار، وأخذوا يُتحفون أنفسهم بما لذّ وطاب من الأجاص الأصفر الذهبي الكبير، حيث كانت كميات كبيرة منه مُلقاة هنا وهناك تحت الأشجار في البستان.

كنت أخطط لرمي ثلاث طلقات، لا أكثر. وستكون إحداها موجّهة على مغلاق الرشاش. ولدى إدخال رصاصة مزوّدة برصاصة خفيفة في أُكْرَة السبطانة، أغلقت المزلاج ولصقت وجهي بالمنظار. كان الهدف، أي رأس رجل طويل جالس بالقرب من منصّب MG. 34، واقعاً بين الخطين السوداوين ولم يبق سوى ثوانٍ على رمي الطلقة. لكن ثمة هرج في البستان فجأة. وثبّ رماة الرشاشات، واصطفّوا، وتسمروا بـ "استعداد". وبعد دقيقة، جاءهم بعض الضباط المرتدين قبعات ناتئة. تبدّى أحدهم أكثر إثارة للاهتمام، أي مع سيجار في فمه، وشريطة ذهبية على طول طرف قبعته، وإبزيم متدلّ من كتفه الأيمن، وحقيبة جلدية بنية على جنبه، وسوط طويل في يده. على العموم، كان لديه مظهر متعجرف ومتسلط.

كنت أعرف المسافة، أي قرابة مئتي متر. لقد همدت الريح. وكانت درجة حرارة الهواء تقترب من ٢٥ درجة. لم يكن الجندي هدفي، بل الرجل صاحب الإبزيم. فحبستُ نفسي، ودخلت في العدّ بنفسي، قائلة: "اثنان وعشرون، اثنان وعشرون"، وضغطت على الزناد بنعومة.

سمع الرومانيون الطلقة. كيف لا يتسنى للمرء سماعها في صمت الصباح المُطبق؟ مع ذلك، من المحتمل أنّه لم يخطر على بالهم مباشرة أنّ قنصاً يؤدّي عملاً. لم يصرخ الضابط الإداري (لأنّ الإبزيمات جزء من بزّاتهم) أثناء انقلابه رأساً على عقب. أخذوا يُثيرون ضجة حوله، بلا جدوى تماماً، لأن الطلقة أصابته بين العينين. تمكّنت من إعادة حشو البندقية مرّتين. كما انتهى الأمر برماة الرشاش على الأرض. أصابت الرصاصة الخارقة للدرع من الطلقة الرابعة مغلاق MG. 34 وأبطلت مفعوله.

أمّا الآن، فاستعداد الأعداء وعيهم، وكانوا يقصفون المقبرة بمدافع الهاون ونيران

البنادق. فكان أزيز الرصاص وشظايا الهاون يصفر من حولي. كنت أتمسك بجذع القيقب الثخين، لكن سرعان ما أدركت أنه كان يوفر حماية سيئة. لم تكن باقية من خمسة أشجار مكافئة لغابة كاريلية ضاربة في القدم، حيث يصعب اختيار أي شيء بين أشكال أشجار الصنوبر العملاقة. كانت قطع معدن حام تتطاير مثل سرب نحل قاتل، مُسقط الأوراق وكاسرة الأغصان الرفيعة. وازداد قلبي برودة من شعور مخيف بالخطر، لكن لم يكن ثمة ارتباك. فالغزّ الجديد يعتقد أنه "لا يمكن لهذا الأمر أن يصيبي". أما الجندي المُشتبك في معركة مُعرّض فيها للنيران، فيعتقد بما يُخالف ذلك، أي "قد يصيبي هذا الأمر، وعليه، الحذر واجب". وجميع من شهدوا موت رفاقهم مرّات عدّة يدركون أنه "لا بدّ لهذا الأمر أن يصيبي، لكنّه لن يحدث إن تمكّنت من الخروج من هذا المكان فقط".

وَجَبَ عليّ القفز إلى الأرض مباشرة مسافة ثلاثة أمتار تقريباً. وكي لا أكسر منظاري الباهظ الثمن، علّقت البندقية على غصن ناتئ نحو الأسفل، ثم هبطت كأني تعرّضت للإصابة تقريباً. فسقطت بشكل سيّئ، ضاربة شاهد قبر بوركي الأيمن، ولم أستطع الوقوف من شدّة الألم. أرسل فورونين بعض الجنود، فساعدوني في الوقوف على قدميّ وأخذوني إلى مخبأ.

مسبقاً بوابل مطوّل من نيران المدفعية، بدأ التقدّم في تمام التاسعة من صبيحة الحادي والعشرين من أيلول/ سبتمبر ١٩٤١. تبدّى كأنّ الأرض تهتزّ من صليات المدافع الحربية ومدافع الهاون السوفياتية. كان رفاقي في الفوج يُجهزون لهجوم على Gildendorf، بينما كنت مستلقياً في مخبأ أكابد الألم في ورّكي الأيمن وأأمل، بطبيعة الحال، صوابية ما كُتب في *Combat in Finland* [معركة في فنلندا]. مع ذلك أنت بحاجة إلى التفكير ملياً وتحليل الأوضاع المحلية عند تطبيق تجربة الناس الآخرين. أمّا الآن، فترأى لي أنّ الغارة على المقبرة والقنص القادم من الشجرة محفوفة بالمخاطر تماماً. لكن كما يقول المثل، الأمور بخواتيمها!

في يوم ما كانت الساعة تقارب الحادية عشرة، طُرِدَ الأعداء من Gildendorf ومن مزرعة Ilyichevka الحكومية أيضاً. كان الرومانيون ينسحبون إلى الشمال بطريقة فوضوية، تاركين قتلاهم وجرحاهم وأسلحتهم وذخيرتهم في ميدان المعركة. أخذت

قواتنا تستطلع المواقع المستولى عليها حديثاً، وعثروا في بستان القرية على رشاش ألماني مُهَشَّم، وجندين وضابط على مقربة منه مصابين برصاصات خارقة لرؤوسهم. كان ذلك إسهاماً مني في النصر الكلّي. وعبرَ الملازم فورونين عن شكره لأنني بذلت الكثير من أجل مساعدة السرية الثانية.

وكلفَ الممرّضة يلينا بالي Yelena Paliy، الطالبة في سنتها الثانية في معهد أوديسا الطبي، التي التحقت بـ "الجيش الأحمر" متطوعة في آب/ أغسطس، بإدارة علاجي الذي نفّذته لينا Lena المنضبطة بعناية فائقة، إذ كانت تعطيني حبوباً مُسكّنة، وتضع كمادات باردة على كبدي، وتخضعني لحِمْيَةٍ خاصة من ثريد قمح أسود مسلوق دون دهون. إنّ ما ساعدني أكثر من الثريد تمثّل في الرعاية والاهتمام اللذين أغدقهما عليّ رفاقي في الفوج كمكافأة لقاء التخلّص من الرشاش المعادي. فأحضروا إليّ ما لذّ وطاب، أي أجاصاً ذهبياً كثير العصارة من البستان، وصابوناً للوجه، وزجاجات عطر من عربة مصادرة من الرومانيين.

كما عادني قائد السرية. أعلمني أنّ الرجل المتعجرف صاحب الإبريمات الذي أرديته تبين أنه الضابط الإداري للديكتاتور أنتونسكو ذاته، الرائد غيورغيو كاراغا Gheorghiu Karaga. عُثِرَ بحوزته على وثائق مهمّة عن العاملين ورسائل وصور ومفكّرة. لقد كان الرائد يكتب عن حالة الجيش الروماني الحرجة، الذي واجه مقاومة روسية عنيفة قرب أوديسا. حُوِّلَت المفكّرة إلى مقر قيادة أركان الجيش الساحلي، ومن هناك إلى موسكو. نُشرت مقتطفات منها في صحيفة Pravda في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤١.

رافقني تذكّار واقعة أشجار القيقب الخمسة في المقبرة في قرية Gildendorf على هيئة علبة سجائر فضيّة بنقش وحفر جميلين على الغطاء الذي كان يحمل صورة امرأة جميلة ترتدي قبعة فاخرة بشرائط وريش. لقد عُثِرَ عليها بحوزة الرائد الروماني المقتول، وأعطاني إياها أندريه فورونين كغنيمة عندما عادني. ضغطت على الزر، وانفتحت علبة السيجار، وشاهدنا السجائر البنية الرفيعة والطويلة الموضّبة داخلها بشكل كثيف. وهبتها للملازم، لكنّه أبى، قائلاً: "لا أدخن. هل كنت تدخين مدة طويلة، يا لودميلا؟"

- لا، تعلّمت التدخين على الجبهة، إذ يُسعف في التخلص من التوتر العصبي في بعض الأحيان.

”وهل يحدث ذلك غالباً؟“ سألني قائد السرية.

- بعد عملية عادةً، عند إبادة الأعداء. عند الترقّب في مخبأ، لا تتناوبني أيّ مشاعر. فأنا أنتظر وأفكر في التحقق من ألا تُخطئ البندقية الهدف.

”أنفكرين في سلاحك؟“ سألني الملازم باستغراب.

- بالطبع. فالسلاح شبه مقدس بالنسبة إلى قناصة.

قُطِعَ حديثنا بظهور لينا بالي. أحضرت ثلاثة أكواب من الشاي الساخن مُحلّي بالعسل بسخاء (هدية من السكان المحليين إلى جنود ”الجيش الأحمر“ البواسل)، واسترسلنا في الحديث عن ذكريات الحياة قبل الحرب. فبرهن أندريه أنه مُتحدّث مُشوّق، إذ سرد لنا وصفاً نابضاً بالحياة عن الإرميتاج. كان متعلّقاً بالمتحف ومُطلّعاً على مجموعاته، أي مجموعة ذهب سيثيا الذي كرّس والده نفسه لدراساتها. أمّا أنا، فوصفت كيف ذهبت بعد سنتي الأولى في الجامعة للقيام بعمل أثريّ تطبيقيّ في حفريات قرب بلدة شيرنغوف. لقد شاهدت في ذلك المكان خوزة حديدية كروية-مخروطية تعود إلى القرن العاشر، ورؤوس سهام ورماحاً شتّى، وبقايا دروع مكشوفة.

أتأسف لعجزني عن رسم صورة أكثر تفصيلاً عن قائد السرية الثانية، أندريه فورونين. لم تدم معرفتنا طويلاً. كان ممثلاً باهراً عن ذلك الجيل من الشباب الذين ترعرعوا في سنوات ما بعد الثورة، ودرسوا في معاهد التعليم العالي السوفياتية، وعاشوا اختبار الحرب في أرض الآباء والأجداد العظيمة القاسية. بوصفهم وطنيين حقيقيين، كانوا أناساً نبلاء وجسورين وصامدين، ضحوا بحياتهم من أجل حريتها واستقلالها دون التفكير في العواقب. اتبع أندريه النهج نفسه. كان يشغل منصب قائد السرية تقريباً ما يزيد عن شهر. ضحّى بحياته في المعارك في محيط قرية Tatarka أثناء استنهاض جنوده لهجوم مُعاكس. فاخترقت رصاصة معادية قلبه، ودفنّه في مقبرة القرية تحت نجمة حمراء مصنوعة من خشب المعاكس.

بعد إحراز النصر في الحادي والعشرين والثاني والعشرين أيلول/ سبتمبر على

وحدات الجيش الروماني الرابع في قطاع منطقة الدفاع عن أوديسا، كانت القيادة العليا السوفياتية تُخطط لإنزال ضربة عنيفة بالمثل بالأعداء في القطاعين الغربي والجنوبي. فتلقينا الأمر بنقل قاعدتنا إلى قرية Dalnik، على خط Tatarka-Bogarskie Khutora. بهذه الطريقة، لممنا الشمل أخيراً مع الكتيبتين الآخرين من فوج الرماة الرابع والخمسين، متخذين موقعنا في صفوف احتياطي فرقة شبايف الخامسة والعشرين. وكان طريقنا يقع عبر أوديسا، وسُررنا بفرصة مشاهدة مدينة البحر الأسود الرائعة التي كنّا ندافع عنها.

لم تكن الصورة الكلية مدعاة للسرور. في البداية، عبرنا بلدة Peresyp. في ذلك المكان، كانت محطة الكهرباء تعمل فقط، والمصانع وورشاتها مُدمرة ومداخنها منهارة. فالبلدة بحدّ ذاتها عانت من غارات القصف والهجمات بالمدافع بصورة قاسية. كنّا نمشي على طول الطريق حيث كانت النساء والأطفال يشغلون ممرات المشاة. كانوا يحملون بأيديهم غلايات وأباريق وجرادل، وأعطونا ماء للشرب، وأتحفونا بالسجائر (لا أزال أتذكر أنواعها، مثل Kiev و Litka)، وكانوا ينادوننا بكلمات مُشجّعة ولطيفة وترحيبية. فلم نُدرك إلا لاحقاً أنهم شاركوا ماءهم الضئيل المُقنّن، بمعدّل جردل واحد من الماء للشخص باليوم.

مُنحنا أسبوعاً للراحة في القاعدة الجديدة، واستدعاني النقيب سيرغينكو. قال إنه صنّف تقارير قادة السرايا، وثبّت من الوثائق، وتبيّن أن حصيلة قنصي ناهزت مئة فاشي مقتول. أكّدت هذه المعلومة. مازحني قائد الكتيبة على تواضعي الزائد، مُقترحاً أن الأمر يعود إليّ لتذكيره بمثل هذا الإنجاز. فكُرتُ بيني وبين نفسي: "ماذا سيُثبت ذلك الأمر؟ لقد ألقى أبطال متهورون أنفسهم وقنابلهم أمام الدبابات عشرات المرات على مرأى مني، وأطلقوا النيران في الخنادق حتى رصاصتهم الأخيرة، ودحروا العدو الغازي بالحرب وأعقاب البنادق أثناء الالتحام بالأيدي. هل عبر أحد في القيادة العليا عن تقديره لمناقبهم؟ لكن لم يشعروا بالمرارة بالمرّة لأن صمودنا هنا على السهوب الجرداء وتعرضنا لنيران جهنمية ليس من أجل الميداليات والأوسمة". ربما قدّر سيرغينكو حبل أفكاره إلى حدّ ما. فابتسم قائلاً إنه سيضع الأمور في نصابها قريباً، وإنني سأقوم برحلة إلى مقر قيادة أركان الفرقة في قرية Dalnik. لم أصدّقه تحديداً،

مُجِيبَةً: “أجل، أيها الرفيق النقيب!” ونسيت ما جرى بيننا من حديث. وَجَبَ عَلَيَّ الذهاب، فالأمر سيّان. لم أكن حينئذ أعرف شيئاً عن قائد فرقتنا الجديد، اللواء إيفان يِفْمُوفِتْش بتروف؛ ولست نادمةً على ذلك تحديداً. ثمة هوة هائلة بين قائد الفوج وقائد مفرزة في فوج مشاة تبوّأتها بفضل الملازم فورونين. فهل يتضايق الأولوية من الرقباء المتمرّنين؟

دعاني الضابط الإداري لدى بتروف للدخول. شاهدت أمامي داخل الغرفة رجلاً في الخامسة والأربعين تقريباً، وأطول من الطول المتوسط، ونحيلاً، وصبغات حمراء في شعره، وشارب ذو شعر خشن مثل الفرشاة فوق شفته العليا، ووجهاً قيادياً وذكياً وحاسماً. كان يرتدي نظارة مثبتة على عظمة الأنف، وكانت سترته العسكرية مُزيّنة بشرائط أكتاف خاصّة بسلاح الفرسان لأنه كان حتّى وقت قريب قائداً لفرقة الفرسان الأولى التي كانت تقاتل بالقرب من أوديسا. فمن النظرة الأولى، تبدّى لي رجلاً عسكرياً بالفطرة، أي ضابطاً من أسرة ضباط. لم أكتشف إلّا لاحقاً أنه من جذور كادحة، إذ كان والده إسكافياً في بلدة Trubchevsk، لكنه تمكّن من تعليم ابنه. فتخرّج في البداية في مدرسة ثانوية، ثمّ في معهد Karachev للتعليم العالي، وانتهى المطاف به في كانون الثاني/يناير ١٩١٧ في كليّة St Alexei للطلاب الضباط بموسكو.

نظر اللواء إلَيَّ بهدوء، وبفتور تقريباً، قائلاً بصوت أجش خفيض: “أيّتها الرفيقة الرقيب المتمرن، تقديرًا لخدماتك على الجبهة، تمنحك القيادة العليا قناصة منقوشة باسمك الشخصي. فصوّبي على الفاشيين بلا رحمة”.

سَلَمَني الضابط الإداري لدى قائد الفرقة بندقية SVT-40 جديدة مزوّدة بمنظار PU أقصر وأخف من PE. كان محفوراً على الماسورة المعدنية الآتي: “١٠٠. من أجل المئة الأولى، إلى الرقيب المتمرن بافلتشنكو، إل. إم، من قائد الفرقة الخامسة والعشرين، اللواء بتروف، آي. واي.”.

“أنا أخدم الاتحاد السوفياتي!” أجبتّه بجديّة، ثمّ لثمت السبطانة الحالكة السواد بشفتيّ. بعد ذلك، أوقفتها بجاني.

تبدّى الجنرال مذهولاً من تصرّفي. على أيّ حال، لم يكن الأمر مجرد سلاح، بل مكافأة، شيئاً مقدساً مُنَح لي من أجل خوض حرب مقدسة والانتقام من عدو غدار.

سار بتروف قدماً إلى الأمام، إذ لحظني باهتمامه ورعايته.

سألني: "هل كنت في الجيش مدة طويلة، يا لودميلا ميخايلوفنا؟"

- لا، سيدي الرفيق اللواء. التحقت متطوعة في نهاية حزيران/ يونيو.

- وأين كنت قبل ذلك؟

- كنت أدرس في جامعة كييف، كلية التاريخ، السنة الرابعة.

عقب بتروف: "أنت تتعاملين مع البندقية بأسلوب ممتاز."

أجبت بوضوح: "تخرجت بامتياز في مدرسة أسوافياكم للقناصين في كييف."

"هل أنت أوكراينية؟" سألني بأسلوب ساخط وغريب.

"لا، سيدي الرفيق اللواء!" أجبت بسرعة لأن هذه الأسئلة عن الجنسية تغيظني دوماً.

- أنا روسية، وبلوفا اسم عائلتي قبل الزواج. أما بفلتشنكو، فهو اسم عائلتي بعد

الزواج.

جال بتروف الغرفة بخطى واسعة قائلاً: "مذهلٌ تماماً، يا لودميلا. سبق لي أن

تعرفت إلى بلوف، ميخائيل إفانفيتش. لكن كان ذلك أثناء الحرب الأهلية. كان مفوضاً

في فوج يعود إلى أيام شبّاف؛ رجل ذو شجاعة خارقة. وتلقينا معاً 'وسام الراية الحمراء'

لقاء الهجوم على أوفابليي. سحقنا البيض وجعلناهم أثراً بعد عين!"

- إنه والدي، سيدي الرفيق اللواء.

ردّ قائد الفرقة والتفت إليّ بابتسامة بشوشة: "يالها من مصادفة عجيبة وعليه التقاليد

العائلية زاخرة وبخير. أعتقد أنك تشبهين والدك ليس في الشخصية فحسب، بل في

ملاحك أيضاً."

- هذا ما يقوله الجميع، سيدي الرفيق اللواء.

بطبيعة الحال، كان لديه، بوصفه قائد فرقة، أمور عاجلة كثيرة لينجزها، لكنه عدّ

الاحتفاء بابنة رفيق قديم في السلاح بدعوتها إلى كوب من الشاي، وسأله عن عائلتنا

وحياة والدي في زمن السلم وخدمتي في الفوج الرابع والخمسين، أمراً ضرورياً.

أجبت بإيجاز وبوضوح، بما يليق بجندي.

سألني بتروف في ختام الحديث: "لا يحاولون إزعاجك؟"

- لا، سيدي إيفان يفموفيتش. إنهم لطيفون معي ويعرضون المساعدة إذا لزم الأمر

لأنني شغوفة بالخدمة العسكرية تحديداً.

عند الوداع، صافحني الجنرال بشدة قائلاً: "أحسنْتَ، يا صبية".

عُدْتُ إلى خطوط كتيبتى الأولى كأنني كنت سباحة في الجو، وأحطت النقيب سيرغينكو مباشرة بهدية القيادة العليا، وتباهيت بالبندقية المزودة بنقش يُخلد الذكرى. لكن لم أقل شيئاً عن الحديث الخاص مع بتروف. تبدى لي أن معرفتي الشخصية بقائد الفرقة ليست أمراً عظيماً. فمن الأفضل أن أبقى قناصة على أن أعرف في فوجي كفتاة تتمتع بحماية القيادة العليا. على أي حال، لم ينسَ اللواء لقاءنا. فبعد ثلاثة أيام وصل أمر من مقر قيادة الفرقة يقضي بمنحي رتبة الرقيب العسكرية الأعلى.

معركة في تَتَاركا

كان ثمة شعور ودلائل أنّ أمراً خطيراً يُحْضَر. فبدأ تعزيز صفوف فرقتنا الخامسة والعشرين من أجل المعركة. ووصلت التعزيزات من السرايا المُجَنَّدَة والمنقولة بحراً من نوفوروسيسك Novorossiysk. كان يشغل خط الدفاع بطول ثمانية كيلومترات الواقع بجانبنا وحدات من الفرقة ١٥٧ الباسلة التي تعاونًا معها في المعارك الأخيرة دفاعاً عن Gildendorf، ومزرعة Ilyichevka الحكومية، وقرى Fontanka و Alexandrovka و Bolgarka. كما وصل فوجا مدفعية جديداً مُزوَّدان بمدافع هاوتزر ومدفع رشاش. شاهدنا بعض الدبابات أيضاً، أي خمساً وثلاثين مركبة عسكرية، ليس المركبات الأوديسية NE ("المُرعبة") المنقولة بتصرف من الجَرَّارات المجنزرة فحسب، بل النوعين الحربيين النموذجيين BT-7 و T-26 أيضاً. جنباً إلى جنب مع أطقم دباباتنا، كان فرساننا في فرقة سلاح الفرسان الثانية يُجهزون للتقدم، كما كانت الحال في المناورات قبل الحربية. أخيراً سمعنا أنّ سلاحاً سرياً جديداً ظهر في الخطوط مؤقتاً، أي منصّات صاروخية BM-13 منصوبة على هيكل شاحنات ZIS-6 التي أُحضرت إلى أوديسا من نوفوروسيسك في نهاية أيلول/ سبتمبر. يُمكنها إطلاق ست عشرة قذيفة ترن ٤٢,٥ كلغ في ثماني ثوانٍ إلى عشر. كانت الصواريخ تحتوي على متفجّر سائل، الأمر الذي يؤدي إلى احتراق كلّ شيء عند سقوطها، أي التراب والحجر والمعدن. في صبيحة الثاني من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤١، انطلقت آلتنا العسكرية إلى

العمل. ففي القطاعين الجنوبي والغربي، كانت كتيبة الحراس المزودة بمدافع هاون بقيادة النقيب نيوجنكو Nebozhenko والمنصات الصاروخية تدكّ الخط الأمامي المعادي.^١

للهولة الأولى، تبدّى أنّ عاصفة قادمة رغم بقاء السماء صافية ومنقشعة الغيوم. فتحول صوت يُذكرنا بالصواعق بسرعة إلى زمجرة تُصمّ الآذان. كان الريف المجاور مضاء بوميض براق، وشُحِب من الدخان ترتفع فوق الأشجار. والأسهم النارية تتطاير واحدة تلو أخرى باتجاه العدو مصحوبة بضوضاء هسيسٍ وطاحن. شاهدنا ألسنة لهب صفراء هائلة تُطوّق المواقع الرومانية إلى الغرب من قرية Tatarka، وإلى الجنوب-الغربي بدرجة أبعد، بالقرب من Bolgarskiye Khutora.

لقد خمدت النيران حوالى العاشرة صباحاً. انطلقت قوات شَبَايف للهجوم. وكانت فرقة سلاح الفرسان الثانية تتقدّم إلى يسارنا. ولمؤازرة هذا التقدم، حافظت البطاريات الساحلية السوفياتية، وقطاران مُدْرَعان، وفوج مدفعية هاوترز مزوّد بمدفع من عيار ١٥٢ ملم، على انسياب إطلاق النيران المتواصل. تحركت الدبابات إلى الثغرة، ودكّت خنادق كتيبتي الرشاشات المعادية، وشتّت جنودهما، وأسّرت نحو قرية Leninstal. كان الخط الدفاعي في هذا المكان محمياً من فرقة مملكة رومانيا الحدودية، أي قوات النخبة المتمرسّة. لكنّهم اندحروا بعد مهاجمتهم بالكاتيوشا. رغم التلكؤ في انطلاقنا، شققنا طريقنا عبر الأرض السوداء التي شوّيت بالنيران الجهنمية. فقبيل ساعة فقط كانت موطناً للمواقع المُحصّنة لكتيبة رشاشات رومانية. ثمة مخابئ، وممرات اتصالات متعرجة، ونقاط رمي. وكانت تنمو في الحقول المجاورة أعشاب طويلة وشجيرات البندق وأشجار التفاح البري. فتحولت جميعها إلى رماد. شاهدنا عدداً كبيراً من الجثث المتفحّمة حتى العظام تقريباً، وكان عبير نكهة حلوة وغريبة يمتزج برائحة شواء نتنّة. أما سبطانات الرشاشات البائدة، أي بنادق MG. 34، وبنادق Schwarzloses النمساوية العتيقة، وبنادق ZB التشيكية الجديدة، فتطلّ برووسها من خطوط العدو المُدمّرة هنا وهناك.

الحرب تعني الموت والألم والمعاناة لملايين الناس. لكن في حال انتهاك العدو

١ بقي تصميم صواريخ "كاتيوشا BM-13" مصنفاً سرّاً حكومياً إلى نهاية الحرب.

حدود وطنكم بغدر، يجب عليكم الاستعداد لصدّ قاس. وينبغي لكم الانتقال من سكان آمنين في بلدات وقرى مزدهرة إلى محاربين لا يعرفون الخوف أو الشك، قادرين على نكران الذات وتحمل أعباء صراع مطوّل. فالحرب تُبرز المكنون الحقيقي لكل شخص. والجناء والأوغاد يرتكبون الموبقات. أمّا الناس الطيّبون والجسورون والشريفون، فيحترمون مناقبهم العظمى.

كان جنود مفرزتي العشرة يتبعونني مُرتدين معاطف وخوذاً واقية من المطر. فبعد أن منحني اللواء بتروف البندقية المنقوشة، طلب قائد فوجنا، إن. إم متوسيفتش، مني تنفيذ برنامج على عجلة لتدريب مجموعة من الرماة القادرين على إصابة الأعداء من دون إخفاق. واستجابة لطلبي باستحالة فعل ذلك في ثلاثة أيام أو أربعة، منحني الرائد متوسيفتش أسبوعاً بسخاء، وسمح لي باختيار الجنود الأكفأ من الفوج برمته، ومنحنا خمسمئة رصاصة مزوّدة برووس خفيفة للتدريب على الرمي المُوجّه.

وجب عليّ تذكّر الآلية التي أُدريت بموجبها دوراتي في مدرسة القناصين في كييف. وحاولت النظر إلى المجموعة الجديدة بعيون مُعلّمي العزيز. لم نكن بحاجة إلى مَنْ كانوا مغرورين أو مزاجيين للغاية وغير صبورين بالفطرة. لم يكن اختبار دقّة عينهم صعباً، أي ها كم البندقية، وخمس رصاصات، وهنالك الهدف. حاولوا!

على أيّ حال، من غير الإنصاف حذف ميزة مُحددة من تجربتي في موقع المسؤولية. لم يكن الرماة المستقبلون (من سرّيات أخرى) يعرفون أنّ الرقيب بافلتشنكو امرأة، فكان رد فعلهم على ظهوري الأول أمام الجماعة، بلا مُجاملة، غير تقليديّ. أخذت ييدهم بشكل حادّ للغاية، لكن دون اللجوء إلى شتم غير صالح للطباعة، واستخدمت لاحقاً طرائق صارمة جداً مع الكسلانين والقذرين وغير اللامعين جداً. فكان الانضباط والأوامر العسكرية إلى جانبي. وسرعان ما أقنعت مرووسي أنّ لا رواج لأمثال شعبية مثل: "لن تلعب المرأة دور الرجل إلّا عندما تطير الدجاجة كباقي الطيور"، و"المطبخ هو المكان الطبيعي للمرأة"، و"طويلات شعر، ناقصات عقل"، ولا لافتراءات أخرى في هذا المكان. كان رميي أفضل منهم جميعاً، وكنت أعرف كثيراً عن الحرب، فتعيّن عليهم الخضوع لي مُطلقاً.

من نافلة القول أنّ الجماعة كانت تشمل جنوداً تباينوا في قدرتهم على تلقي

التعليمات، لكنهم كانوا قادرين على اكتساب المهارات الأساسية. أما البقية، فأعدتهم إلى مفارزهم. كنت قادرة على اختيار رجلين اثنين من بين من كانوا يتمتعون بإمكانية أن يُصبحوا قناصين حقيقيين، وهما فيودور سِدِك، Fyodor Sedykh صياد شاب من سيبيريا، والكازاخّي عزّت بازارباييف Azat Bazarbayev الذي كان رغم غرابة الأمر مقيماً في مدينة ساراتوف Saratov. كانا موهوبين بعين ممتازة بالفطرة، ويتمتعان بطبع لائق، أي هادئين جداً. لسوء الحظ، لقي بازارباييف حتفه مبكراً بسبب وقوعه في هجوم بمدافع الهاون.

بينما كنّا نشق طريقنا عبر الحقول المحروقة، نظرنا حولنا بكآبة. لم تسعدنا الخسائر والدمار الذي كابده الرومانيون. فليس هناك ما يُرضي في مثل هذا الانتصار المُرّوع للموت على الحياة، ولو كان الأمر يتعلق بموت عدو بغض. كنت أفكر في "إلقاء نظرة ونسيانها" أثناء مروري فوق الخنادق المنهارة، وتفادي حطام المخابئ ومواضع الأسلحة المجترقة ببطء احترافاً داخناً، وبقايا بشر متفحّمة.

بعد مدة وجيزة، كانت معركة جديدة لازمة الشروع في منطقة شوّهتها صليبات من قاذفات الهاون التابعة لكتيبة الحرس. ففي هذه المرحلة، أوقف اللواء بتروف، قائد الجيش الساحلي حالياً، تقدّم قواتنا بصورة مقصودة. لقد انسحب العدو ١,٥ كلم فقط تقريباً، واحتفظ بتفوق عددي هائل، أي مُقابل الفرق السوفياتية الأربع كان لدى الرومانيين ثمانين عشرة.

كان المرتفع ٧٦,٥، على خريطة بمقياس رسم كبير (٠,٩ كلم/سم) أطلعني عليها النقيب سيرغينكو، مقر قيادة كتيبة الرشاشات المعادية، وأشار إليه كمزرعة Kabachenko. لقد تخلى العدو عن هذا المكان في الوقت الراهن. وبقيت قرية تاركا الواقعة على بُعد نصف كيلومتر منها نقطة مهمة من الناحية الإستراتيجية. فهي تقع على طريق واصل بين بلدة Ovidiopolye وأوديسا، وهو أوتوستراد عريض مُحكم البناء وبسطح صلب. ليس بعيداً منه، ثمة خطوط سكة حديدية. كان فوجنا الرابع والخمسون يواجه مسؤولية الدفاع عن القرية. مع ذلك، وجب علينا في البداية إعداد مراكز متقدّمة ونقاط مراقبة. لقد اختار قائد الكتيبة مزرعة Kabachenko واحدة منها.

كانت ثلاثة مربعات مُظلمة على الخريطة تشير إلى أماكن سكنية. كما شوهد من خلال المنظار الميداني مبنى من طابق واحد تحت سقف من القرميد، وسياج وبستان كبير وسفح سهل منبعث من البيت إلى الجنوب الغربي. في مقدور المرء، بعد تأمينه، مراقبة الطريق وتنفيذ رمي موجّه في حال تقدّم مُعاد. أصدر سيرغينكو أوامر لتزويد كلّ منّا بمئتي رصاصة. ثم طلب مني الصمود في ذلك المكان أطول مدة ممكنة. عُدت تاركا قرية تابعة ووثيقة لأوديسا (كانت المسافة إلى المدينة تزيد عن عشرة كيلومترات)، وكان ينبغي لنا القتال باستماتة من أجلها.

رفعت يدي إلى خوذتي قائلة: "أجل، سيّدي الرفيق النقيب!"

لدى اقترابنا من المزرعة، شاهدنا شاحنة محروقة كلياً تقريباً ودراجة نارية والعربة المتصلة بها مقلوبة. كانت جثث الجنود المرتدين خوذاً متناثرة في المكان وعلى طول جانبي الطريق الترابي الضيق الذي دمرته القذائف. كان الدرب يؤدي مباشرة إلى بعض البوابات المفتوحة على مصراعها. وكانت ناقلة Malaxa مدرعة مزوّدة بجنزير مجنزرة يساري مقطوع، وزنتها طنان (نوع روماني مُجمّع عن Renault UE الفرنسية الأنيقة)، متوقفة بمحيط البوابات نفسها. ويتصل بها كمقطورة عربة نقل مزوّدة بجنازير مُجنزرة تحتوي على أكياس وبراميل وصناديق وحزمة كبيرة من قماش الكتّان. لم تُعانِ الناقلة المدرعة، شأنها شأن مباني القرية، من القصف إطلاقاً، باستثناء فقدان طاقمها. كان البرجان المدرعان، وهما نصف دائريين، مفتوحين، ومحرك البنزين لا يزال دافئاً.

اقتربنا من البيت، وقرعنا الباب. لم يفتحو لنا الباب لمدة طويلة. لكن عندما ناديت أننا من "الجيش الأحمر" انفتحت الأبواب أخيراً. طلّت امرأة البيت، في الخمسين تقريباً، ملتحفة حتّى عينيها بحجاب رمادي. شرحت لها مَنْ نكون. فاندھشت من رؤية جنود بقيادة امرأة، لكن بات الحديث أسهل نسبياً بعد ذلك. أنصتُ إلى مظالمها المريرة بشأن قوات الاحتلال التي كانت تتصرف في القرية على نحو مُخزٍ لأسبوعين، وإلى عتبها على انسحاب وحدات "الجيش الأحمر" من هذا المكان بسرعة كبيرة في أيلول/سبتمبر، تاركين السكان المحليين تحت رحمة الفاشيين.

كانت هذه المرأة على حق. وبينما كنت واقفة أمامها، تقبلت المسؤولية عن مفوّض

الشعب للشؤون الخارجية، الرفيق مولوتوف، الذي وقّع اتفاقية منع اعتداء مع ألمانيا فجأة، وعن الطريقة المتعجرفة التي انتهك فيها النازيون الاتفاقية، وعن قيادة "الجيش الأحمر" العليا التي أخفقت في هزيمة قوات المعتدي في المعارك على الحدود، وعن جنودنا وضباطنا الذين كانوا غائبين أثناء الهجمات المفاجئة لفرق الدبابات وضربات القصف الجوي المعادية. لكن أعلمتها أنّ الحرب لم تنته، بل كانت في بدايتها. كنّا صامدين على محور أوديسا لشهرين، ولقي آلاف الغزاة حتفهم الأبدي سلفاً على سهوب البحر الأسود. وليس بعيداً من قريتها، كنّا، نحن القناصين التابعين لفوج شتبان ريزن الرابع والخمسين للرماة، ننصب كميناً وندفن ميتين أو ثلاثئة من محاربي الملك مهاييل Mihail المسعورين.

فتحت المرأة الباب على مصراعيه أمامي قائلة: "اسمي سرفيما نكرُوفنا Serafima Nikanorovna. تفضّلي. مرحباً بك في ما لدينا".

في المحصلة، بدأت معرفتي بأسرة ريفية عادية، آل كَبَتَشْنِكُو Kabachenko، مؤلفة من زوج وزوجة وثلاثة أطفال، صبيّين يفصل عام بينهما والبنت الكبرى. لم يكونوا أغنياء ولا فقراء. كانوا يعتنون ببستان وحديقة خضراوات، وحقل يزرعون فيه قمحاً، ويربّون حيوانات وطيوراً داجنة. لم ينزحوا مع اندلاع العمليات القتالية لأنهم كانوا قلقين على مزرعتهم كون الأرض بحاجة إلى رعاية واهتمام مستمرّين. لقد دفعوا ثمناً غالياً بسبب هذا الأمر. فقلب الرومانيون البيت رأساً على عقب، بدءاً من العلية وانتهاءً بالقبو، بحثاً عن الذهب وأشياء ثمينة أخرى، مثل مكنة خياطة من نوع Singer أو دراجة هوائية. كما حاشوا الدجاجات كلّها، وثبّتوا الخنازير، وساقوا البقرة والعجل بعيداً إلى مكان يعرفونه. من المحتمل أن الجنود في الجيش الملكي لم يتذوّقوا الطعام بهذا الشكل على الإطلاق.

كما ارتكبوا عملاً إجرامياً آخر أحاطتني به سرفيما نكرُوفنا والدمع بعينيها. يعود أذى المنتصرين الجسدي الوحشي بحق زوجات وشقيقات وبنات المكسورين إلى أعراف القبائل البدائية منذ سنين كثيرة خلت. وقتنذ، عُذّت النساء إحدى غنائم الحرب المشروعة، ولم يكن مصيرهن موضع حسد. لقد قرأت أوصافاً عن هذه الفظائع في المدوّنات التاريخية. لم أكن أعتقد أنّ "أوروبا المتحضّرة" ستنتقل هذه العادة البربرية

إلى أرضنا. اتسمت عينا ماريا Maria، بنت السابعة عشرة في البيت، بنظرة استشهادية كأنهما مرشوشتان بالرماد، إذ نظرنا إليّ بأمل مُرتجى. لا أعرف أيّ كلمات كانت ترتجئها مني. فقررت أن أخبرها عن المعركة الأخيرة.

كان يقع وراء بوابات البيت حقل تعرّض للحرق بسبب الكاتوشا. وبقيت آثار التراب الأسود الناجم عن الرومانيين المسعورين المرتدين خوذهم، فاحترقوا كالمشاعل، وسقطوا على الأرض، وتحولوا إلى سيل من رماد. لن يدفنهم أحد لأنه لا حاجة إلى ذلك، ولن يذكر وجوههم وأسماءهم أحد. فلقد باتت بذرتهم الفاسدة ممتزجة بالتراب، متلاشية في الأرض الصلدة، ولن يتمخض عنها شيء للأجيال المقبلة. تلك كانت الطريقة التي يجب أن يموت فيها الفاشيون دون ترك أثر يدل على وجودهم على كوكبنا الجميل.

فجأة سألتني ماريا بحزن: "هل أنتِ رامية ماهرة؟"

- أجل. لدي بندقية مزوّدة بمنظار خاص.

- اقتلهم. مهما كان العدد الذي ترينه، اقتلهم جميعاً.

- أعدك سأفعل.

رسمت الفتاة صليلاً بخشوع، ونظرت إلى الرمز المُعلّق في الزاوية، قائلة: "سيدنا يسوع المسيح يعرف كلّ شيء. سأصلي كثيراً، وسيغفر لك".

بطبيعة الحال، نشأنا في أسرتنا الشيوعية مُلحدين. فلم يكن الكلام عن الغفران الذي سيمُنحني إياه الله لقاء رميائي الدقيقة على الأعداء، تبعاً لصلوات ماريا كَبْتَشَنكو، يعني شيئاً على الإطلاق بالنسبة إليّ. لكن في السنوات اللاحقة، أي زمن السلم، عندما سمعت الإشارة إلى القناصين على نحو افتراضي بوصفهم قتلة على الخط الأمامي من ذوي الدم البارد، يقنصون الألمان الغُزل المساكين، تذكّرت مناشدة تلك الفتاة البائسة: "اقتلهم!" قد يتردد صدى صوت ماريا الهادئ وألف ضحية من هذه الحرب مثلها مجدداً ويُسمع ليس كتعليل لتصرّفاتنا بل كأمر مفروغ منه. بالعودة إلى تلك الأيام، أقسمنا على تنفيذه بوصفه واجباً مقدساً. ونقّذناه فعلاً دون الحرص على حيواتنا.

نظراً إلى كوني في مزاج كئيب جداً، غادرت البيت، وقصدت السّاحة للتحقق

من الآلية التي كان جنودي يتحضرون بموجبها لمهاجمة العدو. كان جنديان يعبشان بالناقلة المدرعة Malaxa. فكانا يحاولان تشغيلها، لكن بقي المحرك صامتاً. أبلغ العريف سِدك عن وجود أشياء ثمينة في مقطورة المجنزرة. بمعزل عن برميلين من البنزين وصندوق مليء ببعض قطع التبديل، اكتشفوا حزمة من قماش الكتان تحتوي على رشاش ألماني MG. 34 جديد جداً ولا يزال بشحم المصنع. وثمة سبطانتان احتياطيتان مرفقتان معه، وقفّاز صوف صخري مُصمّم لتغيير السبطانات أثناء المعركة، ومنصب ثلاثي القوائم، وعلب تحتوي أشرطة الرصاص. كان خارقاً تماماً!

لقد تعلّمنا طويلاً كيفية الإفادة من أسلحة الغنائم. فقوّى الرشاش الطاقة النارية للمفرزة الموكّلة إليّ على نحو ملحوظ. وبدأت وسِدك نخمّن المكان الأمثل لنصبه. اقترح فيودور حفر خندق عميق على سفح المرتفع المجاور، الأمر الذي يؤمّن إطلالة جيدة على الوادي، وسيفتح الطريق على مصراعيه. وافقت على مقترحه.

بمعزل عن الرشاش والبنزين وقطع التبديل، كانت المقطورة تحتوي ثلاثة أكياس من القمح والطحين والسكر. نظر الجنود إليّ بتساؤل. على ما يبدو، كانت مواد غذائية نافعة، لكن أيّ فائدة تُرتجى منها دون أوان؟ قررت تسليم اللقية لربة البيت. للوهلة الأولى، لم تُصدّق سِرّ فيما نكثرونا أننا أسخياء لهذه الدرجة، لكن طلبت منها أن تطبخ عشاء ساخناً للجنود.

كنتُ وفيودور نشق طريقنا عبر السفح المكسيّ بالأشجار الصغيرة. ثمة إطلالة ممتازة حقاً على الوادي بأكمله والطريق الشاطر له. وهناك غابة صغيرة تقع على الطرف الأيسر من الطريق وبضع تلال على الطرف الأيمن. كانت أسطح بيوت قرية تثاركا الواقعة وراء التلال مرئية هنا وهناك.

بينما كنا نعبر عشب الخريف الذابل، اقتربنا من الخندق الأول. لقد اختار الجنود مكانه الصحيح. كان ثمة أكمة تكسوها ورود برية خلفهم. وكانت الشمس تنيرها من الجانب، الأمر الذي أدى إلى ظهور ظلّ كثيف على الأرض. فكانت تموّه الخندق والجنود الجالسين فيه على حدّ سواء. كان عمق الخندق متراً سلفاً، لكن أمرتهم بمزيد من الحفر ليصبح ١,٥، وبتحصين الساتر بالحجارة، الأمر الذي يسمح لنا بالرمي واقفاً ومنبطحاً. وثمة خندق أقل عمقاً يفصله عنه مصمم للسماح للرماة بالتحرك (زحفاً على

الأرض) إلى موقع مختلف. لن يكون إعداد خط معركة في هذا المكان مزود بعدد كبير من نقاط الرمي وممرات الاتصالات أمراً وارداً، إذ لم نكن نعرف مقدار الوقت المتاح لنا، وكنا مستعجلين من أجل الإتيان بشيء يشبه تحصينات للمشاة، على أقل تقدير. بعد تعيين الحراس، عُدنا إلى البيت بعد الظهر نزولاً عند دعوة المُضيّفة. لقد طبخت لنا عشاء، وأعدت المائدة بما يُمكن أن يُطلق عليه لمسة احتفالية، أي زجاجة من البيرة المحلية الريفية المختمرة، والأطباق، وأقداح بلورية، ومُقبّلات مكوّنة من مخلل الملفوف وخيار معتدل الملوحة. لم يكن الطعام ما أثلج صدور جنود الخط الأمامي، بل طريقة تقديمه وحضور عائلة كَبَتَشْنكو كلّها. على الأغلب، كنا نشاق إلى أسباب الراحة في البيت أثناء الاشتباك والمسيرات.

لم يُهاجم الرومانيون، وانتهى اليوم بهدوء وأمان، وعلى نحو رائع تماماً. أبقينا، خلال اليومين اللاحقين في المزرعة، الطريق نُصب أعيننا، وألحقنا بعض الخسائر بالعدو، أي أوقفنا شاحنتين عسكريتين بإصابة عجلاتهما برصاص خارق للدروع، وبرشاشنا الغنيمّة، ودفعنا المشاة الذين قفزوا منهما إلى داخل الغابات. ثمّ أطحننا بواسطة قناصاتنا بثلاث درّاجات نارية ذات عربات متصلة بها. أخيراً ظهرت دبابات من نوع LT vz. 35 التشيكوي على الطريق. على ما يبدو، لم تحترق كلّها على يد المدافعين عن أوديسا الذين أمطروا هذه الآلات الحربية ببراعة بوابل من قنابل "مولوتوف" الحارقة. أطلقت الدبابات نيران مدافعها على سفح المرتفع الذي تتمركز فيه خنادقنا. مع ذلك، لم تُصب أهدافها لأن القناصين كانوا ممّوهين تموئهاً جيداً. تُعدّ مقاومة الدبابات دون قنابل يدوية أو "مولوتوف" الحارقة أمراً مستحيلاً. فتجاوزنا، وتابعت مسيرها في محيط قرية تآركا تماماً، ثم تعاملت معها مدفعية فوجنا.

أخذ عمل عسكري عنيف ينجلي بعد قليل، أي في التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤١. فكان النجاح يحالف طرفاً تارةً، وطرفاً آخر تارةً أخرى. كان في مقدور الرومانيين الضغط علينا، ثمّ تندفع القوات السوفياتية مجدداً وتطرّد جنود العدو من الأكواخ الريفية الواقعة على طرف القرية. كان منظم "رابطة الشبيبة الشيوعية" المحترس دوماً ياشا فسكوفسكي Yasha Vaskovsky، أحد المشاركين في الاشتباكات، وكتب عنها في مذكراته:

في التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر، طردت الكتيبة الأولى من فرقة الريزن الأعداء من قرية تتاركا المتطرفة. أبدى العدو مقاومة لكنّ الالتحام حسم القضية لمصلحتنا. وأخذت بقايا الوحدات المطرودة من تتاركا بالانسحاب نحو Bolgarskiye Khutora. على أيّ حال، قطعنا طريقهم سلفاً، واستسلم ستون جندياً مُعادياً. ثم طوّق فوج المشاة الروماني الثالث والثلاثون في اليوم نفسه بين تتاركا ومصب نهر Sukhy. واستمرت الاشتباكات العنيفة ساعتين بهجمات وهجمات معاكسة. فخلف العدو ١٣٠٠ رجل في الميدان بين قتيل وجريح، في حين استسلم مئتان. صادرنا وثائق وخاتم تشغيل الفوج النظامية وكثيراً من الأسلحة. كما تُمكن إضافة أنّ نجاح رفاقي في الفوج في هذا القطاع حددته إلى حد كبير عمليات كتيبة مدفعية الهاون التابعة للحرس بقيادة النقيب نبوجنكو. لم يستطع الرومانيون الصمود أمام القصف الصاروخي، وانسحبوا.^١

طراً وضع خطير جداً بين العاشر والثالث عشر من تشرين الأول/ أكتوبر في القطاع الجنوبي من منطقة الدفاع عن أوديسا. أخذت الفرقة الرومانية العاشرة بالزحف على تتاركا بطاقمها الكامل، وحاولت اختراق فرقة شباييف الخامسة والعشرين للرماة وفرقة سلاح الفرسان الثانية. فبعد هجوم مدفعي كثيف، تمكّنت ثلاث كتائب معادية من الاستيلاء على خندق خط التقدّم والوصول إلى مؤخرة قواتنا، وانتهى المطاف بها في محيط السدّ لخط سكة الحديد الواصل بين أوديسا وOvidiopolye. كان في مقدور المزيد من القوات المعادية الوازنة التحرك إلى الثغرة في أيّ لحظة. تلقينا الأمر جميعنا، أي الفصيلة الأولى من الفوج الرابع والخمسين، وفصيلة من الفوج الثالث لمشاة البحرية، وكتيبة الاستطلاع المستقلة ٨٠ بقيادة النقيب أنتيين، وسرية رماة مؤلّلة على مركبات مدرعة، بالتحرك فوراً من موقع الاحتياط إلى موقع الاشتباك. كما تركّزت نيران ثلاث بطاريات، أي الأولى، و٢٣٩، و٤١١، والرقم ٢٢، القطار المدرع "من أجل الوطن" أيضاً، على العدو.

تم الدفاع عن الخنادق وأخذت قوات المشاة السوفياتية تشغل مواقع إطلاق نيرانها

1 By the Black Sea Fortresses (Moscow, 1967), p. 137.

السابقة. كان ثمة صمت وجيز، لكن الرومانيين كانوا يحضرون لهجوم، وسرعان ما بدؤوا القصف بمدافع الهاون. في البداية، كانت القنابل تسقط خلف الخط الأمامي، ثم أمامه، ثم الصلية العابرة تصيبه، مخلفة سُحباً من الغبار والدخان. حاولت تغطية الهدية، أي القناصة SVT-40، من قائد الفرقة، بتروف، بغطاء واق من المياه. أخذتها معي عند الاعتداء لأنني كنت أتوقع هجوماً جبهياً على كتيبتنا. في مثل هذه الحالة، جادت Sveta، كما يُطلق على بندقية Tokarev التلقائية الإلقام في الجيش، بتفوق واضح بفضل سرعة رميها ومخزن علبة رصاصها الذي يتسع لعشر رصاصات، وبساطة وسرعة تبديله أثناء المعركة.

كان لدينا أسلحة شبيهة بها في كتيبتنا، لكن لم تكن كميتها كبيرة، رغم أنه تبعاً للجدول الرسمي لعام ١٩٤١ كان يُفترض بها أن تحل محل بندق Mosin. في الواقع، كان لدينا ٩٨٤ بندقية SVT-40 و ١٣٠١ بندقية ثلاثية الخطوط. وثمة آراء متباينة بشأن Sveta. فبعضهم آثر خصائصها الآلية، بالاستناد إلى عمل الغازات الدافعة التي تواكب الرصاصة أثناء طيرانها على طول السبطانة دوماً. كانت الغازات تدخل فتحة الغاز الواقعة فوق السبطانة وتُدفع في مواجهة أسطوانة مزودة بذراع طويلة. وكانت الذراع مرتبطة بغمّاز طرفه الآخر مستقر مقابل المزلاج. لكن أحدهم انتقد، على وجه حق، التعقيد الزائد لهذه الأداة وصعوبات الاعتناء بها في الظروف الميدانية. قد يكون أداء بندقية الآلية الإلقام في مكان ما من المناطق الشمالية أو في البحر مثالياً. لكن في سهوب البحر الأسود، والخنادق المحفورة من تراب متفتت وناعم وجاف، كان خطر دخول التراب إلى آلية العمل، التي تتألف من ١٤٣ جزءاً صغيراً، وناعماً وناعماً جداً، كبيراً للغاية.

أخذت البندقية بـ”النثر“ (مثلاً لم تكن تُعيد الإلقام أو لم تكد تلفظ الرصاصات المستعملة) عند تغيير ضغط غازات البارود. بالمناسبة، كان الأمر يتوقف على الطقس ودرجة حرارة الهواء أيضاً. في تلك الحال، يتعين على القناص ضبط فتحة الغاز يدوياً بجعلها أكبر أو أصغر. بمعزل عن ذلك، كانت Sveta تتلصقاً عند تغطيتها بعشب كثيف، أو في حال دخول غبار إلى آلية عملها. فمن بين عيوب SVT-40، أود الإشارة إلى وميض فوهتها البراق لدى إطلاق النار (لكون السبطانة أقصر مئة ملم من الثلاثية

الخطوط) وصوتها العالي الذي كان يكشف موقع المرء مباشرة. كانت ملائمة على نحو ممتاز للاشتباكات مع العدو في الميدان أثناء عمل المدفعية والرشاشات ومدافع الهاون. على أي حال، وبلا محاملة، كانت تريد خطورة كشف العدو للقناص في مخبأ فردي، وفي غابة مثلاً. مع ذلك، كان لبندقية Sveta معجبون بين رابطة القناصين الأخوية.

صيف ١٩٤٢، أعطاني الملازم الأقدم، فلاديمير بشلنتسيف Vladimir Pchelintsev، الذي كان يقاتل على جبهة لينينغراد، كراسه *How I Became a Sniper* [كيف أصبحت قناصاً]، المنشور بطبعة محدودة في موسكو، والموزع على الجبهة كدليل تعليمي ودعائي. كان يحتوي صورة فوتوغرافية يصف فيها بشلنتسيف آلية عمل SVT-40 للأغرار الجدد. فكتب:

أنا مدين لسلاحي بنجاحي الأولي. فالبندقية خير صديق للجندي. عاملها برعاية واهتمام، فلن تُخيب آمالك على الإطلاق. فحماية بندقيتك، والحفاظ على نظافتها، وإزالة أقل الأعطال، وتشحيمها باعتدال، وضبط أجزائها كلها وتعديلها كما ينبغي، هذا هو الموقف الذي يجب أن يتحلّى به القناص من سلاحه. في الوقت نفسه، لا بأس في أن نعي أن لا وجود لبنادق متشابهة من حيث المبدأ، رغم معاييرها القياسية كلها. وكما يقول المثل، لكل منها طابعها المميز. قد يتجلّى هذا الطابع في شدة النوايض، والسهولة التي ينزلق فيها الرتاج، وحالة الأكرّة، ودرجة التلّف، وإلى ما هنالك. لقد كنت أعود من "القنص" في مناسبات عدة جائعاً ومرتعشاً من البرد، وكان أول شيء أفعله المباشرة بتنظيف السلاح، وضبطه. فهذا قانون بالنسبة إلى القناص.

كان هذا الأمر صحيحاً كلّها، أي حماية بندقيتك، والحفاظ على نظافتها، وإزالة أقل الأعطال. حاولت استخدام غطاء واقٍ من المياه من أجل حماية Sveta من الغبار الذي كان ينهمر مثل سحابة على خندقي، لكن، على ما يبدو، لم أكن سريعة بما فيه الكفاية. فلم تحدث أي استجابة عندما ضغطت على الزناد. وجب عليّ إصلاح هذا

العطل. فانحنيت فوق البندقية، لكن خوذتي أعاقَت هذا الأمر. بعد لعن الشيطان، خلعت خوذتي الفولاذية ووضعتها في قعر الخندق، ثم أمسكت بقبضة الرتاج. تبدى أن آلية العمل أخذت تستجيب.

في هذه المرحلة، سقطت صلية جديدة من قذائق الهاون؛ إذ كانت الشظايا تصفر في اتجاهات متنوعة. فأصابت إحداها وجهي، على اليسار، تحت خط الشَّعر. وسال الدم على جبيني بغزارة، وأغلق عيني اليسرى، ودخل شفتي، وشعرت بمذاقه المالح. تمكنت من إخراج كيس إسعافات أولية من جيب سترتي العسكرية، ولففت ضمادة حول رأسي إلى حدٍّ ما. خفَّ دفق الدم، ثم بدأ الألم. كان الجرح يحرق ويلسع، وتبدى كأنه يسحب الجلد من أرجاء رأسي كلها.

بدأ كل شيء حولي بالغوص في الضباب. ضمنت بندقيتي المتعطلة إلى صدري، وأوكأت ظهري على جدار الخندق. كانت شظايا قذائف الهاون ورصاص العدو تصفر فوقه. ففي مكان ما على أحد الجوانب، بدأ أحد رشاشات السرية الثابتة بالصليل، ودخلت بطارية مدفعنا الرشاش من عيار ٥٤ ملم الاشتباك بصوت "ف-فاخ" عالٍ. وحسب الأصوات، لقد مضى الرومانيون في الهجوم. لكن لم أستطع الإسهام في دحرهم. كانت بعض الأفكار القابضة للصدر والغريبة تلازم دماغي، أي "عليّ الانتظار... عليّ الانتظار... عليّ الانتظار..."

كان صوت الممرضة لينا بالي ينادي: "أيتها الرفيقة الرقيب، ألا تزالين على قيد الحياة؟"

- لا أزال على قيد الحياة، لكن مصابة بجرح في الرأس.

- يا إلهي، سآتي لمساعدتك في الحال.

لدى رؤيته وجهي وسترتي العسكرية مغطاة بالدم، أمر النقيب سيرغينكو لينا بنقلي إلى كتيبة الفرقة الطبية لأن الأطباء هناك أفضل. فضلاً عن ذلك، كانت الكتيبة الطبية السابعة والأربعون، المُلحقة بالفرقة الخامسة والعشرين، تتمركز على بُعد خمسة كيلومترات فقط من خطوط الفوج الرابع والخمسين. فبندقيتي المنقوشة، التي لم أتركها من يديّ، كما سلف، أسدت إليّ خدمة على نحو مفاجئ. وفي مركز فرز الإصابات في الكتيبة الطبية، أشارت لينا بالي إلى النقش على أسطوانة المنظار

المعدنية، وأعلنت أنَّ الرقيب لودميلا بافلتشنكو من مُرتَبات الكتيبة الأولى، السرية الثانية، الفوج الرابع والخمسين، على معرفة شخصية باللواء بتروف، قائد الجيش الساحلي. ومن دون أن يطرح سؤالاً وحيداً، سلّمها الطبيب العسكري ورقة صغيرة حمراء إيذاناً بالموافقة على إجراء عملية عاجلة.

عبر البحر

سَلَّمَنِي المسعفون شظيَّة قذيفة الهاون. تبدَّت مثل قطعة معدنية ملساء محترقة، أطول من عود ثقاب قليلاً، ذات حافات مُسنَّنة وحادة. لو كان مسارها أخفض، لا أعرف ما يمكن قد حلَّ بي. من المحتمل أن أكون مرمية بفتحة في رأسي في ثرى مقبرة رطب بالقرب من قرية تاركا، مثل ١٥٠ من رفاق السلاح في فوجي، إضافة إلى قائد سريتنا الشجاع، الملازم فيرونين، والجندي بازارياف من فصيلتي، الرامي الممتاز والرجل الطيب. عندما هدأت المعركة وانسحب الرومانيون إلى مواقعهم السابقة، دفنَّاهما في وقت متأخر من مساء الحادي عشر من تشرين الأول/أكتوبر.

لا أتذكَّر سوى القليل عن الآلية التي جرت فيها العملية. لكن كان مظهري بعدها بعيداً كلَّ البعد من المظهر العسكري، أي جُزَّ نصف شعري، ودُهْن جُلدي بمطهر أخضر لامع. وبعد انتزاع الشظية، قُطِب الجرح وضمَّد رأسي. عندما توقَّف مفعول المورفين عاد الألم مجدداً. فشعرت به في صدغي، ومؤخرة رأسي، والمكان الذي استوَصِلت منه الشظية، إذ بدأت أعاني من دوخة حادة. استبعد الجراح احتمال عودة سريعة إلى الفوج. فتعيَّن عليّ قضاء من عشرة إلى اثنتي عشر يوماً في الكتيبة الطبية. على أيِّ حال، كنتُ أصنَّف ضمن فئة المرضى "المشائين". ففي غضون الخامس عشر من تشرين الأول/أكتوبر، سُمِح لي بالخروج للمشي. ارتديت معطفي دافعة ذراعيّ في كمّيه، ووضعت قبعة على رأسي المُضمَّد، وانطلقت لمعاينة البيئة المحيطة

واستنشاق بعض الهواء الطلق.

كانت الشمس في الرابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر لا تزال مشرقة في السماء الزرقاء بشكل ساطع، مُدْفئةً فسحات السهوب المحيطة بأوديسا بأشعتها. لكن في اليوم الخامس عشر، مضى خريف البحر الأسود الصافي الدافئ فجأة. كان يكسو الأفق سحب رصاصية منخفضة، وأخذت ريح شمالية باردة بالهبوب. فسرعان ما سقطت قطرات المطر الأولى على الحدود وممرات الحدائق المنزلية المحيطة بالمدرسة الريفية. بضربة حظ، كانت الكتيبة الطبية السابعة والأربعين وادعة في مبناها. كانت الوحدات الطبية، في غالبية الأحيان، تتمركز في الحقول أو الغابات في خيم كبيرة من الكتان، حيث يُفرز الجرحى في هذا المكان، وتُجرى لهم العمليات ويتمثلون للشفاء. أمّا الجرحى المصابون بإصابات خطيرة، مثل بتر الأطراف والحروق والكسور، فيُنقلون بسيارات إسعاف إلى عمق مؤخرة القوات.

لم تبلغ الحرب المدرسة الريفية بعد، لكنّ نيران المدفع الرشاش البعيدة المدوّية في مكان ما في الغرب والجنوب الغربيّ ذكرّتنا بها. طبقاً للضجيج الهائل، كان إطلاق النيران قادمًا من بطارياتنا الساحلية ومدفعية سفن أسطول البحر الأسود البعيدة المدى. كان مدفع رشاش من عيار أصغر، من قطارين مدرعين كانا يقصفان الخطوط الفاشية لدى اقترابهما من مَدَاهِما المجدي، ينضم إلى الجوقة في بعض الأحيان.

كانت الأوراق الساقطة تُصدر حفيفاً تحت قدمي. لقد فقدت شجيرات الورد البري والقرونوس أوراقها الخضراء تماماً مؤخراً. أمّا الآن، فأخذت الأغصان السوداء الرفيعة تتمدد نحو السماء بشكل يائس. كان شجر العرعر مثل جدار أخضر لا يخشى الريح ولا المطر. وكانت التربة التي تنمو فيها أزهار الفرّح، والزنابق، والورود على الحدود، بنية داكنة. رغم غارات القصف والقصف المدفعي، كان أحدهم يعتني بالحديقة ويقلّب تربتها خلال يوم أو يومين خلت. كان تصميم ومثابرة الشعب الذي رفض الفوضى في زمن الحرب يحظى بالاحترام. قطفت ورقة قرمزية ومجعدّة ضاربة إلى الصفرة، وحاولت تسويتها بأصابعي، فلم تستجب لأن حياتها انتهت.

دخلت سيارة الجنرال الكاكية الحديقة عبر البوابات المفتوحة، وتقدّمت نحو المدرسة. كانت نوع المركبة التي كان اللواء يقودها عادةً. خرجت إلى الممر، ووقفت

باستعداد، رافعة يدي إلى قبعتي. توقفت سيارة GAZ-M1 الغوركيّة، المعروفة بـ Emka بالعاميّة، بجانبني تقريباً. خرج قائد الجيش الساحلي فعلاً، إيفان بتروف، منها والتفت إليّ قائلاً: ”ما الذي تفعلينه هنا، يا لودميلا؟“

– أنا قيد العلاج، سيّدي الرفيق اللواء.

سار نحوي قائلاً: ”إصابة في الرأس؟“

– أجل، سيّدي الرفيق اللواء.

– هل كان ذلك منذ مدة طويلة؟

– لا، وقع الأمر في الثالث عشر من تشرين الأول/ أكتوبر، عندما كانت الكتيبة الأولى في محيط قرية تاركا. كنّا نصدّ هجوم المشاة الرومانية، وإذا بشظية قذيفة هاون...

سألني اللواء بصرامة: ”لماذا لا ترتدين خوذة، يا صبية؟“

– كان الأمر مصادفة، يا سيّدي إيفان يفموفتش.

تساءل بتروف: ”هل تتلقين علاجاً حسناً؟“

أجبت: بصورة ممتازة.

– حسناً. استعدّي للتحرك الآن، يا لودا. سننطلق إلى سيفاستوبول بحراً.

لم أستطع الإحجام عن التعبير عن حزني: ”لكن ماذا بشأن مدينتنا العزيزة أوديسا، يا سيّدي إيفان يفموفتش؟ بالتأكيد لن نُسلمها للفاشيين لنهبها وتدنيسها؟ سيمحقونها محقاً.“

– في محاولة ظاهرية منه لشرح صدري، لامس بتروف كتفي بيده بصورة أبوية، قائلاً: ”هذا الأمر من القيادة العليا، يا لودميلا. أنت تُدركين أنّ واجب الجندي تنفيذ الأوامر بحذافيرها دوماً... أوامري لك ألا تفتر همّتك، وأن تثقي بالنصر، وأن تقاوتي ببسالة. بالمناسبة، كم عدد الأعداء في حصيلتك الآن؟“

– مئة وسبعة وثمانون.

صاح اللواء بإعجاب صادق: ”أنت بطلة حقاً. أنت ترمين جيداً.“

قلتُ مُعتقدة أن بتروف كان يتوقّع شرحاً للوضع: ”حسناً، كان الأغبياء يهاجمون بصفوف كثيفة. فمن الصعوبة الإخفاق في إصابتهم أيضاً.“

منذ تعيينه بمنصب رفيع قائداً عاماً للجيش الساحلي، لم يتغير إيفان يفموفتش على الإطلاق. بقي المتواضع والهادئ والرجل المتحفّظ ذاته، فلم يفكر كثيراً في التسلط على الناس بموجب المنصب الذي غرس في ذهنه مسؤوليته عنهم. كان يحمل مهمة ثقيلة حينذاك، أي إخلاء الوحدات العسكرية كلّها من أوديسا إلى سيفاستوبول بحراً. تعين الإعداد له في إطار زمني قصير جداً وإبقاؤه طي الكتمان عن الأعداء، مانعاً إياهم من ملاحقة أفواجنا المغادرة. كان يمضي أياماً بأكملها في سيارة يتنقل فيها بين خطوط منطقة الدفاع عن أوديسا، متحقّقاً من الآلية التي كانت تسير فيها الاستعدادات للعملية في وحدات الجيش المختلفة. كان وجهه مُنهكاً الآن ورمادياً من غبار الطريق، لكنّه أخذ كلماتي على محمل الدّعاة واستحسنها. لمعت عينا الجنرال بوميض عابث. فضحك.

قال بتروفي: "حسناً، يا لودا. ليس ثمة ما يخشاه المرء بوجود جنود مثلك. سنعبّر البحر وندافع عن القرم. سترّين، كلّ شيء سيكون على ما يرام".

قصد بتروفي المدرسة بخطى حثيثة. أمّا أنا، فبقيت في الحديقة أتأمل الأخبار التي سمعتها. بصراحة، لم أستطع تصديقها. لقد تشبّثنا، نحن المدافعين عن أوديسا، ولم نُفكر في الانسحاب على الإطلاق. بقينا واثقين أن القيادة العليا في موسكو لن تُصدر مثل هذا الأمر، لكن كما في السابق تُرسل إلى المدينة تعزيزات وأسلحة وذخيرة وعتاد وموّن. لقد وجدت أوديسا المحاصرة منذ آب/أغسطس ١٩٤١ نفسها في مؤخرة القوات المعادية ومثالاً على المقاومة البطولية الصامدة ضد الغزاة الألمان والرومانيين في تلك المرحلة الصعبة عندما كانت الفرق الألمانية تُسرّع نحو عاصمة وطننا.

"كنّا آنذاك غير مدرّكين أننا قريباً جداً، أي في غضون ثمانية أيام، سستلقّي قرار القيادة العليا يأمرنا بالتخلّي عن أوديسا وإخلاء الجيش إلى القرم، التي كانت القطعان الفاشية تهدد بالاستيلاء عليها، كونها قد بلغت الطرق المؤدية إلى الفوج Perekop". كان اللواء إف. إن. فورونين، بوصفه عضواً في مجلس الجيش الساحلي العسكري، يتذكر لاحقاً:

ربما لأن الصراع المحموم مع العدو في قاعدة أوديسا حمانا من مجريات على جبهات أخرى نسبياً، لم يكن هذا القرار متوقعاً بشكل مدهش بالنسبة

إلينا. كان يتعين عليه (أي بتروف) البتّ في مسألة تنظيم انسحاب القوات من المعركة وإخلاء الجيش. في حينه، لقد تقدّم أفراد قسم العمليات في الأركان بالاقترح الآتي: هل يمكن عدم سحب القوات من الخطوط الدفاعية مباشرة، بل بمراحل تدريجية، كما كان مفترضاً حتى تاريخه؟ وافق بتروف على هذه الفكرة. وأيدته في هذا الأمر. أوْعز إلى قيادة الأركان إعادة صياغة خطة الإخلاء. وصادق المجلس العسكري لمنطقة الدفاع عن أوديسا على الخطة الجديدة القائمة على انسحاب القوات كلّها من أوديسا في آن واحد. فمن ناحية التشكيلات العسكرية الفعلية، كان المجموع يبلغ ٤٠ ألف جندياً تقريباً. ووضعوا أمام الأمر الواقع جميعاً بالصعود إلى الناقلات مع أسلحتهم ومغادرة أوديسا في ليلة واحدة، أي في السادس عشر من تشرين الأول/أكتوبر.^١

نُفذت هذه الخطة ببراعة، إذ تُعدّ عمليّة لوجستية فريدة التعقيد في تاريخ الحرب في أرض الآباء والأجداد العظيمة.

بعد مغيب شمس الخامس عشر من تشرين الأول/أكتوبر، أخذت أفواج وبطاريات لثلاث فرق للرماة، أي الخامسة والعشرين والخامسة والتسعين والثانية والأربعين، وفرقة سلاح فرسان واحدة، بترك خطوطها النارية، وتشكيل أرتال بصمت مطبق، والمغادرة عبر المدينة قاصدين الميناء. وكي لا تضل طريقها في الظلام، وتنعطف خطأً على منعطفات الشوارع أو التقاطعات، تمّت خربشة الاتجاهات بمسحوق الكلس والطباشير. بقيت كتائب حراسة مؤخرة القوات في خنادقها لساعتين أخيرين، مُنفذة رميةً تضليليةً على العدو بالرشاشات ومدافع الهاون، ثمّ انسحبت. شغل مكانها على الخط الأمامي فرق من الكشافة والمحاربين المحليين الذين تابعوا عملهم كأن قوات المشاة موجودة، أي كانوا يُشعلون نار المخيم، ويطلقون النار بين فينة وأخرى، ويتجولون في ممرات الاتصالات. لم يحاول الرومانيون والألمان الهجوم وعبور الخط الأمامي.

حُمِلَت الكتيبة الطبية السابعة والأربعون على ناقلة برية واتخذت موقعها ضمن فرقة

1 By the Black-Sea Fortresses (Moscow, 1967), pp. 51-2.

شبايف التابعة لها، آتية وراء كتيبة خبراء الألغام مباشرة. كان الطريق متضرراً إلى حد كبير، الأمر الذي جعل التنقل بسرعة عالية أمراً مستحيلاً. مع ذلك، اجتزنا ضواحي أوديسا خلال ساعة واحدة. كانت حركة المرور في المدينة نفسها أبطأ أيضاً. وكانت الطرق مكتظة بشاحنات الجيش المتروكة وأرتال من العربات المُحمَّلة بمجموعة متنوعة من العتاد العسكري. برز ممر ضيق هائل على وجه الخصوص في محيط بوابات الميناء الرئيسية، أي بوابات إدارة الجمارك التي كانت تشرف على ساحة إدارة الجمارك.

كانت المرة الأخيرة التي مرّ فيها جنود وضباط الفوج الرابع والخمسين على طول شوارع أوديسا نهاية أيلول/ سبتمبر. رأيت أن الوضع الآن أسوأ على نحو ملحوظ. كانت ظلمة الخريف تحجب شوارع، وساحات، ومنتزهات المدينة وشوارعها العريضة المشجرة، لكنّ الدمار الذي ألحقته طائرات العدو الحربية لا يزال شاهداً، في مركز المدينة على وجه الخصوص. كان كثير من المباني بلا سقف، أو من طابقين وثلاثة. وبوجود فتحات سوداء بدلاً من النوافذ، كانوا ينظرون بحزن إلى المدافعين عنهم وهم يرحلون.

كان مسار الفرقة الخامسة والعشرين يخترق الشوارع الرئيسية لمنطقة الميناء المركزية، بدءاً من ساحة التجلي، عبر ساحة الإغريق، ثمّ انعطافاً نحو مبنى Polsky Spusk، وانتهاءً بساحة إدارة الجمارك. عندما توقّف رتلنا مرّة أخرى عند تقاطع مُغلق بعربة مدفعية ما، شاهدت على الطرف الأيسر من الطريق مبنى مكتب التجنيد في المنطقة المكون من طابقين، أو ما بقي منه بعد سقوط قنبلة عليه بالأحرى. ليس قبل مدة طويلة خلت، قصدت ذلك المكان للالتحاق بـ "الجيش الأحمر" متطوعة حيث شرح لي أمين السجلات العسكرية المبهوم أنه لا مكان للنساء في الجيش. كان جواز سفري الممهور بخاتم تسجيل زواجي بـ إي. بي. بافلتشنكو موجوداً في خزانة حديدية. ثمّ اختفى في بوتقة الحرب النارية، وكنت قادرة على نسيان طيش الشباب التافه. فلا خزانة حديدية، ولا جواز سفر. جدران شديدة السواد فقط، وعوارض خشبية منهارة فقط، وبقايا السِّلْم الحديدي الملتوية الذي سبق أن صعدته إلى المكتب الذي قرّر مصيري.

بينما كانت سيارة إسعافنا تقف على مفترق الطرق، كنت أتأمل أنقراض مكتب التجنيد. من دون أدنى شك، كان للحرب وقع سحري على حياتي. كنت أعتزم أن أكون مُدرّسة تاريخ، أو مساعد لشؤون البحث في مكتبة أو أرشيف. بدلاً من ذلك صرت قناصة على الخط الأمامي، أي صيادة ماهرة لأناس يرتدون بزّات رومانية وألمانية. لماذا أتى أولئك إلى هذا المكان، أرضي؟ لماذا أرغموني على التخلّي عن مهنتي في زمن السلم؟ ففي مساء متأخر من تشرين الأول/ أكتوبر، أعاد ميناء أوديسا، الأكبر على الساحل، بأرصفتها الحديثة والمتينة البالغة خمسة كيلومترات، واقتصاد مينائها المزدهر وإجمالي حركة الشحن البالغة على ما يبدو عشرة ملايين طن سنوياً، أعاد إلى الأذهان مدينة بابل التوراتية وهي تكابد ساعاتها الأخيرة قبيل كارثتها العظمى. كان آلاف وآلاف من الناس المرتدين بزّات عسكرية يتهافون على أراضيها. وثمة شاحنات جيش، ووحدات جرّارة تسحب مدافع هاوتزر ثقيلة ودبابات ومركبات مدرعة ومطابخ متنقلة وعربات تجرها أحصنة، وأحصنة مُسرّجة تعود إلى جنود فرقة سلاح الفرسان الثانية وضباطها.

للهولة الأولى، تبدّى أن الفوضى ضربت أطنابها، لكن أظهرت قاعدة أوديسا البحرية أعلى درجات التنظيم أثناء تحميل القوات. كانت أرتال الجيش تندفع إلى منطقة الميناء بسرعة عبر ممرات مُعدّة سلفاً، أي إلى الأرصفة المؤدية إلى مرفق سفن البحر الأسود البخارية وأسطول البحر الأسود المُخصّصة لنقل وحدات عسكرية خاصة.

مثلاً حشرنا أنفسنا، نحن الشبايفيين، عبر بوابات إدارة الجمارك، وقصدنا بلاتنوف والأرصفة الجديدة في نيو هاربر. كانت سفن الشحن العاملة بمحركات الديزل "Zhan Zhores" ^١ و"Kursk" و"Ukraina" راسية على الأرصفة. وبدأ الصعود إلى السفن. فعلى طول السلالم المتدلية من السفن، كان يصعد ألف جندي إلى طوابقها كلّ ٤ دقيقة، أي ألفي جندي كلّ ساعة ونصف. كما صعدت الرشاشات ومدافع هاون الفوج الصغيرة من عيار ٥٠ ملم السلالم نفسها. أمّا المدافع الرشاشة والمدفعية

١ أطلق اسم الاشتراكي جان جوريس Zhan Zhores على هذه السفينة. فالحرف Zh في الروسية يُعد المكافئ الأقرب إلى J.

المضادة للطائرات على المنصات الخشبية، فكانت تنتظر دورها على الرصيف. لا يمكن نقلها إلى متن السفن سوى برافعات تحميل السفن العاملة بمحركات الديزل التي كانت تعمل بلا توقّف.

حتى ذلك التاريخ، لم أذهب في رحلة بحرية أو أكن على متن سفينة على الإطلاق. كنت أريد إلقاء نظرة جيدة على كل شيء، لكنّ الإبحار، الذي كان يحدث بسرعة شديدة حقاً، منعني من ذلك. أمّا ”جان جاريس“، التي كانت تحمل كتيبتنا الطبية إضافة إلى أركان قيادة الفرقة الخامسة والعشرين، وبعض وحداتها الأخرى (بما فيها فوج المدفعية التاسع والستون، والهاوتزر التاسع والتسعون، والبطارية المضادة للطائرات ١٩٣)، فلاحت أمامي مثل جدار أسود باسق طويل منتصب فوق الرصيف تماماً. كان يتدلّى منها هيكل علوي أبيض مزوّد بقوارب نجاة ومدخنة ضخمة مدهون بشريط أحمر يحمل مطرقة ومنجلاً صفراوين. كان القبطان، وهو رجل ضخم عريض المنكبين ويرتدي قبعة بحرية سوداء مزوّدة بريشة ذهبية، يقف على الجسر. كان يوجّه الجرحى كلّهم إلى غرفة مطعم الملاحين. وبأمره، أنزلت المركبات البرية ومدافع الهاوتزر إلى العنبرين الأول والثاني في نهاية مقدمة السفينة. ترك أربعة مدافع مضادة للطائرات على السطح العلوي مفترساً لسبب وجيه أنها ستكون مفيدة في التصدي لضربات الألمان الجوية أثناء العبور من أوديسا إلى سيفاستوبول.

تمكنت في غرفة مطعم الملاحين من الحصول على مكان في محيط كوة رمي كبيرة كان المرفأ الجديد برمته مرثياً من خلالها. كان الهرج والمرج على الرصيف إلى زوال تدريجي. والقوات تعبر من الشاطئ إلى السفن. والسفن الثلاث العاملة بمحركات الديزل، ”Zhan Zhores“ و”Kursk“ و”Ukraine“، التي تبلغ طاقة شحن كلّ منها خمسة أو ستة آلاف طن، تأوي أفراداً وآلات في طوابقها وعنابرها تبعاً للخطة.

نحو العاشرة من مساء الخامس عشر من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤١، بدأت قوارب القطر سحب سفن شحنتنا بعيداً من رصيف الميناء. ثمّ أقلعت محركات الديزل للسفن. رعدت ”Zhan Zhores“ وأخذت بالتحرك نحو عرض البحر وسط ظلام دامس. أخذ ميناء أوديسا بالتلاشي ليصير نقطة قرمزية وصفراء. كانت المستودعات

الهائلة على الجانب الأيسر تحترق. من الواضح أنه لم يكن ثمة أحد يقوم على إطفائها ولا سبب يستدعي ذلك. كنا نُسَلِّم المدينة للعدو، لكن لم يساورنا أي شك في أننا سنعود.

صعدت إلى سطح السفينة العلوي بعد الفطور في اليوم اللاحق. ثمة ربح خفيفة تهب، والاهتزاز غير محسوس إلى حدٍّ ما. الشمس تطل من خلف الغيوم، وأشعتها تنساب على طول الأمواج الصغيرة، مولدةً ومضات بيضاء برّاقة. كان سهل المحيط اللانهائي ممتداً على جانبي "Zhan Zhores". لقد اختفى شاطئ أوديسا مثل سراب في الصحراء.

بينما كنت أسند كتفي على الجدار المعدني لجزء من هيكل السفينة الهائل، حميت نفسي من الريح بسدلة معطفي، وسحبت علبة السجائر الفضية من جيبِي، وضغطت على الولاعة واستنشقت سيجارة مُرّة المذاق. لم يبقَ تذكّار من الملازم أندريه فورونين سوى علبة السجائر الغنيمة. انتهت تلك المعارك التي لا تُنسى، أي في Bleyayevka، وGildendorf، وتاركا. لقد أسهم كلّ منها في شيء من الخبرة الحربية، وعلمتني شيئاً، كما يمكن لقائل أن يقول، براعة الجندي وصبره وإصراره. لكن ليس ذلك فقط. لقد اكتسبت فهماً لماهية البشر في الحرب. قُوطعت تأملاتي بصيحة تهديد من الأعلى.

- يا رفيقة، التدخين مسموح على متن السفينة في الأماكن المخصصة لذلك فقط. سألته رافعة رأسي: "هل لك أن تخبرني أين هذه الأماكن؟" كان وكيل القبطان الثالث، رجلاً في الثلاثين تقريباً، مرتدياً سترة جلدية بحرية وقبعة سوداء، يتكئ على قضبان جسر القبطان وينظر إليّ، وهو ضابط ملاح. للوهلة الأولى، كان وجهه صارماً. من المحتمل أنه يعترض الإتيان بتوبيخ لبّاح قليل الخبرة، أي أنا، لكن البحار لم يتوقع أنّ أحدهم مرتدياً معطف وقبعة جندي، وبرأس مُضَمَّد، قد يكون امرأة. في البداية، التزم الصمت من الخجل، ثم ابتسم قائلاً بأسلوب مختلف تماماً وأكثر تهديداً: "ثمة مكان على مؤخرة السفينة".

- لا، لن أذهب إلى هناك.

أخذت سحبة أخيرة ورميت السيجارة غير المنتهية من على السفينة.

استمر البحار باستجوابي: "هل أنت قادمة من المستشفى؟"

- أجل، من الكتيبة الطبية.

- وأين تعرضت للإصابة؟

- في معركة في تاركا.

أخذ يستفسر، ربما لأنه ليس لديه أدنى فكرة أن في مقدور النساء في الجيش المشاركة في اشتباكات عسكرية على قدم المساواة مع الرجال: "وأنت تنقلين الجرحى تحت النار؟"

- شيء من هذا القبيل.

هزرت كتفيّ لأنه لم تكن لدي نية لإخباره عن خدمتي قناصةً.

كان البحار يريد متابعة الإحاطة بوضوح: "هل تريدان النظر إلى قافلتنا عبر المنظار الميداني؟ اصعدي السلم. يمكنك رؤية السفن كلها تقريباً من هذا المكان."

في البداية، كان البحار يشرح لي بصدر رحب آلية استخدام المنظار الميداني. فالمنظار الموشوريّ المزوّد بتكبير سداسي الأضعاف مسألة أساسية في عتاد القناص، لكن كنت أستمع بانتباه لشرحه، وسألته بضعة أسئلة. في الواقع، لم يكن في مقدور ممرضة أن تكون مُطلعة على مثل هذه الأمور.

أخيراً انتهى المطاف بالمنظار الميداني في يديّ، وأخذتُ أنظر عبر العدسة. كان حجم الطراد "Krasnaya Ukraina" المزوّد بساريتين والمدّهون بلون رمادي أزرق يقترب بسرعة. كان مزوّداً بمدافع على مقدّمته. يا له من هيكل هائل عالٍ بثلاث مداخن وثمانية مدافع رشاشة جانبية من العيار الثقيل! إنها سفينة جميلة وقوية، فخر أسطول البحر الأسود الحقيقي. لم يكن أحد يعرف أنها لن تستغرق وقتاً طويلاً حتى تنخرط في الخدمة.

كان الطرادان "Krasnaya Ukraina" و "Krasniy Kavka" يُحبران أماننا وترسمهما خلفية السماء الزرقاء بشكل واضح. في مقدور الطرادات العمل بسرعة ثلاثين عقدة، لكن كانت تتحرك في صبيحة السادس عشر من تشرين الأول/أكتوبر بثلاث تلك السرعة، مُعدّلة إياها بما يتناسب مع السفن الأخرى في القافلة. كانت المدمرتان "Bodry" و "Smyshlyony"، وثلاث كاسحات ألغام، وزورقان حربيان، وقارب

دورية، يُؤمنون الحماية لنواقلنا الضخمة مثل "Zhan Zhores"، إضافة إلى "Ukraina"، و"Kurs"، و"Kalinin"، و"Kotovskoi"، و"Vasily Chapayev".

بينما كنت أشاهد السفن بالمنظار الميداني، كان الملاح يصفها وانسحاباتها ووحدات طاقتها وأبعادها بإيجاز. كان يتحدث عن محبوبته "جان جارس" بإعجاب خاص. تعلّمت كثيراً من الأمور المثيرة للاهتمام. مثلاً بُنيت السفينة العاملة بمحركات الديزل في لينينغراد في حوض بناء السفن الجنوبي عام ١٩٣٩ بوصفها واحدة من السفن الأربع المتشابهة، ثم أجرت رحلة حول أوروبا لأنها كانت مرتبطة بـ"شركة البحر الأسود". لقد أحضرت "Zhan Zhores" عام ١٩٣٤ الكاتب الشهير مكسيم غوركي من جنوى إلى الاتحاد السوفياتي. ثم قصدت نيويورك وحملت شحنات متنوعة إلى إيطاليا وفرنسا، وباتومي في القوقاز. انتهت هذه الدردشة الغنية بالمعلومات بدعوة إلى كوب من الشاي في المطعم من أجل التعرّف إلى بعضنا بعضاً. كان اسم البحار كونستنتين بودما Konstantin Podyma، ومن مواليده مدينة نوفوروسيسك.

باستثناء ذلك، لم يكن لدينا وقت للشاي.

في قرابة الحادية عشرة صباحاً، وبينما كانت القافلة تعبر محيط لسان تندرا Temdra الساحلي، تعرّضت لهجوم من مجموعة من القاذفات المعادية. مع ذلك، غُطّيَت سفننا بأزواج شتّى من مقاتلات I-153 و I-16 و Yak. لقد اندفعت بجساسة للتصدّي لمقاتلات Junker 88 الألمانية الثنائية المحرك، ولقاذفات Junker 87 الانقضاضية الأحادية المحرك، أو Trundlers كما كنّا نطلق عليها بسبب عجالات هبوطها الثابتة الخرقاء الشكل. بدأت مواكب جوية حقيقية من الطائرات الحربية السريعة الحركة أو الهادرة، مصحوبة بانفجار طلقات الرشاشات، والصليات المضادة للطائرات، والقنابل المنفجرة لدى إسقاط الألمان لها في البحر. ونظراً إلى خطورة إصابتنا بنيرانها، منعتها مقاتلاتنا من تنفيذ قصف دقيق واشتبكت مع مقاتلات Messerschmitt-109 الألمانية التي كانت تحمي القاذفات البطيئة والثقيلة.

دارت رحي جزء من هذه المعركة قرب سفينتنا تماماً. أخذ دخان مقاتلة Junker 87 أسقطتها مقاتلة "النجمة الحمراء" بطلقاتها النارية الدقيقة يظهر، ونكّست بانقضاض حاد، وغاصت في الماء تماماً على بُعد عشرة أمتار تقريباً من سفينتنا. على أيّ حال،

لم تغص في الأعماق المائية مباشرةً. اعتقدت أنني رأيت وجه الطيار مشوّهاً بتجهم من الرعب. فالموجة الناجمة عن هبوط الطائرة الحربية هزّت "Zhan Zhores" على اليمين بقوة، لكنّ السفينة، التي يناهز طولها مئة متر، سرعان ما صححت مسارها. حيّا طاقم السفينة انتصار الطيار السوفياتي بصيحة متناغمة وعالية: "يعيش!"

بينما كنت أراقب مناورات اثنتي عشرة مقاتلة Trundlers صفراء المقدمة وبصلبان سوداء على أجنحتها وهياكلها وهي تنقضّ على السفن وتحلّق على ارتفاع متني إلى ثلاثمئة متر فوقها، تذكرت بندقيتي في بيتها في قاعة مطعم الملاحين على متن "Zhan Zhores". دوماً كانت رغبتني العزيزة منذ انسحابنا الحزين من على طول شوارع بساريا، عندما كان الفاشيون يطلقون النار على المدنيين السلميين على مرأى منّا، أن أسقط إحدى تلك العقبان ببندقيتي. مع ذلك، لم يكن في حوزتي حتّى بندقية Mosin عادية آنذاك.

كان الرمي على أهداف متحركة الجزء الأصعب من خدمة الخط الأمامي بالنسبة إلى القناصين. فالصعوبة لا تكمن في إجراء عمليات حسابية قذفية سريعة ودقيقة فحسب، بل في حاجة المرء إلى مهارات جيدة في التعامل مع بندقية محمولة. لا ينبغي توجيه السلاح على الهدف، بل أمامه، مع حساب زمن ومسافة النقطة التي سيلتقي فيها الجسمان المتحركان، أي الرصاصة والهدف. تندرج هذه الطريقة تحت مسمّى "رمي المنحنى" الذي درسناه في مدرسة القناصين. أخبرنا بوتابوف أنّ فوجه قد أسقط مقاتلة Fokker الألمانية، كانت تُحلّق على علوّ منخفض، ببندقية، في نهاية ١٩١٥.

من الضروري معرفة السرعة التي يتحرك فيها الهدف. حَسَب كل شيء حولنا قدّرت أن القاذفات Junker 87 الانقضاضية كانت تنقضّ من أجل إلقاء قنابلها بسرعة أربعمئة كيلومتر في الساعة، على أقلّ تقدير. لكن لم تكن "Zhan Zhores" راسية. كانت تُبحر بسرعة كبيرة وتناور أيضاً لتفادي الهجمات الفاشية. واطبت أربعة مدافع رشاشة مضادة للطائرات رميها المتواصل تقريباً، الأمر الذي جعل الألمان يتعدون عن هدفهم في غالبية الأحيان. لا يسعني سوى الإعجاب بالأفعال الجسورة لطاقم السفينة.

لم يحالف النجاح هجوم الألمان الجوي. لم يكونوا قادرين على إغراق سفينة واحدة. أما مقاتلاتنا ذات النجمة الحمراء، فأسقطت ما يناهز خمس عشرة قاذفة. وأسقطت مدافع السفينة الرشاشة المضادة للطائرات ثلاث طائرات فاشية في الماء. لكن طيارينا قضوا في هذه المعركة أيضاً. وتمكّن البحارة من إنقاذ ثلاثة طيارين مصابين من الطائرات التي أسقطت.

ظهرت مجموعة أخرى من الطائرات المعادية في السماء فوق القافلة بعد الظهر، قرابة أربعين قاذفة Junker 87 و 88. أقلعت مقاتلاتنا، ست وخمسون طائرة إجمالاً، المرابطة في مطارات في القرم وعلى لسان تندرا الساحلي للتصدي لها. فشهدنا المعركة الجوية المثيرة مجدداً، لكن أخفق الأعداء خلال مجرياتها في تحقيق أهدافهم مجدداً. لم يتمكّن الألمان من تدمير الناقلة القديمة "Bolshevik" التي كانت في مؤخرة القافلة إلا في وقت متأخر من المساء؛ أصابتها قذيفة طوربيد، الأمر الذي أدى إلى غرقها. لكن انتشلت كاسحات الألغام وزوارق الطوربيد السوفياتية طاقم السفينة العاملة بمحركات الديزل برمتها الذي نجح في إنزال قوارب نجاتها.^١

وصلت القافلة إلى سيفاستوبول في السابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤١، في تمام الساعة مساءً، ورسّت في خليج ستريليتس Strelets. ثم بدأ التفريغ. كونه أعفي من مناوبته خرج كونستنتين بودمًا لمرافقتي، وشاهد من شدة ذهوله أنني كنت أحمل على كتفي جسماً طويلاً بحمالة، ناهيك عن كيس المهمات. عرض البحار الشهم مساعدته. أجبت أنه لا أستطيع تسليم سلاحه الشخصي لأحد.

سأل على نحو ينم عن الشك: "بالتأكيد، إنك لا تحملين سلاحاً، يا لودا؟" صارحته بالأمر: "قناصة".

- إذاً، أنت لست مُسَعِّفة، بل رامٍ؟ لم يخطر على بالي إطلاقاً... لماذا، يا كوستيا؟

وقال عن قناعة راسخة: "لا مكان للنساء في الحرب".

١ تبعاً للأبحاث الحديثة فقد ربان السفينة وطاقمها الخمسة عشر. أنقذ عشرون بين مسافر وطاقم.

لم يكن لدي وقت ولا رغبة في مباحكة الملاح. فأثناء الحرب البغيضة التي كان يناضل فيها شعبنا من أجل بقائه، تعيّن على جميع من كانوا واثقين بمعرفتهم ومهاراتهم العسكرية، بغضّ النظر عن جنسهم أو انتمائهم القومي، رصّ الصفوف وتقديم أيّ إسهام استطاعوا إليه سبيلاً من أجل محقّ الغزاة الفاشيين الألمان. عندئذٍ فقط، سنكون قادرين على هزيمة العدو.

سيفاستوبول الأسطورية

رَحَّبَ منظر مدينة بيضاء رائعة لم تخذشها المعركة بعد بمحاربي الجيش الساحلي المُنهكين. كان هذا المكان هادئاً وآمناً على نحو غير اعتيادي، أي لا هجمات بالمدفعية، أو خطوط أمامية بقتال متواصل. لم يظهر الطيران الحربي النازي إلا بين فينة وأخرى، لكنها لم تلحق بسيفاستوبول ضرراً فادحاً كالذي شهدته أوديسا. بأشعة شمس القرم الدافئة، أمتعت شوارعها المُظلمة، ومنتزهاتها التي اكتست باللون الخريفي، وحدائقها العامة بأحواض زهورها الوارفة، النظَّرَ بمظهرها ما قبل الحربي الاحتفالي تماماً، وبريق ألوانها.

كانت المدينة تقترش شطآن خلجان شتّى. وكان المدخل الرئيسي لإحداها محمياً بحصنين قديمين، "كونستنتين" و"ميخائيل". وأسوارهما الحجرية البيضاء العظيمة المزودة بكوّات تنعكس على مياه المرفأ. على قمة الهضبة المركزية، كانت القبة الزرقاء لكاتدرائية القديس فلاديمير تلمع، وهي سرداب الدفن لأربعة أدميرالات، أبطال حصار المدينة الأول. وثمة نصب تذكارية وسط الأزقة المتعرجة لجادة التاريخ المُشجّرة تخلّد محاربي المعقل الرابع الصرعى، ولمعقل Yazenov، وجنود مدفعية Kostomarov، إضافة إلى نصب تذكاري برونزي متعدد الأشكال يُخلّد الجنرال تُتلبين Totleben وخبراء ألغامه الشجعان الذين خاضوا قتالاً تحت الأرض ضد القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية التي حاصرت سيفاستوبول عام ١٨٥٤.

لم يسبق لي زيارة هذا المكان. بعد الهرج، أي ميزات أوديسا الكثيرة والمتنوعة التي تجاوز عدد سكانها ستمئة ألف نسمة، تبدّت سيفاستوبول صغيرة وقروية. أمّا في أوديسا، فكان الميناء التجاري الذي يستضيف عشرات السفن من بلدان العالم المختلفة ينظم إيقاع الحياة. لم تستطع سفن الرّكّاب الأجنبية، وسفن الشحن، أو ناقلات النفط، الاقتراب من قاعدة أسطول البحر الأسود البحرية الرئيسية. كانت هياكل المدمرات، وكاسحات الألغام، وزوارق الدورية الرمادية الضيقة، تشغل أرصفة الخليج الجنوبي، أو كانت تنتظر الإصلاحات في محيط أرصفة "ورشة Sergo Ordzhonikidze" البحرية.

لا يزال التاريخ البطولي يُلَوّن طبيعة سيفاستوبول وسكانها وعاداتهم وأعرافهم الحديثة بصورة لا يُسبر غورها. راق لي ذلك الأمر. طرحت المدينة نفسها ليست كملاح متبختر نازل من سطح سفينة تجارية تمخر عباب المحيطات، كما الحال في أوديسا، بل كمحارب صارم قابض على سلاحه ومحدّق في المدى. كان ينتصب على حدود وطننا الجنوبية كحارس دائم مسؤول عن سلامة وطنه وأمنه.

رحّب شعب سيفاستوبول بالمدافعين عن أوديسا بكرم الضيافة. ثمة كثير من الجرحى على متن سفن قافلتنا (قاربة ثلاثة آلاف). أدخلوا فوراً المستشفيات الموجودة في مناطق مختلفة، أي في خليج هولندا، وخليج ستريليتس، في بالاكلافا Balaklava، وفي مستشفيات المدينة. توافر مكان لي ولمرضى الكتيبة الطبية السابعة والأربعين الآخرين في مستوصف صغير بخليج ستريليتس. أمّا زملائي في الفوج الذين كانوا بحاجة إلى الاستراحة بدلاً من العلاج، فأخذوا إلى الجادة التاريخية المُشجّرة في مركز المدينة. كانت قوات الجيش الساحلي الرئيسية موجودة في Korabelnaya Storona، الجزء الرئيسي في حرم كَلِيَّة المدفعية المضادة للطائرات.

أُرسل الأفراد إلى الحمامات العامة، وبُدِّلَت بياضاتهم وبزّاتهم، وقُدِّم إليهم الطعام في المقصف حيث وُزِعَ خمسمئة غرام من الخبز لكلّ شخص. قُدِّرَت مدة الراحة هذه خير تقدير ممن تركوا ميدان المعركة قُبيل يومين تماماً. كان الشبابيون يأملون أن يُسمح لهم بالراحة لأسبوع على أقلّ تقدير. لم تُلبّ رغباتهم؛ في نحو الحادي والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر، حُمِلَت فرقنا على قطار في محطة السكك

الحديدية سلفاً، وأُرسلت إلى شمال شبه جزيرة القرم لوقف الزحف الألماني على خطوط Ishun.

بقيت في سيفاستوبول لأن إصابة رأسي لم تشف. كان يُعاد تضميده كل يومين، ووعد المسعفون بانتزاع الغرز قريباً. رغم هذا الأمر، حصلت على إذن مغادرة نصف ساعة للمشى إلى البحر. ثم عندما أزيلت الغرز ونُقلت إلى كتيبة من مرضى الاستشفاء واقعة في مبنى طاقم أسطول البحر الأسود، كنت قادرة على طلب إجازة للذهاب إلى المدينة.

مُنحت تصريح الإجازة من الرائد إن. إي. خوبجيف N. A. Khubezhev، وهو رجل ظريف وثرثار. عندما قدّمت نفسي، أبدى اهتماماً بمكافأتي، أي البندقية المنقوشة، وعرض عليّ الانتقال من الفرقة الخامسة والعشرين، المرابطة في مكان لا يعلمه إلا الله الآن، إلى مشاة البحرية، إذ وعدني برتبة مساعد أول محترف، وأخذ يُطمئنني أن سترة بحر البحر الأسود المزوّدة بأزرار نحاسية ستليق بي بصورة منقطعة النظير أكثر من سترة المشاة العسكرية الكاكية. وأخذ يتغنّى بأصدقائه في القيادة، أي النقيب لوففسكي Lvovsky في كتيبة مشاة البحرية السادسة عشرة، والملازم المحترف أنشور Unchur في الكتيبة السابعة عشرة، والنقيب يغروف Yegorov في الكتيبة الثامنة عشرة، والنقيب شرنسوف Chernousov في الكتيبة التاسعة عشرة. على أيّ حال، لم تبدّ مشاة البحرية أفضل حالاً من البرية العادية بالنسبة إليّ. بتّ متعلّقة بفوج سِتبان ريزن للرماة بقوة كوني خضت غمار قصة أوديسا الملحمية معهم. في الحرب، يمكن لأيّ شيء أن يحدث. فالفوج ليس إبرة في كومة قش؛ لا بدّ أن يظهر في مكان ما، إضافة إلى الجيش الساحلي برّمته، الذي انسحب من خطوط إشنون تحت ضغط الألمان، وكان ينفذ إلى قاعدة أسطول البحر الأسود البحرية الرئيسية على طول طرق ترابية عبر سلسلة جبال القرم الجنوبية.

نظراً إلى خروجي من الثكنة إلى المدينة تجولت بمفردي واستمتعت بمظهرها الآمن. كانت الترامات تسير حول طوق المدينة، وكانت الدكاكين، والكافيتريات، والحمامات العامة، والحلاقون، وخدمات متنوعة، مثل الحدادة والخياطة وإصلاحات الأحذية، كلها مفتوحة. في الواقع، تبدّت سيفاستوبول، التي كان عدد سكانها يناهز

مئة ألف نسمة قبل الحرب، خاوية حالياً. نُقِلَ كثير من سكانها، ممن لديهم أطفال خصوصاً، إلى القوقاز وإقليم كراسنودار Krasnodar. على أيّ حال، كان أهل سيفاستوبول، في الأمسيات بعد انتهاء يوم العمل، يتأثّقون ويخرجون لمشي الهوينا على طول الشوارع التاريخية والبحرية المُشجّرة، ويزورون مسرح Lunacharsky، حيث كانت المسرحيات تُعرض كسابق عهدها، أو دور السينما الثلاث التي كانت تعرض أفضل الأفلام السوفياتية لما قبل الحرب: Chapayev [شبايف]، The Tractor Drivers [سائقو الجرارات]، In the Enemy Rear [في مؤخرة القوات المعادية]، Minin and Pozharsky [منين وبُجارسكي]، The Little Humpbacked Horse [الحصان الأحدب الصغير]، وغيرها.

في البداية، زرت المعالم الثقافية التي كانت لا تزال مفتوحة، أي متحف أسطول البحر الأسود المهيب الواقع في مبنى قديم مزوّد بمدافع بمحيط المدخل، وبانوراما الجادّة التاريخية المُشجّرة The Storming of Sevastopol, 6 June 1855 [اقتحام سيفاستوبول، السادس من حزيران/ يونيو ١٨٥٥]، اللافتة في تصويرها الواقعي وقوة وقعها على المشاهدين، من إنتاج الفنان فرانتس روبود Frantz Rubaud. لم أكن أريد الانصراف؛ كانت جاذبية هذا العمل الفني قوية للغاية. تبدّى كأّن الزمن قد عاد إلى الوراء وكنت واقفة بين المدافعين عن مرتفعات مألّخوف. لقد ذكرنا هذا الأمر بفكرة مفادها أنّه يتعيّن علينا إعادة مناقب أسلافنا وأن ندافع عن المدينة حتى آخر قطرة من دمائنا.

كما كان لسيفاستوبول تاريخ أقدم، إذ بُنيت بموجب فرمان من الإمبراطورة كاثرين العظيمة. ذهبت إلى بالاكلافا بالترام، وهي مزرعة أسماك تبعد ١٢ كلم عن المدينة، لمشاهدة آثار حصن Chimbalo الجنوبيّ. وزرت مدينة تاوريس خيرسون Tauric Chersonesus التي تعود في تأسيسها إلى القرن الخامس قبل الميلاد، حيث رأيت آثار المدينة الإغريقية القديمة، بما فيها أساسات المباني، والكاتدرائية، والمسرح القديم، وأبراج وجدران الحصن التي تُشكل منطقة خاصة، مثل حصن أمامي للتصدّي لمشاة العدو التي اخترقت التحصينات.

استطعت فعل ذلك لأن لدي مالي الخاص من راتبي جنديّة لأربعة أشهر. كان

الجندي في سنته الأولى في الخدمة يتقاضى ١٠ روبلات و ٥٠ كوبيكاً شهرياً، والعريف القناص ٣٠ روبلاً، والقيب القناص وقائد القطاع ٣٥. أنفقت نحو ٢٠ روبلاً على شوكلاتة من نوع Vesna (أي الربيع). ولدهشتي، كانت تُباع في ندوة الجيش في سيفاستوبول بسعر ما قبل الحرب.

في هذه الأثناء، بدأت تتكشف الأحداث في القرم. في السادس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤١، نجح الجيش الحادي عشر الألماني بقيادة اللواء إريك فون مانشتاين Manstein Erich von في الوصول إلى شبه الجزيرة. بعد أربعة أيام، بدأ العمل العسكري يوم الخميس في الثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر على الشوارع الأبعد المؤدية إلى قاعدة أسطول البحر الأسود البحرية الرئيسية. أطلقت بطارية مدفعية رباعية تابعة للدفاعات الساحلية الرابعة والخمسين النيران على رتل من ناقلات مدرعة ألمانية، وناقلات جند، ودراجات نارية، ومدفعية Stu.G.III الذاتية الدفع المتحركة على طول الطريق المؤدي إلى قرية Nikolayevka^١. أوقف الرتل بفعل بعض الرماية الدقيقة. فعُدّ هذا اليوم بداية حصار سيفاستوبول.

قرأ أمر في الثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤١ صادر عن رئيس حامية المدينة، العميد البحري جي. في جوكوف G.V.Zhukov، على مسامعنا أثناء التدريب في ساحة العرض بمبنى طاقم الأسطول. بدأ كما يلي:

١ لقد اخترق العدو الخط الأمامي، إذ دخلت وحداته المؤلفة المتقدمة إقليم Yevpatoria-Saki، مهددة سيفاستوبول... ٣ ينبغي لوحادات حامية سيفاستوبول العاملة بالتزامن مع السفن والمدفعية الساحلية منع العدو من دخول القاعدة البحرية الرئيسية وإبادته في الشوارع المؤدية إلى سيفاستوبول...

أتى الأمر على ذكر ترتيبات وحداتنا العسكرية على طول الخط الأمامي بدءاً من قرية Kamara انتهاءً بمصب نهر Kach. أمّا الدفاع على الأرض، فيعود إلى ست

١ تُصنّف بافلتشنكو الأسلحة بوصفها Ausf. F، لكن لم يظهر هذا النموذج من Stu.G.III حتى آذار/ مارس ١٩٤٢.

عشرة بطارية من مشاة البحرية، والمقاومة الشعبية، ومفارز أخرى مرابطة في المدينة في تلك اللحظة. لم ينل الأمر مني لأنني كنت مُسجَّلة، كما في السابق، في الكتبية الأولى من الفوج الرابع والخمسين للرماة، لكن لم يكن أحد يعرف مكان مرابطته. لم يمنحني الرائد خوبجف إجازة في ذلك اليوم، بل عرض عليّ الانتقال إلى مشاة البحرية مجدداً. فشغلت نفسي في تنظيف الأرضيات إلى جانب الجنود الآخرين الخاضعين للاستشفاء.

لم يكن لديّ وقت للتحرّس على هذا الأمر. بعد الظهر، طلّت مساعدتان شابتان من المكتبة البحرية بعد العشاء. كانتا في جولتهما الأسبوعية الاعتيادية لوحداث الأسطول، تجمعان الكتب التي أعارتها للجنود سابقاً، وتعرضان كتباً جديدة. سرعان ما تجمع هر حشد حولهما. كان الجنود يتبادلون الكتب، ويدردشون مع الفتاتين عمّا طالعوه، ويطرحون طلباتهم. استعرت كتباً ممزقاً بغلاف رقيق مزوّد برسم ملوّن يُصور المَعْقِل الرابع عام ١٨٥٤، أي مدفعاً رشاشاً كبيراً على عربة مدفع ذات عجلات صغيرة، وبعض الجنود وضابط بالقرب منها. توضع اسم المؤلف، ليو تولستوي، والعنوان *Sevastopol Sketches* [صور وصفية أدبية من سيفاستوبول]، فوق الصورة. وثمة كتب من تأليف كتاب آخرين أيضاً، مثل: تشرنِفسكي، وتشيوخوف، وألكسي تولستوي، وشُخوف، ومكسيم غوركي. لكن حظي ليو تولستوي بقدر أكبر من الطلب.

مضى وقت طويل مذ وقعت يدي على كتاب، أي خير جليس للطالب. وجَبَ عليّ نسيانها لأنني اتشحت بيزّة وبَتّ جنديّة في "الجيش الأحمر" في فرقة شباييف الخامسة والعشرين. لقد أصبحت الكتب ذكرى من الماضي في حياتي ما قبل الحرب. أما الآن، فكانت تُذكرني بالسلام والاستقرار وأسباب الراحة العصرية. ليس دون بعض الحماسة، فتحت الغلاف. بطبيعة الحال، طالعت *Sevastopol Sketches*، لكن من المحتمل منذ مدة طويلة جداً عندما كنت طفلة. أخذت إحدى فتيات المكتبة تتحدّث إليّ عن العمل. فأوصت به بحرارة، قائلة إنه مثير للاهتمام وملائم جداً للمشاهد الراهن. شاطرتها الرأي، أي لم تمضِ مئة عام حتى برز غزاة جدد يقتربون من المدينة الأسطورية ويبيتون النيات نفسها.

كانت المطالعة تساعدني على تمضية الوقت. وبوصفي مشاركة في خط الدفاع

الأمامي عن المدينة، كان ملازم المدفعية الشاب الكونت تولستوي يعرف عمّا كان يتحدث عند وصفه العمل العسكري. ففي سنوات شبابه من المحتمل أنني أخفقت في تذوق الدقة التي وصل إليها الكاتب العظيم في تفصيلاته النفسية. أمّا الآن، وبينما كنت أتذكر معركة الدفاع عن أوديسا، فذهلت من الحس الذي نُقلت فيه مشاعر رجل يدرك الخطر المميت في المعركة للمرّة الأولى:

سيكون للصفيّر الطويل لكرة أو قذيفة المدفع الرشاش وأنت تتسلق الهضبة وقعٌ أليم. ستدرك فجأةً وبطريقة مختلفة عن السابق خطورة تلك الرمايات التي كنت تسمعها في المدينة. ستومض ذكرى سعيدة ما بهدوء في مخيلتك على نحو مفاجئ، وستأخذ شخصيتك المستقلة تشغلك أكثر من الملاحظات، إذ سيتدنّى اهتمامك بكلّ ما يدور حولك، وسيتملّكك شعور مزعج بالتردد بصورة مفاجئة. رغم هذا الصوت الخسيس، الذي رفع نبرته داخلك لدى رؤية الخطر، وإذا نظرت إلى الجندي الذي مرّ بك مهزولاً بضحكة على وجه الخصوص، ملوّحاً ذراعيه وهو يهبط من التلّ منزلقاً عبر الوحلّ السائل، تُرغم نفسك على إسكات ذلك الصوت، وإبراز صدرك، ورفع رأسك عالياً بشكل غير مقصود.

رسم تولستوي صوراً شخصية نابضة بالحياة عن رفاق السلاح، أي جنود وضباط الجيش الإمبراطوري الروسي الذين كانوا يقاتلون على المعاول حينذاك. كأنه استحضّر أولئك الأبطال بصورة أقرب إلينا بجعل أفكارهم وأحلامهم وأفعالهم مفهومة. لا أعتقد أن أحداً سبقه في الحديث عن مكنونات روح المحاربين الروس على نحو مُقنع للغاية.

إنّ رغبة ضابط بحري، بدافع الغرور أو لمجرد المتعة، في الرمي بحضورك "من أجل أمر المدفعيّ وطاقم المدفع الرشاش" مسألة واردة إلى حد كبير. فبطريقة مُفرحة ومفعمة بالحيوية، سيصعد أربعة عشر بحاراً المدفع الرشاش، يدس بعضهم غلاينهم في جيوبهم، ويمضغ بعضهم الكسّر الأخيرة من قشرة الرغيف، وأحذيتهم العسكرية المُغلّفة معدنياً تخبّط

المنصة، ويقومون بإلقامه. ألقى نظرة إلى وجوه أولئك الرجال ومشييتهم وحركتهم؛ يمكن أن ترى في كل جَعْدَة لكل وجه باسم الخدّ ولفحته الشمس، وكلّ عضلة، وفي عرض مناكبهم، وحجم نطاق الأرجل المُنتعلة أحذية عسكرية هائلة، وفي كلّ حركة هادئة وراسخة ومتأنيّة، تلك الخصال الرئيسية التي تكوّن قوة الروسيّ وبساطته ومكابرته. لكن بمعزل عن تلك العلامات البارزة، أرست خطورة وغلّ ولوعة الحرب على كل وجه في هذا المكان، على ما يبدو لك، آثار إحساس بكرامتهم، وبفكر وشعور ساميين.^١

كذلك، انجذبت إلى وصف تولستوي مناظر سيفاستوبول وطقسها وأسماء أماكنها المحلية، أي Severnaya Storona، و Korobelnaya Storona، و Malakhov، و Kurgan، و Sapun-Gora، و Mekenzievy Gory، و Sukharnaya Balka، و Martynov، و Ovrag، و Rechka Chornaya، و Pavlovsky Mysuk، و Kulikovo Polye. لقد عملت حتى ذلك التاريخ على مناظر السهوب المستوية الطبيعية حيث كانت الرؤية ممتازة على العموم، ومسافات الهدف سهلة التحديد. كانت الرماية الموجهة في التلال مسألة مختلفة تماماً.

زوّدني الرائد خوبجف ببعض الأخبار السّارة في صبيحة الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤١. لقد وصل قائد الجيش الساحلي، اللواء بتروف، سيفاستوبول البارحة برفقة أركان قيادته، وكان يُقيم في مقر قيادة الدفاع الساحلي في ثكنة تشيرسنيز. قررت تأمين لقاء معه، لكن لم يكن تواصل رقيب مع جنرال أمراً سهلاً. لكن معرفتي بضابطه الإداري أسعفتني.

بالنسبة إليّ، كان بتروف محافظاً على شكله السابق، أي أنيقاً ومفعماً بالنشاط. لقد استقر غبار طرق القرم الأبيض على سترته المزوّدة بنجوم اللواء على العُرى. وثبت لجاماً نبياً للفرسان مزوداً بحزام وحمالتين للكتفين قوامه النحيل بإحكام. أمّا قراب مسدس Korovin الذي كان يزوّد به القادة المحترفون، فنُقِلَ إلى ميمنته بشكل ملحوظ. كالعادة، يحمل بتروف سوط فروسية بيديه، رغم قيامه بجولة على خطوط النار بمركبة

1 L. N. Tolstoy *Sevastopol Sketches* (Moscow, 1969), pp. 20, 22.

من أجل التعرّف بنفسه إلى الوحدات العسكرية التي تشغلها، ومعاينة المواقع وأعمال سلاح الهندسة العسكرية. توقّف القائد بعد خروجه من سيارة GAZ-M1 غوركّة. توجّهت نحوه بخطى واسعة، ووقفت باستعداد، وقدمت نفسي: ”الريب بافلتشنكو، أيها الريب الرفيق اللواء، يستأذنك الكلام“.

ابتسم قائلاً: ”تحياتي، يا لودميلا. كيف حالك؟“

مكتبة

t.me/soramnqraa

– ممتازة، سيّدي الرفيق اللواء.

– إذاً، هل سنهزم النازيين في سيفاستوبول؟

– بالتأكيد، سيّدي الرفيق اللواء.

نزع بتروف نظارته المثبّنة على عظمة الأنف ومسحها بمحرمة ناصعة البياض، قائلاً: ”عليّ أن أزفّ إليك خبراً بأنك رقيب أول حالياً، وستقودين فصيلة قناصين. عندما يتم تشكيل التعزيزات، عليك انتقاء بعض الأفراد المناسبين وتعليمهم مهارات القنص“.

”أجل، سيّدي الرفيق اللواء“. أجبته بسعادة. وسألته بقلق مُخفّضةً صوتي: ”لكن أين فوجي، يا سيّدي إيفان يفموفتش؟“

– أعتقد أن رجال الريزن على الطريق الواصل بين يالطا وغورزوف. سيكونون في سيفاستوبول في غضون خمسة أيام. هل ستنتظرينهم؟

– أجل، سيّدي الرفيق اللواء. فمنذ أيامي الأولى في الخدمة، كان قلبي مع كتية النقيب سيرغينكو الأولى وغاليتي السريّة الثانية.

ابتسم بتروف مجدداً: ”أنا مُعجب بإخلاصك للجيش“.

تبعاً للأوامر الصادرة عن قائد الجيش الساحلي أعدت واثقي المطلوبة كلّها في قيادة الأركان، ومُنحت بموجها تصريحاً من أجل الفوج وضابط التموين والإمدادات. تعيّن عليّ الحصول على قطع متنوعة من لباسي الشتوي. على سبيل المثال قبة مزوّدة بواقيتين للأذنين، وسترة مُبطّنة، وملابس داخلية دافئة. ثبتّ بسرور خاص المثلثات اللياقوتية الداكنة الثلاثة، التي تشير إلى رتبتي الجديدة، رقيب أول، على عرى سترتي العسكرية. بمعزل عن ذلك، كنت أستحقّ حزاماً جليدياً مزوّداً بحمالة للكتف، وإبريماً نحاسياً أحاديّ المسمار، وقراباً لاستيعاب مسدس مزوّد بسيخ تنظيف.

في المحصلة، لم أفارق هذا السلاح الناري، أي Tula-Tokarev الذي زوّدت به في سيفاستوبول، على الإطلاق. كان بحوزتي في مخابئ القنص، وأثناء الإجازة في المدينة، وبطبيعة الحال في ساحة العرض. وبعد الإخلاء، رافقني إلى نوفوروسيسك ثم إلى موسكو. فبات TT تعويذتي. وبينما كنا نطارِد الألمان في غابات القرم، لم أكن أعتد، في حال الإخفاق، على القنبلة التي كانت متدلية من حزامي كثيراً، بل على Totosha [توتوشتي] (اسم تحبّي يُطلق على أنطون) (كما كنّا نطلق على مسدس Tokarev في الجيش). لم يكن الروس ولا الألمان يأسرون القناصين، بل يُصفّونهم فوراً. أمّا عن النساء، فثمة تنوّع آخر، أي كان الاغتصاب الجماعي يسبق الموت^١. وعليه، كان الغرض من القنبلة دَرْجها تحت أقدام الأعداء. أمّا رصاصات TT السبع، فكانت لأي شخص اقترب كثيراً، والطلقة الأخيرة من نصيبك.

لا أنكر أن مسدساً يزِن ٨٢٥ غراماً دون مخزنه المزوّد بشماني رصاصات أثقل على يد المرأة إلى حدّ ما. وذهب بعضهم إلى انتقاد المهندس الروسي توكاريوف لأنّ سلاحه شبيه جداً باختراع "سلطان المسدسات"، جون موزز براوننغ، أي نوع عام ١٩٠٣ البلجيكي، على وجه الخصوص. لكن هل علينا نحن المعنيين بالرمي العملي الانصات إلى نزاعات المُنظّرِين البعيدين عن الحياة الحقيقية؟ فالأمر الأهمّ تمثّل في استيفاء TT متطلبات الخط الأمامي كلّها، أي رصاصة قوية من عيار ٧,٦٢ ملم قادرة على اختراق جدار طوب سماكته ١٠٠ ملم، وسبطانة صلبة، وآلية عمل زناد مضمونة، وأخمس مسبوك بشكل ملائم^٢.

اقترب رفاقي في الفوج من سيفاستوبول في التاسع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤١، واحتلوا برفقة فرقة الرماة الخامسة والعشرين برمتها مواقع على طول خط ١٢ كلم في قطاع الدفاع الثالث، أي على تلال Mekenzi الواقعة بين نهري Chornaya و Belbek، وعلى بُعد ٢٠-٢٥ كلم عن المدينة. في هذا المكان، كانت المرتفعات المشجّرة

١ هكذا كانت حال القناصة الميتة تاتيانا بارامزينا Tatiana Baramzina، بطلة الاتحاد السوفياتي (بعد وفاتها).

٢ أودع نموذج المسدس TT 1933، إصدار عام ١٩٤٠، و برقم متسلسل 945PA، إضافة إلى مسدسات أخرى (Browning، Luger-Parabellum، Mauser، Colt) من مجموعة بافلتشنكو الشخصية في "متحف القوات المسلحة الفيدرالية الروسية" المركزي، برقم إيداع ٣٧٧٦/٢.

تتناوب مع الوديان السحيقة نسبياً المعروفة محلياً بـ "الوديان الصغيرة". على سبيل المثال، وادي Tyomnaya الصغير متاخماً لوادي Kamyshly السحيق، أو وادي Martynov الصغير قريب من وادي Martynov السحيق. كما كانت موجودة في المكان قرى تتارية شتّى، مثل Kamyshly، و Belbek، و Biyuk-Otarka، و Duvankoi، و Zalitskoi، وملتقى خطوط حديدية في تلال Mekenzi أيضاً. كانت قرية Mekenzia تقع على ارتفاع يناهز ثلاثمائة متر فوق سطح البحر، المُسمّاة على الخرائط "الطوق الحراجي رقم ٢" في بعض الأحيان. كانت القرية تابعة لعميد بحري في البحرية الإمبراطورية الروسية، توماس مكينزي Thomas MacKenzie، الذي يعود في أصوله إلى سكان الجبال الاسكتلندية.

كما الحال الآن، جُهّزت خطوط النار للمدافعين عن سيفاستوبول، أي الخنادق وممرات الاتصالات والمخابئ ومواضع الرشاشات ونقاط رمي بتراب مُدعّم. لقد تلقّى جنود وضباط الفوج الرابع والخمسين للرماة، وفوج الرماة ٢٨٧، والفوج الثالث، ولواء مشاة البحرية السابع، الذين باتوا جزءاً من فرقنا، أمراً باستمرار وجودنا غرب قرية Mekenzia التي سقطت بيد الألمان سلفاً من ١-٢ كلم.

كنت آمل، لدى وصولي إلى مواقع الفوج، أن أرى زملائي الجنود كلّهم بصحة جيدة لأنّه لا علم لي بالطريقة التي دارت فيها المعارك شمال شبه الجزيرة في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر. لكن لم يُرَحّب بي في مقر القيادة من الرائد متوشيفتش، المعروف لنا جميعاً من الدفاع عن أوديسا، لكنّ الرائد فاسلي إيفانفتش بتراش Vasily Ivanovich Petrash، الذي نُقل إلينا من الفوج الحادي والثلاثين، حيث كان يقود كتيبة، رَحّب بي. ولدى سؤالي عن متوشيفتش، أجاب بتراش أنه مُصاب ومن المحتمل أن يعود إلى الفوج قريباً. ثمّ قصدت مقر قيادة الكتيبة الأولى. في هذا المكان، شاهدت بدلاً من النقيب سيرغينكو ملازماً لا معرفة لي به، رجلاً نحيفاً وطويلاً في الخامسة والثلاثين تقريباً، قادماً من قوات الاحتياط. لدى تقديم نفسي، سلّمته وثائق. ألقى نظرة سريعة عليها، ثمّ نظر إليّ نظرة سخط كالحة، قائلاً: "أترغبين أن تُصبحين قائد فصيلة، يا رقيب أول؟ هل أنت كفوءة للمهمة حقاً؟"

- إنَّ بَتَّ هذا الأمر لا يعود إليّ، بل إلى القيادة العليا، سيّدي الرفيق الملازم.
- أيّ قيادة عليا تقصدين؟ مثلاً أنا معارض لشغل النساء مناصب ميدانية في الجيش.

أَنْتِ قَنَاصَةٌ. أَطْلُقِي النَّارَ عَلَى النَّازِيِّينَ مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرُ. أَمَّا الْأَوَامِرُ، فَسَيُصْدَرُهَا مِنْ يُفْتَرَضُ بِهِمْ إِصْدَارُهَا.

وَرَمَى وَثَائِقِي عَلَى الْمَكْتَبِ بِلَا اكْتِرَاثٍ.

لَمْ أَكُنْ أَنْوِي الْإِنْصِياعَ، فَسَأَلْتُهُ: "مَنْ يُفْتَرَضُ بِهِمْ، سَيِّدِي الرَّفِيقُ الْمَلَاذِمُ؟"
- طَبْعاً، الرِّجَالُ...

عَلَى أَيِّ حَالٍ، أُرْغِمَ الْمَلَاذِمُ غْرِيجُورِي فَيُودُورُفِيتْشِ دُرُومِينِ Grigory Fyodorovich Dromin عَلَى تَغْيِيرِ آرَائِهِ. وَشُرِّحَ لَهُ الْأَمْرُ بِوَضُوحٍ: قَرَارُ تَعْيِينِي لَمْ يَتَّخِذْهُ قَائِدُ الْفِرْقَةِ الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ، اللَّوَاءُ كُولُومِيْتْسِ، بَلِ الْقَائِدُ الْعَامُ لِلْجَيْشِ السَّاحِلِيِّ، اللَّوَاءُ بَتْرُوفٍ. طَبْعاً، نَتِيجَةُ لِهَذَا الْأَمْرِ، لَمْ تَحْتَسِّنْ عِلَاقَتِي مَعَ قَائِدِ الْكُتَيْبَةِ الْأُولَى الْحَالِي. صَحِيحٌ أَنَّ دُرُومِينِ تَرَكْنِي أَتَابِعُ عَمَلِي بِهَدْوٍ وَسَكِينَةٍ، لَكِنْ لَمْ تَكُنْ لَدِيهِ فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ أَيِّ نِيَّةٍ لِمَدْحِي أَوْ تَوْبِيخِي، وَحَتَّى مَكْفَأْتِي. ثَمَّةُ دَرَبٍ حَرَاجِي مُتَعَرِّجٍ يَصِلُ مَقَرَّ قِيَادَةِ الْكُتَيْبَةِ الْأُولَى بِخُطُوطِ السَّرِيَّةِ الثَّانِيَةِ. لَقَدْ أَسَّسَ الْمُهَنْدِسُونَ الْعَسْكَرِيُّونَ مَخَابِئَ عَمِيقَةً وَجَيِّدَةً فِي تَلَالِ Mekenzi. وَلَدَى دُخُولِي إِحْدَاهَا، التَّقَيْتُ الْعَرِيفُ فَيُودُورُ سِدْكَ مُصَادَفَةً. كَانَ ذَلِكَ الْأَمْرُ بِهَجَّةٍ إِلَى أَعْدِ الْخُدُودِ، إِذْ تَعَانَقْنَا وَتَبَادَلْنَا الْقَبْلَاتِ عَلَى الْخُدَيْنِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، تَبْعاً لِلْأَعْرَافِ الرَّوسِيَّةِ. لَمْ يَبْدُ رَفِيقُ مَعَارِكِي الْقَدِيمِ مُعَافًى؛ كَانَ أَنْحَفَ بِكَثِيرٍ، وَمَلَامَحُهُ غَائِرَةٌ، وَلَدِيهِ جَرَحٌ عَلَى يَدِهِ الْيَسْرَى. فَوَراً سَخَّنَا بَعْضَ الْمَاءِ فِي قِصْعَةٍ فَرْدِيَّةٍ مِنْ أَجْلِ شَرْبِ الشَّايِ، وَحَصَلْنَا عَلَى بَعْضِ السُّكَّرِ وَالْبَسْكَوَيْتِ السَّادَةِ، وَجَلَسْنَا لِنَتَبَادَلَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ.

وَصَفَّ فَيُودُورُ صَوَراً كُتَيْبَةً. احْتَكَّ النَّازِيُّونَ بِوَحْدَاتِنَا فِي الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ تَشْرِينِ الْأَوَّلِ/ أَكْتُوبَرٍ عَلَى خُطُوطِ "الْجَيْشِ الْأَحْمَرِ" الْقَرْيَةِ مِنْ إِشُون. لَقَدْ دَحَرْتَهُمْ قَوَاتِنَا بِسَالَةٍ، وَشَنَّتْ هَجَمَاتٍ مَعَاكِسَةٍ، لَكِنْ أَخَذَ تَفُوقُ الْعَدُوِّ الْمَدْفَعِيَّ وَالْجَوِّيَّ يَأْتِي أَكْلَهُ تَدْرِيجِيّاً. إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ كَانَتْ خُطُوطُ النَّارِ سَيِّئَةً التَّجْهِيْزِ؛ كَانَتْ الْقَوَاتِ السُّوفِيَّاتِيَّةُ مُمْتَشِرَةً فِي سَفُوحٍ مَكْشُوفَةٍ تَقْرِيباً. مِثْلاً أُصِيبَ النَّقِيبُ سِيرْغِينْكَوْ إِيصَابَةً خَطِيرَةً فِي السَّاقِ، فَهَتَشَمَ الْعَظْمَ جَرَاءَ نَزُولِ قَذِيفَةِ هَاوْنٍ مُبَاشِرَةٍ عَلَى مَقَرِّ قِيَادَةِ الْكُتَيْبَةِ الَّذِي كَانَ يَشْغُلُ خَنْدَقاً بَسِيطاً؛ نُقِلَ إِلَى عَمَقِ مَوْخِرَةِ الْقَوَاتِ. لَقَدْ وَقَعَ قَرَابَةُ نِصْفِ السَّرِيَّةِ الثَّانِيَةِ ضَحِيَّةٍ الْمَدْفَعِيَّةِ الْمَعَادِيَّةِ. لَمْ تَكُنْ فَصِيلَةُ الْقَنْصِ جَدِيرَةً بِالذِّكْرِ أَيْضاً. لَمْ

يَبْقَ في الفوج سوى ستمئة إلى سبعمئة رجل من فرقة كان قوامها يناهز ثلاثة آلاف جندي وضابط.

كان أحد المشاركين في هذه العملية القتالية إل. إن بتشاروف L.N. Bacharov، ويتذكر لاحقاً:

كان فوج الريزن التابع للفرقة الخامسة والعشرين يتقدم على يسار الفرقة الخامسة والتسعين. بدأ رجال الريزن بداية جيدة؛ كانوا مُنَسِّقِينَ تنسيقاً جيداً، ويصيحون: "يعيش!"، وهاجموا النازيين بالحرايب. أرسلت السرية الثانية إلى الهجوم بأمر من سمياشكين Semyashkin، أمين السر للمكتب الحزبي في الفوج. قُتِلَ ما يناهز مئة نازي على يد مقاتلي السرية الثالثة. كان قائدها، الملازم المحترف يريومينكو Yeryomenko، مُصاباً، لكنّه تابع الإشراف على الاشتباك... قاتلت الفرقة الساحلية في القرم بالشجاعة النادرة للذات، نفسها التي قاومت فيها في أوديسا، حيث كانوا قبل ثمانية أيام فقط. مع ذلك، ثمة شعور بأن نجاحنا الأولي لن يكون قابلاً للاستمرار. كانت مؤازرة المدفعية لقوات المشاة سيئة جداً، وحُرِّكت بطاريات قليلة، وثمة نقص في القذائف. سبق الهجوم رمي ناري دام خمس عشرة دقيقة فقط. لم تكن قوانا الجوية في السماء. كل شيء يُشير إلى سرعة وغياب الإعداد الذي شُنَّ فيه الزحف... ففي منتصف نهار السادس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر، كانت القوات الألمانية تتحرك قدماً بمؤازرة من عدد كبير من الطائرات والدبابات. وفي الأيام اللاحقة، زاد الأعداء قواتهم وواصلوا نجاحهم.¹

اشتركت وفيودور بذكريات سارة عن النقيب سيرغينكو. فأتناء توليه قيادة الكتيبة الأولى كان كل شيء يسير على ما يرام بالنسبة إلى الجميع. لم نزعج أنفسنا بالتفكير في الأسباب أيضاً. بوصفه ضابطاً قديراً ومتمرساً، ومهتماً بحاجات مرؤوسيه، وأماراً في الوقت نفسه، كان يحظى باحترام غير محدود من جنوده. كما كان قائدا الفوج،

1 By the Black Sea Fortresses (Moscow, 1967), pp. 182-3.

المقدم سفدنتسكي، والرائد متوسيفيتش لاحقاً، يكثران لنصائحه.

كان النقيب سيرغينكو ملاكاً حارساً بالنسبة إليّ، وفي المسائل الشخصية خصوصاً. لن أبوح بأي أسرار إذا قلت إنّ لخدمة المرأة في الجيش تحدياتها الخاصة. يجب أن يكون سلوك المرأة بصحبة الذكور متزاناً وصارماً ولا تشوبه شائبة؛ لا غزل مع أحد إطلاقاً! لكنّ الحياة تجري في أعنتها الخاصة، وثمة أوقات تبرز فيها صعوبات ليست صنيعه الجنود العاديين على الإطلاق، بل صنيعه "رفاقنا الضباط"، بالأحرى لأنهم يستغلون منصبهم في القيادة، والمادة من القانون العسكري التي تقول بوجوب تنفيذ أمر الضابط القائد ولزوم خضوع المرء للمساءلة في حال إخفاقه في فعل ذلك تبعاً لقوانين زمن الحرب. كنّا نطلق على هذا الأمر "الوقوع في الغرام". هذا يعلل تفضيلي قضاء وقت أكثر على الخط الأمامي، حتى لو تحت النيران المعادية. وهنا تكون فرصة لفت انتباه عاشق (من ملاك الضباط المتوسطين والمحترفين) حائز ثلاثة أو أربعة مكعبات أو قضبان صغيرة على عُرَى ياقته قليلة جداً. إن حدث أمر مثل ذلك، كان قائد الكتيبة يسأل المرشح مباشرة: "ماذا تريد منها؟" لسبب ما، لم يتحلّ أحدهم بالشجاعة لإجابته بصراحة. فكان التوسّل والأحاديث المُحرّجة والمقترحات الشائنة تنتهي عند هذا الحد، على العموم. للأسف، لا أعرف شيئاً عن الحظوظ الأخرى لهذا الرجل النبيل والشجاع.

في الوقت الذي بقي فيه فوجنا الرابع والخمسون في احتياطي الفرقة، عالجت والعريف سدك قضايا تنظيمية متنوعة. تعيّن علينا الحصول على تعزيزات واقتناء بنادق جديدة (ثلاثية الخطوط مزوّدة بمنظار PE) وفحصها، والاطلاع على قطاع الدفاع الموكل إلى السرية الثانية. بات واضحاً أن الخنادق لم تكن عميقة، إذ لا تتجاوز ٥٠ سنتيمتراً، ولم يكن ثمة ممرات اتصالات في بعض الأماكن على الإطلاق. وجب على الجنود فعل شيء حيالها، إذ لم يكونوا بحاجة إلى قناصات، بل إلى معاول خبراء ألغام صغيرة. كان لنا شرف رؤية قائد فرقنا، اللواء كولوميتس، في صبيحة العاشر من تشرين الثاني/نوفمبر؛ جاء من أجل تفقّد المواقع، وجال الخطوط وأشار بصرامة إلى التحصينات الترابية المبنية بشكل سيئ.

تبعاً لمجموعة القوانين المنصوص عليها من "مفوضية الدفاع الشعبية" في الخامس من نيسان/أبريل ١٩٤١، تتألف فصيلة الرماة من مجموعة كبيرة جداً، أي من واحد

وخمسين جندياً، بقيادة ملازم مزوّد بمسدس، ولديه معاون برتبة رقيب أول مزوّد برشاش PPD-40 قصير، ومراسل حربي (من أجل التواصل مع الرؤساء) مزوّد ببندقية Mosin. وتتألف الفصيلة من أربعة قطاعات رمي يترأسها رقباء (مزوّدين ببنادق SVT-40 جميعهم). يُلحق بالفصيلة قطاع مدفعية هاون (مؤلف من أربعة رجال، إضافة إلى رقيب ومدفع هاون من عيار ٥٠ ملم). إنني أسرد هذا الأمر بالتفصيل من أجل أن أظهر أنه لم يكن لديّ شيء من هذا القبيل تحت تصرّفي. كانت السرايا والكتائب بقيادة ملازمين في الغالب، وتلك الحال في أوديسا حيث كان ملاك الضباط المتوسط في مفارز "الجيش الأحمر" يوضع خارج الخدمة بعد أسبوعين أو ثلاثة من الاشتباك عادةً. فمن الغرابة تذكّر القوة العددية لفصيلة مكوّنة من خمسين جندياً. في أوقات مختلفة من الدفاع عن سيفاستوبول، كانت الفصائل تتألف من عشرين جندياً إلى خمسة وعشرين، لكن ليس أكثر من ذلك على الإطلاق. كانت البندقية PPD-40 الديكتاريوفية التصميم وبندقية شابغن PPSH-41 لاحقاً، المزودتان بمخازن طاحونة لرصاصات المسدس الحادية والسبعين، سلاحين فعّالين بلا منازع في الاشتباك القريب، لكن ثمة نقص هائل منهما في وحدات الرمي أثناء الأشهر الأولى من الحرب. على ما يبدو، كان لدى فصيلتنا من كشافة الفوج خمس وعشرون إلى ثلاثين بندقية PPD-40 موزعة بينهما. كان يُشار إلى مدفع الهاون من عيار ٥٠ ملم بمدفع هاون السرية عموماً. وتبعاً للسجلات ثمة سبعة وعشرون منها في الفوج، لكن كان ذلك وفقاً للسجلات فقط... خلال يومين، أي العاشر والحادي عشر من تشرين الثاني / نوفمبر، تلقّى الفوج تعزيزات. في الغالب، كانوا جنوداً قادمين من كتاب مشاة البحرية التي شكّلت على عجل في سيفاستوبول نهاية تشرين الأول / أكتوبر. أما الآن، فتعيّن عليهم الانضمام إلينا، نحن رجال الريزن، الذين خرجنا سالمين من غمار الحرب. وسرعان ما عودوا أنفسهم الخدمة برأى. كانوا يستعدون لقتال الغزاة الألمان الفاشيين حتى آخر قطرة من دمائهم، لكن كانوا يعلمون القليل عن ماهية تلك المعارك المقبلة.

كان أولئك البحّارة الذين انتهى المطاف بهم في فصيلتي مذهولين خصوصاً، ونجم عن تعارفنا الأولي بعض المواقف المضحكة أحياناً. ففي أحد الأيام، اقترح أربعة شبان شجعان يرتدون قبعات سوداء بواقيات للأذنين، وسترات وسراويل بحرية "عريضة

عرض البحر الأسود، كما يقول المثل، اقتحموا المخبأ وأعلنوا أنهم فُرزوا إلى مفرزة الرقيب أول بافلتشنكو. في تلك اللحظة، كنت أتصفّح كتاب معلّمي العظيم، وأدرس نصائحه عن الرمي في بلاد التلال. عرض عليهم فيودور سِدِك، الذي كان يفحص مغلاق البنادق الجديدة مع ثلاثة جنود، الجلوس. وضعوا أكياس بحّارتهم على الأرض الترابية، وجلسوا على مقاعد جدارية بتأنٍ، وأخذوا يجولون بأنظارهم. فلمحوني، ونظروا إلى بعضهم بعضاً، وابتسموا بتناغم. سألتني أحدهم: "إذاً، أنت تخدمين في هذا المكان أيضاً، أليس كذلك، يا صبيّة؟"

- أجل.

غمز أصحابه: "عظيم! انتهى المطاف بنا في المكان الصحيح. يا لك من مُسغفة رائعة! بصراحة، حسناء حقيقية. لا يمكنك أن تصرف نظرك عنها. فلنتعارف. أنا ليونيد Leonid، واسمك...؟"

- لودميلا.

- حسناً، يا لودميلا. لا تعبسي. كوني ألطف مع البحّارة. فلن يضيرك هذا الأمر. - في هذه الحال، عليكم الوقوف باستعداد والوقوف في صف أمامي وإعلام القائد بحضوركم، كما يمليه عليكم القانون العسكري.

- لكنّ، أين القائد؟

- أنا القائد.

- كوني في حلٍّ من أمرنا، يا لودا. لا يمكن الاستمرار على هذا النحو إطلاقاً. وجب عليّ أن أشرح للشباب بصراحة من المسؤول في هذا المكان. رغم ذهولهم التام، وقفوا في الصف باستعداد، وقَدّموا أنفسهم كما ينبغي، وأنصتوا إلى توجيهاتي الأولى بصفتي قائداً. لم يفارق مظهر الاستغراب حيّاهم. تبدى كأن مشاة البحرية يتوقعون في أي لحظة الآن أنّ سوء التفاهم المُكدّر هذا سيُحلّ، وأن الحاضرين سيضحكون معهم على ما يعدّونه، في رأيهم، حالة سخيفة. والسبب أنه لا يمكن لشيء من هذا القبيل أن يحدث في جيشنا، أي فصيلة قناصين بقيادة امرأة!

مع ذلك، قدّم ليونيد بوروف Leonid Burov وأصدقائه الثلاثة لاحقاً أفضل ما لديهم في الاشتباك. بطبيعة الحال، لم يكونوا قادرين أن يصيروا قناصين حقيقيين في أسبوع

من التدريب، لكنهم اكتسبوا المهارات الأولية للتعامل مع القناصة، ورموا بشكل جيد جداً بموجب توجيهي (كنت أحسب المسافة إلى الهدف، وأريهم كيفية ضبط إسطوانات التلسكوب)، في حال الهجمات الجبهية من العدو، على وجه الخصوص. كانوا رجالاً شجعاناً، وما يدعوا للأسف والحسرة أن بوروف لقي حتفه مبكراً للغاية. كانت قرية Mekenzia، أو الطوق الحراجي رقم ٢، تقع على قمة تلة مستوية ترتفع ٣١٠ أمتار عن سطح البحر. وهي محاطة بغابة من شجيرات صغيرة كثيفة مثل شجيرات القرم الاعتيادية، أي العرعر والتير وشوك الغار والقرونوس والورد البري. كانت مزرعة ضابط الأمن مؤلفة من منشآت أحادية الطابق صغيرة شتّى، وحديقة خضار، وبستان متاخم لها. لم يكن القصر القديم، الذي تحوّل إلى خراب منذ أمد بعيد، بعيداً منها، لكنه غير مرئي تقريباً بسبب الأشجار. باتت القرية نقطة التقاء بين مواقع قواتنا وقوات العدو في القطاع الثالث من منطقة الدفاع عن سيفاستوبول. وهي تقع على طريق إستراتيجي مهم يؤدي إلى وادي Kara-Koba. إن استولى عليها الأعداء، فسيكونون قادرين على الوصول إلى مؤخرة حُماة المدينة على الطرف الشرقي. فضلاً عن ذلك، بإبعاد وحدتنا عن القرية إلى مسافة لا بأس بها، سيشق الألمان طريقهم إلى تلال محطة سكة حديد Mekenzi، ومن هناك، إلى الشاطئ الشمالي لأطول وأكبر خليج، الأمر الذي سيُقرّر مصير المدينة.

استولى النازيون في الأيام الأولى من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤١ على قرية Mekenzia نفسها، لكنهم لم ينفذوا أبعد من ذلك حالياً. كانوا يلملمون صفوفهم من أجل توجيه ضربة جديدة. عدّت القيادة العليا السوفياتية دحر العدو من ذلك المكان أمراً واجباً. واستمرت المعارك العنيفة دفاعاً عن القرية أسبوعين، إلى نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر تقريباً. في هذا المكان، بذل جنود وضباط فوج سِتَبان ريزن الرابع والخمسين الدماء دفاعاً عن سيفاستوبول للمرة الأولى. مع أول ضوء في الثاني عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، كانت كتيبتنا تقاتل على الخطوط الواقعة شمال القرية. وصل قائد الفرقة، اللواء كولوميتس، إلى مقر القيادة لمراقبة المعركة. بعد تقييمه الوضع، حدّد لرجال الريزن هدفاً قتالياً، أي مهاجمة الألمان في الرابع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، وتطويقهم في القرية، وإبادتهم بعد السيطرة على هذه النقطة.

كان قائد فرقة شباييف العظيمة، تروفيم كولوميتس، يكتب لاحقاً:

خدمةً لهجومنا المعاكس العنيف الأول على سيفاستوبول، أطلقت قوات المشاة في القطاع الثالث كلّها النار على خط العدو الأمامي ووحدات مؤخرته الأقرب في منطقة Cherkez-Kermen (قرية Krepkoye حالياً). لقد انتقلت سلفاً إلى مقر قيادة كتيبة الريزن الثانية التي كانت توقع الضربة، وكنت أراقب الهجوم الذي بدأ بنجاح من ذلك المكان. بهجوم خاطف، بلغت السرايا خط الخنادق الألمانية الأول. فسُحق العدو في غضون عدة دقائق. وفي الوقت الذي كانت فيه السريتان الثانية والثالثة تلاحقان فلول الألمان الهاربين عبر الغابة، كانت السرية الأولى تقطع الطريق المؤدية من Cherkez-Kermen إلى قرية Mekenzia. فبدأ تطويق القرية.

كان الفاشيون المتمركزون في ذلك المكان يقاومون بشراسة. دفعت شدة النيران قواتنا إلى النزول تحت الأرض. كان غروسمان Grossman (المدفعي الأقدم في الفرقة الخامسة والعشرين للرماة) يساعدهم بنيران المدفعية. لكن في الوقت الذي كان فيه رجال المدفعية يسحقون المقاومة النازية في محيط قرية Mekenzia، ظهرت قوات المشاة الألمانية من طرف Cherkez-Kermen. مع ذلك، كان رجال الريزن صامدين ببسالة، وأخذ الهجوم الفاشي بالاختناق. ثم اقتربت وحدات ألمانية جديدة من Cherkez-Kermen، وبدأ كلّ شيء مجدداً. من جانبنا، استُحضرت فصيلتان احتياطيتان إلى مسرح العمليات، لكن بصراحة لم يكن هذا الأمر كافياً. قرر الرائد متوسيفتش سحب سرية من الطرقات المؤدية إلى القرية، واستخدامها من أجل هجوم معاكس على احتياطي العدو... استمرت المعركة أكثر من ثلاث ساعات. وعليه، لم يكن رجال الريزن قادرين على إتمام الهدف بالكامل. على أيّ حال، تلقى الألمان خسائر واضحة لدرجة أنهم لم يقوموا بأي تحركات نشطة ضد فرقتنا لخمسة أيام أخرى.^١

1 By the Black Sea Fortresses (Moscow, 1967), p. 203.

دروب الغابة

برهنت قرية Mekenzia أنها مهمة صعبة. قامت الوحدات السوفياتية بهجوم أخير عليها في صبيحة الثاني والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر. كان رجال الريزن يتقدمون مع فوج Perekop الثاني التابع لمشاة البحرية. استمات العدو في مقاومته. وتمكنت قوات مشاة البحرية من السيطرة على الطريق الواصل بين Mekenzia وقرية Cherkez-Kermen، ولم تبلغ أبعد من ذلك. لقد توقف إطلاق النار بين الطرفين في منتصف النهار تقريباً. بقيت القرية بأيدي الألمان. وأمن الشبايفيون المواقع على المرتفعات ٣١٩،٦، و٢٧٨،٤، و١٧٥،٨ الواقعة على بُعد كيلومتر واحد غرب هذه القرية المنكوبة.

هكذا، انتهى الهجوم الأول على سيفاستوبول الذي دام خمسة وعشرين يوماً. لم يحرز الغزاة أي نجاح من الناحية العملية. تمكنوا من دفع المدافعين إلى الخلف مسافة ثلاثة إلى أربعة كيلومترات في قطاع الدفاع الأول غرب مزرعة الأسماك في بالاكلافا، ومن كيلومتر إلى اثنين في القطاع الثالث من منطقة الدفاع عن سيفاستوبول في محيط قرى Duvankoi و Cherkez-Kermen، و Mekenzia.

تبع هذا الأمر وقت من الحياة على خطوط الدفاع سادته السلام نسبياً. كانت الخطوط ممتدة على طول ٤٦ كلم من تلال ووديان القرم الحراجية، بدءاً من شاطئ في بالاكلافا انتهاءً بنهر Belbek الضحل والمضطرب. كان طول المنطقة العازلة مشابهاً،

وثمة خنادق عميقة على كلا الطرفين، وممرات اتصالات مُتعرجة، ودشم رشاشات، وامتدادات من الخنادق المضادة للدبابات، وحقول ألغام، وتحصينات مزودة بأسلاك شائكة (في الغالب، الأسلاك الشائكة مربوطة عبر جذوع أشجار الغابة مباشرة). تراوح عرض هذا الحزام المحاييد بين مئة ومنتى متر. وثمة بعض نقاط عبور. كنّا، نحن القناصة، وكشافة فوجنا وفرقتنا، قادرين على عبوره بشكل متخفّي تماماً، على تلال Mekenzi، وعلى طول سلسلة جبال وادي Kamyshly العالية (كانت تمتد لكيلومترات شتّى، بدءاً ليس بعيداً من قرية Duvankoi^١ الكبيرة، وتنحدر إلى الشمال الغربي نحو قرية Mekenzia)، وعبر سفوح وادي Tyomnaya الصغير التي كانت متاخمة للوادي الذي كان قعره مغموراً بالقصب (أي "kamysh"، باللغة الروسية).

كانت نقاط العبور تستخدمها فرق الاستطلاع أيضاً. وعندما تقتضي الحاجة، كانت دزيتان من رماة الرشاشات القصيرة يخترقون الغابة ويتجهون نحونا، مزودين برشاشات MP. 40 القصيرة، المعروفة بالاسم الشعبي (لو بشكل مُضلل) Schmeisser بالنسبة إلينا، مع أنه لا علاقة للمهندس هيوغو شمايزر Hugo Schmeisser بهذا السلاح، إذ صنعه أصلاً Erfurter Maschinenfabrik ("Erma"). فبعد عثورهم على دورياتنا، انسحبوا على جناح السرعة. لم نكن نتلقى أيّ أوامر بملاحقتهم، لكن كنّا، من أجل التدريب، قادرين على ممارسة الرمي الموجه إلى أن يختبأ النازيون خلف الأشجار.

في إحدى المناسبات، كان الدخان الناجم عن البارود لا يزال يلفّ التلال، والطلقات الأخيرة يتردد صداها حول الوديان والتضاريس العامة، عندما خرج رجل أشيب يرتدي سترة مدنية رمادية ويحمل جعبة على كتفيه من دغل في محيط خنادق السرية الثانية.^٢ كان يشبه عفريت الخشب كثيراً بقوامه النحيل والمحدودب ولحيته الشعثاء التي كادت تبلغ عينيه. كاد جنود فصيلة القناصين أن يطلقوا النار عليه بغته. فرمى كلتا يديه عالياً، وصاح على نحو مسعور: "صديق!" كان يحمل بيديه جواز سفر سوفيائياً مفتوحاً وشهادة على هيئة وثائق بنية ممهورة بخاتم أرجواني.

١ قرية Verkhnesadovoye الآن، في منطقة Nakhimov في ستيفاستوبل.

٢ كما يبدو جلياً، وقع هذا الأمر في تشرين الثاني/نوفمبر.

بينما كنت أخفض بندقيتي، سألته عن هويته، وماذا كان يفعل على خطوط الفوج الرابع والخمسين العسكرية، وكيف تمكن من اجتياز نقاط مراقبة العدو. أجاب المخضرم بطريقة تشي بسهولة هذا الأمر. لم يتوغل الألمان في الغابة بعيداً لأنهم كانوا خائفين من فعل ذلك. وبوصفه خفياً محلياً، تمكن من تجنبهم، مستعيناً بمسالك منعزلة معروفة له وحده. عند هذه النقطة، بدأ البكاء؛ كانت الدموع تنساب على لحيته البيضاء، وأخذت تسقط على سترته المزّرة بزّار خرطوش صياد، مع أنه زّار فارغ. لا بدّ من الاعتراف أنني أحسست بالحرج في الدقائق القليلة الأولى. تبدّى الحدث غريباً جداً بالنسبة إليّ. لكن لسبب ما، صدّق فيودور المخضرم فوراً؛ أقنعني بالسماح للخفير بالعبور إلى جانبنا والإنصات إلى قصته.

بعد مدة وجيزة، ناقشنا قصة الخفير أنستاز فارتنوف Anastas Vartanov خلال فطور ساخن قدّمه الرقيب أول إلى خنادق المراقبة. كانت قصة مأسوية جداً، شأنها شأن أحداث أخرى كثيرة في هذه الحرب الجهنمية. ظهرت مجموعة من الكشافة النازيين في الطوق الحراجي رقم ٢، في مقدمة وحداتهم التقليدية. ولسبب ما، أبدوا كراهية لابن فارتنوف، وحفيده، وعائلة الخفير كلّها. فمن دون التفكير ملياً، أطلق النازيون النار عليهم بجوار البيت. لحسن الحظ، أو لسوءه، كان أنستاز قد غادر في تلك الصبيحة قاصداً مكاتب السلطات البلدية لتسجيل بعض النفقات الإضافية وتأمين الشوفان والتبن من أجل العلف الشتوي.

تبعاً للخفير، ثمة مقر قيادة ألماني في قرية Mekenzia. وكانت بعض الناقلات المدرعة المجنزرة المزودة بهوائيات ورشاشات على أسقف الشاحنات، إضافة إلى مدافع رشاشة جرّارة، وسيارات، ودراجات نارية مزودة بعربات جانبية، مركونة تحت الأشجار القريبة من بيته. لم يصل إلى ذلك المكان جنود يرتدون بزّات خضراء ضاربة إلى الرمادي فحسب، بل كان بعضهم يرتدي سترات سوداء قصيرة وبيريهات (بعبارة أخرى: طاقم الدبابه). كان القاطن الرئيسي رجلاً ضخماً في الأربعين تقريباً وبعينين زرقاوين. لقد شاهدته الخفير مرتدياً سترة استعراض عسكرية مزودة بكفتيات فضية مُزينة، وبصليب أبيض وأسود تحت ياقة بزّته. كان يعيش في غرفة ابن فارتنوف الذي أطلق النار عليه، ويغمر نفسه بالماء البارد عند المضخّة كلّ صباح، ويفرك نفسه

بمنشفة حمراء، ويؤدي بعض التمرينات بنشاط.

قال أنستاز مستخدماً ملعقة لجرف البقية الباقية من عصيدة الشعير من قعر القصعة: "لديهم كل ما يرغبون. لكن عليهم الخوف".

سألته: "ممن؟"

أجاب فارتنوف: "الرّوس. تناهى إليّ أنّ لديكم نوعاً من البنادق مزوّد بمنظار خاص".

- صحيح.

- أنت بحاجة إلى استخدامها. سأريك المكان. سيكون استكشاف القرية سهلاً جداً. في الواقع، ليست بعيدة من هذا المكان. فبسلوك طريق مختصر عبر الغابة، إنها تبعد قرابة خمسة كيلومترات. يمكننا بلوغها بين عشية وضحاها بسهولة.

- هل تودّ الذهاب معنا؟

- أكيد. إن لم أكن هناك لرؤيتها، فلا سبب لدي في مشارق الأرض ومغاربها للعيش.

تفهمت طموح الصياد المخضرم في معاقبة العدو على إبادة عائلته. فوجدته طبيعياً ومشروعاً، إذ لن تكون ثمة مغفرة للغزاة على أعمالهم الوحشية، وعلى قتل السكان الآمنين بلا شعور. ينبغي حرق الأرض تحت أقدامهم، وتجب مطاردتهم في كل مكان، وإبادتهم بأي وسيلة متاحة. لقد لجأ أنستاز إلينا، نحن القناصين، طلباً للمساعدة، وسنلبي طلبه في حال تأكيد المعلومات التي وصلتنا في قيادة أركان منطقة الدفاع عن سيفاستوبول.

جاء الرد بعد يومين. لقد قال فارتنوف الحقيقة.

لم أرسل الطلب، بل معاون رئيس استطلاع أركان الفوج، النقيب ميخائيل بزرودني Mikhail Bezrodny. على ما يبدو، خدم في الفوج الرابع والخمسين منذ تموز/ يوليو ١٩٤١، وقاد فصيلتي استطلاع. كانت إحداها فصيلة فرسان. أما الأخرى، فكانت مشاة. لم يبقَ من استطلاع فصيلة الفرسان شيء لأنه تمّ التخلي عن الأحصنة في أوديسا. أما مجموعة المشاة، فلا تزال موجودة، لكن عدد جنودها انخفض من ستة وأربعين إلى خمسة وعشرين حالياً. ففي وقت سابق، أثناء الدفاع

عن أوديسا، سنحت لي فرصة للتواصل مع الكشافة، مثلاً بتأمين تغطيتهم أثناء عبورهم الخط الأمامي بحثاً عن سجين من أجل التحقيق معه. لكنّ كتاب فوجنا آنذاك كانت تعمل في قطاعات مختلفة من الجبهة بصورة مستقلة غالبية الأوقات. عملياً لم يكن لدي أيّ تواصل مع ضباط أركان الفوج العامة. وما دام رجال الريزن يحتشدون في أماكن محدودة، باتت اللقاءات معهم، أي مع النقيب بزروني، على أقل تقدير، أكثر تواتراً وأجدي نفعاً.

وافق النقيب على خطتي بشأن الإغارة على قرية Mekenzia شريطة أن يعمل الخفير أنستاز فارتنوف دليلاً للمجموعة. مع ذلك، كان اكتشاف وجهة المسلك، والحالة المحيطة بالطوق الحراجي رقم ٢، وما يمكن أن يواجه مجموعة القناصين في حال قيامهم بالغارة، أمراً ضرورياً في البداية. عبرت بصحبة الخفير الحراجي الغابة المتوضعة على تلال Mekenzi من أجل استطلاع الأمر.

كان لدي هدف آخر من ذلك. بينما كان الألمان منخرطين في اعتدائهم الأول، تعين علينا التفكير في دحر هجماتهم على تحصيناتنا، والعمل معاً مع كل شخص آخر كقوة متكاملة. فمع استتباب الأمن على الجبهة، أخذ وقت "مطاردات" القناص الفردي يقترب. لكن كيف يمكنني البدء دون معرفة الموقع وتعود الرمي في التلال المغطاة بغابة كثيفة؟ على أيّ حال، كيف كانت تبدو هذه الغابة المنتصبة مثل جدار أخضر يُصدر حفيفاً في الريح العاصفة القادمة من البحر؟

أخذ الضوء الأول يتسرّب. ثمة هبوب مفاجئ للرياح. فبدأت قمم الأشجار تتمايل والأغصان الجرداء تتلاطم. ففي الظلام المُتبدّد، قد يخال المرء أنها كائنات حراجية مُنبعثّة، وأنّ دُفَعَات القرع الموجزة لغتها السريّة. أنصت ورفعت رأسي. كان يتكئ على الممر جذع شجرة جَمَيز بني-رمادي مقوّس بشكل غريب. وكانت أوراق برتقالية كبيرة شتّى، شبيهة براحة يد الإنسان، لا تزال مُعلّقة فوق السيقان الطويلة. انفصلت إحداها فجأة، وسقطت أثناء دورانها في الجو على الممر عند قدمي. أشار فارتنوف إليه: "التقطيها. إنها إشارة جالبة للحظ".

لم تتناغم ورقة الجَمَيز الجميلة مع بزة القناص الخريفية، أي سترة صفراء باهتة. وضعتها في جيبي الذي كان يحتوي سلفاً حقيبة الزينة الفردية، وقطعة سكر مكعبات

مكرر ملفوفة بعناية برقائق ألمنيوم، إضافة إلى كمية ضئيلة من الشاي الجاف. فإذا مضغت السكر مع الشاي، يُقويك أثناء الساعات الطويلة المنقضية في المخبأ.

لم أكن أعرف أي نوع من الكمائن ينتظرني الآن. كنت أتبع الحراجي على طول مسار صيادين لا يكاد قابلاً للكشف، وأراقب الغابة عن كثب. فبعد سفوح أوديسا المقفرة اللامتناهية، تبدى هذا المكان مثالياً للتمويه بالنسبة إليّ، لكن هيهات أن يكون مثالياً للقنص. إلى أين ستطير الرصاصة؟ فالرصاصة ليست أرنباً برياً قادراً على الالتفاف بين جذوع الأشجار. وكيف يمكن للمرء حساب مسافة الهدف بشكل صحيح بوجود وديان مخفية بشجيرات نامية فوقها كلها؟

قال الخفير المخضرم بصوت خفيض: "إن المسافة من شجرة الجميز المُقوّسة إلى البئر ٨٥ متراً. تذكرني هذا الأمر. سيكون مفيداً، يا بنيّتي."

كان فارتنوف يقرأ أفكاره تقريباً. ربما لأن تبادل الأفكار بين المتحاورين الحميمين روحياً في سكّون الغابة المرهف مع بزوغ الفجر يجري برحابة فائقة. فمنذ أسبوع خلا، لم أكن على دراية بوجود فارتنوف بالذات، المولود في القرم في القرن الأسبق لأسرة أرمنية متروسة كانت تخدم عائلة رومانوف الإمبراطورية، التي كانت تملك مناطق صيد شاسعة في شبه الجزيرة، مئة عام بإخلاص وصدق. لقد أمضى فارتنوف وعائلته المقربة حياتهم كلها في الطوق الحراجي رقم ٢ في قرية Mekenzia. كانوا يملكون عقاراً كاملاً في ذلك المكان، أي بيتاً من أربع غرف، ومطبخاً صيفياً، ومكان استحمام، ومخزناً للحطب، وحظيرة، وإسطبلًا، وبيتاً بلاستيكية متاخمة لحديقة المطبخ. كان الخفير الحراجي يكّد من الفجر حتّى الغسق لأن الغابة بحاجة إلى عناية دائمة. لكن يعدّ نفسه رجلاً محظوظاً وسعيداً. كان بيته مثل خلية نحل، أي كان ابنه الأكبر يساعده سلفاً، وزوجته حسنة العشرة وكادحة، وأطفاله الصغار مُعتنى بهم في الكساء من الملابس والتعال دوماً. لم يرق الأمر للألمان، عليهم اللعنة، في ذلك اليوم من تشرين الثاني/نوفمبر.

تشعب الممر بعد شجرة الجميز ذات الجذع المُقوّس. فلولا فارتنوف، ما لاحظت المنعطف إلى اليمين. انتشرت أجسام الشجيرات التي بلغ ارتفاعها مترين على نطاق واسع عند هذه النقطة، وأخفت الشجيرات التحتية مثل ستار كثيف. أشار الصياد

المخضرم إلى هذه النبتة التي أطلق عليها "شوك الغار" أو "شوك المسيح". تبعاً للأسطورة كان إكليل شوك يسوع المسيح مُحاكاً منها. وهي تنبت شرق المتوسط وشمال أفريقيا بصورة رئيسية، لكن لها جذورها في القرم أيضاً.

مع حلول تشرين الثاني/ نوفمبر، أخذت أوراق شوك الغار تتساقط، ويبرز سلاحه الرئيسي، أي الشوك، بجماله الكامل. كانت تنتشر مجموعة كبيرة من النباتات الطويلة والقصيرة المتعرجة باتجاهات مختلفة من جذع ضارب إلى الرمادي، والأشواك ناتئة منها. بعضها مستقيم مثل الإبر، وبعضها الآخر مُقوّس مثل الخطافات.

التفتُ بشكل سيئ، وإذا بشوكة خيشة تُمسك كمّ سترتي المموهة! غاص الرأس في أعماق القماش. فوجِب عليك أن تكسر الغصن كلّ. هكذا دوّت الطقطقة الضعيفة في سكون الصباح مثل إشارة تنبيه. فطار سرب من طيور القرقف الزرق من شجرة أكاسيا مجاورة. التفت إليّ فارتنوف: "انتبهي، أيتها الرفيقة القائدة!"

ما لبثنا أن اكتشفنا شبكة المياه القديمة، أي أنبوب يعلوه الصدأ وقطره عشرون سنتيمتراً تقريباً. كان يؤدي إلى البئر المهجور. فرافعة عانقت ذراعها السماء دلّت على وجوده. باتت الغابة أكثر كثافة، والأشجار تُزاحم بعضها بعضاً في محيط مصدر السائل الواهب للحياة. وفجأةً سُمعت تنهيدة مبحوحة من ذلك الاتجاه. فتسّمّر الحراجي مثل تمثال، وكوني خلفه مباشرة، ارتطمت به.

كان في البئر، وهو حفرة سوداء في الأرض مسوّرة بحجارة كبيرة ونصف مُغطّاة بألواح خشبية، خنزير بري صغير ذو شعر بني خفيف وأنياب لم تنمّ بعد. لم يستطع الخروج من الفخّ وحده، مع أنّه يبذل قصارى جهده. لدى رؤيتنا، قام الحيوان بوثبة يائسة لكنه كان عاجزاً عن الارتقاء إلى الخارج. وعندما استدار، نظر إلى الخفير الحراجي يعينين بنيتين داكنتين حزنتين، وخارَ على نحو مثير للشفقة.

سألني فارتنوف: "هل تريدان القضاء عليه؟ كفته لحم خنزير طازجة. هل من جندي سيرفضها؟"

أجبتة ملقية نظرة إلى الصغير: "لا، أحنّ عليه. لا يزال صغيراً. دعه يعيش". تبدّى الصياد مبتهجاً. فانتهى عارضة خشبية قريبة من البئر، ودفعها تحت بطن الخنزير، ثم رفعه، ونقله إلى مستوى الأرض، وأنزله. استغرق الحيوان المُنقذ بعض

الوقت ليستعيد حواسه. وبينما كان يتدحرج من جانب إلى آخر، أطلق الخنزير الصغير صيحة حادة، كأنه لم يُصدق إطلاق سراحه. ثم قفز على قدميه، وهز نفسه، وبطقطقة من أغصان ساقطة، انطلق بسرعة فائقة بعيداً من البقعة الملعونة. فلم نَر منه سوى ذيله الملتوي بتبختر يلمع في الشجيرات. لم أستطع مقاومة الضحك.

لم ولن أوافق على صيد الحيوانات. مخلوقات الغابة تبدو عاجزة وبائسة في مواجهة بشر مزودين ببنادق سريعة الرمي بالنسبة إليّ. كان الأمر مختلفاً قديماً، عندما كان يخرج أمير وحده حاملاً رمحاً لمواجهة خنزير بري. في رأيي، كان ذلك النوع من النزال أكثر عزة وإنصافاً.

بموجب الخريطة التي زوّدني بها النقيب بزروني، كانت المنطقة المنزوعة السلاح تنتهي وراء البئر، وعليه تبدأ بالأرض التي استولى عليها الألمان. جلسنا لنستريح. لم يكن شرب الماء من بئر كان يستحم فيه خنزير صغير فكرة جيدة، لكن كان بحوزتي مطرة ماء مغلي. كانت المخصّصات الناشئة الصادرة عن مطبخ السرية تتألف من قطعة من خبز الزّوان وشريحتي لحم ورديتين من ظهر الخنزير دهنيّتين منشورتين بالملح والفلفل الأسود المطحون. رضينا بذلك. أخذ فارتنوف، الذي تلقى المخصّصات نفسها، يحدثني عن غابة القرم.

كان هائماً ومُلمّاً بها بصورة فائقة للغاية؛ كانت هذه المعرفة موروثاً عن أبيه. قال فارتنوف إنني تصرّفت بصورة صحيحة في ترك الخنزير البري يذهب، والغابة ستكافئني على ذلك لأنه يجب على المرء في الغابة، كما في المعبد، احترام الأعراف الموغلة في القدم وألا يقتل بلا مبرر على الإطلاق من أجل التسلية. سألت الخفير الحراجي: أن يجد المرء ضالته في الغابة، وألا يضل طريقه بين الأشجار، أمر سهل؟ أجابني: "الأمر سهل. إنها تشبه الناس. لكل منها طبعها المميّز. فالأشجار تختلف في أعمارها، ومواسم إزهارها، والثمار التي تحملها. يمكنني رؤية وجوهها وأشكالها. إنها مختلفة جداً. يُمكنك رؤيتها أيضاً إن كنت تريد ذلك..."

كان أخذ هذه التأمّلات على محمل الجد أمراً صعباً، فقد كانت أشبه بحكاية خرافية وأسطورية، لكن لم أقاطع فارتنوف. تركته يتحدث ويُعلّمني عن حياة الغابة. كما كانت عليه الأمور، لم أفهم شيئاً، ونظرت إلى جذوع أشجار الدردار والجَمِيز

الثخينة المحيطة بالبئر ببعض الارتباك. قلّدها الصباح الملبّد بالغيوم البارد لوناً كثيماً. لم أعتقد حقاً أنه سيكون في مقدوري التأقلم مع الحياة في هذا المكان وفكّ رموز الغابة المُبهمّة.

مع شروق الشمس، اهتدينا إلى Mekenzia من الشمال الغربي. ومن أجل الحصول على منظر أفضل عن المكان، كان يجب عليك تسلّق شجرة. لقد أمضيت وقتاً طويلاً للغاية بصحبة المنظر الميداني أراقب نمط الحياة الاعتيادية في مؤخرة الجيش الحادي عشر. كانت الناقلة الألمانية والناس المُرتدون سترات ومعاطف رمادية يتحركون بانتظام على طول الطريق الواصل بين Mekenzia وقرية Zalinkoi. وكان تثار القرم المرتدون شرائط Politsai البيضاء (قوات الشرطة المتعاملة مع الموالين للنازية) حول أذرعهم طيّبي القلب. كانوا يحرسون حاجز الطوق، ويقفون باستعداد أثناء ترحيبهم بالألمان.

ظهر مطبخ ميداني في نحو منتصف النهار، وبلغت نكهة اللحم المغرية وحساء البطاطس خياشيمنا. فتجمّع خمسون جندياً تقريباً عند المطبخ حاملين قصعاتهم. لم يتفرّقوا مباشرة بعد استلامهم حصصهم من الطعام، بل كانوا يدرّدشون بينهم ويدخّنون وينتظرون القهوة. بدلاً من القهوة الحقيقية، يحق للرتب الدنيا من الجيش الألماني شرب القهوة الصناعية التي لم تكن نكهتها سائغة بصورة خاصة.

خرج الضابط صاحب العينين الزرقاوين والكتفيّات الفضية المُزيّنة من البيت بعد العشاء. كنت ضليعة في البزّات المعادية سلفاً. كان رائد مدفعية وحاصلاً على "وسام صليب الفرسان"، إضافة إلى "وسام الهجوم" الفضي للمشاة. كان الباب الذي خرج منه يبعد قرابة مئة متر عن شجرتي ومقابلها تماماً، أي على الجانب نفسه الذي توجد فيه مؤخرة الخطوط الألمانية. دوّنت هذا الأمر على قصاصة ورق تُدعى "خريطة الرمي" مُلصقة بحقيقية ميدانية مسطّحة. أشعل الرائد سيجاراً وركب سيارة Opel-Kapitan بصحبة ضابط يحمل إضبارة بيديه. انطلقت المركبة على طول الطريق وأخذت تهتزّ فوق المطبات قاصدة مستوطنة Cherkez-Kermen بدلاً من قرية Zalinkoi. تبعاً لتقارير استطلاعنا حُدّد موقع قيادة أركان الجيش الحادي عشر، وكان قائده، اللواء إرك فون مانشتاين، يقيم هناك. من المحتمل أنّ الرائد كان مُستعجلاً من أجل اجتماع مع قائده.

وضعت رسماً أولياً تقريبياً على الورق لمزرعة الخفير الحراجي كلّها، أي البيت ممثلاً في مربع، وساحة الحيوانات والحظائر ممثلة في مثلث، والطريق بسطر متموج سميك، والحاجز الموجود عليه بسطرين صغيرين. حسبت المسافات التقريبية بينها بالعين المجردة. ثمة نقطة علام لافتة وسط التشكيل، أي صخرة ذات طبقات ضاربة إلى البياض، تعلوها حُفر وشقوق. هذا هو الشكل الذي تظهر عليه الصخور الكلسية على السطح. توجد هذه الظاهرة عادةً على سفوح وقمم تلال وجبال القرم التي تتمتع بما يُعرف بتشكيلات جيولوجية كويستية.

تُشكل الريح حضوراً دائماً في التلال تقريباً. لاحظت هذا الأمر على الأشجار وأغصانها الرفيعة المتمائلة، وأوراقها المرفرفة بقوة، والغبار الأبيض الدائر في الجو فوق الطريق بمحيط القرية. كان هذا الأمر يعني أن سرعة الريح معتدلة، أي أربعة إلى ستة أمتار في الثانية. لم يأتِ مثل القناص الشعبي المنادي بالآتي من فراغ: "ترمي البندقية الرصاصة، لكنّ الريح تحملها". إذا اخترنا هذا الموقع، سنحصل على ريح قادمة من الجانب تهبّ بزاوية ٩٠ درجة. ففي مثل هذه الأوضاع وعلى مسافة تبعد مئة متر عن الهدف، يتكون لدى القناص حساب بسيط: سيكون التصحيح الجانبي الأفقي مليمتراً شتّى. صحيح. ثمة اعتبار آخر: يتغير الضغط الجوي في المواقع الأعلى من مستوى سطح البحر (يُصبح الهواء أخفّ). في هذه الحال، ستزداد مسافة مسار الرصاصة وطيرانها. على أيّ حال، كتب بوتابوف في كتيّبه *Instructions for Sharpshooters* أنه يمكن للمرء في التلال التي يقلّ ارتفاعها عن خمسمئة متر، ولم يتعدّ الارتفاع ٣١٠ أمتار في هذا المكان، تجاهل الريح الطولية، لكن يجب أخذ الريح الجانبية بالحسبان لأنها قد تسبب انحراف الرصاصة جانبياً إلى حدّ كبير.

لدى نزولي من على الشجرة، أطلعت فارتنوف على عملي اليدوي. كان مذهولاً جداً. فلا فائدة تُرتجى من شرح كلّ شيء للخفير الحراجي، لكنّه كان يساعدني في حساب المسافات بدقة أكثر، مُحدداً المسافة بين بوابات المزرعة والصخرة الكلسية بـ ٤٣ متراً. سألته عن الريح وأعلّمت أن رياحاً قوية تهبّ من الشمال والشمال الشرقي في تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر، حاملة معها المطر والغيَم.

قررنا ألا نؤجل التحضيرات للعملية لأن المعلومات قد تصبح قديمة. بعد تزويده بتقرير، حذّرني النقيب بزرودني من أنني لن أكون في وضع يُمكنني فيه السيطرة على نيران المجموعة برمتها أثناء الإغارة على Mekenzia لوجود كثير من الأغرار الجدد في الفصيلة، إذ لم يحفظوا جداول المقذوفات عن ظهر قلب بعد، ولم يطلعوا على كتاب بوتابوف الرائع، ولم يعرفوا أفضل نقاط الرمي بدقة في التلال. فضلاً عن ذلك سيكون هجوماً مباغتاً وسريعاً، ويجب على كل رصاصة أن تُصيب هدفها؛ ذلك سيكفل نجاح العملية برمتها.

حدّد تشكيل المجموعة فوراً. بطبيعة الحال، كانت تشمل فيودور سدك الذي رُقّي أخيراً إلى رقيب متمرّن بناء على توصيتي. كان فيودور رجلاً شجاعاً، ومُجرباً في معارك كثيرة، وعلى دراية بجداول علم المقذوفات تقريباً. لم تكن تشوب قوته البدنية وتحملته شائبة. بعد التشاور اصطحبنا ليونيد بوروف معنا من بين الأغرار الجدد. لقد أظهر رجل مشاة البحرية الأسبق حماسة كبيرة بصفة جندي وطالب في آن. على ما يبدو، يريد أن يمحو الانطباع الذي تركه في لقائنا الأول. لا بد أن أشير إلى أنه كان ناجحاً في ذلك؛ كانت لديه الإمكانية كقناص. كان القناص الثالث زميل فيودور السييري، إيفان برغودوف Ivan Peregudov. لقد التحق بالفوج قادماً من المتطوعين في أوديسا.

أمدّني النقيب بزرودني بجنديين من فصيلة استطلاع المشاة قادرين على الرمي بأنواع الأسلحة اليدوية كلها، ويتمتعان بمهارات في قتال بالالتحام المباشر، وخاضا مغامرات خلف خطوط العدو مرّات عدّة. لم أكن على معرفة بهما لكنّ النقيب طمأنني أنهما جندياه المُفضّلان. في استطلاع الفوج، يُعدّ أفضل الناس مستقلّين للغاية عادةً. طلبت من النقيب أن يشرح لهما أنني لن أتحمّل أيّ سخافة أثناء الإغارة وعليهما طاعتي دون اعتراض. فعل ذلك بطريقته الساخرة المميّزة: "أحذّركما، يا شباب، إن الرقيب أول لودميلا بافلتشنكو امرأة جدّية ولا تحب الحماقة. إذا ارتكبتما أيّ خطأ، سينتهي المطاف بكما بطعنة سكين في قدميكما".

بناءً على أوامر بزرودني زوّد الكشافان برشاشين قصيرين جديدين من نوع PPSH-41 ورشاشين خفيفين من نوع DP مزودين بثلاثة مخازن احتياطية. اصطحبت

بندقيتي الفخرية Sveta، بينما اصطحب القناصون بنادق Mosin المزودة بمنظار PE. فكرنا ملياً في كيفية تسليح فارتوف. كان يجيد الرماية ببندقية Berdan II التي ترمي دراكاً والعاملة بآلية المغلاق العتيقة النوع فقط. بطبيعة الحال، لم يكن لدينا أي من هذه البنادق القديمة في تسليحنا. وعليه، زودناه ببندقية ثلاثية الخطوط عادية. بمعزل عن الأسلحة، اصطحبنا معاول خبراء الألغام، وسكاكين فنلندية (أو قتالية)، ومطرات مياه، ومخصّصات جافة، وذخيرة من مئتي رصاصة وخمس قنابل لكل منا. كما الحال دوماً، كان مسدسي TT المزود بمخزنين يتسعان لست عشرة طلقة متديلاً من حزامي. على أي حال، إن كانت ثمة حاجة إلى استخدام المسدس في مثل هذه الإغارة، فهذا يعني أن الأمور قد اتخذت منعطفاً خطيراً.

لكن لم تكن هناك حاجة إلى المسدس. مع بزوغ الفجر، كنا نقرب من القرية، ووفقاً للخطة التي رسمناها، اتخذنا مواقع في مؤخرة القوات النازية. كنت بصحبة الخفير المخضرم مقابل البيت، واضعين مدخله نصب مناظرينا. كان القناصون الثلاثة على بُعد خمس عشرة خطوة إلى اليسار، والكشافان خمس عشرة خطوة إلى اليمين. كان هدفهم الأرض المقطوعة الشجر، والصخرة الكلسية حيث توقّف المطبخ الميداني. تصاعدت الرياح قليلاً لاحقاً، وهبّت هبّات عاصفة ازدادت قوتها بنسبة ثمانية إلى تسعة أمتار في الثانية. استنبطنا اتجاهها، أي كانت في زوايا قائمة بالنسبة إلى موقعنا. وحسبُ التصحيح اللازم لقرص الأسطوانة الجانبية على ماسورة التلسكوب، وأفدّت جنودي كي يستطيعوا ضبط المناظير على بنادقهم أيضاً.

احتشد الألمان، لأنهم جنود منضبطون جداً، في المكان والزمان الصحيحين، وبالأعداد الصحيحة. حضر المطبخ الميداني في ١١،٣٧ صباحاً، وبدأ توزيع الطعام في ١١،٥٠.

بينما كنت أراقبهم بالمنظار الميداني، انتظرت حتى يتهافتوا حول المطبخ بشكل أقرب. أبقيت جهاز تسديدي على ضابط متمرّن نحيف بشريطين متقاطعتين على كنفّياته، أي مرشح لرتبة ضابط. برز بين الآخرين يُبلغهم أمراً بصوت عالٍ، وكان الجنود العاديون ينصتون إليه. أخيراً قصد الضابط المتمرّن الطباخ الذي كان يغرف الحساء. استقر رأسه وقبعة بزّته القماشية بين الخطوط الثلاثة في منطاري تماماً. لقد

حانت اللحظة، إذا جاز التعبير.

كان القائد أول من يرمي دوماً، وهذا يقوم بوظيفة إشارة لبقية المجموعة التي تنتظر بصبر نافذ، وسرعان ما تمضي في تنفيذ الأمر الصادر بهذه الطريقة الغريبة. أطلقنا وإبلاً من النيران من ثلاث نقاط. كانت الرصاصات تطير نحو الحشد الأخضر-الرمادي، وأخذت بإبادتهم والإطاحة بالأعداء أرضاً. لم يكن الألمان يحملون أسلحتهم معهم، ولم يستطيعوا الرد مباشرة. على أي حال، كان كثير منهم قتلى سلفاً في غضون الدقائق القليلة الأولى من الهجوم. كان الضابط المتمرن والطباخ اللذان تلقيا هدية ساخنة في الرأس من بندقيتي Sveta ضمن هذا العدد.

خرج رائد المدفعية من البيت واثباً لدى سماعه الطلقات والصيحات. لقد أصابته رصاصة بين عينيه. لم أكن أكرس وقتاً طويلاً في دراسة هذا الموقع عبثاً. كما كان الخفير المخضرم يرمي بدقة للغاية، إذ أردى مُسعفاً. اندفعنا نحو البيت عبر الفسحة المقطوعة الشجر التي كانت مغطاة بجثث النازيين. سحبْتُ وناثق الرائد من جيب سترته العسكرية، واستخدمت سكينتي الفنلندية الطراز لاقتطاع إحدى الكتفيات و"وسام صليب الفرسان" المعدني، وأخذت مسدس الضابط من نوع Walther [فالتر] من قراب جلدي أسود على خصره. في هذه الأثناء، اقتحم الكشافان المبنى وهما يرميان برشاشاتهم القصيرة. كانا يريدان تلَقَّف أوراق الأركان.

فجاءت صيحة من الداخل: "يا محاربين!"

لم يتمكن العريف عامل اللاسلكي من تحويل المزيد إلى رؤسائه لأنه تلقى رصاصة في الصدر. فانتهى المطاف بكل شيء، واقع أمامه على المكتب، خرائط وأوامر وتقارير وكتب الشفرة، بأيدي جنود فوج شَبَّان ريزن الرابع والخمسين للرماة الشجعان. وأثناء عودتهم عَدَوْاً، تلَقَّفوا جعبة محكمة الإغلاق مُعلَّقة على الجدار، وأخذوا رشاشاً قصيراً من نوع MP. 40 من على صدر حارس ملقي في محيط المدخل.

غادرت المجموعة مسرح العمليات بالسرعة نفسها التي هاجمت بها. عَدَوْنا عبر الغابة ١,٥ كلم تقريباً. كنا قاصدين الجنوب الشرقي على طول ممر للصيادين مألوف بالنسبة إلى فارتوف. كان يقودنا نحو المنطقة المنزوعة السلاح، لكن لم نستطع عبورها نهاراً. كان الخفير يتوخى مكاناً بعيداً، أي كوخاً خشبياً محفوراً نصفه في

الأرض ليس بعيداً من نبع، محاطاً بأشجار باسقة وبشجيرات كثيفة من الورد البري والعرعر الشوكي. سقطنا أرضاً من الإعياء العارم في هذا المكان. عَرَضَ فارتنوف، الذي لم يزر بيته، بل كان يراقب عملنا من الفسحة المقطوعة الشجر، أن يكون حارساً بأسلوب نبيل. استلقى البقية الباقية منا على الإبر الصنوبرية البنية الضاربة إلى الحمرة الناعمة تحت الورد البري، ورحنا في نوم جندي عميق.

تبدى الأمر بعد ثلاث ساعات كأن منبهاً بدأ الطنين. فتحت عيني، إذ ثمة شيء مختلف بشأن الغابة. خَفَّتْ الريح وباتت أكثر برودة. وانخفضت درجة حرارة الهواء دون خمس درجات، وكانت غيمة حلبيية اللون وكثيفة تنزل على سفوح التل. بينما كانت تنتظر انغماسها بها، تبدت الأشجار جامدة وتمددة إلى الأعلى. لقد أعلمني الخفير المخضرم بالحقيقة، أي أنها كانت تخشى ضباب الخريف.

كان فارتنوف وسِدْكَ ينظّمان الأمور في محيط النبع. لقد حفرنا حفرة وشيّدنا موقداً صغيراً. كان دخانه يختلط بالضباب، وعليه لم يكن ذلك خطيراً على المجموعة. كان إبريق بحجم مقبول مُعلّقاً فوق النار؛ لم يكن خاصتنا، بل كان في المنطقة. أخذ الماء بالغليان. فوضع الجنود أكوابهم ومطراتهم وقطعاً سميكاً من الخبز ومكعبات من خلاصة معجون البازلز التي ستذوب في الماء المغلي.

بابتسامة، أطلعني فيودور على الجعبة التي تلقفها الكشافان من على حائط الغرفة برشاقة في المعمة. برهنت الغيمة أنها نافعة جداً لأنها كانت تحتوي على مواد غذائية لم يكن للمدافعين عن سيفاستوبول الحصول عليها. أعطيت تصريحاً باستخدامها فوراً. من المحتمل أنها مخصّصات الرائد، أي علب سردين بالزيت، وقوالب شوكلاتة شتّى، وعلب بسكويت جاف، وقطعة من اللحم المقدد والمُدخّن مغلفة برقائق ألنيوم، وزجاجة من البراندي سعتها لتر ونصف. كان الكشافان يفران أيديهما ببهجة في انتظار وليمة. أدركا نجاح الإغارة على مقرّ العدو. في رأيهما، يمتّ هذا النجاح إليّ بِصِلَة مباشرة، فكان الجنود يخاطبونني باحترام.

بينما كان العشاء قيد التحضير، شغلت نفسي بجوائز الخاصة. في البداية، عاينت مسدس Walther عن كُتب. كانت المرة الأولى التي يقع فيها سلاح من هذا النوع في يديّ. في الغالب، كنت أصادف من الضباط الرومانيين Steyr النمساوي

غير الدقيق نسبياً من نوع ١٩١٢، ومسدسات Beretta الإيطالية الخفيفة من نوع ١٩٣٤، و Luger Parabellum الألمانية الفعالة من نوع ١٩٠٨، و Nagant "المانع لتسرب الغاز" نوع ١٨٩٥ البلجيكية، لكن الروسية الصنع عادةً، التي لم تستهويني بسبب ضياع الوقت في إعادة إقام أسطواناتها رصاصاً تلو الأخرى. مما لا شك فيه، كان مسدس Walther P. 38 واحداً من أفضل الأمثلة على الصناعة العسكرية الألمانية منذ الحرب العالمية الثانية. كان مُدمجاً، وسهل الاستعمال والصيانة، ومناسباً لمعظم المهمات المتنوعة. برز المسدس بِزَرٍّ أمان يُعوَّل عليه. بمعزل عن ذلك، كان يعمل بلمسة ناعمة على الزناد. كما تسمح آلية زناده باستقداح فردي ومزدوج الحركة أيضاً. وكما تبيّن لاحقاً، كان للنقيب بزروني رأي سديد في مسدس Walther.

تمكنت من حساب بضعة أمور في وثائق الضابط النازي. على سبيل المثال، اسمه، وتاريخ ميلاده، والمعارك التي كان منخرطاً فيها. لقد قادته مسيرته العسكرية الحافلة إلى تشكوسلوفاكيا وفرنسا وبولندا. أظهرت إحدى الصور امرأة شقراء جميلة وذراعيها تضمان صبيين يافعين وكانت تنظر إلى الكاميرا مباشرة وتبتسم. كانت الكلمات الآتية مدوّنة بحبر أسود على خلفية الصورة بأسلوب لبق: "يا قلبي! وحبّي، آنا...." ثمة رسالة منها أيضاً. لم أستطع قراءتها، مع أنني لاحظت أن الرائد كتب ردّاً لزوجته، لكن لم يكن لديه متسع من الوقت لإرسالها، يقول فيه: "أجل بالتأكيد، يا عزيزتي بارون كلمنت-كارل-لودفغ فون شتاينغل Baron Klement-Karl-Ludwig von Steingel، هذه ليست فرنسا. فالروس لا يسلمون مدنيهم الرئيسية دون قتال. وعليه، لا فائدة من قدومك إلى هذا المكان برفقة الدبابات والمدافع الرشاشة". كنت أفكر، ووضعت أوراق العدو جانباً في حقيبتَي الميدانية.^١

أعدّ فارتنوف وسدك طاولة مناسبة على الصخرة المستوية، وفتحاً غلب السردين، وقطعاً اللحم المقدد والمدخن، وسكباً الحساء في طاسات ألمنيوم وُجِدَتْ في المنطقة، والبراندي في أكواب الجنود. قسّمها بصورة أخوية إلى سبع حصص. ناولني ليونيد بوروف كوباً بحذر، والتزم الجنود الصمت بانتظار صدور كلمة منّي. قلتُ: "لقد أبلينا بلاءً حسناً، يا شباب! ليت مثل هذا الحظ يحالفنا دوماً!"

١ من أجل التعرّف إلى هوية فون شتاينغل، انظر:

John Walter, *The Sniper Encyclopedia* (London, 2018).

البراندي يحرق البلعوم، ويُدفن الأمعاء. أما طعام الناس الآخرين، فيشحن الأذواق. ويبدو أن الحساء الناجم عن خلاصة مغلية في المسير على نار مكشوفة فاتح للشهية أكثر منها كلها في جماعة من الناس واجهت خطراً مميتاً معاً. ثمة شعور مذهل بروح التضامن أثمَّنه عالياً في مثل هذه الرفقة. ليس دون سبب وجيه؛ كان أسلافنا يولمون في ميدان المعركة بعد هزيمة العدو، إذ كان يُمرَّر كأس كبير من النبيذ أو البيرة المخمَّرة منزلياً حول الجماعة كي يستطيع أي شخص ترطيب شفثيه بمشروب النصر الحلو. أثناء حديثنا الهادئ عمَّن كان يرمي وكيف، ومَن كان يعدو ومقصده، وما كان يُثير اهتمامهم في دقائق الاشتباك الوجيزة، بقي فارتنوف صامتاً ساعة بأكملها، لكنه رفع صوته فجأة. طلب الخفير المخضرم بصورة جدية قبوله في صفوف فصيلة القناصين وتعليمه القنص كي يستطيع إبادة الأعداء القريبين من بيته وقبور المُقرَّبين منه مثلما فعلنا في هذه المنطقة. وقال إن قلبه سيرتاح من الآن فصاعداً، واعترافاً بالجميل سيعلِّمنا، نحن الجنود الشبان الناجحين الشجعان، كيفية العيش والصيد في غابة القرم. سمعت الرأي نفسه تقريباً من النقيب بزروني عندما قدَّمت إليه تقريراً مُرفقاً بغنائمنا، أي أوراق الأركان الألمانية، ووثائق عُثِرَ عليها بحوزة الضابط الميت، وأوسمته، وكتافية رائد. لم يخفِ سروره من المعلومات التي حصلنا عليها. مُستغلةً مزاجه الجيد سألته عن الخفير الحراجي وزكَّيت قبوله في الخدمة الدائمة رغم تجاوزه سنَّ الاستدعاء لحمل السلاح. دَعَمْتُ طلبي بهدية، أي مسدس بارون فون شتاينغل، وكان لهذا الأمر وقعه المطلوب. وعد النقيب، واضعاً السلاح في درج مكتبه، بمناقشة المسألة مع قائد الفوج، الرائد متوسيفتش.

في النهاية، عُدَّ المتطوِّع في "الجيش الأحمر" أنستاز أرتسوفتش فارتنوف جندياً في فصيلتنا. لاحقاً أعرب أمر صادر من الفوج الرابع والخمسين عن امتنانه لنا على البطولة والمهارة التي أظهرناهما في الإغارة على مؤخرة قوات العدو. قُيِّدَ لحساب القناصين كلَّهم، وأنا بينهم، عدد شخصي من سبعة نازيين موتى. مع ذلك، من كان في مقدوره الآن إحصاء أولئك الجنود والضباط المتمرِّنين المرتدين بزات خضراء رمادية الذين بقوا ملقَّبين بالقرب من المطبخ الميداني الذي استهدفناه؟ في تقديري، قُتِلَ ستون رجلاً تقريباً أو تُركوا مُصابين بجروح خطيرة (في المعدة) أو خفيفة.

كان الطقس في بداية كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤١ في منطقة الدفاع عن سيفاستوبول كئيلاً وسيئاً، ومصحوباً بالصقيع ليلاً. لم يمنع هذا الأمر حماة المدينة من الكد لتحسين التحصينات الميدانية التي قاست من الهجوم الأول. تم إصلاح مواضع الرشاشات وتزويدها باتصالات هاتفية، وتعميق الخنادق وممرات الاتصالات. حتى القيادة العليا كانت تتابع الأعمال على الخطوط الأمامية لفرقة شباييف الخامسة والعشرين. في الغالب، كان يزورنا اللواء بتروف، واللواء البحري أوكتيابرسكي، وأعضاء من المجلس العسكري للجيش الساحلي ولأسطول البحر الأسود.

”نزلنا إلى ممر اتصالات وسط خضار الشجيرات الكثيف، ودلت رؤسائي إلى خط الدفاع الأمامي“. كان قائد الفرقة، تروفم كولوميتس، يتذكر لاحقاً:

لم يكن الممر المتعرج قابلاً للكشف من الأعلى تقريباً. فهو يقع تحت شجيرات منتشرة. كانت تغطيته بالجدوع وإخفاؤه بالحجارة ضرورة هنا وهناك فقط. ثمة مفرق ليس بعيداً من الخندق، وهاتف في كوة داخل جدار. أما اللوحة التذكارية في الجدار، فتشير إلى الطريق المؤدي إلى أقرب مركز صحي... وتلك حال الخندق، إذ لم تكن ثمة حاجة إلى الانحناء لأنه محفور بعمق طول رجل. أبلغ جندي من الحرس الحالي أن العدو هادئ أثناء مراقبته. وموّه ممر من الخندق يؤدي إلى المنطقة المنزوعة السلاح بأغصان من شجيرات العرعر الدائمة الخضرة المربوطة بأوتاد.

أخذت أشرح لهم: ”ثمة خندق مزدوج هناك طوله خمسة أو ستة أمتار أخرى إلى الأمام. فخنادق مثل هذه تقلل الخسائر في الهجمات بالمدفعية. يستهدف العدو خط الخندق، لكن قواتنا في مقدّمته. ويُعدّ القيام بأعمال المراقبة من ذلك المكان أكثر ملاءمة.

... ثمة جنديان في الخندق يغطيهما شادر صغير. وكانت قنابل وعلب رشاشات احتياطية منتشرة على فراش من خشب، ومطرة ماء مُعلّقة على وتد مغروز في الجدار...^١

1 By the Black Sea Fortresses (Moscow, 1967), pp. 219–20.

حُفِرَتْ بعض المخابئ الفسيحة جداً للسرية على بُعد أربعمئة إلى ستمئة متر من الخط الأمامي. وفي ذلك المكان، أقيم موقدان أو ثلاثة، إضافة إلى بعض المقاعد الطويلة المثبتة بألواح خشبية على طول الجدار. نما جو غير رسمي كجو النوادي في هذا المكان. فعندما كان الجنود غير منابئين، كانوا يجتمعون هناك مساءً. واجتماعات "رابطة الشبيبة الشيوعية" والاجتماعات الحزبية، ودورات التثقيف السياسية للأفراد، واجتماعات الضباط، تُعقد كلها في ذلك المكان.

تحسّنت الحياة على الجبهة كثيراً بإحداث خدمة حمّام ومصبغة على الجانب الشمالي. وجد ضباط الإعاشة المبنى ورّموه بمساعدة السكان المحليين. أما الآن، فباتت ترددات الجنود إلى الحمّام من الخط الأمامي منتظمة. في الوقت نفسه، كانت تُبدّل بياضاتهم، ولم تؤدّ لعنة الخنادق، أي القمل، إلى تفشي العدوى أثناء الدفاع عن سيفاستوبول.

كان الهدوء في القتال والانتقال إلى حرب موضعية يقتضي تغييراً في تكتيك القناصين، إذ باتوا مشاركين مُهمّين في مقاومة الألمان. يتمثّل ما نواجهه الآن في المراقبة الدائمة للمنطقة المنزوعة السلاح، والاستطلاع، وقنص جنود وضباط العدو على خطهم الأمامي. في البداية، كان علينا دراسة خط النار الموكل إلى كتيبتنا الأولى بدقة، أي المساحة الموجودة أمامه، بما فيها المنطقة المنزوعة السلاح، وتلك المواقع التي أقامها النازيون التابعون لفرقة فرماخت ١٣٢ للمشاة.

كنا على السفوح الشمالية لوادي Kamyshly، على بُعد ١,٥ كلم إلى الغرب من المرتفع ٢٧٨,٤. يمتاز السفح الناعم الطويل بسطح غريب، أي انخفاضات وارتفاعات صغيرة وصخور كلسية. كان الغطاء الحراجي متبايناً، وثمة فُسح عريضة وأجمات منيعة تقريباً، إضافة إلى أكوام من الأشجار الساقطة والمهشمة بفعل نيران القذائف. تنمو في هذا المكان أصناف القرم الرئيسية، أي البلوط الجالس، والدردار الناعم، والقيقب، والتفاح الحراجي، والأكاسيا البيضاء، والخمان الأسود (شجرة ضخمة للغاية، وبالمناسبة، يبلغ ارتفاعها قرابة ستة أمتار)، والعرعر البري (أشجار وشجيرات). حصلت على هذه المعرفة كلّها من فارتنوف الذي رافقني وفيدور سيدك، مرصّادي في القنص، في رحلات على طول المنطقة المنزوعة السلاح وبعض

القطاعات المتاخمة التي يحتلها الألمان. كنا نبحت عن مواقع ملائمة لأنواع مختلفة من مخابئ القناصين، أي مخابئ مكشوفة، ومغلقة، وقاعدية، ومخابئ احتياطية، ومخابئ تموهية، ومخابئ مناسبة لهجوم خاطف، وأخرى مُعدّة لانسحاب سريع. كانت ممرات الاتصالات المتشابكة العميقة المحفورة في تربة القرم الحجرية على يد مهندسين عسكريين سوفيات وجنود مشاة عاديّين تُطل على المنطقة المنزوعة السلاح مباشرة. وهي تساعدنا على الخروج منها دون رصدنا، حتى نهاراً، رغم أن الوقت المثالي هو ساعة ونصف بعد منتصف الليل بالنسبة إلى القناص. اصطحبنا معاول خبراء ألغام صغيرة معنا، ومنقاراً، وبلطة، وسكاكين كبيرة أحياناً. ومن أجل إعداد مواقع مُغلقة، كنا نستخدم إطارات معدنية مطوية، ودروعاً مصفحة، وقِرم أشجار مموهة مصنوعة من أي مواد متاحة، وإطارات السيارات المُقطّعة والملتصقة بلحاء الشجر خصوصاً. وثمة مجال لـ "دمية" في المواقع المموهة، أي مانيكان ترتدي خوذة ومعطفاً، ومرآة مُقَحّمة في وتد خشبي مُشطر.

على أيّ حال، ثمة بقع كنتُ مغرمة بها خصوصاً. مثلاً خندق عميق وسط أجمات العرعر، حيث لم تكن الأرض المنثورة بطبقات شتّى من الإبر الصنوبرية الخضراء-الزرقاء ناعمة ودافئة فحسب، بل رشح عنها رائحة طيبة لم تطقها أنواع متنوعة من طفيليات الغابة. لم يكن ثمة بعوض، ونمل، والخنافس التي تقتات على اللحاء، والزنابير، والذباب، أو أي أعداء للقناص أخرى تمنعه من التركيز والبقاء ثابتاً لساعات بلا انقطاع.

كانت تقع خلف لوح كلسي أبيض ضارب إلى الرمادي يخفي الموقع جيداً من جهة اليسار شجرة بلوط لاطئة الورق وضخمة، قد أسقطتها الرياح وأنهكها العمر. كان اللبلاب يلتفّ حول أغصانها الضخمة المنتشرة في اتجاهات مختلفة بصورة غريبة. بطبيعة الحال، تبدّت سبطانة بندقية سوداء محشورة بين فروع متباينة مثل غصن بالنسبة إلى العين القليلة الخبرة. في مقدور المرء نصب بندقية بين الأغصان بشكل ملائم جداً. كما كان الاتكاء على الشجرة عندما كانت أرض الغابة رطبة أمراً وارداً. أخذت وردة الغار بأشواكها المنقرّة تستهويني؛ كانت نبتة رائعة ومذهلة. أحدثت أجماتها فعل ستارة مُحَرّمة منتشرة عبر جذور أشجار الدردار والقيقب والأكاسيا.

كانت المعالم المتميّزة بسهولة تتلاشى كلّها. كما كان الدخان الناجم عن طلقة يتبدد بسرعة في ثناياها.

لم تكن بندقيتي SVT-40 المنقوشة ملائمة للقنص في الغابة. بعد تنظيفها بدقة (بما فيه غسيل السبطانة بكر بونات الصوديوم) ومسحها بزيت البنادق، لففت هدية اللواء بتروف بالخيش، ثم وضعتها في حمالة، وعلقتها على الجدار في مخبئي. يمكن Svetal أن تأخذ قسطاً من الراحة وتكون سلاحاً استعراضياً لزمن. سيكون سلاحى الفعّال البندقية الثلاثية الخطوط الموثوقة بدقة تامة. كانت ترمي بهدوء أكثر، وبدقة أكثر، وكان منظار PE وجود بتكبير رباعي الأضعاف.

كنت وفيودور سدك ننتقل بعد منتصف الليل قاصدين المنطقة المنزوعة السلاح، وإحدى حفر ثعالبا (كما كنا نطلق على مواقع أو مخابئ قناصينا المنصوبة)، حاملةً بندقية Mosin على كتفي، وجعبة رصاص متدلية من حزامي، ومسدس TT، وسكيناً فنلندية في غمدها المعدني، ومطربة، ومحول خبراء ألغام في حمالة، وقنبلتين. اهتدينا إلى الطريق بواسطة الشقوق على جذوع الأشجار، أو العلامات الخاصة المتروكة سابقاً. مع ذلك، يتعين حفظ الموقع عن ظهر قلب مثل أشعار بوشكين في المدرسة. كنّا نمضي ساعات في موقعنا عادةً، نراقب خط الألمان الأمامي بالمنظار الميداني. فكنا ندوّن أيّ تغييرات في ذلك المكان، أي الظهور الإفرادي للجنود والضباط وأعمال الحفر على التحصينات، أو بناء دشم رشاشات جديدة، وتحركات الآليات، وتبديلات الحراس، وتوقيت المطابخ الميدانية، ووصول ضباط الإدارة إلى مخبأ مقر الأركان، ومدّ الكابلات الهاتفية بين قطاعات مختلفة، وخبراء الألغام العاملين على حقول جديدة، وأمور مشابهة أخرى كلّها، ونضع علامة عليها على الخرائط، ونبلّغ قائد كتيبتنا، الملازم درومين، عنها.

لا بد من الإشارة إلى أن الألمان سيّروا أنفسهم بطريقة هائلة البال للغاية في بداية كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤١. فكانوا يتجولون بين مواقعهم منتصبين القامة. من المحتمل أنهم كانوا يعتقدون أنه لا قناصين لدى الروس، وعليه كانت المنطقة المنزوعة السلاح بعرض مئة وخمسين إلى مئتي متر حاجزاً منيعاً في وجه الرصاص الدقيق. وضعنا حدّاً لهذا الأمر فوراً، تقريباً، إذ أبدأنا قرابة اثني عشرة رجلاً في غضون

يومين، أي عشرة جنود وضابطين. كان الرد هجوماً جنوبياً بالهاون. فلساعة أو اثنتين، أطلق النازيون قذائف هاون GrW. 36 من عيار 5cm le، أي من مدافع الهاون الخفيفة التي كانوا يحتفظون بها في كل فصيلة مشاة. كنا نتنقل من إحدى حفر الثعالب إلى الأخرى المجهزة في أعماق الغابة سريعاً؛ كنا نراقب من ذلك المكان قذائف الهاون التي ترن ٩١٠ غرامات تنفجر في مخبئنا السابق بين الأشجار، مضيئة نفحات برتقالية صغيرة وناثرة عشرات الشظايا الصغيرة على كل ما يحيط به. تعودت الإشارة إلى مثل هذا العمل المعادي بوصفه ”حفلة موسيقا كلاسيكية ألمانية“.

ثمة أوقات أنطلق فيها وحيدة قاصدة مؤخرة قوات العدو. كان يمكن فعل ذلك في قطاع صغير جداً من المنطقة المنزوعة السلاح فقط، حيث تتحول الغابة إلى أجمة منيعة. دلّني الخفير المخضرم إلى درب في ذلك المكان لا يكاد يمكن اقتفاء أثره؛ كان مخفياً بشجيرات طويلة من الورد البري والنّير. يتعين عليك شقّ طريقك عبر الشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة، متناوباً بين الزحف، والانشاء، أو استعمال سكين لقصّ الأغصان المتدلية. والدرب يقودك إلى طريق ترابي يمر داخل نصف كيلومتر من الخط الأمامي الألماني تقريباً. تبين أن جنود فرقة فرماخت ١٣٢ للمشاة كانوا مغرمين بهذا الطريق، إذ تصل (وفق الوثائق التي عُثِرَ عليها لاحقاً بحوزة القتلى) نقاط قيادة اثنين من أفواجها، أي ٤٣٦ و ٤٣٨.

اخترت موقعاً للرمي وراء منعطف في الطريق كانت جوانبه مغطاة بالورد البري. حفرت خندقاً ضحلاً بساتر من الحجارة موّهته بعشب أخضر. كانت التربة في هذا المكان تنفتت، وعليه سار العمل على خير ما يرام، ولم يستغرق وقتاً طويلاً. إضافة إلى ذلك استخدمت خدعة تعلّمتها منذ أيام دراستي في مدرسة القناصين في أسوافياكم، أي دفنتُ مطرة نصفها مملوء بالماء، ووضعت طرفاً من أنبوب مطاطي في عنقها، ورفعت الطرف الآخر إلى أذني. بهذه الطريقة، كان يسهل رصد أصوات الخطي، وحرّكة الآليات، وأعمال الحفر. يجب على القناص أن ”يصبح آذاناً صاغية“ من أجل التعرف إلى الأصوات، أو آثار الأصوات، وبالأحرى نسيان كل شيء من حوله وتركيز الانتباه بحدوده القصوى، الأمر الذي يقتضي بذل طاقة كبيرة. كانت الغابة الوقائية تقتضي إنكاراً مشابهاً لوجود المرء الذاتي. فعليك الذوبان فيها، والتزام الصمت،

وتجنب الحركة، كأنك كائن يعيش فوق الأشجار. كان فارتنوف يحس بهذا الأمر بالفطرة، ويتنفسه إيقاعاً، ويفهم إشاراته وتجلياته كلّها. أما بالنسبة إليّ المولودة في البلدة بالفطرة، فلم يكن سهلاً بلوغ هذه الحالة. كانت بحاجة إلى قدر كبير من اختبار الإرادة.

سمعت ضجيج محرك دراجة نارية من خلال الأنبوب قبل ظهور راكب الدراجة نفسه على الطريق بكثير. تناولت رصاصة مزودة بمقدوف ثقيل ذي رأس أصفر من نوع D من داخل جيب سترتي المبطّنة، ودفعت بها داخل حجرة الانفجار. توقف جندي مرتدياً سترة جلدية سوداء في محيط شجيرة ورد بري من أجل التمتع بحبّاتها الحمراء الغامقة. على العموم، يُفضل قطف ثمار الورد في أواخر الخريف، وتجفيفها، واستهلاكها كشاي. على أي حال، لم يكن الألمان على علم بذلك الأمر. انساق بالأمر، جامعاً الحبّات شبه المُجمّدة براحتي يدي، ومحاولاً اختبار طعمها.

أحدثت الطلقة صوتاً عالياً في سكون صباح شتوي باكر بارد. خلافاً لذلك كان الطريق خالياً آنذاك، ولم يكن ثمة ما يتهدّدني. سرعان ما سحبت وثائقه من جيبه، وأخذت الحقيبة الميدانية، التي كانت متدلية بقشاط طويل من كتف الجندي الميت، الممتلئة بالأوراق. كما استحوذت على رشاشه القصير MP. 40 وشريطي ذخيرة احتياطين. لم يُعثر على شيء آخر بحوزة راكب الدراجة النارية سوى علبة سجائر وولاعة. كانت مركبته DKW RT125 الأحادية الأسطوانة والخفيفة متوقّفة بجانب الطريق. كان يتعين وضع الآليات المعادية خارج الخدمة مهما كلّف الثمن. وجب عليّ إطلاق النار على محرّكه. لم أجروء على إطلاق النار على خزان وقوده لأن النار ستلفت انتباه العدو نحو الطريق، وكنت ما زلت مضطرة إلى الخروج من ذلك المكان.

بالنسبة إلى قناص وحيد، تُعدّ إصابة الهدف نصف المهمة فقط. أمّا النصف الثاني الذي لا يقلّ أهمية، فيكمن في العودة إلى وحدتك سالماً. كنت أكتب في آب/ أغسطس ١٩٤١ لشقيقتي أنني أعترم رفع حصيلتي إلى ألف نازي. لكن قبل تمكنك من إبادة سفّاحك الألف، عليك النجاة ٩٩٩ مرّة بعد تسديد طلقة دقيقة على عدو يتمنى قتلك مهما كلّف الثمن.

بطبيعة الحال، كنت أودّ أتباع قاعدة وضعتها لنفسني، أي لا يُعدّ اليوم يوماً دون

عدو ميت. لكن، واحسرتاه، لم تكن الأمور تسير على ذلك النحو دوماً. في المقام الأول، بات الألمان أكثر حرصاً؛ بدأوا، مثلنا، حفرأً أعمق لأنفسهم في الأرض. ثانياً: كان العدو يُعزّز مراقبته للمنطقة المنزوعة السلاح. على الأغلب، كان النازيون يُطلقون شهباً ضوئية ليلاً، وينخرطون في إطلاق نيران الهاون والرشاشات المزعزعة للاستقرار نهائياً. كانت مجموعات الاستطلاع الألمانية تبدأ العمل على هذه الأرض نفسها. وفي حال اكتشافهم مخابئنا، كانوا يدمروها، أو يزرعون ألغاماً. انفجر لغم مضاد للأفراد مخفي بالقرب من شجرة بلوط ساقطة بأحد أزواج القنص التابعة لنا في الحادي عشر من كانون الأول/ ديسمبر. وعليه، قضى ليونيد بوروف وجندي آخر من فصيلتي التحق بالفوج الرابع والخمسين قادماً من مشاة البحرية.

على أي حال، كانت الحياة على الخطوط الأمامية لخطوط الدفاع عن سيفاستوبول تسير بهدوء نسبي. ففي الطقس الجيد، كان الطيران الحربي الألماني وطيراننا يشنان غارات. وكانت سفن أسطول البحر الأسود، أي الطرادين "Krasnya Krim" و "Krasniy Kavkaz"، والمدمرة القيادية "Kharkov"، والمدمرات "Zhelyeznyakov" و "Sposobny" و "Nezamozhnik"، تُطلق نيران مدفعيتها البعيدة المدى على مؤخرة قوات العدو. ثمة مناسبات قامت فيها وحدات سوفياتية بقوام سرية أو سريتين باستطلاع بعض قطاعات الجبهة عن طريق الاشتباك. كان الألمان يفعلون الأمر نفسه. مثلاً سُمعت صلية قوية في الثامن من كانون الأول/ ديسمبر بعيدة إلى الغرب من مواقع كتيبنا، وراء جسر سكة حديد Kamyshly الذي لم يمض على تفجيره وقت طويل. كان اللواء البحري الثامن المزوّد بإسناد مدفعي قوي أول من دحر الأعداء من المواقع التي احتلوها، لكنه انسحب في اليوم اللاحق عندما استقدم الألمان طائراتهم ودباباتهم الهجومية.

الاعتداء الثاني

كنا نتابع مناسبة احتفالية في السادس عشر من كانون الأول/ ديسمبر. ففي مقر قيادة الفوج الرابع والخمسين المرابط في وادي Kamyshly بمحيط القرية التي تحمل الاسم نفسه، كان قائد الفرقة، اللواء كولوميتس، يُقدِّم جوائز حكومية إلى عشرة رفاق من فوجي أبلوا بلاء حسناً في الدفاع عن أوديسا. لقد عدتُ من مناوبة قنص في الغابة متأخرة جداً ذلك اليوم، وخلدت إلى النوم مباشرة. لكن الملازم دوروموف أمرني بالذهاب لتهنئة المُكرَّمين نيابة عن السرية الثانية. بمعزل عني، كان ممثلون عن مفارزنا الأخرى حاضرين أيضاً، ربما قرابة أربعين شخصاً إجمالاً.

كان كولوميتس أول المتحدثين. قال إن وطننا العظيم كان يحتفي بمناقب جنود وضباط "الجيش الأحمر" دوماً، وناشدهم القتال ببسالة في محيط أسوار سيفاستوبول كما فعلوا في أوديسا. أما المتحدث الثاني، فكان قائد الفوج، الرائد متوسيفتش، الذي طمأن الجنرال أن رجال الريزن سيكونون عند حسن ظن الشرف الملقى على عاتقهم. وأما الثالث الذي اعتلى المنصة كما ينبغي، فكان مفوض فوجنا العسكري، مالتسيف Maltsev، الذي تحدث عن الحزب الشيوعي وأعضاء "رابطة الشبيبة الشيوعية" بوصفهم قدوة في الشجاعة والثبات في المعركة. ثم حان وقت تسليم الجوائز. فشهدتُ شخصياً الجائزة الرسمية الممنوحة للرفيق نينا أنلوف، رامية الرشاش الباسلة في السرية، التي تلقّت "وسام الراية الحمراء". وعندما جاء دوري، توجهت

إليها بخطاب يليق بالمناسبة، رغم قصره الشديد.

كان يوماً مشمساً صافياً ومصحوباً بصقيع طفيف. سرعان ما كان يتلاشى ضوء النهار الشتوي. ولدى عودتي إلى خطوط السرية الثانية، جلست على شجرة ساقطة، وأشعلت غليوني^١ الذي أعطاني إياه أنستاز فارتنوف بعد هجومنا الناجح على قرية Mekenzia، إذ كان القطعة الوحيدة القيّمة التي احتفظ بها بعد أن دمر الألمان بيته. كان لهذا الغليون التركي القديم، المصنوع من جذر شجرة أجاص والمزوّد بمبسم من العنبر، مظهره الأكثر غرابة. كما كان بمنزلة جائزة، لكن من رجل عادي.

تعلمت كيفية استخدامه بسهولة، أي حشوه بالتبغ بشكل صحيح، وتدخينه بتأنٍ، مع مراعاة بقاء ألياف التبغ الجافة في وهج بطيء في الحُضَيْن المصقول اللامع المصنوع من الخشب البني الغامق. كان الإحساس بدفع الحُضَيْن بيدي ساراً. على ما يبدو، كان المَبَسَم يُخفف حدة الدخان ويُطيل الاستمتاع بالنسبة إلى المُدخِّن، الأمر الذي يساعد على التأمل من حيث لا تدري.

ما دام رفاقي الضباط يحيون ذكرى معارك الدفاع عن أوديسا في ذلك اليوم، كانت أفكاري تعود إلى تلك الأحداث الأخيرة أيضاً. لقد اجتزنا دروسنا الأولى في مدرسة الحرب الخطيرة والمضنية، وأفدنا كثيراً من التجربة؛ لقد نضجنا، وبتنا أذكى، واخشوشت شخصياتنا، وأصبحنا متعودين مواجهة الموت بهدوء وخداعه بمهارة. فمن دون هذه العادات، لن تكون جندياً حقيقياً.

هل يمكن مقارنتي مع نينا أنلوفاف من حيث الأعداء الذين تمت تصفيتهم؟ قُيد لحسابها في مقر أركان الفرقة الخامسة والعشرين للرماة خمسمئة فاشي رحلتهم إلى العالم الآخر. وكانت حصيلتي تتجاوز مئتين في منتصف كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١. أما الأمر الأهم، فتمثّل في أنّهم لم يعد يقاتلون، ويدنسون أرضنا، ويقتلون أبناء جلدتنا. قد تكون فجاءة رحيلهم سبباً دفع الغزاة الآخرين، الذين قدموا إلى هذا المكان آمليين في غزو سهل وخاطف، للعودة إلى رشدهم.

١ غليون، وكيس تبغ، وعلبتا سجائر فضيتان تعودان إلى بافلتشنكو، مودعة في "متحف القوات المسلحة الفيدرالية الروسية" المركزي، برقم إيداع ٣٧٧٦/٢.

قال صوت جهوري جميل ورائي: ”هذه المرة الأولى التي أرى فيها امرأة تحمل غليوناً“.

بينما كنت أتلفت حولي، كان ملازم متمرن يقترب من الشجرة الساقطة. لقد سبق أن رأيته في مكان ما. ليس في الفوج الرابع والخمسين، لكن من المحتمل في الفوج ٢٨٧ أو الفوج ٣١، اللذين كانا جزءاً من فرقتنا، وقاتلا في أوديسا. كان رجلاً ضخماً شبيهاً بالتمثال وعريض المنكبين، وبعينين زرقاوين وشعر بني غامق، في الخامسة والثلاثين تقريباً. جلس بجانبني، وأخرج علبة سجائر من جيب معطفه، وفتحها. كانت تحتوي سجائر من نوع Kazbek من مخصّصات الضباط. عرضها الملازم المتمرن عليّ. بعد تردد، أخذت إحداها. كما أخذ واحدة، ثم أشعل ولأعته، وبدأنا ننفث الدخان.

سألني الضابط: ”ماذا تستخدمين في غليونك؟“

- تبغ مفروم.

- أليس ثقيلًا قليلاً؟

- أجل، لكن تعودته.

وأردف: ”من الطريف أنه ليس من عادة النساء الحسنات تدخين الغليون“.

- بعبارة أخرى، لا بد أنني بشعة وغريبة.

نظر إليّ قائلاً باحترام: ”إن حقيقة أنك غريبة أمر معروف بالنسبة إلى الفوج الرابع والخمسين برمته، يا لودميلا ميخايلوفنا. لكنّ مسألة الملامح الأنثوية معقدة للغاية. فمثلنا الأعلى يفرضه الزمن والموضة والأعراف. على سبيل المثال، أعتبرك مليحة...“.

تصرّف بطريقة حساسة ولبقة ومتحفّظة في أول حديث بيننا. فقدّم نفسه في الحال: ”كتسنكو، ألكسي أركاديفيتش، قادم من مدينة دونيتسك Donyetsk“. عندما استدعي إلى الخدمة عام ١٩٤١، قاتل في صفوف الفوج ٢٨٧، وكان لديه تعليم تقني (بوصفه كهربائياً)، وكان رقيباً، ثم رقيباً أول، وبات ضابطاً أخيراً، في الثلاثين من تشرين الثاني/نوفمبر من هذا العام، لدى إتمامه دورة سريعة من أجل رتبة ضابط متوسط بموجب أركان الجيش الساحلي العامة. هدفه من التعرّف إليّ بسيط للغاية. عُيّن كتسنكو قائداً

لسريتنا الثانية. أمّا الآن، فكان يجول التشكيلات القتالية من أجل التعرّف إلى الناس واستعراض التحصينات التي أوكل الدفاع عنها.

كان خطاب ألكسي أركاديفيتش متسقاً، وصائباً نحوياً، وألمعياً. اختتم سرده بقصة ظريفة عن الامتحانات النهائية لدورة الضباط. بينما كان صديقه يُركّب مسدس TT، أخذ يتوتر لدرجة أضاع فيها أحد الأجزاء. فرّكّب المسدس بطريقة لم يعد فكّه فيها ممكناً إطلاقاً، ولم يعد يُطلق النار. بعد مشاورات مطوّلة، خرجت اللجنة بنتيجة نجاحه بالامتحان، أي معرفته بسلاحه جليّة. أمّا الباقي، فكان يقع خارج اختصاص اللجنة.

باختصار، ترك ألكسي انطباعاً جيداً. كنت آمل ألا يتلاشى هذا الأمر في سياق المزيد من الخدمة معاً. يمكنني أن أضيف أن رجلاً مثله، أي ضخماً ومتسقين وزرقاوي العينين وشقراوي الشعر، كانوا يستهوونني عموماً. كنت أطلق عليهم فايكنغ، أي محاربي البحار الشمالية البعيدة الشجعان خاصة.

كيف كان سيتسنّى لنا معرفة أن الغزاة ينتهون من التحضيرات لهجوم ثانٍ على سيفاستوبول في تلك الأمسية الوداعة، محرّكين آخر قطعة من ٦٥٤ من مدفعية الميدان و٢٥٢ قطعة من المدفعية المضادة للدبابات؟ فضلاً عن ذلك نصبوا ٣٨٧ مدفع هاون من عيارات مختلفة خلف المنطقة المنزوعة السلاح، وبات لديهم الآن سبعة وعشرون سلاحاً لكلّ كيلومتر من الجبهة. وكان ما يفوق مئتي قاذفة ومقاتلة على وشك مهاجمة المواقع السوفياتية، في حين كان لدينا تسعون طائرة فقط.

كانت ثلاث فرق مشاة ألمانية، الثانية والعشرين والرابعة والعشرين ومئة واثنين وثلاثين، ترابط في تشكيل قتالي وراء قمم تلال Mekenzi المكسوة بغابة حرجية، وتستعدّ لتوجيه ضربة على النقطة الواصلة بين القطاعين الثالث والرابع من الدفاعات عن سيفاستوبول، أي بدءاً من قرية Mekenzia انتهاءً بتلّ أزيز-أوبا، من أجل اختراق الجانب الشمالي من أكبر خليج في قاعدة أسطول البحر الأسود البحرية الرئيسية. لو كان في مقدور الألمان بلوغ شطآنها، لن تصمد المدينة لأنها محاصرة من الجانب البري كلياً. عندئذ، سيتوقّف النقل البحري، الذي لم يبقَ سواه، لتعزيزات الاحتياطية، والعتاد الحربي، والسلاح والمؤن.

أطلق الألمان وإبلاً من نيران المدفعية والهاون على مواقع الدفاع عن المدينة في ٦:١٠ من صبيحة السابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤١. فاهتزّت الأرض. كان صوت صفير ونواح وتحطيم قذائف المدفعية والهاون يصم الآذان ويستحيل تحمّله. بينما كنا مختبئين في ملاجئنا الأرضية العميقة، كنا ننتظر نهاية النشاز. لا يمكن لذخيرة العدو أن تكون لا متناهية رغم حسابات الألمان. استمر الاعتداء بالمدفعية عشرين دقيقة تقريباً. ثم تقدّمت قوات المشاة المعادية عبر الجبهة برمتها. وظهرت طائرات Junker و Heinkel ذات المحركات المزدوجة في السماء. فلم تقصف المدينة فحسب، بل خطت القوات السوفياتية الأمامي أيضاً. كتبت عن هذا الأمر بعد الحرب:

”كان العدو يُعوّل الآن على إنزال ضربته الأولى على قطاع مختلف بدءاً من منطقة Duvankoi عبر وادي نهر Belbek وقرية Kamyshly وانتهاءً بأقصى الشمال الشرقي من الخليج الشمالي. كان الغزاة ينوون فصل الجبهة الدفاعية من أجل تطويق وحدات القطاع الرابع والانقضاض على سيفاستوبول. نقل النازيون قوات الجيش الحادي عشر الرئيسية إلى منطقة تلّ Aziz-Oba، إلى الشمال من تلال Mekenzi. إضافة إلى ذلك، كانت قوات الاحتياط المساندة تتجمع في ذلك المكان لضمان نجاح العمل العسكري... كان العدو يُخطط لإنجاز هذه العملية في أربعة أيام، أي في نحو الحادي والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر.

باستغلالهم ميّزات المكان الطبيعية، تمكّن رماة الرشاشات الألمان من اختراق مؤخرة دفاعاتنا في بعض القطاعات من الجبهة. كانوا يُعوّلون على تطويق الوحدات السوفياتية. فلم تفلح المناورة النازية، إذ عزلت كتابتنا المدمرة، المؤلفة من أعضاء من الحزب الشيوعي و”رابطة الشبيبة الشيوعية” بصورة رئيسية، التحركات المعادية. فتمت محاصرة رماة الرشاشات القصيرة المعادية وإبادتهم.

لم يكن اليوم الأول من الاعتداء الثاني ناجحاً بالنسبة إلى النازيين؛ خسروا تسع طائرات في معارك جوية ومن النيران المضادة للطائرات. كما لقوا خسائر فادحة في الدبابات والقوة البشرية. واجه العدو مقاومة متزايدة من وحدات الرمي ومفارز مشاة البحرية التي اشتبكت معهم في قتال مرير ومُطوّل.

من بين وحدات الجيش الساحلي، قاتل جنود فوج المدفعية بقيادة المقدم بوغدنوف

Bogdanov بامتياز خاص. لقد قاتلوا ببسالة دفاعاً عن أوديسا سابقاً. كان رماة مدفعية بوغدنوف يتخذون مواقع قريبة من الخط الأمامي دوماً. وثمة أوقات تعين عليهم التصدي فيها لهجمات قوات المشاة المعادية. كان بوغدنوف نفسه يخرج إلى المنطقة المنزوعة السلاح ويقوم بوظيفة راصد لفوجه الخاص في اللحظات الحرجة من التقدّمات الكبرى. فالإقدام والشجاعة كانا شعارا رماة المدفعية الرئيسيين.

لم يستمر القتال براً فحسب، بل بحرّاً أيضاً. قاتل بحارة الطراد "Krasniy Krim" بجسارة أثناء تلك الأيام بقيادة النقيب (من الدرجة الثانية) زوبكوف Zubkov. بذل طاقمه من رماة المدفعية والمهندسين والكهربائيين وأفراد زوارق الطوربيد أنفسهم في صدّ هجمات القاذفات النازية. كان هذا الحصن العائم يؤمّن الغطاء للسفن السوفياتية المتوجهة إلى خليج سيفاستوبول، ويوجّه النيران المدمرة على قوات المشاة والمركبات المعادية. لم تكن كلمة تعب تعني شيئاً لرماة مدفعية السفينة، إذ أنزلوا ضربات فتّاحة بالعدو وصعقوه بفجاءة هجماتهم.

في لهيب المعارك، انفجرت قذيفة معادية في إحدى المرات بمدفع ستارشينا ميخايلنكو Starshina Mikhailenko (صف ضابط من المرتبة الثانية). فأصيب قائد السلاح وبعض طاقم المدفع بجروح. لكن استمر إطلاق النار. استبدل الرقيب أول ببّحار. ورغم الخسائر، كانت مدفعية السفينة تعمل دون أي خلل.

كان كثير من أبطال الدفاع عن سيفاستوبول معروفين في المدينة اسماً. تمثل أحد الأسماء الشهيرة بكاسح الألغام النقيب ديمتري أندرييفتش غلخوف Dmitry Andreyevich Glukhov. كانت سفينته أولى الخارجات للتعامل مع الألغام الصوتية التي كانت مكافحتها صعبة جداً. أطلق على هذه الألغام صوتية بالضبط لأنها تنفجر نتيجة ذبذبات صوتية لا تذكر... فمن دون خشية الخطورة، كانت كاسحة ألغام غلخوف تشرع في نزع فتيلها. لم يكن هذا الطاقم المقدم بحاجة سوى إلى بضع ساعات لتنظيف مسارات السفن القاصدة الخليج تماماً.

أتذكر خصلة أخرى لهذا الفريق. كانت قافلة من سفن النقل السوفياتية محملة بحمولة كبيرة. أمّنت لها الحماية بسلسلة من القوارب بقيادة غلخوف. لكن الاستطلاع الجوي النازي اكتشف السفن، ووجّه قاذفاته لاستهدافها. كانت القنابل تصفر أثناء سقوطها مولدة نوافير هائلة من الماء. حاولت القاذفات مهاجمة سفن النقل مرّات عدة، لكن قواربنا أبعدها. فبلغت سفن النقل السوفياتية مقصدها سالمة.

ألهمت الانتصارات الأولية للجيش السوفياتي قرب موسكو المدافعين الأغرار عن

سيفاستوبول.

سعيًا منها للتقليل من أهمية انتصاراتنا واستعادة أسطورة جيشها الذي "لا يُقهر" إلى حد ما، حددت القيادة النازية العليا هدفًا لقواتها في سيفاستوبول، أي الاستيلاء على المدينة، بغض النظر عن الخسائر.

كان الحادي والعشرون من كانون الأول/ ديسمبر الموعد الذي وضعه النازيون لدخول المدينة. كانوا يريدون أن يتزامن الاستيلاء على المدينة مع ذكرى مرور ستة أشهر على الحرب مع الاتحاد السوفياتي. كان الأعداء يتقدمون، ووُضعت سيفاستوبول في وضع صعب بصورة استثنائية، إذ كان مصير الدفاع المستقبلي عنها قيد الحسم. فأرسلت رسالة إلى مقر القيادة العليا في العشرين من كانون الأول/ ديسمبر تتعلق بخطورة الوضع. وفي الرد الذي جاء بعد أربع ساعات، أمر قائد أسطول البحر الأسود بإرسال جزء من مشاة البحرية وبعض التعزيزات من المتطوعين والقذائف...^١

كان اليوم الأول للهجوم، في السابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر، صعباً على نحو خاص بالنسبة إلى جنود وضباط الفوج ٢٨٧ للرماة، الذين كانوا يرابطون في محيط تل Yaila-Bash والطرف الجنوبي الأقصى من وادي Kamyshly، ضمن التشكيلات العسكرية لفرقة شباييف الخامسة والعشرين. في المقابل، كانت قوة مشاة من كتائب شتي تتقدم بموازرة من عشر دبابات. سرعان ما وقع اشتباك بالأيدي في خنادق السرية الخامسة من كتيبة الفوج الثانية. أثبت المعلم السياسي المتمرن، غولبنتشي، نفسه في هذا المكان، إذ طعن ستة نازيين بحرته، وتابع القتال رغم إصابته بجروح.

على أي حال، أرغمت قوات الفوج ٢٨٧ في نحو منتصف النهار على الانسحاب نحو قرية Kamyshly. فكانت في الخامسة تماماً على بُعد ثمانمئة متر شرق القرية سلفاً، في حين كانت السرية التاسعة مطوّقة كلياً وتصدّ هجمات رماة الرشاشات القصيرة النازية ببسالة. مع نهاية اليوم، انسحب الفوج لمسافة أبعد نحو السفوح الشمالية الشرقية للوادي.

تعرّض جنود فوج Perekop الثاني من مشاة البحرية، الذي كان جزءاً من فرقنا،

١ هذا مقتبس من كراسة بعنوان *Heroic Annals. The Defence of Sevastopol* [الحواليات البطولية: الدفاع عن سيفاستوبول]، ألّفها بافلتشنكو عام ١٩٥٨ بموجب تفويض من دار النشر السياسية الحكومية.

لضربة مؤثرة. فبشّنتهم هجوماً بالحراّب، أوقفوا تقدّم الألمان، لكنّهم أرغموا على الانسحاب تدريجياً، وتمكنوا من تثبيت أنفسهم على السفوح الغربية من المرتفع ٢٤٦،١. ساعدتهم رماة مدفعية الفوج التاسع والستين، الذين أبادوا عشر دبابات معادية بنيران مباشرة من مدفيعتهم من عيار ٧٦ ملم، على الابتعاد عن العدو.

وقعت هذه الاشتباكات الضارية على بُعد كيلومتر واحد تقريباً إلى يسار عمليات الفوج الرابع والخمسين. كما انخرط رجال الريزن في تبادل لإطلاق النار مع النازيين، لكنهم لم يكابدوا ضغطاً معادياً مستميتاً. صحيح أن صفوف المشاة الألمانية جازفوا في دخول المنطقة المنزوعة السلاح، المطهرة من الشجيرات والأشجار، مرّات عدة. مع ذلك، لدى مواجهتهم لنيران بنادق ورشاشات مُحكمة مدعومة بمدافع الهاون، قصدوا الملاجئ، ثمّ انسحبوا.

كانت المدافع الرشاشة تهدر فوق تلال Mekenzi ليومين. وكان النازيون عاجزين عن اجتياح جبهتها، أو إحراز تفوّق حاسم على حماة سيفاستوبول. نفّذ الروس هجمات معاكسة، واستعادوا خطوطهم النارية التي كان يحتلّها الألمان.

خيّم السكون على طول قطاع الكتيبة الأولى في صبيحة التاسع عشر من كانون الأول/ ديسمبر. لكن بدأ الألمان فجأة رميّاً مركّزاً من المدافع الرشاشة ومدافع الهاون من العيار الثقيل. كان هذا الأمر حدثاً طبيعياً، واختبأنا في مخابئنا تحت ثلاث طبقات من العوارض الخشبية. لكن أبلغتنا مواقعنا العسكرية الأمامية بقدوم مركبات ألمانية. فمع طقطقة جنازير المجنزرة، أخذت العربة Stu.G.III الذاتية الدفع والمزوّدة بمدفع رشاش قصير، منشور ظاهرياً، الزحف إلى الفسحة المقطوعة الأشجار، إضافة إلى ناقلة مصفحة Sd.Kfz. 250/1 التي كانت تحافظ على مواصلة النيران من رشاش متوضع خلف الدرع المصفح على سقف المقصورة. كانت فصيلتان من رماة البنادق ورماة الرشاشات القصيرة تلحقان بهذه العربات مباشرة. ضبطت بطاريتنا المضادة للدبابات منظارها على العربة الذاتية الدافع. وكان التعامل مع الناقلة المصفحة المجنزرة يعود إلى قوات المشاة.

تبعاً لخطة قائد الكتيبة درومين، في حال زحف ألماني على مواقع الكتيبة الأولى، يتعين على جنود فصيلة القناصين الوقوف جنباً إلى جنب رماة الرشاشات من أجل

صد الهجمات المعادية معاً بموجب توجيهات من الضباط. سُمح لي بشغل خندق مموّه مُعدّ سلفاً من أجل توجيه النيران على جانب القوة المتقدمة، وإبطال مفعول دشَم الرشاشات وطواقم الهاون.

في تلك اللحظة، كان مريض رامي الرشاش يتحرك نحوي بسرعة تقارب ٢٥ كلم بالساعة. كانت المدرعة Sd.Kfz. 250/1، المنخفضة الهيكل، وغير الكبيرة جداً بالحجم، وذات اللون "البيج"، تدور على جنزيرها الأيسر، وتوجّه رشقة من الرصاص المستمر على المنطقة الواقعة أمام خنادق الكتيبة الأولى. ثمة صليب بالأبيض والأسود، ورقم العربية ٣٢٣، الذي يمثّل العربية رقم ٣، الفصيلة ٢، السرية ٣، مرئياً على جانبها بشكل واضح. أخذت المسافة تقصر. كانت العربية تقترب من معلّم مألوف، أي الجذع الطويل لشجرة دردار يافعة تعرّض للكسر من الأسفل. نظرت عبر التلسكوب PE على بندقيتي الثلاثية الخطوط.

كان لدي دقيقة من أجل حلّ مشكلة علم المقدوفات.

أولاً: كان لدى الناقلة المدرعة جوانب عالية جداً، وفي النتيجة، كانت رؤوس رماة الرشاشات العاملين على MG. 34 بجرأة كبيرة أعلى من مستوى الأرض بمترين. كان لدى خندقي، المحفور بالأرض بإحكام، ساتر ارتفاعه عشرون سنتيمتراً تقريباً، حيث كانت تستقر البندقية. وكانت الزاوية بين خط التسديد وأفق السلاح ٣٥ درجة، ما يُدعى "زاوية الهدف"، التي كانت إيجابية في تلك اللحظة. وعليه، وجب ضبط المنظار على منسوب منخفض.

ثانياً: كانت الناقلة المدرعة تتحرّك. هذا الأمر يقتضي رماية المنحنى، أي يجب على سبطانة السلاح أن تتبع الهدف وتبقى أمامه بسرعة مماثلة. كان حساب الانحناء على مسافة مئتي متر سهلاً، أي الرصاصة المُطلقة من بندقية ثلاثية الخطوط ستبلغها في ٠,٢٥ ثانية. في هذا التوقيت، تكون المركبة قد تحركت أربعة أمتار. وباستخدام مفهوم المليمترات في حساباتي، أدّرت أسطوانة انحراف المقدوف بفعل الريح الموجودة على ماسورة المنظار المعدنية وحدات شتّى، ثم ضغطت على الزناد بسبابتي يهدوء. كالعادة، ارتدّ أخمص البندقية إلى كتفي، وظهر وميض خاطف من الفوهة.

في هذه الحالة، توقّفت نيران الرشاش من سطح Sd.Kfz. 250/1. وسقط الجنود إلى

قاع الناقلة المدرعة، إذ لم تنقذهم خوذهم. لقد تطاير الرصاص الروسي من الأسفل وأصابهم في فتحات عيونهم. كان الضابط المتمرن المسؤول عن طاقم الناقلة بغباء شديد. نظراً إلى ذهوله صعد من المقصورة إلى جسم المركبة من أجل التحقق من سبب سكوت الرشاش. مع ذلك، كان الأعداء يرمون من الأمام فقط، حيث كانت المركبة محمية بصفائح مدرعة بسماكة ١,٥ سم. لم يتسنّ له التفكير في احتمال وجود قنّاص، إذ أصابته رصاصتي في الصّدغ.

لكن، بطبيعة الحال، هذا ما كان يفترضه من كانوا يراقبون الاعتداء من مقر قيادة كتيبة الاستطلاع الألمانية. ففي غضون دقيقة حرفياً، كانت صليات من قذائف هاون GrW من عيار ٨ سم تنزل على أجمة الأشجار التي كنت متمركزة فيها. كان لديّ ملجأ احتياطي متاخم ومجهز تجهيزاً جيداً وأعمق. بلغته بتدحرجي ثلاث مرات على جانبي تقريباً. على أيّ حال، لم تكن قذيفة هاون، بل قذيفة ثقيلة، التي شقّت الهواء وقذفت بكتل التراب والأغصان وجذاذات الأشجار والأوراق الساقطة عالياً على نحو مفاجئ. شعرت كأن مخلب وحش هائل حارق قد نخزني في الكتف، واخترق ألم مُبرح لوح كتفي الأيمن، ثمّ اسودّ كل شيء.

استعدت وعيي، إذ أيقظني البرد. لقد تحوّل معطفي وسترتي المموهة إلى مِرَق على كتفي الأيمن وظهري. كانت خوذتي بقشاتها المقطوع ملقاة جانبي. وأخمص البندقية مكسور، والسبطانة مُقوّسة، والمنظر مفقود كلياً. أمّا الأسوأ، فتمثّل في سقوط قمة شجرة أكاسيا، شطرتها القذيفة، عليّ، فسمرّني بالأرض، الأمر الذي جعل وقوفي مستحيلاً. كان الألم متمركزاً بين عمودي الفقري ولوح كتفي الأيمن. لكن لم أستطع بلوغ الجرح وتضميده بنفسي. شعرت أنني أنزف، إذ كان ظهر قميصي الداخلي مضرجاً بالدماء.

كان الظلام يُخيّم، والجو هادئاً في الغابة، وصوت نيران مدفع رشاش يتردد صداها في مكان ما. لكن القتال انتهى في هذا المكان، على الأرجح. كيف انتهى؟ وأين أصحابي في الفوج الآن؟ وما هي المسافة التي تمكّن الألمان من الوصول إليها؟ وهل سيأتون للبحث عني؟

ذابت الكلمات في دماغي، المُثقل بالآلام والنزيف الحاد والبرد الشديد الآن، إلى

مقاطع صوتية فقدت معناها وتلاشت... واستبدلت به رؤى كانت غامضة وضبابية في البداية. تَبِعَتْ برؤى أخرى لها معالمها وأشكالها وأوجهها. أما الآن، فكنت أستعد للموت وأتخيل وجوب رؤية من فقدتهم خلال الحرب جميعاً. على أي حال، كانت والدتي، يلينا تروموفنا، المعروفة في عائلتنا بـ"لنوسيا Lenusya" بصورة مُحِبَّة، تخاطبني، يا صديقتي ومرشدتي، تعيش الآن في أدمورتيا البعيدة. كما ظهر وجه والدي القاسي. لم يتردد صدى عبارته "آل بلوف لا ينسحبون حقاً" بوصفها بصمة بحد ذاتها في دماغي. ثم جاءني ابني رستسلاف، وعزيزي مورجيك الحبيب الذي كبر خلال نصف العام الذي افترقنا فيه عن بعضنا، وبات مراقباً ثقيل الحركة بدلاً من طفل الآن. كان يمد يداً إليّ قائلاً: "أمّاه!" كانت اليد دافئة، إذ شعرت بلمستها، وعانيت الأمرين في فتح عينيّ.

تبدّت أغصان الأشجار الجرداء الكسحاء بفعل الهجمات بالمدفعية سوداء مقابل السماء الشتوية الرمادية. كان الشعاع الأخير من الشمس الغاربة يلمع عبر وشائجها الحزينة ويسقط على درع فايكنغ بَرّاق. وتلاّأت النقاط الساطعة على خوذته المزوّدة بواقية شمس مرفوعة. لكن كان هذا الأمر التجلّي الأخير لوعي ضبابي. في واقع الأمر، كان الملازم المتمرن، ألكسي كتسنكو، المرتدي معطفاً وخوذته المائلة إلى الخلف بشكل طفيف ورشاشه على كتفه، منكباً عليّ.

كان يقول أمراً وتلقّفت كلماته: "لا تموتي، يا لوسي!... أتوسل إليك، يا لوسي! أرجوك، يا لوسي!"

لا أستطيع تخيل كيفية تمكّن قائد السرية الثانية من العثور عليّ حقاً. ظهر بعض الجنود خلفه. كانوا يحرقونني من جذاذات الأكاسيا. حملني ألكسي بين ذراعيه، ونقلني من الدّغل إلى الخنادق. في ذلك المكان، مرّقت مسعفتنا الطبية، يلينا بالي، معطفي وسترتي العسكرية وضمّدت الجرح بإحكام من أجل وقف النزيف. طلب كتسنكو من قائد الفوج سيارته. ففي غضون عشرين دقيقة، نُقلت من سفح وادي Kamyshly إلى Inkerman، حيث كانت كتيبة الفرقة الطبية ٤٧ تتمركز في الأنفاق، إضافة إلى المستشفيات الميدانية ٣١٦، و٧٦، و٣٥٦.

انتهى المطاف بقراءة ثلاثة آلاف جندي وضابط من الجيش الساحلي في ذلك

المكان خلال الأيام الثلاثة من الاعتداء الثاني. لكن صُمِّم هذا المركز الطبي الهائل تحت الأرض للتصدي لمثل هذه العدد. ثمة غرفتا عمليات مجهزتين تجهيزاً فائقاً، وغرف تضميد، وأجنحة عزل، وعيادات متنوعة (العلاج الفيزيائي، وطب الأسنان، وإلى ما هنالك)، وأجنحة لعلاج المرضى.

سرعان ما فُرز الجرحى لدى استقبالهم. وانتهى المطاف بي في غرفة عمليات، حيث كانت تُجرى العمليات على أربع طاولات في آن معاً بالنسبة إلى المصابين في المعدة والصدر. أما أنا، فكنت محظوظة، إذ انتزعت الشظية من ظهري، واحتاج جرحي ثلاث قطب على يد جراح كتيبة فرقنا الطبية، فلاديمير فيودوروفتش بِشل-غايك Vladimir Fyodorovich Pishel-Gayek، الطبيب الممتاز والرجل الرائع. كان ينوي إرسالني إلى أرض غير مُحتملة لأن حالتي العامة خطيرة للغاية بسبب تعرّضي لنزيف حاد. وفي وقت متأخر من مساء التاسع عشر من كانون الأول/ديسمبر، كانت سفينة النقل "تشيخوف" على وشك مغادرة رصيف كامنايا في الخليج الجنوبي، وعلى متنها ما يفوق أربعمئة جندي وضابط إصاباتهم خطيرة وأجريت لهم جراحة.

لو حدث هذا الأمر، ما تسوّى لي لقاء ألكسي كسنكو مجدداً على الإطلاق، ولكانت حياتي في زمن الحرب اتخذت منحى مختلفاً تماماً. لكن قائد السرية الثانية انتظر إلى نهاية العملية الجراحية، ورافقني إلى الجناح، ثم تحدّث مع الجراح. طلب منه ألا يخلي الرقيب أول بافلتشنكو من سيفاستوبول، واعداء إياه أن جنود السرية الثانية وكتيبة الفوج الرابع والخمسين الأولى للرماة بكاملها ستبرّع لي بالدم، وليس لي فحسب. للوهلة الأولى، كان الملازم المتمرن يفترض سحب الجراح دمه الشخصي ذاته.

لم يكن العرض المتعلق بجنود السرية والكتيبة معقولاً، إذ لا أحد سيُرسل جنوداً من الخط الأمامي إلى مؤخرة القوات في الوقت الذي كان فيه النازيون يتقدمون. مع ذلك، كان ألكسي كسنكو، على ما يبدو، يتحلّى بموهبة الإقناع، وصدّقه بِشل-غايك. لا أعرف الكلمات المميزة التي جاد بها ألكسي في حديثه مع الطبيب. ربّما فعلا ذلك بدافع الحب. أدرك الطبيب هذا الأمر، وغيّر رأيه. فبقيت أسبوعين ونصف في المستشفى، عادني فيها الملازم المتمرن مرّات عدّة.

كانت لقاءاتنا الموحدة ودية جداً. كان قائد السرية يأتي مُحملاً بهدايا متنوعة، أي قالب شوكلاتة بلجيكية غنيمة عثر عليه في جعبة ضابط ألماني ميت، أو زجاجة عطر "موسكو الحمراء" صغيرة (كانت بعض المحلات لا تزال مفتوحة أثناء الحصار)، ونصف دزينة مناديل من القماش القطني المطرز الأطراف (هدية من نساء سيفاستوبول الرائعات). وتحدث عن الحياة على الجبهة بالنسبة إلى كتيبة شتبان ريزن الرابعة والخمسين للرماة بأسلوب مُفصّل وساحر.

مثلاً اخترقت في العشرين من كانون الأول/ ديسمبر مجموعة كبيرة من رماة الرشاشات القصيرة المعادية بتغطية من الدبابات مؤخرة القوات السوفياتية على الحد الفاصل بين الفوج الرابع والخمسين وفوجي Perekop الثاني والثالث من مشاة البحرية، لكنهم أيدوا بمساعدة من اللواء السابع لمشاة البحرية الذي وصل في الوقت المناسب. لم يسترح الألمان. وفي ليلة الثاني والعشرين كانون الأول/ ديسمبر، اخترقت كتيبة من الألمان مجدداً الحد الفاصل بين رجال الريزن وفوج مشاة البحرية الثالث. تم احتواء الخرق بمساعدة قوات احتياط الفرقة التي أرسلها اللواء كولوميتس. تلك كانت سرية بحارة من فوج Perekop يرتدون قبعات (رغم أن درجة الحرارة كانت دون الصفر). فضلاً عن ذلك، أحضروا معهم فرشاة، لكنهم تركوها في الخنادق، وانطلقوا للهجوم. أطلق الألمان دفعة جنونية من النيران، لكن تابع البحارة تقدمهم، وهزموا الألمان في النهاية.

ترك قرابة ثلاثمئة نازي ميتين في الميدان، إضافة إلى أسلحتهم، أي أحد عشر رشاشاً متوسطاً، وسبعة رشاشات خفيفة، ومدفعي هاون، وثلاثمئة بندقية. كما شارك رجال الريزن في هذا العمل المجيد، وشنوا هجمات بالحرايب. ولموازرتهم، أرسل قائد الجيش الساحلي ثلاث دبابات صغيرة أيضاً. مع ذلك، لم تكن مجدية، إذ علقت في الغابة بين الأشجار الساقطة، ووجب قطرها خارج الغابة لاحقاً.

روى جنود وضباط ملاك كتيبة فوج المدفعية ٢٦٥ قصصاً باهرة عن أنفسهم في الثاني والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر. رغم غياب تغطيتهم من المشاة، كانوا يرمون من مدافعهم الرشاشة والهاوتزر من مسافة ثلاثمئة إلى أربعمئة متر مباشرة على تجمع النازيين المنقذين عليهم مباشرة، ويدحرون العدو.

جدد النازيون زحفهم على مواقع الفوج الرابع والخمسين في الرابع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر؛ بات الوضع صعباً جداً، لكنّ جنودنا صمدوا. في الوقت نفسه، صدر أمر من قيادة أركان الجيش من أجل جمع الأسلحة المتروكة في ميدان المعركة، أي أسلحتنا وأسلحة العدو في آن. وفي مساء التاسع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر، هاجمت كتيبتان من الألمان مواقعنا شمال شرق قرية Mekenzia بغتة. دُحر هذا الاعتداء أيضاً بموازنة من مدفعية الفوج.

لم تتحقق خطط قائد جيش فرماخت الحادي عشر، اللواء إريك فون مانشتاين، الذي كان يريد أن يحتفل بعام ١٩٤٢ الجديد في سيفاستوبول. للأسف، لم أتمكن من الإسهام في أعمال حماة المدينة، ودفن دزينة أو اثنتين من أبطال "الحضارة الأوروبية" في تراب القرم إلى الأبد.

كنت عاجزة عن سرد أي شيء مشوّق لألكسي كتسنكو. كان مُطلعاً على رمايتي الدقيقة على الناقلة المصفحة والاعتداء بالمدفعية التي أعقبها، وإلا ما جاء باحثاً عني في الغابة. إذ لم تكد الرؤى الغريبة لقناص مصاب إصابة خطيرة تعنيه شيئاً. لم أعترف له بتخيّلتي التي لا يزال تطابقها مع الواقع يبهمني إلى يومنا. لا يزال صدى كلماته: "لا تموتي، يا لوسي" في أذني. رغم أنني لست إنسانة عاطفية، اغرورقت عيناى بالدموع. تبدّى كأن كل شيء كان يحدث من تلقاء نفسه. بعد إخراجي من المستشفى، أعادني ألكسي إلى خطوط الكتيبة الأولى، وإلى منخب القائد مباشرة. لقد زينه، أي وضع على طاولة مُركبة من ألواح خشبية ملساء جديدة ومُغطاة بمفرش مائدة من القماش ظرف قذيفة من عيار ٤٥ ملم تحتوي على باقة شتوية من نبات العرعر وأغصان القيقب الخضراء ذات الأوراق الصفراء والحمراء المحفوظة بشكل عجائبي. كانت تتوهج مثل أشعتي مصباح في مقر أشبه بقبو منار بضوء خافت للمبة تعمل بالبطارية. وثمة سرفيس عشاء، أي صحون معدنية مزوّدة بشرائح رقيقة من الخبز الأسود واللحم المقدد، وعلبة يخنة مفتوحة، وبطاطا مسلوقة في قصعة، وزجاجة فودكا صغيرة.

قال بجديّة للغاية: "إن اليوم يوم مميّز، يا لوسي". متكئاً نحو المزهريّة كطف ورقة أشبه براحة اليد، وناولني إياها قائلاً: "تذكّر صغير لك، يا حبيّ الوحيد. أمّا الآن، فأقدّم إليك يدي وقلبي".

أجبتّه بالموافقة. لا أنكر أن الأحداث كانت تتكشف بسرعة كبيرة، لكن لم يكن ثمة داع للتأمل مطولاً في زمن الحرب. كنا اليوم أحياء، لكن غداً... لم يكن أحد يعرف ماذا سيحدث. كان لدي طلب فاجأ كتسنكو في البداية. قلت له إن زوجي الأول كان يُدعى ألكسي أيضاً.

لم أكن أتمنى تذكّر هذا الرجل. كنت أطلق على الملازم المتمرن شيئاً مختلفاً، أي "ليونيا Lyonya". فضحك، وعانقني، وأعطى إذنه، قائلاً: "ناديني ما شئت، يا عزيزتي!"

في الواقع، أرسلنا طلباً إلى رؤسائنا لصياغة العلاقات بموجب الطرق المرعية الإجراء. كما وقع الطلب قائد الكتيبة، الملازم درومين، وقائد الفوج، الرائد متوسيفتش. لقيت الوثيقة قبول وموافقة الفوج من أجل تنفيذها في قيادة أركان فرقة شبائيف الخامسة والعشرين. لَمَح أصحابي في الفوج إلى حفل الزفاف، لكن من باب الدعابة، لا الجدّية. لقد دحر شعب سيفاستوبول هجوماً ثانياً، لكنهم تكبدوا خسائر فادحة، أي ٢٣,٠٠٠ بين قتيل وجريح أو مفقود. لم يبقَ في بعض السرايا من فوجنا سوى ستين أو سبعين جندياً فقط. مثلاً كان الأمر قاسياً بالنسبة إلى اللواء البحري الثامن الذي كان يقاتل بالقرب منّا في القطاع الدفاعي الرابع في محيط تل Aziz-Oba وقرية Aranchi. كان عديد اللواء في بداية الاعتداء الثاني قرابة ٣٥٠٠ رجل، لكن لم يبقَ سوى ما يفوق خمسمئة بحلول الحادي والثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر. كان الأجدر السهر بجوار جثث الموتى بدلاً من إقامة وليمة زفاف سعيد.

كان زوجي، ألكسي أركاديفيتش كتسنكو، أكبر مني بسبع سنوات. مثل حياتي العائلية، لم تكن حياته العائلية ناجحة. لقد تزوج مبكراً بامرأة نزولاً عند إلحاح والدته المتسلطة التي اختارتها له. ثم أعقب ذلك طلاق فاضح وكتبه تفصيلات شنيعة متنوعة. مع ذلك، بقيت شخصيته، اللطيفة والريقة بالفطرة، صامدة في سنّ السادسة والثلاثين، ولم يستطع أي شيء أن يحدّ الملازم المتمرن عن طريقه المخترار. بوصفه ضابطاً، كان يتمتّع بسلطة مطلقة مع مرؤوسيه. أمّا بوصفه زوجاً، فكان يخاف عليّ دوماً ويحميني من صروف متنوعة قدر الإمكان على الخط الأمامي. شعرت للمرة الأولى بمعنى الحب، الحب التعويضي اللاعج، معه. وكنت سعيدة تماماً أثناء تلك الأيام.

مما لا شك فيه، لم يكن المخبأ المكوّن من جدران ترابية وسقف منخفض مصنوع من ثلاث طبقات من جذوع الخشب يشابه عش الأسرية المريح، لكننا عشنا فيه بسعادة قدر المستطاع، ومهما كانت أسباب الراحة التي كان في مقدور ضابط خط أمامي وزوجته أن يوقراها. كنت قادرة من هذا المكان على الانطلاق إلى الغابة بحثاً عن الأعداء والعودة في أي وقت من النهار أو الليل وأنا واثقة من وجود إناء من الماء الساخن على الموقد، وكوب من الشاي الحلو، وقيص داخلي جديد، وسرير مرتفع مزوّد ببطانيّة قطنيّة ناعمة بانتظاري دوماً، ومن حمل حاجب قائد السرية الثانية الغداء أو العشاء في المطعم وإحضاره إلينا.

كان لشهر العسل تأثير إيجابي كبير في رمايتي. كانت الرصاصات تنطلق بصورة جيّدة، أي على طول مسار المقذوف المُحدّد فقط، لتعثر على هدفها من تلقاء نفسها. كان يتبدّى لي أحياناً أن الغابة الساحرة وافقت على زواجي، إذ كانت تساعدني على دفع الألمان الوثائقين بأنفسهم إمّا إلى الفسحات الثلجية المقطوعة الأشجار (للقوف على زرع الألغام)، وإمّا إلى الطرقات (لتوصيل كابلات الهاتف المقطوعة)، وإمّا إلى أعلى الأشجار (ليكونوا مُحَدِّدين لمواقع نيران المدفعية). سحبني الحب مجدداً من الغابات المتجمدة بفعل رياح كانون الثاني/يناير. على الأغلب، كان العدو يواكب عبوري المنطقة المنزوعة السلاح بـ”حفلة الموسيقى الكلاسيكية الألمانية“ المعتادة التي كانت قذائف الهاون تعزف ألحانها. كنت أطلب المؤازرة من رماة رشاشاتنا عبر مناداتهم، أو رفع معول خبراء ألغام صغير فوق الشجيرات. كانوا يبادرون بتبادل لإطلاق النيران، وعليه أخرج من الغابة على قيد الحياة.

اتخذ جنود فصيلة القناصين موقفاً سليماً من نجاحي الشخصي، أي جاهدوا كي يحذو حذوي، ومن أجل تبني مهارات تمويه متنوعة على نحو أسرع، ولتحسين إجادتهم سلاحهم. أخذ فيودور سِدِك على عاتقه جزءاً مهماً من التدريب الأولي للجنود الملتحقين بنا من سرايا المجندين القادمة من نوفوروسيسك. لقد رُقّي إلى رتبة رقيب تقديراً لإقدامه وتميّزه أثناء الاعتداء الثاني. وساعده أنستاز فارتوف لأنه بحث في بندقية القنص مطولاً، وكان يستخدم مهاراته في الصيد ضد الغازي بصورة خلاقية. أمّا عن المبتدئين الذين كانوا يُظهرون موهبة في القنص، فكنت أصطحبهم

معي إلى الغابة أحياناً بوصفهم مراقبين لدروس في الحياة العملية. إن استيعاب النقاط الأدق أكثر سهولة إذا كنت تعمل جنباً إلى جنب مُتقن عمله.

كنت على علم بما كان الجنود يقولونه عني. أولاً: كانوا يعدّونني مسحورة إلى حدّ ما، كأن ساحرة ما في القرية القريبة من أوديسا أنقذتها من الرومانيين قدرقتني بتعويذة تقيني من الموت. ثانياً: كانوا يدّعون أنّه ليس في مقدور أحدهم العثور عليّ في الغابة لأن سيّد الغابة بنفسه، عفريت الخشب، الذي لم يكن يخشى شيئاً يتابعني. فيحميني من الأعداء بجسده الهائل مثل شجرة، وبجذوع يديه المعقّدة، حارفاً الرصاص والشظايا الموجهة نحوي ليلتقاها بنفسه. أمّا الأسطورة الثالثة (في رأيي، كانت صنعة الخفير المخضرم كلّها)، فكانت تتعلق بقدراتي. كما يقول الزعم، اكتسبت من حدة سمع عفريت الخشب القدرة على معرفة ما كان يحدث على بُعد كيلومتر من حولي، والرؤية ليلاً كما في النهار، والتنقّل على طول دروب الغابة بصمت مطبق، والتخفّي في أماكن عصية عليهم جميعاً. وعليه، كان ”الوشق“ لقبّي الغريب ضمن الفوج.

النزال

منذ أول بضعة أيام في كانون الثاني/يناير ١٩٤٢، خيم هدوء نسبي على الجبهة. استمر تبادل إطلاق قذائف المدفعية بين القوات السوفياتية، والقوات الألمانية النازية. كان في الخدمة أيضاً هنا، على سبيل المثال، مدفعية بعيدة المدى من عيار ٣٠٥ ملم تتبع لكثائب المدفعية الساحلية ٣٠ و ٣٥ ومدافع هاوتزر من عيار ١٥٢ ملم، ومدافع هاون من عيار ١٢٢ ملم تتبع لفوج المدفعية ١٣٤ و ٢٦٥ المتمركز في قطاع دفاعنا الثالث، والمدفعية البحرية المحمولة على الطرادات والمدمرات التي زودت سيفاستوبول بالتعزيزات، والذخائر، والمؤن والمعدات. كانت قواتنا الجوية تنشط أثناء الظروف الجوية الجيدة. فقد كانوا يقصفون مؤخرة العدو، وينفذون طلعات استطلاعية من شأنها القيام بعمليات رصد لنيران المدفعية الساحلية، كما قاموا على حماية القاعدة البحرية الرئيسية من غارات النازيين الجوية حتى أنهم رموا مناشير فوق خنادق الألمان والرومانين.

كانت قوات المشاة تجري عمليات الاستطلاع عن طريق الاشتباك في مختلف القطاعات لدراسة الخطوط الأمامية للعدو، وقوته النارية ومراكز الدعم والمقاومة. لم تكن هذه الاشتباكات طويلة أو عنيفة تحديداً، لكنها أعطت فكرة عن الأحداث وماهيتها خلف خطوط الألمان.

كان هناك بعض القصص الحزينة أيضاً. ففي الخميس الواقع في الثامن من كانون

الثاني/يناير ١٩٤١، انطلق رئيس أركان القوات البحرية، اللواء إن. آي. كري洛夫 N. I. Krylov، بسيارة باتجاه القطاع الثالث لتفقد مواقع تمرکز المفارز القتالية. وكان يرافقه الضابط المساعد لقائد الجيش الملازم أول كوخاروف Kokharov، لزيارة مركز قيادة قوات اللواء ٧٩، وكانوا يقودون السيارة على الطريق الترابي نحو موقعنا في الفرقة ٢٥. فجأة أوقف الجنرال السيارة. أراد أن يلقي نظرة من نقطة مرتفعة قليلاً على تنوء صخري بديع المنظر في وادي Kamyshly، الذي كان مسرحاً لمعركة شرسة في نهاية كانون الأول/ديسمبر. بعد ذلك بدقيقة واحدة، انفجرت قذيفة هاون خلفه، ثم أخرى إلى جانبه، تلتها أخرى أمامه. قُتل كوخاروف فوراً وأصيب كري洛夫 بثلاثة جروح ناجمة عن شظايا لغم أرضي. تم نقله مباشرة إلى المستشفى، حيث أجريت له عمليات عدة. ولحسن الحظ، نجا الجنرال وعاد إلى أداء واجبه.

أهم ما في الأمر أن الوادي، الذي تدفق عبره جدول مائي متعرج غطته سيقان القصب وأخفت بساتين التفاح أجزاء منه، قد صار الآن منطقة منزوعة السلاح. شكل المنحدران، الشمالي السهل الانحدار والجنوبي الحراجي الشديد الانحدار، أخدوداً عميقاً. في بعض الأماكن، وصل ارتفاع القمة في المنحدر الجنوبي إلى أكثر من ثلاثمئة متر فوق مستوى سطح البحر. كان الشبايفيون يسيطرون على هذه القمة، وكان الفوج ٥٤ التابع لقواتنا على مسافة كيلومترين شمال قرية Mekenzia، وعلى مسافة ١,٥ كلم إلى الشمال، تمرکز فوج Perekop من مشاة البحرية وخلفه فوج الرماة ٢٨٧ (على ارتفاع ١٩٨,٤ تقريباً). وعلى السفح الشمالي، تمرکزت وحدات من فرقة مشاة Brandenburg 50 الألمانية. كان في مقدورهم إبطار أسفل الوادي والسفح الجنوبي ومواقعنا على القمة بوابل من قذائف الهاون ونيران الرشاشات الآلية من مسافات قريبة. وبصورة طبيعية، رددنا على الهجوم. تلقى الألمان بعض "الهدايا" الدسمة من جانبنا رداً على الهجوم المروع على رئيس أركان قواتنا البحرية.

ضمن هذا المشهد الجبلي الرائع الذي أثار اهتمام الجنرال إلى حد كبير، ثمة جسر يدعى جسر Kamyshly، يربط حافتي الوادي المرتفعتين. بني هذا الجسر خلال فترة القيصرية الغابرة، عندما تم مد سكة حديدية من موسكو حتى سيفاستوبول، ومنذ ذلك الوقت بدأت قطارات الركاب والبضائع استخدامه. أثناء الحصار على المدينة، لم يكن

أي من الروس أو الألمان بحاجة إلى استخدامه، فُتسِف. تكدس فوق أكوام الخرسانة الرمادية كميات كبيرة من الهيكل المعدني المتشابك، أو المحطم أو المسحوق. انهيار الجزء الرئيسي لهذا الجسر الطويل نسبياً، ونجا من الدمار مسافتان أو ثلاث فقط على كل جانب. حولت الحرب هذا الصرح الهندسي الفذ إلى أثر بعد عين لكنه بقي شاهداً على قوة الحرب العنيفة التي لا ترحم.

من وقت إلى آخر، كنت أنظر إليه من خلال المنظار. كان جلياً أن الجسر المدمر يشكل موقعاً مؤثراً من المنظور العسكري، فهو يسيطر نارياً على المنطقة برمتها. يؤمن الجانب الأول، وسأدعوه الجهة الشمالية، مشهداً ممتازاً للخط الأول ومواقع المؤخرة لقواتنا على امتداد يتراوح بين ثمانمئة إلى تسعمئة متر. أما من الجهة الجنوبية، فتمكن رؤية المواقع الألمانية. من الممكن أيضاً إيجاد بقعة مناسبة لمخابأ قناص ضمن حطام الجسر الحديدي فوق الوادي. فكرت في ذلك. منعتي تعلقي بغابة القرم من اتخاذ قرار متسرع. صرت الآن معتادة الأشجار، كما تنبغي دراسة كومة المعدن المتشابكة وتقييم أهميتها. فضلاً عن ذلك كان الجسر يقع ضمن نطاق المسؤولية الخاصة المنوطة باللواء ٧٩، نحو أربعة كيلومترات إلى الشمال الغربي، إلى الغرب من فوجنا.

ما يشير الاهتمام في هذه الحالة أن المحترفين يفكرون وبقِيَمون الظروف بالطريقة نفسها تقريباً.

في صباح اليوم نفسه، كنت وسِدِّك منهمكين في سريتنا بالتعامل مع بنادق SVT-40 التي تم تزويدنا بها (تم إيصال ثلاثة آلاف منها إلى سيفاستوبول مع نهاية كانون الأول/ديسمبر من العام الماضي، وقد خصص لنا ثمانية منها، مع العدد نفسه من مناظير PU مع مناصبها). ليس خفياً على أحد أن لبندقية Tokarev الذاتية الإلحاق بنية معقدة جداً. حتى أن تفكيكها جزئياً يتطلب مهارة جيدة وإتقاناً وانتباهاً، وأستطيع القول الحذر أيضاً.

نظمنا فعالية أقوم فيها بتعريف الجنود إلى أجزاء السلاح، بينما يوضح الرقيب سِدِّك عملية تفكيكه ببطء. بأسلوب بديهي، بدأنا نزع المخزن الذي يتسع لعشر طلقات. الخطوة الثانية هي إزالة غطاء علبة المغلاق. فكّ فيودور المزلاج، ثم وضع البندقية

على الطاولة كي تكون آلية التصويب باتجاه الأعلى. بعد ذلك، دفع الغطاء بيده اليسرى إلى أقصى مدى ممكن، ضاغطاً بإبهام يده اليمنى على عمود موجه نابض الإرجاع لتحرير العمود من مسنن التثبيت الموجود على غطاء المغلاق. مستخدماً كلتا يديه في الضغط على جزئي نابض الإرجاع في الوقت نفسه، تمكن فيودور من فصل النابض عن العمود دون الحاجة إلى لمس الغطاء، ثم رفع النهاية الأمامية للغطاء إلى الأعلى وفصلها عن الكتلة الحاضنة. ازداد عدد الأجزاء الكبيرة، والصغيرة والدقيقة جداً، التي تم تفكيكها على الطاولة بالتدريج، ومعها ازداد تملل الجنود. لم يكن الجنود يعلمون بعد أن تفكيك بندقية من نوع SVT-40 يحتاج إلى ١٤ حركة في الحد الأدنى، إذ تتمثل الخطوة الأخيرة في نزع إبرة القادح عن كتلة المغلاق. انتابني شعور أنها لن تكون عملية سهلة.

لم أشأ مقاطعتي، لكن أحد ضباط الخدمة ظهر في المخبأ وأوصل رسالة من الرائد متوسيفتش مفادها أن على قائد الفصيلة الحضور مباشرة إلى موقع قيادة الفوج. بالإضافة إلى الرائد، هناك أيضاً ضابط آخر، رجل متوسط الطول، ذو بنية صلبة، عمره ٣٨ عاماً تقريباً، يرتدي زي البحارة الرسمي الأسود ويوجد على أكماله أربعة شرائط ذهبية اللون. قدمني متوسيفتش إليه: "الريب أول لودميلا ميخايلوفنا بافلتشنكو، قائدة فصيلة في السرية الثانية من الكتيبة الأولى"، وقدمه إلي: "الكولونيل ألكسي ستبانوفيتش بوتابوف Alexei Stepanovich Potapov، قائد لواء رماة البحرية ٧٩". نظر الكولونيل إليّ بتمعن.

- يقولون إنك أفضل قناص في صفوف فرقة شباييف، يا لودميلا. شاهدت صورتك على لوحة شرف الفرقة.

- لقد تم وضعها منذ مدة قصيرة فقط، أيها الرفيق الكولونيل.
- لدي مهمة مهمة لك. يبدو أن قناصاً ألمانياً من النوع الرفيع قد ظهر على قطاع دفاعاتنا. قتل خمسة من رجالنا خلال اليومين الأخيرين. اثنان منهم ضباط، وأحدهما قائد الكتيبة الثانية. جميعهم قتلوا بطلقة في الرأس.

- وهل اكتشفتم مخبأه؟

- نعتقد أنه يطلق النار من بين حطام جسر القطار.

- من الجسر! لم أستطع منع نفسي من التعجب.

”إذا أنت تعرفين هذا المكان؟“ سأل بوتابوف متعجباً.

- لا أستطيع القول إنني أعرفه، أيها الرفيق الكولونيل، لكنني كنت أفكر فيه.

”وما رأيك فيه؟“ أوما بوتابوف إليّ لآتي إلى الطاولة التي توجد عليها خريطة بمقياس رسم كبير تظهر المنطقة المحلية وانتشار القوات العسكرية على قطاع الدفاع الثالث. بقلم رصاص، أشار الكولونيل إلى وادي Kamyshly وإلى خط أسود رفيع يقطع أضيق جزء منه من جهة الشمال الغربي.

”إنه موقع ملائم جداً“، قلت له وأضفت، ”خاصة إن استطعت إيجاد مكان على إحدى المسافات السليمة، واختبأت بين الأنقاض المعدنية. من الممكن إصابة هدف من مسافة ستمئة إلى ثمانمئة متر. سيكون الخط الأول وأقرب مناطق من خطوط المؤخرة للفرقة خمسين من مشاة الألمان مكشوفة بكل وضوح. من الجهة الأخرى، سيكون من المحتمل رؤية خطوط النار الخاصة بلوائنا، ولذلك كان يستطيع الإطلاق كيفما شاء“.

- هل تستطيعين وضع حد لهذه الضربات؟

”نعم، قلت بحزم، ”بالطبع إن أذن لي الرائد“.

ابتسم متوسّفتش الذي كان يصغي إلى محادثتنا، وقال مبتهجاً: ”دون أدنى شك. سنفعل أي شيء ترغب فيه مشاة البحرية“.

- إضافة إلى ذلك، سأكون بحاجة إلى راصد. سيكون الرقيب فيودور سيدك،

شريكي الاعتيادي ذا الخبرة العالية، الأفضل لهذه المهمة.

أوما متوسّفتش برأسه قائلاً: ”فهمت ذلك وأنا موافق. سيصدر اليوم أمر من قيادة

الفوج يضع الرقيب أول بافلتشنكو والرقيب سيدك تحت تصرف قائد اللواء ٧٩“.

على العشاء. ناقشت وزوجي آخر أخبار الخدمة كالعادة. بالنسبة إلى ألكسي كتنسكو، إن ظهور القناص الألماني تطور طبيعي لمجرى الأمور. في أحد الاجتماعات التي حضرها أخيراً والتي جمعت قائد الكتيبة مع قادة السرايا، تحدثوا عن الأساليب الجديدة التي ينتهجها النازيون في التكتيك الحربي. في الهجوم الأول، أملوا أن يدمروا دفاعات المدينة دون التوقف لالتقاط الأنفاس. لقد تم صدهم في تشرين الثاني /

نوفمبر ١٩٤١، لكنهم لم يفقدوا الأمل في تحقيق نصر سريع، وبدؤوا تعزيز قواتهم الهجومية وتهيئتهم لحصار جديد. هدا فشل الهجوم المؤلل في كانون الثاني/ يناير من حماسة الغزاة على نحو ملحوظ، ودفعهم إلى دراسة الوضع بجدية. في تقريره إلى الفوهرر، علق قائد القوات الألمانية في شبه الجزيرة، إرك فون مانشتاين، قائلاً: "تبين أن سيفاستوبول قد تحولت إلى قلعة من الطراز الرفيع".

إن كانت قلعة، فلا بد من حصارها بالطريقة الصحيحة. تعتبر حروب المواقع الوقت الأمثل لعمل للقناصين، وعام ١٩٤٢ ظهروا على الجانب الألماني بأعداد كبيرة. كانت الوحدات الروسية قد واجهت صعوبات في مواجهة عملياتهم في قطاعات أخرى. كان بالإمكان إحباط بعضها. كشفت الوثائق التي وجدت في حوزة جنودهم أن القيادة الألمانية قد نقلت قناصين من فرق متمركزة في بولندا وفرنسا إلى جزيرة القرم. وهناك أيضاً مبتدئون ممن أكملوا دورات قصيرة في مؤخرة الجيش الحادي عشر نفسه.

لم نشغل بالنا في التفكير في هوية خصمي. توسل إليّ زوجي بتوخي الحذر واليقظة. كما أثنى على اختياري للراصد. في رأيه، الرقيب سذك مناسب أكثر من الجنود الآخرين كلهم في السرية ليلعب دور المساعد في هذا النزال الذي لن يكون مباشراً، أو سهلاً، أو سريعاً.

اكتشفنا موقعاً محتملاً واحداً لمخبأ القناص، وحتى ذلك لم يكن بدقة. لم يكن لدينا أدنى فكرة حتى ذلك الوقت عن عدد المواقع الأخرى التي جهزها سابقاً.

صباح اليوم اللاحق، أرسل بوتابوف سيارة لتقلنا. محملين بمعدات القناص، مع حقائب التجهيزات على الظهر، وبنادق Mosin على الكتف، ومرتدين معاطفنا، والقبعات مع غطاء الأذنين، استقرنا في المقعد الخلفي لسيارة GAZ-M1، وانطلقنا إلى مواقع لواء رماة البحرية ٧٩. بعيد الهجوم الثاني، تمكن النازيون من الضغط على المدافعين عن المدينة، واحتل مشاة البحرية في ذلك الحين خطوطاً على قمة السفح الجنوبي لوادي Kamyshly، في المرتفع ١٩٥,٢، وأبعد من ذلك، على السفح الشرقي للمرتفع ١٤٥,٤، شمال وشرق المرتفع ١٢٤,٠، ونهر Belbek الأقرب إلى سكة القطار، وقرية Tartar ذات الاسم نفسه. كانت طبيعة الأرض للمنطقة المحلية مألوفة

لنا: البروزات الصخرية، والهضاب، والوديان العميقة الضيقة ذات السفوح الشديدة الانحدار، والمغطاة بالشجيرات الكثيفة والغابات، هنا وهناك، والوديان التي تقع بينها بما فيها من مزارع الكرمة والبساتين والمراكز السكنية الصغيرة. كان قطاع دفاع اللواء ٧٩ هنا يمتد على طول أربعة كيلومترات، وعمق ٢,٥ كلم.

لم يمضِ على وجود الجنود والضباط في هذا التشكيل العسكري زمن طويل في سيفاستوبول. لقد حملتهم من نوفوروسيسك إلى هنا مجموعة من السفن التابعة لأسطول البحر الأسود في ٢١ كانون الأول/ ديسمبر من العام الماضي. وصل اللواء مع أربعة آلاف جندي، بسلاحهم الكامل، وأوكل إليه مباشرة القطاع الأكثر صعوبة على الجبهة: هضاب Mekenzi. توجه مشاة البحرية إلى المعركة مباشرة بعد نزولهم من السفن، وبهجوم جريء في ٢٢ كانون الأول/ ديسمبر، تمكنوا من طرد النازيين من المرتفعين ١٩٢,٠ و ١٠٤,٥ المحتلين، وأسهم ذلك بفعالية في صد الهجوم الألماني الثاني. على أي حال، تكبد اللواء ٧٩ خسائر فادحة؛ في ٣١ كانون الثاني/ يناير، كان العدد المتبقي من قواته الأصلية أقل من الثلث.

في ذلك الوقت، كان اللواء يستقبل التعزيزات ويرمم خط الدفاع الذي دمر أثناء القتال الشرس. رأينا أول خندق عميق ومتواصل على طول الخط الأمامي. كانت كتائب الرماة الثلاث ضمن تشكيل المعركة مزودة بمدافع هاون من عيار ٥٠ ملم و ٨٠ ملم إضافة إلى رشاشات متوسطة وخفيفة. هناك أيضاً خنادق قليلة العمق، ونقاط إطلاق مجهزة جيداً، وتحصينات إسمنتية مسبقة الصنع ودائمة ومعززة ومجهزة بفوهات إطلاق. كما امتدت ممرات الاتصال، التي يصل عمقها إلى مترين، إلى كيلومترات.

كان مركز قيادة لواء رماة البحرية ٧٩ يقع على مسافة بعيدة من خط الدفاع المتقدم، نحو كيلومتر واحد إلى الشرق من حزام الغابة الأول لهضاب Mekenzi، في منزل أبيض صغير على جانب الطريق العام. ذهبنا أولاً إلى هناك وقدمنا أنفسنا إلى الكولونيل بوتابوف ومفوض الفوج سليساريف. بعدئذ، انطلقنا برفقة ضابطين من الكتيبة الثالثة إلى المرتفع ١٢٤,٠ الذي كان الأقرب إلى وادي Kamyshly.

تبين لي من النظرة الأولى أنه سيكون من المستحيل إقامة مخبأ قناص على نهاية

الجسر الشرقية كونها قد تأذت كثيراً نتيجة للتفجير. نجا باع واحد من الجسر، وحتى هذا كان متضرراً. لكن الصورة كانت مختلفة كلياً من جهة العدو، أي على الطرف الشمالي للجسر. هناك نجت ثلاث باعات. كانت حقاً قوية رغم أنها محاطة بعوارض الحديد الملتوية، والقضبان المتشابكة، وعوارض من السكة انتزعت ونتاجت من سريرها، وعربات متفحمة ومتشظية. كان من السهل جداً الاختباء في تلك الكومة من المعدن والأخشاب. لم يكن لدي أدنى شك أن جندياً ألمانياً يطلق النار من هناك.

لكن هل سيعود إلى الموقع نفسه الذي سبق ونجح بالإطلاق منه مرتين؟

انطلقت لرؤية بوتابوف وأحمل معي تقريراً تفصيلياً، واختتمته بهذا السؤال. أصغى الكولونيل إليّ بانتباه. فكر ملياً، ثم سألني: "هل كنت لتختاري ذاك الموقع بنفسك؟"

- ذلك محتمل. إنه موقع جيد جداً، الحلم المطلق لأي قناص.

- إن كان الأمر كذلك، فكيف ستتغلبين على العدو؟

- بالطريقة الروسية القديمة: المكر، والمثابرة، والصبر.

ضمن اللواء ٧٩، هناك سرية هندسة قوامها مئة عنصر تقريباً. ساعدني اختصاصيو الألغام وفيودور في تجهيز المخبأ. أثناء الليل، في أجمة أشجار العرعر والبنقد الواقعة ضمن المنطقة المنزوعة السلاح، حفروا بسرعة وحرفية خندقاً من تصميمي بعمق ثمانين سنتيمتراً وطول عشرة أمتار، قبالة خط الدفاع الأمامي للكتيبة الثالثة. كان هذا الخندق يؤدي إلى خندق آخر كبير وعميق. أنشأنا فوقه إطاراً معدنياً قابلاً للطي وغطيناه بأغصان الأشجار الصغيرة والثلج. مؤهنا الخندق بالطريقة نفسها لكي يبدو كحفرة عادية للناظر من الأعلى. إضافة إلى ذلك صنعنا طعماً هو هيكل إنسان على عصا، ألبسناه معطفاً وخوذة، وثبتنا على ظهره بندقية لكي يظهر أكثر واقعية.

درستُ الجسر المدمر من خلال المنظار على مدى يومين كاملين. ثمة بقعتان مثاليتان فقط لزراع جندي مع بندقيته. راقبت وفيودور كليهما بالتناوب، وبكل اهتمام وتركيز، خلال ساعات الليل قبل أول ضوء. لم يظهر الألماني الخبيث. كنت قد صرت قلقة من أن تكون قواتنا قد أجهزت عليه في مكان ما من الغابة بعد أن توجه إلى هناك بحثاً عن فريسة جديدة. كان جواب سدك يصب في خانة أن النازيين، بحكم أنهم شعب حريص، لن يتمكنوا من تجاهل جسر يمثل هذا الموقع المميز المشرف على

الخطوط الأمامية ووحدات المؤخرة الأقرب إلى لواء مشاة البحرية ٧٩. لا بد أن يظهر القناص. أهم ما في الأمر اكتشافه في الوقت المناسب.

غطت في النوم وأنا جالسة القرفصاء ومتكئة بكتفي على حائط الخندق. كان اللباس الشتوي - لباس داخلي دافئ، وسترة طويلة، وصدارة وسروال مبطنان لهما طيات، ومعطف طويل وقميص فضفاض مموه - كفيلاً بتجنيك التجمد، لكنه لن يقيك دافئاً بما فيه الكفاية. فجأة لمس الرقيب كتفي بإصبعه وأشار إلى الجسر. أخرجت المنظار من علبة المتدلية على صدري ورفعته نحو عيني. كانت هذه الليلة من كانون الأول/ ديسمبر على وشك الانقضاء وكانت المعالم الرئيسية للجسر تصبح مرئية مع بداية الصباح الباكر الضبابي المغبر. لاحت في مواجهة السماء الساطعة صورة داكنة لرجل يشق طريقه عبر العوارض المعدنية المتشابكة، ثم اختفت مباشرة. تبادلنا وفود دور النظرات. أشار بإبهامه إلى الأسفل. أومأت برأسي موافقة من موقعي في نقطة المراقبة أن الطريدة وصلت إلى منطقة القتال. علينا الآن إعطاؤه الفرصة لإلقاء نظرة في المكان، وتثبيت بندقيته، وإقامها وإيجاد بعض نقاط العلام المألوفة في المنطقة حيث نجح سابقاً في التمرکز بشكل مريح. كان من غير المرجح أن يكتشف الألمان مخبأنا. لقد بذلنا جهداً كبيراً في إنشائه، إذ التزمنا قواعد التمويه التي تلقيناها في مدرسة أسوأياكم في كييف كافة.

لقد سبق ونسقنا خطة عملنا اللاحقة قبل نزولنا إلى الخندق. بعد أن تتسلق الخندق صعوداً، سينتهي المطاف بالرقيب قرب خط قواتنا الأمامي، حيث سيأخذ الطعام وينتظر إشارة مني أنني أنهيت التحضيرات اللازمة للتسديد. كانت التحضيرات بسيطة ومألوفة منذ زمن طويل. سوف تكون رمية من الأسفل، مع تصحيح لزاوية موقع الهدف.

مضت نصف ساعة.

كانت بداية الجمعة الواقع في ٢٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٢ هادئة لأبعد الحدود. لم يكن أي من الطرفين ينفذ أي عمليات حربية على خطوط الدفاع البرية لمدينة سيفاستوبول. بقيت مدافع الميدان، ومدافع الهاون والرشاشات الآلية هادئة. لم تطر في السماء أي قاذفة قنابل، أو قاذفة انقضاضية أو طائرة مقاتلة. كأن الحرب قد تلاشت

من المشهد. خلال هذه الدقائق والساعات، التي كانت نادرة في هذه الأيام، كنت لتتخيل أن زمن القتل قد ولى دون رجعة، وأن الحياة الآمنة قد عادت، وأن خدماتنا لن تكون مطلوبة بعد الآن. لسوء الحظ، كان من الخطورة بمكان أن نعتقد بهذا في ذلك الوقت.

بينما كنت أستمع لذلك الصمت غير الاعتيادي، وضعت إصبعين على شفتيّ وصفرت. ردّ سيدك بصفرة قصيرة مماثلة. لم أشح بنظري عن الجسر، إذ أعلم أن فيودور، المختبئ في الخندق، قد جرّ الطعام إلى المنطقة المنزوعة السلاح. من مسافة، بدا الطعام كأن خفيراً روسياً قد غادر خندقه ليستطلع المنطقة الواقعة أمامه. ولكن، هل ستنتظلي على الألماني الحيلة القديمة نفسها التي استخدمت سابقاً أثناء الحرب العالمية الأولى؟

جاء صوت الرصاصة من الجسر مخنوقاً، كأن أحداً ضرب لوحاً خشبياً بقضيب معدني. لمع الوميض تماماً حيث توقعت. لكي أكون صريحة، كنت لأختار حفرة الألماني الصغيرة بنفسى، فمن الجانب الأيسر، كان موقعه محصناً بشكل آمن بعارضة معدنية. وبندقيته مستندة بشكل ملائم على غصن منحني، أما القنّاص، فإن مرتكزاً على كعب قدمه اليمين، وكانت ركبته مستندة على عربة نوم محطمة، ومرفقه الأيسر على ركبته اليسرى. أخيراً تمكنت منك أيها النازي السافل بعد كل هذا الانتظار في هذا الجو البارد المميت! كان باستطاعتي رؤية رأسه من خلال منظار البندقية. سحب الألماني مزلاج بندقيته، ثم التقط غلاف الطلقة الفارغ، ووضع في جيبه ونظر خارج مخبأه. لقد نصحتني أستاذه العظيم بكل حكمة: "لا تتخيل أن رميّتك ستكون الأخيرة، ولا تكن مفراطاً بإظهار فضولك!"

حبست أنفاسي، وضغطت على الزناد بنعومة. سقط الألماني من ارتفاع خمسة أمتار إلى قعر وادي Kamyshly المغطى بسيقان القصب بكثافة، الذي جعلته مياه الجدول أدفاً بقليل. سقطت بندقيته وراءه. أدهشني أنه لم يكن يعمل ببندقية Zf. Kar. 98k، بل بواحدة على نظام بندقية Mosin المزودة بآلية تسديد PE تلسكوبية؛ من المؤكد أنها غنيمة. خلال الأشهر الأولى من الحرب، انتهى المطاف بعدد من أسلحتنا الممتازة والمعدلة جوهرياً بين يدي الغزاة (لم يكن بإمكان جنود "الجيش الأحمر" القوقازيين الحصول عليها).

ممسكاً رشاشه القصير من نوع PPSH-41، بقي فيودور في الخندق ليغطي اندفاعتي نحو الضحية الذي تلقى رصاصة بين عينيه. وبعد أن أمضيت ربع ساعة من الركض والتزحلق، وصلت خلال سيقان القصب وانتهى بي المطاف قرب الجثة. لم أكن أحب النظر إلى وجوه الأعداء الميتين، ناهيك عن تذكر أشكالهم.

كانت الدقائق تمضي. تفحصت جثة الجندي النازي بسرعة، الذي كان يرتدي بذلة عسكرية مموهة فوق سترة عسكرية حرارية. وجدت جواز سفره العسكري، وشارة الرتبة مطرزة بشريط دانتيل فضي، والشريطة الحمراء الخاصة بنيشانه مع الإبريم المجدول بالأبيض والأسود معلقاً في عروة الزر الثاني على بزته العسكرية، بالإضافة إلى شعار الصليب الحديدي الخاص به. قصصت هذه الأشياء بسكيني الفنلندي الحاد كالشفرة. سيكون الكابتن بزرووني مسروراً بذلك، فهو يقدر هكذا تذكارات، إذ قال إنها تتكامل مع تقاريره الاستطلاعية في الميدان على نحو رائع.

بعيداً من ذلك، وبكل صراحة، لا يمكن لامرأة أن تحتفظ بهذه الكمية من الضمادات أو القطن. يحمل هذا الألماني كمية كبيرة منها. هناك علبة كبيرة في جيب معطفه الداخلية اليمينية، وواحدة أصغر حجماً (تحتوي على خمسة أمتار من الضماد) في جيب الصدر الأيمن لسترته. وجدت أيضاً هدية لزوجي الحبيب: زجاجة براندي مسطحة وعلبة سجائر فيها بعض السجائر. لم تكن العبوة المعدنية الأسطوانية المخصصة للكمامة الواقية من الغازات السامة تحوي أي شيء من هذا النوع. عوضاً عن ذلك تحتوي على مخصصات القناص التمويهية الجافة ليوم واحد: أربع علب من البسكويت السادة، وإصبعان مغلفان من الشوكولاتة، وعلبة من السردين مع الزيت مثبت على غطائها مفتاح لفتحها.

عدت إلى خندي حاملة على كتفي البندقية ذات الأخمص الثلاثي الخطوط والمنظار، التي لم يعد النازيون بحاجة إليها بعد الآن. كان فيودور سَدِك ينتظرني متلهفاً. ساعدني في تخطي المتراس والنزول إلى الخندق، وسألني والابتسامة تعلو وجهه: "من ضحيتك هذه المرة أيتها الرفيقة الرقيب أول؟"

أخرجت الأوسمة الأجنبية من جيبي وقلت: "شخصية مهمة. انظر إلى زيه الرسمي".

”حسناً، أهم ما في الأمر أن بَحَارَتْنَا سَيَنَعْمُونَ بِأَوْقَاتٍ أَكْثَرَ هَدْوَاءَ الْآنَ“، أَجَابَ فيودور.

”انظر، السكون يخيم على المكان كلياً. هذا يعني أنه خرج إلى الصيد بمفرده. لقد كان واثقاً بنفسه“. أخرجت كراس الجندي الألماني وقرأت فيه بصوت جهور: ”هلمت بومل، الفوج ١٢١ مشاة، الفرقة ٥٠ من مشاة Brandenburg، Oberfeldwebel. حسناً، فلنغادر هذا المكان قبل أن يأتوا بحثاً عنه“.

حمل سِدِك البندقيتين بدلاً مني، بندقيتي والجائزة، ثم زحفنا بسرعة عبر الخندق نحو الخط الأمامي للكتيبة الثالثة التابعة للواء ٧٩. حيّانا الجنود المتمركزون في المواقع العسكرية المتقدمة، ولوح لنا بيده رامي الرشاش الموكل إليه مهمة تأمين التغطية النارية ”للقناصين الزائرين“ في حال اكتشافهم العدو. كنا لم نكد قد صرنا بين الجدران الترابية المرتفعة لممر الاتصالات عندما بدأت قذائف الهاون تصفر والرشاشات الآلية تجلجل فوق جسر Kamyshly. أدرك الألمان ما حدث وكانوا قد بدؤوا إمطار المنطقة المنزوعة السلاح بوابل من النيران. جاء الرد من جانبنا. لقد بدأ هذا اليوم بهدوء وسلام، لكن الحرب أخذت مسارها في نهاية المطاف.

بينما كان الكولونيل بوتابوف جالساً على كرسيه، أمضى وقتاً طويلاً يتفحص كراس الجندي هلمت بومل، مرفقاً به الترجمة إلى الروسية، و”وسام الصليب الحديدي“. وقفتُ وفيودور أمامه بوضعية الاستعداد.

”أي منكما أجهز على القناص؟“ سأل بوتابوف وهو ينظر إلى الرقيب سِدِك لسبب ما، الذي كان رجلاً قوياً وذا وجه لطيف.

”أنا فعلت، سيدي الرفيق الكولونيل“، أجبت بكل وضوح.

– وكيف تمكنت من فعل ذلك؟

– بالطريقة الاعتيادية، سيدي الرفيق الكولونيل.

”قرأت هنا“، تابع قائد اللواء ٧٩ أسئلته بتأنٍ، ”أن بومل هذا قد انتقل إلى هذه الجبهة مؤخراً، وأنه قد سبق وقاتل في بولندا وبلجيكا وفرنسا وأنه قد خدم أستاذ قص في برلين. له في سجله ٢١٥ قتيلًا بين جندي وضابط. كم لك في سجلك، يا لودميلا ميخايلوفا؟“

- ٢٢٧ .

- إذا، أنتما متقاربان؟

- أجل، سيدي الرفيق الكولونيل.

- لديه وسامان. ولكن ماذا عنك، أيتها الرفيقة الرقيب أول، هل نلت أي جوائز حكومية؟

- كلا، سيدي الرفيق الكولونيل.

خيّم الصمت على الغرفة. كان بوتابوف ينظر إليّ بتمعن، كأنه يراني للمرة الأولى. دوماً حاولت البقاء هادئة خلال هذه النقاشات مع رؤسائي. جعلتني خدمة نصف عام في القوات المسلحة أصل إلى قناعة بأن المحادثات المطولة مع ضباط هيئة القيادة العليا لا نفع يرتجى منها لمصلحة المروّوس. ولهذا، لم أنظر إلى الكولونيل وإنما إلى اللوحة الملونة فوق رأسه، التي تظهر سيدة يافعة قاسية الملامح تضع شالاً أحمر على رأسها، وقد كتب عليها: "اصمت، إن العدو يتنصت عليك!"

"استعدا أيها الرفيқан الرقيبان!" كسر الكولونيل الصمت فجأة، "سوف نغادر إلى مقر هيئة الأركان للقوات الساحلية، مع تقرير عن إنجازاتكما".

كان بوتابوف يحظى باحترام قيادة القوات الساحلية بصورة كبيرة. لقد بدأ خدمته العسكرية ضمن مراتب فرقة رماة القرم الثالثة، وأصبح ضابطاً بعد ذلك، ثم أنهى دورة "الراية الحمراء" Vystrel قائداً لكتيبة رماة وتكتيك عام ١٩٣٩، ودرّس بعدها في الكلية العسكرية للدفاع الساحلي التابعة لـ "رابطة الشبيبة الشيوعية" الأوكرانية. أظهرت الحرب في أرض الآباء والأجداد العظيمة موهبته قائداً عسكرياً. اكتسب اللواء ٧٩ الموكل إليه قيادته المجد الأبدي خلال معاركه دفاعاً عن سيفاستوبول، وصار جنوده وضباطه أمثلة للبطولة الجماعية. اشتهر بوتابوف أنه قائد حازم لكن عادل. قام الكولونيل على نحو دوري بتزكية مروّوسيه لنيل الجوائز، معتقداً أن أولئك الذين صدّوا الجيش الحادي عشر، الذي كان له أفضلية اثنان لواحد على المدافعين عن المدينة على جبهة سيفاستوبول، جديرون بالميداليات والأوسمة والترقيات التفضيلية.

- هذا صحيح، سيدي اللواء.

- بكلمة أخرى، تعرفين كل خدعهم مسبقاً؟

- لا شيء معقد فيها، سيدي إيفان يفموفتش.

- أحسنت صنعاً! أنا فخور بإنجازك وأهنتك عليه. يبدو أنني مدين لك باعتذار، يا لودميلا. ولكن لا تهتمي، سأصحح الوضع قريباً.

صافح القائد أيضاً الرقيب سِدك وأثنى على الشجاعة التي أظهرها أثناء النزال مع القناص الألماني. كما عبّر عن أمله ألا يقف جنود فوج رماة ريزن ٥٤ عند هذه الإنجازات، وأن يستمروا بتصفية أعداء وطننا الاشتراكي حتى تحقيق النصر الكامل. وأضاف قائد الجيش أنه يجب نشر هذه التجربة الإيجابية لجميع وحدات قطاع الدفاع عن سيفاستوبول، وسوف يجري تصويرنا، أنا وفيودور، من أجل توزيع منشورات عن المعركة، تتضمن وصفاً تفصيلياً عن مجريات الصدام بين الجنود السوفيات والقاتل النازي قرب جسر Kamyshly.

في ذلك الوقت، لم نعط أي أهمية خاصة لتلك الكلمات. كنا تواقين إلى العودة إلى فوجنا، بعد قضاء يومين من المراقبة في خندق بارد، للاستلقاء في ملجأ مدفأ بمدفئة فخارية، وشرب الشاي الساخن مع السكر (كان لدينا بعض الشوكولاتة أيضاً)، مع قطعة كبيرة من خبز الجودار المخبوز في أنفاق سيفاستوبول. سمح القادة الكبار لنا بالانصراف، وكانوا لطيفين كفاية لنقلنا بالسيارة إلى مقر القيادة للكتيبة الأولى في فوجنا. من هناك، توجهت والرقيب سِدك عبر ممر في الغابة، ممسكين أحزمة بندقيتنا المصنوعة من القنب، والمتدليتين فوق كتفينا.

على أي حال، في صباح اليوم اللاحق، قوطعت وجبة الإفطار مع زوجي بظهور معلم سياسي كبير غير مألوف. قدم نفسه أنه نيكولاي كروشكن Nikolai Kurochkin، محرر صحيفة الجيش الساحلي *For the Motherland* [من أجل الوطن] الواسعة الانتشار، وقال إنه ينبغي لي إخباره كيف حاربت الغزاة الألمان. عملاً بتوجيهات اللواء بتروف، طلب إليه كتابة مقالة ممتعة عنها في العدد المقبل. وكلما أخبرته أكثر، كانت المقالة أفضل. إضافة إلى ذلك سيصل مصور ليلتقط لي بعض الصور لنشرها مع المقالة. بالفعل، وطأ شاب مرح (لم أعد أذكر اسمه) يحمل كاميرا من نوع Leica عتبة مسكننا الواقع على الخط الأمامي للجبهة وصرح مباشرة بأنني ملائمة جداً للتصوير. انتابنتي رغبة جامحة في طرد هذين الشابين الوقحين فوراً. لم لا تدعوان "آني

الرشاش "من السرية الأولى لإجراء مقابلة وأخذ الصور؛ ينبغي للقناص ألا يلفت الانتباه إلى نفسه أو نفسها. الشرط الأساسي للعمل بنجاح يتمثل في البقاء متخفياً، في حين أنه توزع آلاف النسخ من *For the Motherland*، وليس لدي أدنى فكرة بيد من ستقع إحداها. فضلاً عن ذلك، وتبعاً لأوامر "الهيئة الشعبية للدفاع في الاتحاد السوفياتي"، إن المعلومات عن مبادئ تعليم القنص، وأنواع البنادق القناصة، والمناظير، وتقنيات التخفي والأساليب المتبعة ضد العدو ليست موضوعات للنشر العام. هذه المعلومات تعني المختصين حصراً. كان من الممكن أن أخبر الصحفيين بذلك مباشرة، لكن ضيقاً جديداً وصلوا إلى مخبئنا: المفوض العسكري مالتسيف من الفوج ٥٤، المفوض نوفيكوف Novikov من الكتيبة الأولى. لم نحظْ وليونيا بمثل هذا الشرف من قبل، وصار من الواضح لي أن رميتي الناجحة في وادي Kamyshly كان لها بعض النتائج المميزة. سيتكشف مع الوقت هل هذا جيد أم سيئ.

صباح ٢٤ كانون الثاني/يناير ١٩٤٢، وفي حضرة مفوضين عسكريين اثنين، أجبنا باختصار عن أسئلة كروشكن، ثم أخذت وضعية للتصوير، مع بندقيتي SVT-40 الشهيرة، وجهاً لوجه مع المصور، ثم بوضعية جانبية، ثم بوضعية الوقوف، وأيضاً بوضعية الاستلقاء عند أقرب دغل ممسكة ببندقيتي Sveta قرب كتفي، بأسلوب رامي الرشاش، أي وازعة يدي اليسرى على الأخمص.

تواصلت مقابلاتي مع وكلاء الصحف. زارني مراسلون من صحيفة المدينة *Mayak* *Kommuny* [منارة البلدية]، وصحيفة أسطول البحر الأسود *Krasny Chernomorets* [بحار البحر الأسود]، وصحيفة اللجنة الإقليمية لحزب القرم *Krasny Krym* [القرم الأحمر]. قضى المصور السينمائي الحربي فلاديسلاف ميكوشا Vladislav Mikosha نصف يوم بين خطوط سريتنا الثانية، يصوّر موضوعات متنوعة. أثار هذا المصور بالتحديد حيرتي لأنه، كما جاء على لسانه، كان يبحث عن "الزاوية الصحيحة"، وأجبرني في نهاية المطاف أن أتسلق أعلى شجرة مع بندقيتي SVT-40 وأتظاهر أنني أصوب على العدو من هناك. لم يُجدِ إخباره أنني لم أطلق النار من فوق الأشجار في سيفاستوبول أي نفع، أو أن ذلك قد يعطي فكرة غير صحيحة للمشاهدين. أصر المصور الشاب على رأيه بعناد. ولكي أتخلص منه، كان عليّ أن أتسلق مع بندقيتي

شجرة تفاح معمرة، كانت تنمو قرب مخبأ "النادي" على مسافة خمسين متراً من خط الدفاع المتقدم.

صارت "أخوية المخريشين" محيرة أكثر فأكثر. لقد بالغ المراسلون كثيراً عندما وصل الأمر إلى تصوير هلمت بومل أنه سمين كذكر ضفدع، ولا حياة في عينيه، وشعره أصفر، وحنكه ثقيل. بالطبع، لم أخبرهم أي شيء من هذا القبيل، لأنني لا أتذكر مظهر الذين أطلقت النار عليهم. بالنسبة إليّ هم غير موجودين، فهم مجرد أهداف. تحدث بعض زملائي في الفوج عن الغزاة ببرودة. ولكن، بالنسبة إليّ، حتى ذلك أراه قوياً جداً، ومناسباً أكثر للمنشورات الورقية الدعائية التي تسقطها الطائرات. لا يفكر القناصون في ذلك. فهم يصلون إلى موقع الإطلاق بقلوب مطمئنة، وبقناعة راسخة وعميقة بأنهم على حق. وإلا سيخاطرون بألا يصيبوا الهدف، وسيقعون ضحية لعدو لئيم وغازب في النزال.

لم يدقق الكتاب كثيراً في أعداد القتلى الذين أرواهم القناص الألماني، لدرجة أنهم نسبوا إليه ثلاثمائة وأربعمئة وحتى خمسمئة، رغم أن هذه الأرقام غير واقعية على الإطلاق في بداية ١٩٤٢. لم يخطر على بال المراسلين أن وتيرة الحرب التي تشنها ألمانيا على الدول أوروبا قد تسارعت كثيراً دون قتال مواقع، وأن الفرصة لا تسنح للقناص كي يزيد رصيده من القتلى على نحو مؤثر إلا أثناء قتال المواقع فقط. كان القتال يدور في الاتحاد السوفياتي منذ نصف عام فقط، وفي المجمل كان الألمان يتقدمون. لعبت الدبابات والطائرات دوراً كبيراً هنا. لم يكن الألمان بحاجة إلى القناصين خصوصاً. أما نحن، فكنا منشغلين بأشياء أكثر أهمية من بنادق القناصين. يتطلب الأمر فرض مدد طويلة من الحصار على المدن ليتمكن القناصون من العمل بفعالية حقاً، وهذا ما حدث في أوديسا وسيفاستوبول ولينينغراد ولاحقاً في ستالينغراد. أدهشني أن النزال على جسر سكة القطار المدمر لم يسترع انتباه المراسلين لسبب ما. ربما كان علينا أن نصطحبهم إلى وادي Kamyshly، ونريهم الطبيعة غير العادية التي يتصف بها هذا المكان، وأن نشرح لهم أن هلمت بومل كان حكيماً لاختياره هذا الموقع، لكنه بالنظر إلى الثقة التقليدية التي يتصف بها الألمان لم يتوقع رداً سريعاً. لكن لم يتعيّن علينا إضاعة الوقت على أصحاب البزات الرسمية المقتنعين بأنهم على

صواب؟ سيكتبون ما يطيب لهم على كل الأحوال. هذه إحدى أقاصيصهم مثلاً:

هكذا، يقبعون مستلقين طوال الليل والنهار دون أن يرف لهم رمش. عند الصباح، مع بزوغ الضوء، رأت ليودا، وهي مختبئة خلف جذر شجرة زائف، قنصاً يتقدم بقفزات لا تكاد تمكن ملاحظتها. اقترب منها أكثر وأكثر. تقدمت لملاقاته، مصوبة بندقيتها إلى الأمام وهي تنظر بعينها من خلال المنظار. مجرد ثانية واحدة اكتسبت أبعاداً جديدة، لا نهائية تقريباً. فجأة، رصدت ليودا من خلال منظارها عينيه الخاويتين من الحياة، وشعره الأصفر وحنكه الثقيل. كان قنص العدو ينظر إليها؛ التقت عيناها. كان وجهه المتوتر مشوّهاً بالعبوس. لقد أدرك أنها امرأة! اتخذ قرار الحياة أو الموت في ثانية واحدة... قامت بصلي الديك. بثانية رحيمة، سبقته ليودا إليها. انتظرت الفرصة. كان رماة الرشاشات الألمان هادئين. عندئذ فقط بدأت الزحف نحو القنص. كان قد تسمّر في مكانه مصوباً نحوها. أخرجت ليودا كراس القنص النازي وقرأت: "Dunkirk". بالقرب يوجد رقم، وأرقام أخرى. ما يزيد عن أربعمئة إنكليزي وفرنسي لاقوا حتفهم على يديه.^١

في نهاية المطاف، وبعد التفكير، استنتجت أن هؤلاء الصحفيين الذين يكتبون هذه التفاهات بعد التحدث إليهم في جميع الأحوال يروجون لقضية القنص في قطاع الدفاع عن سيفاستوبول. لقد تم توصيف المبادئ الأساسية لعمليات القنص أثناء المعارك على نحو صحيح: التخفي بذكاء، الانتظار بصبر حتى يرتكب الخصم خطأ ما، واستغلال الفرصة مباشرة في الإطلاق على الهدف بدقة. لم يكن هناك أي معلومات حول التعامل مع سلاح خاص أو التلصكوب، أو أي كلمة عن حساب مسار الرصاصة في ظروف جغرافية أو مناخية مختلفة، أو حول القوانين الثابتة لعلم حركة المقذوفات وغيرها من المعارف العسكرية العميقة التي خولت إنساناً عادياً أن يصير

١ أُعيد نسخ هذا المقتبس من صحيفة *For the Motherland* [من أجل الوطن] في مجموعة بعنوان *Kievan Combat Stars* [نجوم القتال الكيفيين]، كييف، ١٩٧٧، في مقطع معنون بـ "Chapayev Sniper" [قنص شباييف]، ص. ٣٦٣.

قنصاً. يمكن لأي شخص مهتم بهذا الفن أن يتعلم التفاصيل بحضور إحدى دورات تدريب القناصين التي تستمر أسبوعين أو ثلاثة، والتي كان قد تم إعدادها مسبقاً لجنود المشاة في إحدى مقرات قيادة الفرقة.

إن الابتكار الصحافي مكون واحد فقط من مكونات الدعاية الإعلامية. يحتاج الشعب إلى بطل حي لجعل الأشياء أكثر إقناعاً. وعلى ما يبدو، تم اختياري للعب هذا الدور من الإدارة السياسية للجيش الساحلي بقيادة مفوض الفوج إل. بي بوخاروف L.P. Bocharov على أقل تقدير، هذا ما بدا لي عندما وصل أمر من قيادة أركان الفوج إلى مخبئنا المأهول مني وألكسي، وكان فحواه: بتاريخ ٢ شباط/فبراير ١٩٤٢، يغادر قائد الفصيلة، الرقيب أول بافلتشنكو إل. إم، من الخط الأمامي إلى المدينة ليشارك في مؤتمر للنساء الناشطات في الدفاع عن سيفاستوبول، الذي سينعقد في دار المعلمات. كان عليّ أن أدلي بخطاب في المؤتمر، مدته خمس عشرة دقيقة، أتحدث فيه عن عمليات القناصين.

انتابني الحيرة حين قرأت الأمر العسكري. لقد أسهمت مخابئنا في الغابة في شحذ بصري وسمعي، لكنها عودتني أن أبقى هادئة، وأن أراقب الصمت. لم يكن أيضاً التعامل مع المرؤوسين في الفصيلة يتطلب مهارات خطابية. وأنا الآن أمام خطاب مدته خمس عشرة دقيقة. كم كلمة يمكن أن يكون هذا؟ وأمام جمع غفير، في قاعة يملؤها الضجيج، تحت الأضواء الساطعة!

عمل زوجي العزيز جاهداً من أجل تهدئتي وإلهامي. قال "ليونيا" إن الوقت قد حان لكي أزور المؤخرة، ومدينة سيفاستوبول الرائعة، وألا أقلق وأن أظهر نفسي وألقي نظرة على الناس الآخرين. عادة ما ترفع مثل هذه الكلمات معنويات الجنود المتمركزين على خط المقدمة جيداً وبفعالية، وبالأخص أن هناك ثلاثة أيام متبقية قبل أن يحين وقت الخطاب، وهذه المدة كافية لإعداد دزينة من الخطابات.

"لكن ما رأيك في زي المراسم؟"، سأل "ليونيا".

"هراء! سأتصل بالرقيب أول حالاً. بإمكانه البحث في مستودعات الفوج"، أجاب قائد السرية الثانية.

لم أحلم حتى بارتداء الزي المعتبر مناسباً للنساء في الخدمة: قماش كاكي مع ياقة

مقلوبة إلى الأسفل، وحزام وجيوب مشقوقة طويلاً. أفضل ما استطاع الرقيب أول إحضاره كان تنورة، وسترة رسمية جديدة ذات عرى أرجوانية، وزوجاً من الأحذية جديداً نسبياً وقد صرف عليه نصف علبة من طلاء الأحذية الأسود. كنت قد احتفظت بزواج من الجوارب النسائية اللحمية اللون في كيس العدة الخاص بي، كنز مما قبل الحرب لا يقدر بثمن، وقد تبين في النهاية أنها مفيدة.

صباح ٢ شباط/فبراير، سافرت بسيارة قائد الفوج إلى المدينة، مع الرقيب أول نينا أنلوا، رامية رشاش في السرية الأولى. فوجئت نينا لرؤيتي داخل السيارة. كانت تعتبر نفسها بطلة معترفاً بها، لكن لم يكن لديها أدنى فكرة عن الأعمال البطولية التي أرسلت إلى هذا المؤتمر بسببها. على أي حال، وبما أنها كانت امرأة مستقيمة وحسنة الطباع، لم تمضِ عشر دقائق حتى كانت تتحدث إليّ بطريقة مرحة. لم تكن هذه مشاركتها الأولى في مثل هذه الفعاليات، ولذلك تحدثت عنها بكل حيوية خلال الطريق: كيفية الحفاظ على الوقفة الصحيحة على المنبر، وكيفية تلاوة الخطاب، وكيفية الإجابة عن أسئلة المشاركين في المؤتمر إذا اقتضى الأمر. لم تكن نينا لتتركني أركز. كان الأمر شبيهاً بأغنية الحرب الأهلية "مبدآن اثنان": ترت ترت ترت، يزغرد الرشاش... لم أرَ نفسي خبيرة في الخطابة، ولذلك كتبت النقاط الأساسية لخطابي عملاً بنصيحة زوجي. سيكون من الجيد أن أتجنب خلط الأفكار، وأن تحدث بطريقة مقنعة، وأن نقدم مهنتنا، التي لا تكاد معروفة للمدنيين، على النحو الأمثل.

تجمع عدد لا بأس به من أجل المؤتمر. حضرت النساء من مختلف مواقع العمل والمدارس والمستشفيات. من بين جميع الأثواب والبلوزات الملونة، بدت السترات العسكرية الرسمية التي ترتديها النساء في الخدمة - من عاملات مقاسم، وممرضات، وطبيبات من الكئاب الطبية والمستشفيات الميدانية - خصوصاً مجردة من أي زينة. بوجود "وسام الراية الحمراء" على صدرها، كانت نينا تتمتع بقدر كبير من الشعبية. حيّاهم كثيرون، وسألوها عن الأحوال على الخط الأمامي، وانخرطوا في محادثات سريعة ومشوقة. لم يكن أحد يعرفني، وبكل تواضع، أخذت مقعداً قرب النافذة لأراجع ملاحظاتي مرة أخرى.

قدم خطاب اللواء بتروف، قائد الجيش الساحلي، عرضاً شاملاً لأهم الأحداث

على الجبهة. قابلته النساء بتصفيق مطول. كانوا حقاً مولعين بإيفان يفموفتش في سيفاستوبول لإسهامه الكبير في الدفاع عن القاعدة البحرية الرئيسية. تلى هذا الخطاب خطابات أخرى بعضها حيوي وغني بالمعلومات، وبعضها خلاف ذلك. تحدثت النساء عن عملهن وأفكارهن ومشاعرهن تجاه مدينتهن. بالنسبة إليّ، بدا كل شيء ممتعاً. لم أتصور أبداً كيف لأحد أن يدرس الأطفال في مدرسة تقع ضمن ملجأ، أو أن يقف لاثنتي عشرة ساعة أمام مخرطة يدمغ القنابل اليدوية، أو أن يقضي يومه في ورشة خياطة لتصنيع جعب الكتان للجيش ثم ينطلق بعد ذلك في المساء إلى مستشفى تحت الأرض للعناية بجرحى الجيش.

أخذت نساء سيفاستوبول مكان الرجال الذين غادروا مصانعهم إلى جبهات القتال، وكن يتكيفن مع العمل بمجمل تفاصيله. كيف لي أن أنسى أنستازيا تشاوس Anastasia Chaus، امرأة بعمرى، كانت تعمل على الحصاد الصناعية الخاصة رقم ٩١؟ لقد جُرحت في إحدى الغارات وفقدت ذراعها اليسرى، لكنها بقيت في المدينة، وتابعت العمل، وأتقنت مهارة دمع القنابل، وببد واحدة ضاعفت حصتها من العمل.

لم تكن الحياة سهلة في سيفاستوبول. هناك بطاقات تموين لتوزيع الخبز: ثمانمئة غرام للحرفيين والعاملين في معامل الدفاع، وستمئة غرام للموظفين في الدولة والمتقاعدين، وثلاثمئة للمعالين. قدم صيادو الأسماك الكثير لمساعدة سكان المدينة. كانوا يبحرون تحت نيران المدافع، ويشقون طريقهم عبر حقول الألغام، ويصطادون آلاف الكيلوغرامات من السمك ويوصلونها إلى المطاعم والمتاجر، وبالأخص سمك الأنشوبا وموسى.

تحدث المؤتمرون أيضاً عن الصعوبات، ولكن على نحو عرضي إلى حد ما. بدا الأمر كأنهم قد تركوا خارج أسوار دار المعلمين. لم تجتمع هذه النساء من مختلف الأعمار والمحترفات من أجل هكذا نقاش، كان لديهن أشياء أخرى يخبرون بها بعضهن بعضاً. ربما كان إيمانهن الراسخ بالنصر على النازيين، أو قوة المعنويات، أو أملهن في تغيير سريع يطرأ على وضع مدينتهن الحبيبة. في بعض الأحيان، بدا الأمر تقريباً كأنه: "أنا، وحدة صغيرة في مؤخرة القوات، أفعل كل ما أعرف فعله، وما زلت

أرغب في فعل المزيد. بعد أن تخلّيت عن أربعة أبناء في الصراع مع العدو، سأضحى بنفسى وسأذهب إلى أي قطاع...“ (ألكساندرا سيرغيفنا فيدورينتسك Alexandra Sergeyevna Fedorinchik، معلمة في المدرسة ١٤).

بعد مثل هذا الخطاب المتقدم، سوف يبدو الحديث الجاف عن عدد الجنود النازيين الذين تمت تصفيتهم عبثاً بكل بساطة. وضعت الصفحة التي دونت عليها رؤوس الأقلام مسبقاً جانباً وبدأت قول ما أملاه عليّ قلبي، وما أثر فيّ حتى أعماق روحي.

على مرتفع "بلا اسم"

يميل طقس الشتاء في سيفاستوبول إلى التقلب. منذ يومين، كانت الغيوم المنخفضة تغطي سماء سيفاستوبول، وكانت الثلوج تتساقط، والغابة تطلق، ودرجة الحرارة ١٥ مئوية تحت الصفر. اليوم، بدا كل شيء مختلفاً: ذابت الثلوج، وسطعت الشمس، وارتفعت حرارة الهواء فوق الصفر. كان باستطاعتك رؤية العشب على سفوح مرتفعات القرم مرة أخرى، بني مصفر وذابل، بينما أضفت أجسام العرعر، وشجيرات السرو المشرببة والصنوبر المنخفضة لوناً أخضر براقاً على هذه الخلفية. من خلال المنظار، شاهدت المشهد البانورامي لوادي Balaklava من موقع قرب مريض رشاش آلي ليس بعيداً من قرية Verkhny Chorgun^١. من بعيد، كان بالإمكان رؤية الشريط الرمادي لطريق سيفاستوبول-يالطا الدولي، ومن مسافة أقرب إليّ، كان يظهر نهر Chornaya الضيق، شاقاً طريقه عبر الهضاب، وحقول الكرمة المنسقة على شكل خطوط متوازية، ومنحدرات هضبة Gasfort البديعة المغطاة بأشجار البلوط، بالإضافة إلى الجدار الأبيض المحيط بالمقبرة الإيطالية التي دمرتها القذائف، وسقف كنيسها الذي أعاد إلى ذاكرتي بجدرانه المستقيمة والمنخفضة لعبة مكعبات الأطفال. أثناء الاعتداء الثاني، امتد الخط الأمامي لقطاع الدفاع الثاني إلى هذه المنطقة، بخنادقه، وتجهيزات الرماية المحصنة بالتراب، ومنشآت إطلاق الهاون والخنادق

١ قرية Verkhneye-Chernorechenskoye الآن، منطقة بالاكلافا Balaklava في سيفاستوبول.

العميقة. قاوم أفراد وضباط اللواء السابع من مشاة البحرية وفوجي الرماة ٣١ و ٥١ هجمات العدو ببسالة. تبدلت السيطرة على الهضبة والمرتفعات مرات عدة على طول الخط. لكن في النهاية، تمكن الألمان من دحر قواتنا خارج المنطقة، وقاموا بالتمركز فيها.

احتلت مجموعة من القناصين الألمان المرتفع المعروف على الخريطة "بلا اسم". من مسافة خمسمئة متر، بدأوا استهداف الطريق الترابي الذي يربط قرية Kamara بقرية Shuli، والذي يمتد أيضاً على طول قطاع الدفاع الثاني، ويلعب دوراً مهماً في إمداد قواتنا بالمؤن والأسلحة والذخيرة.

آخر أفعال الصفاقة التي ارتكبوها تجلت بقتل أكثر من نصف أفراد طاقم الرشاش المضاد للدروع من عيار ٤٥ ملم، أو إلحاق جروح بليغة بهم، إضافة إلى ٢٤ حصاناً كانت مسخرة لجبر هذا العتاد على الطرقات. بأت جميع محاولتنا في سحق العدو عن طريق استهدافه بنيران المدفعية والهاون بالفشل. سيغير القناصون مواقعهم على المرتفع، ثم يقومون بالرمي مجدداً.

لم يكن قدومي إلى هذا المكان، البعيد من فرقتي الأساسية شبايف، مصادفة. بعد تنفيذنا بعثات ناجحة ضمن المنطقة المنزوعة السلاح ومنطقة مؤخرة العدو، ارتأى قائد الجيش الساحلي أنه مع وجود مجموعة شجاعة ومدربة جيداً من القناصين في الكتبية الأولى من الفوج ٥٤، يمكننا الاستفادة منهم ليس في قطاع الدفاع الثالث فحسب، وإنما في مناطق أخرى على جبهة سيفاستوبول. بدأنا "جولات" على طول خط الدفاع الأول بكامله، متولين مهمات من نوع خاص تتسم بالتعقيد. وفي ظل هذه الظروف، أوكل إلينا تنفيذ عملية على المرتفع "بلا اسم" في منطقة هضبة Gasfort والمقبرة الإيطالية.

قبل الانطلاق، كان هناك اجتماع في مقر هيئة أركان الجيش بيني وبين أمر القطاع الثاني في الفوج، الكولونيل نيكولاي فيليبوفيتش سكوتلنك Nikolai Filippovich Skutelnik، قائد فرقة الرماة ٣٨٦، الذي يقع هذا القطاع ضمن نطاق مسؤوليته، ورئيس هيئة أركان الفرقة، المقدم دوبروف Dobrov. ذهبت بعد ذلك إلى قرية Verkhny Chorgun لاستطلاع المنطقة ووضع خطة عمليات مناسبة بخصوص

مجموعة القناصين لكي نستولي على المرتفع ونصفي النازيين.

تقع هضبة Gasfort (المسماة على شرف الكولونيل في. جي. غاسفورت V. G. Gasfort، بطل حصار سيفاستوبول الأول وقائد فوج مشاة Kazan الذي حارب هنا بين ١٩٥٤ و ١٩٥٥ ضد التحالف الأنغلوفرنسي-الإيطالي-التركي) على مسافة ١٥ كلم على طول الطريق الرئيسي بين سيفاستوبول وبالطا، ولم تكن بحد ذاتها مرتفعة، ٢١٧,٢ متر فوق سطح البحر فقط. لكنها كانت محاطة بمرتفعات أخرى أقل ارتفاعاً وتفصل بينها تجاويف تتناوب مع حقول سهلية. كانت المقبرة الإيطالية تشغل جزءاً من هضبة Gasfort. دفنت بقايا جثث الجنود الإيطاليين هناك عام ١٨٨٢ بإذن من الحكومة الروسية: أكثر من ألفي جندي وضابط من فيلق سردينيا الذين قضاوا في المعركة أو ماتوا نتيجة وباء الكوليرا.

رفعت طبيعة الأرض القاسية والمدمرة لهذه المنطقة الآمال لهجوم ناجح. على أي حال، يتطلب التمرين عملاً استطلاعياً ودراسة عميقة لقوات العدو ونظامه الدفاعي. ذكرت ذلك للكولونيل سكوثلنك. وافق على ما قلت ووعد أن الوحدات المقاتلة في القطاع الثاني ستقدم المساعدة اللازمة إلى القناصين.

عدت أدراجي إلى مواقع انتشار السرية الثانية، وجمعت قادة الجماعات في فصيلتي داخل مخبئي وألكسي. كان علينا التفكير في شيء ما. لا يمكن تسلق مرتفع "بلا اسم" في وضوح النهار. سنكون أسفل، وسيكونون أعلى؛ سوف يرصدوننا بسهولة ويقومون بصيدنا كالأرانب. رغم جولات المراقبة التي نفذها جنود الفرقة 38٦، لم تكتشف مخابئ القناصين. من المحتمل أن الجنود الألمان قد بنوا العشرات من المخابئ المموهة لقناصيهم هناك.

في ذلك الوقت، كان قائد الجماعة الأولى، كما في السابق، الرقيب فيودور سيدك، أما المجموعة الثانية، فكان قائدها الرقيب المتمرن فلاديمير فولشكوف Vladimir Volchkov، الذي نقل من السرية الثالثة إلى الكتيبة، بناء على أوامر الملازم درومين Dromin، وهو رامي بندقية كان قد قدم أنموذجاً رائعاً في تصفية الكتيبة الألمانية التي اخترقت خط المؤخرة لقواتنا أثناء الهجوم الثاني في ٢٢ كانون الأول/ديسمبر، لكي أكون دقيقة. كانت المجموعة الثالثة موجودة اسمياً فقط في تلك الأثناء، إذ كانت تضم

خمسة رجال، من ضمنهم العريف أنستاز فارتنوف، وكنا ننتظر وصول جنود المؤازرة من نوفوروسيسك. أعطيت الفرصة بالكلام أولاً للمغوار المعمر لكونه الأدنى مرتبة عسكرياً. عبّر أنستاز عن أسفه لأن وادي Balaklava لم يكن مألوفاً له كما كان النطاق الثاني في هضاب Mekenzi، وإلا لكان قادنا هناك عبر طرق الصيادين.

على الطاولة أمامنا خريطة ذات مقياس كبير لقطاع الدفاع الثاني، صرفتها لي قيادة أركان الفرقة ٣٦٨، وكنت قد حملت عليها علامات إضافية بعد زيارتي قرية Verkhny Chorgun. حاولت جاهدة أثناء إعطاء التوجيهات أن أستكمل المعلومات المتوافرة عن مرتفع "بلا اسم". لكن الكثير منها بقي مجهولاً، المسافات خصوصاً، لأنني لم أستطع الاقتراب من هدف الهجوم المقترح، فالمنطقة المواجهة له عرضة للنار.

أمضينا وقتاً طويلاً إلى حد ما نتفحص تلك الخريطة. لم أعد أذكر تماماً أي من الرقباء لفت انتباهي إلى حقيقة أن السفح الغربي، المغطى بكثافة بشجيرات العرعر، وورود النسرين البرية، وزهور البيلسان والغارلاند، لم يكن مستويّاً. ولهذا بإمكاننا الاقتراب من قاعدة المرتفع، مستغلين الشجيرات للتمويه، وبعد ذلك، نقطع بضع سعفات من هذه الشجيرات ونحملها إلى الأعلى، ثم "نزرعها" هناك قبل أن نخبئ خلف كتل الصخور الكلسية الناتئة فوق الأرض في نقاط عدة. ولكن ما الذي سيفعله الألمان عندما يكتشفون الشجيرات الجديدة التي نمت على سهل أجرد بين ليلة وضحاها؟ من المؤكد أنهم سيفتحون النار عليها، وعندها سنعرف كم هو عددهم ومن أي اتجاه يطلقون نيرانهم.

"لكن لماذا يتوجب علينا قطع الشجيرات على الهضبة؟"، سأل فيودور، "لم لا نقوم بذلك مسبقاً، ثم نقلها إلى الأعلى. سيكون هذا أكثر أماناً، كما أنها ستبدو طبيعية أكثر."

أوكلت مهمة تجهيز الشجيرات إلى فارتنوف. كان على معرفة جيدة بنباتات غابة القرم، وبسرعة جهّز ستة أفخاخ على شكل شجيرات، مصنعة من أغصان العرعر بطول يصل حتى أربعين سنتيمتراً، مع أوراق أبرية خضراء داكنة، وتوت بري دائري أزرق مائل إلى الرمادي. توجب تثبيت بعض هذه الزينة عن طريق حزمها بالأسلاك. ولكن عامة بدت مقنعة إلى حد كبير، وكانت مثبتة بإحكام إلى أوتاد مدببة الرؤوس لتتمكن

من "زرعها" على السفح.

كانت المجموعة تتألف من سبعة جنود بالإضافة إليّ. وبصفتي قائدة للسرية، تحقق الكسي كتسنيكو من كل فرد منهم. لقد أراد أن يرانا نعود منتصرين، إن أمكن، عوضاً عن رؤيتنا نقتل في معركة غير متكافئة. علّمتنا التجارب التي اكتسبناها أثناء الغارات السابقة أن نتوخى الحذر، وأن نساعد بعضنا بعضاً في المعركة وأن ننفذ الأوامر بحرفيتها. انسجمت الأحكام التي كوّنتها عن صفات المقاتلين في معظم الأحيان مع وجهة نظر الملازم المتمرن. ولهذا السبب، اخترنا مباشرة وبالإجماع فيودور سدك (الأمر الذي أسعده جداً)، وفلاديمير فولشكوف (لم أكن أعرفه جيداً، لكن الكسي أكد لي موثوقية الرقيب المتمرن الثامنة)، وأنستاز فارتنوف (لم نشكك أبداً في بسالته، لكن قوته ولياقته البدنية كانتا موضعاً للشك، إذ إن المسؤول الأمني كان قد اجتاز الخمسين من مدة قصيرة). خدم بقية المشاركين في الغارة في كتيبة القناصة ثلاثة أشهر تقريباً (وهي مدة لا بأس بها إذا أخذنا بالاعتبار شدة القتال وحجم الخسائر على جبهة سيفاستوبول)، كما أنهم كانوا راصدين جيدين.

لا بد من أفراد كلمة خاصة للحديث عن معدات المجموعة. رفضنا عرض المعاطف والقبعات التي تغطي الأذنين مقابل تزويدنا بالسترات المبطنة والسراويل، والخوذ، والقبعات العسكرية. اتشحنا فوقها بسترات مموهة بألوان الخريف، لها أغطية رأس خردلية اللون تزينها أنماط بنية داكنة، وسراويل من النوع نفسه، ذات نهايات واسعة، قمنا بثنيتها ودسها داخل الأحذية العسكرية. هنا أربع جيوب جلدية للذخيرة على أحزمتنا، إضافة إلى ثلاث قنابل يدوية، ومسدس من نوع TT في قراب جلدي، وحرية فنلندية في غمد معدني، ورفش هندسة صغير داخل حمالة مخصصة له، ومطر ماء ضمن حمالتها أيضاً. أما على أكتافنا، فنحمل حقائب مؤونة عازلة للمطر تحتوي على جعالة ثلاثة أيام من الأطعمة الجافة (خبز أسود، ودهن خنزير، وعلبة من مرق اللحم). بالإضافة إلى ذلك، تزودنا بمناظير، ومصابيح يدوية تعمل على البطاريات، ومسدس إشارة. لم نناقش موضوع الأسلحة مطوّلاً. أخذنا أربع بنادق Mosin مزودة بأجهزة تسديد من نوع PE، وأربع بنادق SVT-40 مزودة بأجهزة تسديد من نوع PU مع مئتي طلقة لكل واحدة منها، وثلاثة مسدسات PPSH-41 نصف آلية مع مخزنين إضافيين.

قررنا أن نصحب رشاشنا الخفيف المفضل من نوع Degtyarev لهذه المهمة. عوضاً عنه، حزمنا كيساً مليئاً بالأغصان مربوطاً بحبل، بطريقة متقنة، لاستخدامه كطعم. لا أحبذ شخصياً إمضاء وقت طويل في الوداع. فالوداعات الطويلة تحزن القلب، وخصوصاً أثناء الحروب. عانقني ”ليونيا“ بحرارة في المخبأ، وقبلني. بمجرد خروجنا من عتبة المخبأ، لم نعد زوجاً وزوجة، بل رفاق في الفوج نفسه. ذهبت إلى موقع قيادة الكتيبة برفقة الجنود الآخرين، حيث كانت تنتظرنا شاحنة تتسع لحمولة ١٥٠٠ كلف، فالطريق لا يزال طويلاً إلى الطرف الآخر من قطاع الدفاع عن مدينة سيفاستوبول. بعد ذلك، جرت مصافحة أخيرة بالأيدي وتمنيات بالتوفيق للقناصين من قائد السرية، تلتها نظرة أخيرة منه تحمل رسالة مفادها: ”عودوا سالمين“.

قضينا يومنا الأول في إجراء مسح أولي للمنطقة. لم نكتشف أي شيء هنا من شأنه إعطاءنا الشعور بالراحة. لم نستطع الاختباء بين الشجيرات، إذ إنها تتوضع بعيداً من مرتفع ”بلا اسم“. سيطر الألمان على المنطقة برمتها وكانوا على نحو متقطع يطلقون نيران رشاشاتهم وقذائف الهاون على امتداد الوادي.

كانت قواتنا ترد، لكن كان عليهم الاقتصاد بالذخيرة. وبناء على طلب مني، تعهد رماة الرشاشات في لواء مشاة البحرية السابع في تلك الليلة بتوجيه وابل من الرصاص على المرتفع في تمام الثالثة، على أن يستمر هذا الوابل عشرين إلى ثلاثين دقيقة لكي يغطوا تقدمنا إلى أعلى السفح.

حل الظلام، وكانت ليلة دافئة لا ريح فيها ولا قمر. باشرنا عملية صعود المرتفع في تمام الثالثة مع صوت أزيز رشقات الرشاشات المدوي من جهة الخطوط السوفياتية، وزحفنا تقريباً إلى القمة دون أن يكتشفنا الألمان. وعلى مسافة سبعين متراً من خنادقهم غرسنا الطعم في الأرض وتراجعنا ثلاثين متراً تقريباً باتجاه الصخور الكلسية البيضاء المائلة إلى الرمادي، التي كان قد نما خلفها بعض الزهور البرية.

مع أول خيوط الفجر، أطلق النازيون وابلأً من نيران رشاشاتهم الغاضبة على نتاج العمل اليدوي الذي صنعه المغوار الكهل فارتوف. لقد مزقوها حرفياً، وأحالوها إلى قطع صغيرة من الخشب، ولحاء الشجر، وأوراق الأشجار. لقد حفروا الأرض حولها بالرصاص ضمن دائرة نصف قطرها متران إلى ثلاثة، ولم يتوقفوا حتى ارتفعت فوق

سطح الأرض سحابة من الغبار. عندما ساد الصمت، زحف النازيون من خنادقهم وبدؤوا مسح سفح المرتفع من خلال مناظيرهم. من دون أدنى شك، أرادوا رؤية جثث القناصين الروس التي تمت إبادتها بسرعة فائقة.

أثناء قيامهم بالرمي، حددنا نقاط الرمي الخاصة بهم بسهولة تامة. جلّ ما نحتاجه الآن هو التصويب بحيث لا تخطئ أي طلقة هدفها. لم تتجاوز المسافة مئة متر. كان الهدف أعلى من مستوى البندقية الأفقي، ما يعني أن زاوية الهدف تقارب ٥٠ درجة. وفق قوانين المقذوفية، في مثل هذه الظروف، يبدأ قوس المقذوف المتصاعد بالاستقامة وتحرك الجاذبية المقذوف تنازلياً باتجاه أفقي. إضافة إلى ذلك يواجه المقذوف مقاومة أقل من الهواء في هذا الطقس الجبلي النقي.

تم حساب هذا كله عبر جداول خاصة لم يكن لمن هم تحت إمرتي، ممن لم يتخرجوا في مدرسة القنص، أن يعرفوها أبداً. على كل حال، لهذا السبب، يحمل القائد رأساً بين كتفيه. عند الانطلاق، أعطيتهم أمراً بتخفيض إعدادات جهاز التسديد، وإجراء تصحيح بمقدار ناقص نصف درجة للطلقات من عيار R 54X7.62 من نوع L ذات المقذوفات الخفيفة الوزن.

كما جرت العادة، كنت أول من يطلق النار. تلى ذلك دوي سبع طلقات، تلتها أيضاً، بفارق عشر ثوانٍ لإعادة تذكير بنادقنا الثلاثية الخطوط، ثماني طلقات أخرى. لكن صوت هدير المدفعية طغى على صوت أزيز رصاصنا. كانت مدفعية العدو البعيدة المدى تصب نيرانها باتجاه مركز المدينة. بدأت مدفيعتنا بالرد لسحق مرابض العدو. كذلك، بدأت المحركات تهدر في السماء، وظهرت طائرة عليها نجوم حمراء على الأجنحة. غادرت الطائرات باتجاه مدينة Alushta. سمع أصوات إطلاق عدد من قذائف المدفعية من جهة البحر. كانت الرمايات على ما يبدو تنطلق من قائدة المدمرات "Kharkov" التي كانت تتمركز في الخليج الجنوبي بعد التفريغ.

ساعدت هذه الخلفية الصاخبة في التعيم على الصورة الحقيقية للقتال. كان الألمان يتساقطون: بعضهم داخل خنادقهم، وبعضهم على متاريسهم، حتى أن البعض الآخر تدحرج أسفل المنحدر. من جهتنا، لم نخطئ أي هدف. قُتل النازيون الخمسة عشرة جميعهم. فلم يعد الموقع المتقدم للعدو موجوداً.

تسلقنا مسافة مئة متر من المرتفع الشديد الانحدار لاهئين، ثم قفزنا إلى خنادق العدو. لقد ربحنا موقعاً مجهزاً بشكل رائع، مع ممرات اتصال عميقة محصنة بألواح وعوارض خشبية، ومنصات إطلاق رشاشات آلية، وخنادق تؤدي إليها، إضافة إلى أربعة مخابئ حفرت بعمق ٢,٥ متر في الأرض. كان هناك الكثير من الأسلحة الملقاة على الأرض: بنادق من ضمنها أنواع من القناصات، ورشاشات نصف آلية، وقنابل يدوية موضوعة على مصاطب ضمن الخنادق، وثلاثة رشاشات آلية من نوع MG. 34 مزودة بأشرطة ذخيرة. ببساطة، كان منظر المحيط الذي تكشف من المرتفع أخذاً، وليس مستغرباً بعد الآن استماتة الألمان في القتال من أجل البقاء فيه والصمود فيه. أطلقنا شهاباً أحمر لنرسل إلى قواتنا إشارة مفادها: استولينا على مرتفع "بلا اسم". أجابوا بإرسال شهاب أخضر، أي: تهانينا، أحسنتم صنعاً! وفي الحال، كان هناك حركة مكثفة على طول الطريق الترابي بين كامارا وشولي. كانت هيئة أركان القطاع الثاني تجري إعادة تجميع للقوات، مع استقدام الذخيرة والمؤمن.

وجب علينا إلقاء نظرة على المنطقة المجاورة. في الوقت الذي كان فيه القناصون الذين ينفذون هجوماً مباغتاً ضد الألمان سينسحبون بسرعة في السابق، نتوقع منهم الآن البقاء في الخطوط التي استولينا عليها إلى حين تلقيهم أوامر جديدة. أتاح لنا الموقع الدفاع بنجاح، لكن علينا دراسة وفهم كل شيء - تحديد نقاط القوة والضعف للموقع - كقياس طول ممرات التواصل بالخطوة، والتكيف مع الخنادق الغريبة عنا التي حُفرت في تربة القرم القاسية، وتحديد اتجاه فوهات المدافع الرشاشة، ومدى الرمي، وغيرها.

في الحال، وصلنا إلى المخابئ أيضاً. هنا، جرى صراع آخر. هاجمنا عريف يحمل مسدس Walther عند عتبة أبعد ملجأ ترابي. اضطررنا إلى قتله. وبعد ذلك بقليل، كان هناك ضابط مبتدئ يختبئ خلف أحد الأبواب، وهنا جاء دور فلاديمير فولشكوف الذي استخدم سكينه الفنلندي بمهارة. وجدنا أنفسنا في مكان صغير، ولكن مشيد بإتقان تحت الأرض، شبيه بمنزل ضابط أو مهجع للجنود. كان على الطاولة جهاز اتصالات كبير الحجم، يبلغ طوله نحو نصف متر، من نوع Tornister Funkgerät (جهاز إرسال محمول على الظهر من نوع b: Torn.Fu.b)، وهو جهاز اتصالات

محمول يتكون من جهاز إرسال لاسلكي وصندوق للبطاريات؛ كان الهوائي الخاص به يمر عبر سقف المخبأ إلى الأعلى فوق مستوى سطح الأرض.

على الطاولة أيضاً سماعات أذنين وكراس تدريبات ثخين مليء بالملاحظات. كتب على اللوحة اليسارية لجهاز الإرسال عبارة "Feind hoert mit"، أي "إن العدو يتنصت". بكلمة أخرى: هذا المكان لم يكن مجرد موقع قنص، بل نقطة مراقبة من أجل الرصد والاستطلاع أيضاً.

إن اغتنام جهاز إرسال في حالة جيدة صيد ثمين. لكن لم تتمكن من الاستفادة منه، إذ لم يكن ضمن أفراد المجموعة أي عامل مقسم أو أي فرد مُلَم، لو قليلاً، بوسائل الاتصالات. لم يتبق سوى فصل الجهاز عن البطاريات وتجهيزه للنقل. قررنا اصطحابه معنا عند العودة، رغم أن وزنه لا يستهان به؛ قد يصل إلى أربعين كيلوغراماً.

فتشنا الجثث. خلص بي الأمر مع كوم كبير من الوثائق بين يدي، من ضمنها سجلات الجنود، ورسائل وصور تعود إلى اثني عشر جندي، وعريف، وضابط مبتدئ، وأحد الرقباء من فرقة المشاة ١٧٠. كان الرقيب يتقلد "وسام الصليب الحديدي" من الدرجة الثانية، وشريطة ملونة تمت حياكتها على عروات بزته العسكرية. ستذهب كل هذه لأشياء الآن إلى النقيب بزرودني، ثم إلى المترجم. لن تصل هذه الرسائل أبداً إلى وجهتها في المدن والبلدات الألمانية.

أقيمت وليمة إفطار احتفالاً بالنصر، قدم فيها النقانق الألمانية والخبز الأسود. هناك أيضاً علب سردين بالزيت يعشقها الرقيب سِدْكَ. وأخيراً سحبنا صندوقاً خشبياً يحتوي على اثنتي عشرة قارورة من الرم سعة نصف لتر، من مخبأ مقر هيئة الأركان (كان الألمان قد خبئوها تحت طاولة)، وكنت قد بدأت التفكير في كيفية الاستفادة منها. شربنا واحدة على الإفطار. قررنا تعبئة البقية في مطرات ألمانية مصنوعة من الألمنيوم، وأخذها لزملائنا في الفوج. حقاً كان طعم الرم يعيد إلى الذاكرة طعم مشروبنا الريفي المحلي.

بعد ليلة لم نذق فيها طعم النوم، كان القناصون بحاجة إلى قسط من الراحة. عينت خفيرين واتجهت إلى مخبأ الضباط. ومن دون أن أخلع سترتي المبطنة، استلقيت على مقعد وغطت بالنوم مباشرة. وعند قرابة المساء، أيقظني أحد الخفيرين اللذين كانا

يحرسان السفح الشرقي لقمة "بلا اسم"، والمقابل لجبهة العدو، قائلاً: "استيقظ أيها الرفيق الرقيب أول، لدينا رفقة!"

ظهرت مجموعة من رماة الرشاشات القصيرة الألمان عن مسافة بعيدة، ربما قرابة عشرين منهم. كانوا يتسلقون المرتفع عبر ممر ضيق يمر خلال دغلات البندق. بدا واضحاً من خلال المنظار أن الجنود يتقدمون بهدوء، دون أن يتلفتوا حولهم، وكانوا يدخلون السجائر ويتحدثون مع بعضهم بعضاً. لم يكونوا يحملون أسلحتهم بوضع الجهوزية، بل فوق أكتافهم. كان كل شيء ينبئ بأن العدو لم يخمن بعد أن نقطة المراقبة الخاصة بهم قد تم الاستيلاء عليها. كان رماة الرشاشات القصيرة قد توجهوا إلى مرتفع "بلا اسم" لأغراض استكشافية، وليس بهدف القتال الحقيقي.

واجهتنا مهمة إطلاق النار من الأعلى إلى الأسفل من المسافة السابقة نفسها. وكما الحال في الإطلاق من الأسفل، كانت هذه أيضاً عملية معقدة للغاية، تتضمن معايرة أجهزة التسديد على التلسكوبات. عندما تطلق من الأعلى باتجاه الأسفل، تكون كثافة الهواء أعظم، لكن سرعة حركة المقذوف تتزايد في الوقت نفسه. تجذب قوة الجاذبية المقذوف إلى الأسفل، فيصبح أسفل ومنتصف الهدف فعلياً أعلى. ولذلك، ينبغي خفض (أي تقليل) مستوى التسديد، وإلا سيتوجب على الرامي اختيار نقطة تسديد أخفض.

أجريت الحسابات وأصدرت الأمر إلى عناصري. انتظرنا إلى حين اقتراب رماة الرشاشات القصيرة إلى مئة متر، ثم فتحنا النار. تكيفت عناصر المفزة مع المهمة بالدقة نفسها التي أبدوها عندما نفذوا الرمايات من الأسفل. أرسلنا جميع رماة الرشاشات الألمان إلى عالم آخر، وبسرعة فائقة. بهذا، يكون ثمانية قناصين قد صفوا قرابة ٣٥ رجلاً في يوم واحد. في الممثل، لم يكن ذلك سيئاً. عمل القناصون بالمهارة نفسها خلال الأيام الأربعة التي تلت. نجحنا في صد هجمات العدو مستغلين أفضلية موقعنا على مرتفع "بلا اسم". في إحدى المرات، شن الألمان هجوماً بالمدفعية. انتظرنا في المخابئ التي بناها بحرفية جنود الفوهرر الشجعان ريثما ينتهي الهجوم.

واجهت صعوبة في معرفة عدد جثث جنود الألمان الممددة على سفوح المرتفع بعد أن احترقت رصاصاتنا رؤوسهم. بقي بعضها في دغلات العرعر والزهور البرية،

وتدحرج بعضها إلى الوديان الواقعة بين المرتفعات، بينما تمكن الجنود المتقدمون من سحب بعض الجثث. ولكن كان من الجلي أن العدد الإجمالي تجاوز المئة. أرسلت القيادة العليا سرية رماة لتريح مفرزة القناصين. تسلق جنود "الجيش الأحمر" المرتفع تحت غطاء من نيران بنادقنا. سلمناهم الموقع سليماً مصاناً متمنين لهم النجاح، ثم عدنا على متن الشاحنة نفسها إلى الفرقة ٢٥.

لم ينظم أحد استقبال المنتصرين لنا. كان الجنود والضباط السوفييات ينفذون مهمات لافئة يومياً على خطوط النار في قطاع الدفاع عن سيفاستوبول. كان مجرد تنفيذ الواجبات الاعتيادية التي تقتضيها الخدمة تحت غارات طيران العدو وهجمات مدفعيتهم بحد ذاته إنجازاً، كما حال العمل في المصانع المخبأة عميقاً في أنفاق Inkerman.

كتبت تقريراً عن الغارة على مرتفع "بلا اسم"، وسلمته للنقيب بزرودني، مرفق معه الوثائق الألمانية والأشياء الأخرى ذات الأهمية (زجاجة رَم مثلاً). فوجئ معاون رئيس هيئة الأركان، رئيس قسم الاستطلاع، بكمية المواد كثيراً. ناقشنا أيضاً هذه العملية، وسألته هل من الممكن تركية المشاركين بالغارة لنيل جوائز حكومية، بما أن هؤلاء القناصين أظهروا بسالة استثنائية، وتصميماً وانضباطاً منقطع النظير. ابتسم بزرودني ابتسامة غامضة وأجاب: "لقد تولت القيادة العليا هذا الأمر".

لم يكن النقيب يسخر مني. في بداية آذار/ مارس، تسلمت شهادة دبلوم من المجلس العسكري للجيش الساحلي، كتب عليها "مدمر القناصين"، تشهد أن الرقيب بافلتشنكو (كانوا قد ارتكبوا خطأ في كتابة اسمي) قد قضى على ٢٥٧ فاشياً. كانت الشهادة مذيلة بتوقيع قائد الجيش، اللواء بتروف، إضافة إلى مفوض الكتبية، تشخنوف Chukhnov، ومفوض اللواء، كوزنيتسوف Kuznetsov، والأخير عضو في المجلس العسكري. كان هذا أول اعتراف رسمي بإنجازاتي المتواضعة. إضافة إلى ذلك تلقيت وفيودور سيدك وفلاديمير فولشكوف "وسام الاستحقاق" لشجاعتنا في المعركة في نيسان/ أبريل.

قضيت وقتاً طويلاً أناقش فيه المهمة مع زوجي، ولكن من منظور تقييم أداء كل من القناصين فيها. كان السلوك العسكري للمرووسين في فريقَي أكبر من أن يوصف،

وكننت مقتنعة أننا نفذنا الأوامر إذ إننا لم نخسر أيّاً من رجالنا. بالنسبة إلي بصفتي قائداً، هذا أهم مؤشرات النجاح. إنه لشعور غاية في السوء أن تفقد أحد رفاق السلاح في المعركة، وبالأخص إن كانوا قد جربوا واختبروا في القتال. اعتقدت عندها، وما أزال، أن الحرب بكل بشاعتها هي أفضل سبيل لمعرفة طينة المرء. أولئك الرجال الذين وقفوا إلى جانبي في سيفاستوبول هم أسمى البشر. تكشف لاحقاً فقط أن مصير كل منهم قد انتهى بصورة مختلفة عن الآخر.

ربيع ١٩٤٢

مكتبة
t.me/soramnqraa

على أيّ حال، تلقينا فعلياً مكافأة لاستيلائنا على مرتفع ”بلا اسم“: إذن مغادرة إلى المدينة. نصحنّا الناس أن نزور وألكسي كتسنكو المتحف الجديد الذي تم افتتاحه في ٢٣ شباط/ فبراير في مبنى المعرض في شارع Frunze. تجولنا ببطء بين صالات العرض وشاهدنا المعروضات. كانت تلك رحلة حقيقية عبر التاريخ، بدءاً من الحصار الأول بين ١٨٥٤ و ١٨٥٥، مروراً بحقبة ”ثورة أكتوبر“ الاشتراكية العظيمة والحرب الأهلية، وصولاً إلى أحداث وأبطال الحصار الثاني. وجدت بين الصور والوثائق معلومات عن فرقة شباييف، وعن رامية الرشاش نينا أنلوفافا، وحتى عني. في صالة مستقلة، عرض المنظمون الأسلحة والذخائر المصنعة من أجل الجيش الساحلي في معامل سيفاستوبول، وعلقوا صوراً للعمال الغزيرين الإنتاج. ضمن المعروضات أيضاً هناك بعض الغنائم: أسلحة ألمانية، وأجزاء من طائرة أسقطت فوق المدينة، ورسائل ومذكرات الغزاة، ورايات الأفواج الفاشية التي تم الاستيلاء عليها في المعارك، إضافة إلى الأوامر النازية التي تخص السكان المحليين، والتي كانت العبارة الأكثر وروداً فيها: ”فرقة الإعدام“.

رغم الأعمال العسكرية، دوماً أخذ سكان سيفاستوبول على عاتقهم ترميم الاقتصاد الممزق، فلم تبدّ المدينة مهمة أو قدرة أو مهجورة. كانت المتاجر، والعيادات العامة، ودورات المياه العامة، وصالونات الحلاقة، ومختلف الخدمات التجارية مفتوحة وفي

الخدمة، كما كانت عربات القطار الخفيف تعمل. والآن افتتحوا متحفاً جديداً كان الجميع مسرورين بزيارته: سكان سيفاستوبول أنفسهم، الناس الذين وصلوا من مدة إلى المدينة قادمين من المناطق غير المحتلة، والعسكريون الذين يقضون إجازاتهم في المدينة.

كانت النظرة لجنود الخط الأول ودية للغاية. عرض علينا ملمع الأحذية الخدمة مجاناً، وعرضت النساء اللواتي التقيناهن في ساحة البلدية قرب سينما Udarnik [يُدارنيك] غسل وكي ملابسنا. مع ذلك، كان إمداد المدينة بالماء مقنناً بصرامة. ودّعنا الشتاء دون ندم. كان شتاء من المعارك والقلق لكنه رسّخ إيمان المدافعين بقدرتهم على الصمود في وجه الهجوم النازي الضاري. كنا نتوقع بعض الانفراج مع قدوم الربيع. ستكتسي غابات هضاب Mekenzi باللون الأخضر، وستخفي أوراق الأشجار مخابئنا وخنادقنا وممرات الاتصال ونقاط الرمي عن العدو، وهذا كفيل بتقليل خسائرنّا. سوف تهب الرياح الجنوبية الدافئة من جهة البحر، ولن يشعر الحرس الليلي بالبرد. سيتساقط المطر، وإن لم يكن بغزارة، لكن هذا سيزيد غزارة ينابيع الجبال على الأحوال كافة. ستظهر الشمس من بين الغيوم أكثر، وستخيل أنها شمس الانتصار.

في الثالث من آذار/ مارس ١٩٤٢، كان الطقس بديعاً ودافئاً. فكان البقاء في المخبئ مستحيلاً. قررنا وألكسي تناول الإفطار في الهواء الطلق على أنغام صفير عصافير سيفاستوبول التي لا يمكن كبتها. كان زوجي يجلس بقربي على شجرة ساقطة، واضعاً ذراعه حول كتفيّ، وهو يروي حادثة مضحكة من أيام طفولته. فجأة بدأ هجوم العدو المدفعي على خطوط الفوج ٥٤. كانت تطلق من مدفع بعيد المدى. انفجرت الدفعة الأولى من القذائف بعيداً في المؤخرة، والصلية الثانية لم تبلغ الهدف، لكن الثالثة...

”أنت لست تعب، أليس كذلك؟“ ما لبث كتسنكو أن سألني هذا، حتى انفجرت القذيفة الثالثة خلفنا. صفرت العشرات من الشظايا في الجو. حماني ملازمي المتمرن منها، لكنه لم ينج بنفسه من الجروح. للوهلة الأولى، لم أعتقد أن الأمر خطير. أمسك ألكسي بكتفه الأيمن وتأوه. لكن الدم تدفق بغزارة من أسفل كم سترته العسكرية،

وارتخت ذراعه، وبدأ الشحوب يغطي وجهه.

”ليونيا، اصمد، يا ليونيا، سأضمدك مباشرة!“ فتحت علبة إسعافات أولية وبدأت تضميد كتفيه بسرعة. لففت طبقة أولى وثانية وثالثة من الشاش الأبيض، لكن الجراح كانت عميقة، فارتشح الدم خارج الضمادة.

هرع فيودور سِدْكَ لمساعدتنا. مددنا القائد على بطانية وحملناه إلى نقطة الإسعافات الأولية على وجه السرعة. ولحسن الحظ، كانت ممرضة السرية، يلينا بالي، حاضرة في الخدمة، وهناك أيضاً عربة لُجم عليها زوج من الأحصنة. وضعنا قائد السرية على المقعد، وانطلقنا مباشرة إلى Inkerman، إلى الكتيبة الطبية للفرقة، حيث جرّاحنا بِشِل -غايك. هناك وضع ليونيا على طاولة العمليات دون أي تأخير. وبقيت منتظرة النتيجة.

كان الأمل في حدوث معجزة حياً في قلبي. خلال الانتظار الذي دام ساعة ونصفاً، تفكرت في أشياء عدة، متذكّرة لقاءنا الأول، في الغابة وقت غروب الشمس، عندما وجدني الملازم المتمرن تحت الشجرة المحطمة، واعترافه بحبه لي، وحياتنا الزوجية السعيدة. لم يكن هناك أحد أقرب إليّ أو أعز على قلبي من ألكسي أركاديفيتش. بقي مرحاً في أصعب الظروف، ولم ييأس وقت الفشل، ولم يغتر بالنجاح. أهم ما في الأمر أنه دائماً قادر على إيجاد الكلمات المناسبة في الأوقات المناسبة، وأنا وثقت به أكثر من نفسي.

خرج طبيينا الرائع فلاديمير فيودورفتش بِشِل -غايك من غرفة العمليات تعثلي الكآبة وجهه، وضغط على يدي وقال: ”اصبري، يا لودميلا. لا يوجد أمل كبير في التعافي. ينبغي لنا بتر ذراعه اليمنى، فقد كانت معلقة بوتر عضلي واحد فقط. الأسوأ من ذلك بكثير هو الشظايا السبع التي استقرت في ظهره. لقد انتزعت ثلاثاً منها، أما البقية...“

لا أذكر ماذا حدث بعد ذلك. استعدت وعي لأجد نفسي ملقاة على سرير ضيق من أسرة المستشفى في غرفة ما، في مكان ما. أعطتني ممرضة شابة ترتدي مريلة بيضاء وغطاء رأس كأساً فيها شراب ما تفوح منه رائحة نبات الناردين القوية، وطلبت مني أن أشربه كاملاً. فعلت كما طلبت، وكنت لا أزال في حالة من الغشاوة. وضعت

يدي أوتوماتيكياً على قراب مسدسي TT واكتشفت أنه ليس هناك. نظرت الفتاة إليّ نظرة ملؤها الخوف، وشرعت تشرح لي أن السلاح سيعاد إليّ بالتأكيد، إنما لاحقاً. "مسدسي! أعيدوه إليّ في الحال!" وبحركة سريعة ومفاجئة، نهضت من السرير. "لودا! توقفي يا لودا!" تبين أن بشل -غايك كان يقف قريباً مني، "ما الذي تنوين فعله؟ لماذا تحتاجين إلى المسدس؟"

"إنه المسدس المخصص لي في الخدمة. ينبغي أن يكون بحوزتي في جميع الأوقات. أنت من عليه أن يهدأ أولاً. هل تظن أنني سأقدم على الانتحار؟" قلت ذلك بصوت عالٍ، من دون أدنى شك، "كلا لن يحدث هذا. لن يعيشوا ليشهدوا ذلك. سيدفع الألمان الثمن غالياً لموته. سأصفي حسابي معهم".

باختصار شديد، أعيد إليّ مسدس Totosha الثقيل، فوضعت في قرابه وأحكمت البكلة. أذن لي قائد الكتيبة بالبقاء مع زوجي المصاب بجراح خطيرة. خلال الليل، كان ألكسي يدخل في نوبات هذيان بين فينة وأخرى، فتارة يفقد الوعي وتارة يستعيده، بالأخص عندما حاول جاهداً الابتسام وقول شيء مشجع. بحلول الظهيرة في الرابع من آذار/ مارس، انتهى كل شيء. توفي بين ذراعي.

أقيمت الجنازة في اليوم اللاحق في مقبرة الأخوة. حضرها جميع ضباط الفوج ٥٤ الذين لم يكونوا مناوين، وقائد الفوج الرائد متوسيفتش، والمفوض العسكري مالتسيف، والعديد من جنود الكتيبة الثاني، وجميع أفراد سريتي. ألقى متوسيفتش خطاباً مقتضباً لكنه قوي ومتعدد الموضوعات. بعد ذلك، ودع الملازم المتمرن كتسنكو مرووسوه. ترافق إنزال النعش إلى القبر مع إطلاق رشقات وداعية من رصاص الرشاشات والبنادق. قدم الضباط تحية الوداع بإطلاق الرصاص من مسدساتهم، لكنني لم أتمكن من الوصول إلى مسدسي TT. سألني مالتسيف لماذا لم أكن أقدم تحية الوداع. بصراحة، يمكن لمعلمينا السياسيين أن يظهروا في بعض الأحيان تبلداً مذهلاً في المشاعر، ومن المستحيل أن تعطيهم إجابة صادقة. ربما كانت إجابتي وقحة بعض الشيء: "لست ممن يطلقون في الهواء كالممثلين. سأوجه رصاصات تحيتي باتجاه النازيين. أعد بأن أردي مئة منهم على أقل تقدير، إن لم يكن أكثر".

بالطبع، تكمن الحقيقة في مكان آخر. لم أكن أريد تقبل فكرة موت زوجي الحبيب.

كان لا يزال بقربي، وقد شعرت بحضوره. صحيح أن جسد "ليونيا" الممزق يرقد تحت تراب سيفاستوبول، لكن روحه الطيبة والمرهفة ما زالت تبحث عن مكان للراحة. لم يكن ملائماً لي أن أودعه بطلقات من سلاح أحبه كلانا بالدرجة نفسها. بالنسبة إلي، صار هذا السلاح مقدساً منذ زمن بعيد. منحني إياه الوطن والجيش لأدافع به، وأهاجم به، وليؤمن المرء بقوته في الأوقات التي يجب عليه فيها اتخاذ خيار أخير: الموت مباشرة أو العار الطويل الأجل.

تغيرت حياتي بعد جنازة ألكسي كسنكو. بعد أن عدت إلى منزلنا المخبأ، قضيت ثلاثة أيام دون نوم. بعد ذلك، حاولت التقاط بندقية قناصة واكتشفت أنني لم أتمكن من إمساكها؛ كانت يداي ترتجفان كثيراً. كان عليّ الذهاب إلى الكتبية الطبية لرؤية اختصاصي أمراض عصبية. شخّص الطبيب حالتي - عصاب ما بعد الصدمة - وارتأى أن أمضي أسبوعين في المستشفى، وأن أشرب بانتظام منقوعاً ما من جذور نبتة الناردين ودواء يحتوي على سائل البروميد المهدئ. في مركز العلاج، الذي يقع ضمن أنفاق Inkerman، كان الوضع هادئاً ومملاً للغاية. زارني فيودور سيدك الذي تمت ترقيته الآن إلى مرتبة رقيب أول، وفلاديمير فولشكوف الذي صار رقيباً بدوره. في اليوم التاسع بعد وفاة قائد سريتنا ألكسي، قررنا الذهاب إلى المقبرة لزيارته.

تقع المقبرة في قطاع الدفاع الرابع. هناك ثلاثة طرق مؤدية إليها من قطاعنا الثالث، وكان أحدها معبداً. قصفه الألمان مرات عدة لكن مهندسينا العسكريين رمموا هذا الطريق الرئيسي الحيوي مرة بعد مرة، خصوصاً أن أرض المدفن كانت أيضاً موقعاً لهيئة أركان الكولونيل غريغوريفتش كابيتوخين Alexander Grigoryevich Kapitokhin، قائد القطاع الرابع وقائد فرقة الرماة ٩٥، في الوقت نفسه. غالباً ما كانت العربات العسكرية تتجه إلى تلك المنطقة، ولهذا لم يكن إيجاد واحدة تسلك الطريق إلى وجهتك نفسها أمراً صعباً.

محاطة بجدار مرتفع نسبياً من حجر القرم الكلسي مع البوابات الحديدية والأبراج الهرمية على كلا الجانبين، كانت مقبرة الأخوة تشبه القلعة من بعيد. الآلاف ممن شاركوا في الحصار الأول على المدينة يرقدون هنا، من ضمنهم ثلاثون لواء وأدميرالاً. دُفن المدافعون عن سيفاستوبول هنا ليس أثناء العمل العسكري فحسب، بل لسنوات

بعد ذلك، حتى ١٩١٢، تبعاً لفرمان من الإمبراطور وبناء على وصيتهم. عززت الكنيسة الموقوفة للقديس نيكولاس Nicholas صانع العجائب، التي بنيت على شكل هرم أيضاً يضم أعمال موزايك بديعة من الداخل، جمالية نصب المحارب التذكاري الرائع هذا. تقف الكنيسة الآن بسقفها المدمر دون صليبيها. كان جنودنا قد أقاموا موقعاً لرصد مدفعية هناك في وقت سابق. بعد اكتشافهم الأمر، دمر النازيون الكنيسة القديمة بإصابة مباشرة بقذيفة مدفع.

تقع مواقع مدافن الجنود والضباط الروس قرب الجدار الشمالي الشرقي للمقبرة، على الجهة الأخرى من الهضبة. دخلنا المقبرة عبر البوابات الجنوبية، ثم بدأنا التسلق إلى الأعلى ببطء على طول الممر الرئيسي المؤدي إلى الكنيسة الواقعة على هضبة. قبل ثمانية أيام، لم يكن لدي القوة أو الوقت لمشاهدة شواهد القبور المترفة المصنوعة من الرخام الأسود والأبيض، وأحجار الديوريت والغرانيت على جانبي الممر. وبما أننا لسنا في عجلة من أمرنا الآن، توقفنا عند بداية الممر تماماً، قرب عمود رخامي أبيض مخدد رائع، متوج بتمثال نصفي لرجل متشح بمعطف طويل يظهر من تحته لباسه الرسمي. نُحت على الرخام أسفل التمثال نسر ذو رأسين يمسك بين مخليه درعاً دائرياً نقش عليه: "إلى خروليف Khrulev، من روسيا". قاد اللواء خروليف، بطل الحصار الأول، مشاة أفواج عبر البلقان و Suzdal و Syevsk بنفسه في الهجوم للدفاع عن مرتفعات Malakhov. بحرابهم، رد جنودنا الفرنسيين والبريطانيين على أعقابهم لمرات.

في هذا اليوم الجميل من آذار/ مارس، كان تمثال خروليف الرخامي ينظر إلى زوار المقبرة من أعلى قمة العمود بأسى. وراء الصرح التذكاري، هناك قبور جماعية دفن فيها الآلاف والآلاف ممن دافعوا عن المدينة، جميعهم مجهولو الهوية. لكن مصممي الصرح التذكاري خاطبواهم بنقش كتب عليه: "أغلقوا رتبكم، أيها الشجعان، وتجمعوا كالأخوة حول بطل معركة سيفاستوبول في ضريحكم العائلي!"

واصلنا السير في الممر. دون أدنى شك، تمت صناعة شواهد القبور هنا على أيدي أمهر النحاتين والمعماريين والفنانين. استعملوا في أعمالهم اليدوية هذه الرخام والغرانيت والقوالب المعدنية المزخرفة بشكل عجيب. رغم قوة الزمن المدمرة،

حافظ المعدن على أسماء ورتب ومهمات وتواريخ ولادة ووفاة أبطال الحصار الأول. لم يكن هناك أي شيء يشبه هذا بعد في المنطقة الواقعة خلف كنيسة القديس نيكولاس باستثناء ما يخص ضحايا الحصار الثاني. هناك أكوام من التراب مرتبة بعناية تمتد على طول الجدار الرمادي، وضع على قمة كل منها نجمة مصنوعة من الخشب المضغوط. على أي حال، برز من بين الأضرحة الأخرى ضريح الملازم المتمرن ألكسي أركاديفيتش كتسنكو من مراتب فوج الرماة ٥٤. كانت النجمة والحاملة من تحتها مطليتين جيداً بطلاء أحمر، وقد سجل عليه نقش على نطاق واسع، جاء فيه: "ولد في ٨، ١٠، ١٩٠٥ وتوفي متأثراً بجراحه في ٤، ٣، ١٩٤٢". كان هناك جذع شجرة بجانب الضريح. جلسنا عليه وشاهدنا الصف الحزين بأكمله. هنا وهناك، جفت التربة وصارت هشة، الأمر الذي أفقد التلال الترابية شكلها، ولكن في بعض الأماكن الأخرى، بقيت سوداء جنازية.

وضعت بعض سعفات العرعر الخضراء على الضريح، ثم أخذت كسرة خبز من حقيرة قناع الغاز الكتانية وفتتها بجوار المنصة الحاملة للنجمة، لعل الطيور تزوره أكثر. أخرج فيودور زجاجة كحول مخفف، وصبها في كأس معدنية ووضعها قرب النجمة أيضاً. بعد ذلك، شرب كل منا رشفة من هذا الشراب المألوف على الخط الأمامي، وجلسنا نتأمل لمدة طويلة.

"ارقد بسلام!" كان في مقدوري أن أردد هذه الكلمات التي لطالما نراها على النصب التذكارية القديمة في مقبرة الأخوة. بعد تردد كبير، ودعت زوجي الحبيب. علينا العودة إلى خطوط النار لمتابعة واجباتنا بصفتنا جنوداً يتمتعون بالهدوء والصبر والتماسك.

عند عودتي إلى الفوج، كان هناك بعض البريد بانتظاري. هناك رسائل من أختي فالنتينا، ومن أمي، ومن أبي وابني. جلست لأرد على خطاباتهم:

عزيزتي الغالية لينوسيا،

هذه المرة الأولى التي أتلقي فيها رسالة منكم منذ تسعة أشهر (اثنتان من فاليا Valya، ومنك، ومن مورجك Morzhik، ومن أبي). سأكتب اليوم إلى كل فرد منكم. لينوسيا، لا يكاد يمكنني التعبير عن ارتياحي! صحيح

أن الأمر صعب عليك، ولكن أنت بعيدة خلف الخط الأمامي يا عزيزتي، وهذا أهم ما في الأمر.

لينوسيا، لا يمكنك تخيل ماهية الحرب الحديثة. لكم قلقت عليك يا عزيزتي! بعد يوم أو يومين، سأرسل إليك وثيقة تثبت أنني في صفوف الجيش، وهذا من شأنه أن يحسن وضعك المادي قليلاً. أما الآن، فاسمحي لي أن أحدثك عن نفسي. أنا رقيب أول قناص وفي سجلي ٢٥٧ قتيلاً. منذ أيام، استلمت وثيقة وشهادة دبلوم من المجلس العسكري لقيادة الجيش. لقد تم ترشيحي لنيل "وسام لينين". هذا كل شيء. حقاً، تبوأ المركز الأول على لوحة الشرف في الجيش. هذا كل شيء يا لينوسيا... بالطبع، يمكن للأحداث الخاصة الانتظار حتى تنتهي الحرب. الوقت ليس مناسباً الآن للخوض في الذكريات. كنت على خط النار الأول على نحو متواصل طوال هذه المدة كلها، أي من ٦ آب/ أغسطس إلى الآن. أنا الآن معلمة قنص. سأرسل لك قصاصة من صحيفة وبطاقتي التموينية. في نظري، هذا سيكون كافياً. ابنتك السخيفة لودا قد صارت أكثر سخافة من كثر سعادتها، لأنك، يا عزيزتي، بعيدة كفاية خلف الخطوط الأمامية.

أنا لست بحاجة إلى أي شيء، يا لينوسيا، فلدينا كل شيء هنا. الناس يقدمون الطعام. لقد منيت بخسارة كبيرة يا عزيزتي، لقد دفن "ليونيا" في الخامس من آذار/ مارس. لم يعد "ليونيا" معي. ولكن لا تهتمي، سأكمل المعركة وحدي. من الصعب عليّ تقبل ما حدث، لكنني فخورة به. كان رجلاً رائعاً؛ لا يوجد الكثير من أمثاله. أنقذني من الموت ثلاث مرات، يا أمي، وإنقاذ أحد ما في الحرب يعني حقاً إنقاذه.

حسناً لينوسيا، لن أتحدث، أو بالأحرى أكتب عن هذا بعد الآن. فالأمر لا يزال مؤلماً...^١

كانت رسالة ابني مؤثرة. نقل إليّ أخباره في المدرسة. حصل على درجة ممتاز في

١ رسالة من بافلتشنكو إلى والدتها، إي. تي. بلوفا، بتاريخ ١٥ آذار/ مارس ١٩٤٢. الرسالة مودعة في "متحف القوات المسلحة الفيدرالية الروسية" المركزي، برقم إيداع ١٨٦٨١/٤.

الإملاء بالروسية، و"جيد" في اختبار الحساب الذهني. لكن أكثر ما أعجبه كتاب *Our Native Language* [لغتنا الأم]، والقصة المكتوبة فيه عن القائد العسكري ألكساندر فاسيليفتش سوفروف Alexander Vasilyevich Suvorov.

لطالما كان الأمر هكذا منذ القدم: يهزم الروس أعداء أرض أجدادهم دائماً. بعد أن أعدت قراءة جمل مورجك القصيرة مرات عدة، متأملاً الورقة المسطرة المكتوبة بخط متقن، بدأت التفكير. عليّ أن أخبر هذا الصبي ذا السنوات العشر عن الحرب التي تدور على أرض وطنه. كانت حرباً غير مسبقة، لا نظير لبطشها الذي أطلق له العنان لإبادة شعبنا، ما دمت لم أرعب الرجل الصغير، أو أملاً قلبه بالخوف، وهو أمر لا يليق بجندي مستقبلي.

كما في السابق، هناك هدوء نسبي على خطوط الدفاع عن سيفاستوبول. لكن يقع على عاتق القناصين أعباء عمل كاملة، وفي سبيل إعطائهم الاعتراف بإسهامهم في الصراع ضد الغزاة، قررت قيادة قطاع الدفاع عن سيفاستوبول إقامة تجمع يتبادل القناصون فيه الخبرات. اجتمعنا الإثنين الواقع في ١٦ آذار/ مارس، ١٩٤٢.

كان هناك لافتة قطنية معلقة فوق المنصة، كُتِبَ عليها بحروف كبيرة بالأبيض: "نرحب بقناصينا... أبطال الإنتاج على الجبهة!"^١ كانت الشخصيات المهمة تجلس وراء طاولة على المنصة، تحت اللافتة، وهم: قائد أسطول البحر الأسود نائب الأدميرال إف. إس. أوكتيابرسكي F. S. Oktyabrsky، وقائد الجيش الساحلي اللواء آي. واي. بتروف I. Y. Petrov، وقائد الفرقة آي. آي. أزروف I. I. Azarov، وهو أحد أعضاء المجلس العسكري للأسطول، ومفوض اللواء إم. جي. كوزنيتسوف M. G. Kuznetsov، وهو أيضاً أحد أعضاء المجلس العسكري للجيش. استمعوا لخطاب ألقاه نائب رئيس هيئة أركان الجيش الساحلي، اللواء في. إف. فوربيوف V. F. Vorobyov، حول تطور عمليات القنص في قطاع الدفاع عن سيفاستوبول.

كان خطاباً صادقاً صوّر الحالة بكل إنصاف. بدأ فوربيوف بداية شعرية. قال اللواء إن الربيع قد حل، والليالي، واحسرتها، صارت أقصر. كان هذا سيئاً للمدافعين عن المدينة، لأن المؤن كانت تنقل أساساً عن طريق البحر، على متن السفن البخارية

١ يعد بطل الإنتاج عاملاً منتجاً كادحاً بصورة استثنائية.

العاملة في البحر الأسود وسفن أسطول البحر الأسود. كانت السفن تصل إلى سيفاستوبول ليلاً حيث يتم إفراغ حمولتها على أرصفة الخليج الجنوبي، دون أن تكتشفها طائرات الاستطلاع المعادية. الآن ستكون هذه الفرص أقل، ونظراً إلى تفوق القوات الجوية النازية، علينا أن نتوقع صعوبات جديدة في إيصال الذخائر والسلاح والمؤن والتعزيزات.

كان العدو يخطط لهجوم ثالث على القاعدة البحرية الرئيسية. تشير المعلومات الاستطلاعية إلى أن أعداد الجيش الحادي عشر الألماني قد ارتفعت، إذ وصلت الآن إلى مئتي ألف، أي ضعف عدد الجنود والضباط السوفييات الذين يتركزون حول المدينة. والألمان ينقلون سلاح المدفعية الجديدة ومدافع الهاون إلى خطوط النار الأمامية دون توقف.

يمكن أن يبلغ العدد الإجمالي لهذه الأسلحة ما يقارب ألفين، وهذا رقم مذهل. كان لدينا ستمئة وحدة مدفعية في الخدمة فقط. والسرب الجوي الثامن، بإمرة الطيار الذائع الصيت اللواء فون ركتوفن von Richthofen، ينتقل إلى جزيرة القرم، وبهذا سيكون هناك نحو سبعمئة طائرة تحت تصرف الألمان، مقابل تسعين آلة حرب لدينا. موجهاً حديثه إلى الجمهور المؤلف من نحو ١٥٠ جندياً من خيرة جنود المشاة في سيفاستوبول، الذين تبلغ حصيلة كل منهم أربعين قتيلًا من جنود وضباط العدو في الحد الأدنى، تكلم اللواء فوربيوف بصراحة، قائلاً:

لدينا الآن عدد أكبر من جنود الألمان. هذا يعني أنه علينا قتل عدد أكبر منهم لكي نجعل الفرص بين المهاجمين والمدافعين متكافئة. بحسب إحصاءاتنا، يحتاج الجندي العادي من ثماني إلى عشر طلقات ليقتل على جندي معاد واحد، بينما يحتاج القناص طلقة واحدة أو اثنتين فقط. رفاقي الأعزاء، تذكروا أن كميات الذخيرة التي سترد إلينا ستتناقص، وعليه، سيتوجب استخدامها بقدر أكبر من الحرص والفعالية. تناشدكم قيادة قطاع الدفاع عن سيفاستوبول ألا تعملوا كجنود غزيري الإنتاج، أو كعمال صدمة، في مواقع الرمي فحسب، بل لتعلموا الجنود الآخرين فن القنص أيضاً. على كل فرد منكم اختيار مجموعة من عشرة أو خمسة

عشر تلميذاً وتدريبهم لمدة قصيرة. ونحن، من جانبنا، نتعهد تزويدهم بالقنصات ومناظير التسديد.

كنت أول المتحدثين باسم القناصين في التجمع لأن حصيلتي من النازيين القتلى بلغت ٢٥٧. قلت إننا قد أعطينا لقب "أبطال الإنتاج على الجبهة" المُشرف وعلينا دعم هذا بالنتائج الجيدة برميائنا، وأن نأخذ على عاتقنا التزامات أخرى. أنا شخصياً تعهدت زيادة رصيدي إلى ثلاثمئة نازي.

جاء في المرتبة الثانية في هذه المنافسة غير المعلنة المساعد أول المحترف في لواء مشاة البحرية السابع، وقائد فصيلة الرشاشات الآلية نوي أداميا Noi Adamia، برصيد ١٦٥. وُلد نوي في جورجيا، وتخرج في الكلية البحرية في أوديسا قبل الحرب، وخدم في أسطول البحر الأسود. نتيجة لتوتره تكلم نوي بلكنة قوقازية قوية وأسلوب عاطفي جياش أيضاً. أخبر الحاضرين أنه قد علم مبادئ القنص لثمانين جندياً تقريباً حتى الآن، وأنه ينوي الاستمرار في ذلك. في نهاية المطاف، رفع رصيده إلى مئتين قبل أن يعتبر مفقوداً أثناء تأدية الخدمة قرب منارة Chersonese في مطلع تموز/ يوليو ١٩٤٢. مُنح لقب "بطل الاتحاد السوفياتي" بعد وفاته.

تمكن حارس الحدود الأسبق إيفان ليفكين Ivan Levkin، العريف في فوج جهاز الأمن الداخلي ٤٥٦، الذي صار الآن جزءاً من فرقة الرماة ١٠٩، من الحديث عن الجنود المعادين الثمانية والثمانين الذين قتلهم. كان لزميله من الفوج نفسه وشريكه المساهم إيفان بوغاتير Ivan Bogatyr، العريف أيضاً، حصيلة تبلغ ٧٥. تميز إيفان لاحقاً خلال العدوان الأخير على سيفاستوبول على وجه التحديد؛ بينما كان جريحاً، صد هجمات العدو برشاش آلي لخمس ساعات على خط نار قرب قرية Balaklava. مُنح لقب "بطل الاتحاد السوفياتي" لقاء هذا العمل البطولي.

إن القناصين محاربون وحيدون وقليلو الكلام، فهم لا يجيدون التحدث جيداً. كانت خطابات الآخرين المشاركين في التجمع رتيبة قليلاً. تحدثوا عن إنجازاتهم، وأخذوا على عاتقهم التزامات أعظم، وتحدثوا قليلاً عن طرقهم الخاصة في التمويه المكاني، وعن نزالاتهم مع القناصين الألمان، وعن طرقهم في العناية بأسلحتهم في ظروف الشتاء والربيع في القرم. بدا القناصون كأنهم خائفون من تجاوز خط ما أثناء

مخاطبة رؤسائهم. قرر اللواء بتروف، الذي كان يعرف الوضع على أرض خطوط الدفاع أكثر من نائب الأدميرال أوكتيابرسكي، أن يوجه النقاش إلى مواضيع أخرى أكثر تخصصاً، قائلاً:

رفاقي القناصين! بصفتمكم وطنيين حقيقيين أنتم جاهزون لضرب الغزاة في كل الأوقات وأينما وجدوا. ولكن ماهي مطالبكم ورغباتكم؟ كيف يمكن لقيادة قطاع الدفاع عن سيفاستوبول مساعدتكم في عملكم المهم الذي تقومون به على الجبهة؟ تكلموا بصدق وبصراحة ودون أي خجل. لقد عقدنا هذا اللقاء من أجل هذا الغرض، ليس لمناقشة النجاحات فحسب، بل الصعوبات أيضاً.

بعد هذا الطلب، الذي أثار جلبة في القاعة، ذهب القناصون لتناول طعام الغداء. لم تلحق المفوضية بنفسها العار، إذ قدمت سلطة خضار، وحساء سمك البوري الطازج، والغولاش، ومطبوخ الفاكهة. وعلى نحو طبيعي، كان على قائمة الطعام أيضاً مئة غرام من الفودكا تقدم إلى جنود الخط الأمامي، كما جرت العادة.

تبعاً لذلك، صار النقاش أكثر واقعية. بدأ القناصون الحديث عن الحياة في الخنادق دون أي قيود. فعلى سبيل المثال، كانوا يشعرون بالانزعاج لأن مواد التموين لم تصرف في الوقت المناسب، ولذلك عليهم ارتداء بزة خضراء في تشرين الأول/أكتوبر، في حين تقتضي الحاجة ارتداء بزة بنية في مثل هذا الوقت من السنة، وأن الدروع الواقية من الرصاص التي يمكن أن تساعد في الدفاع عن مواقعهم غالباً ما تكون مكونة في مستودعات الجيش دون استعمال... سيكون من الجيد تزويد القناصين بأبسط جداول حركة المقذوفات التي لن تخيف المبتدئين من القناصين لشدة إسهابها، إضافة إلى تزويد أولئك القناصين الذين يجازفون أثناء المهمات بمخصصات يومية من الأطعمة الجافة، وأن تتضمن العصائر الحامضة التي تروي الظمأ أكثر من الماء العادي... كان القناصون يتوقون إلى توحيد القيادة، لأنهم يكونون في بعض الوحدات العسكرية تحت تصرف أي قائد من ذوي الشأن. والنتيجة أن الأفراد المدربون على حرفة معقدة ينتهي بهم المطاف في حفر المخابئ والخنادق، ونوبات الحراسة،

والعمل سائقين أو حتى طبّاحين، بما أن تلك هي الاختصاصات المسجلة في ذاتياتهم أصلاً. فضلاً عن ذلك، وبما أن البنادق القناصة ليس لها حراب، ليس هناك جدوى من إرسال القناصين أثناء التقدم في الهجوم برفقة جنود السرية العاديين ضمن التشكيلات العسكرية. إنه لمن الأفضل التمرّك في مخبأ يتم اختياره سابقاً، والإطلاق منه على دشّم الرشاشات الآلية للعدو. ثم كيف لهم ألا يفهموا أن القناص يحتاج إلى الراحة أكثر من أي جندي مشاة عادي؟ امنحوا هذا الجندي الجيد مغادرة ليوم واحد في الأسبوع، ودعوه يقضيه في النوم في مكان ما في المؤخرة.

دوّن اللواء بتروف جميع الاقتراحات على مدوّنته بتأنّ. بعد ذلك، ألقى خطاباً ختامياً وأجاب عن عدد من تساؤلات بأن تحقيق هذه الطلبات والرغبات المتنوعة سيتطلب مستويات مختلفة من العمل. كان من السهل صرف مخصصات الإطعام وإعطاء الإجازات، لكن إجراء التعديلات على جداول حركة المقذوف وإعادة طباعتها يستلزم أكثر من أسبوع. إن إقناع القادة العسكريين بأن القناص اختصاصي من نوع ما ليس أمراً يمكن تحقيقه فوراً. على كل حال، سنفعل ما في وسعنا. عرضياً كان تجمع القناصين الذي نظمته واستمر ليوم واحد إحدى الطرق لرفع مكانة هذه المهنة العسكرية في أعين الجيش الساحلي برمته.

اختتمّ التجمع بفقرة غير اعتيادية وترفيهية إلى حد ما. قدمت فرقة الخط الأمامي للحفلات الموسيقية التي تجوب الاتحاد السوفياتي حفلاً موسيقياً. تضمن الحفل موسيقا كلاسيكية على الآلات الوترية، وثنائياً يعزف موسيقا فولكلورية، وأغنيات رائجة، وقصائد لشعراء سوفيات، وحكايات مضحكة، ومع اقتراب نهاية الحفل، أذهل الساحر إس. بوبروفسكي S. Bobrovsky الجميع بخدعه.

خلال آذار/ مارس، ونيسان/ أبريل، وأيار/ مايو ١٩٤٢، بقيت قواتنا وقوات العدو على خطوطهم القائمة ولم تحدث أيّ تغييرات جوهرية. بعد أن لمسوا اهتمام وانتباه قادة قطاع الدفاع عن سيفاستوبول، عمل القناصون بحماسة فائقة. في عمود بعنوان "عن الاقتراب من سيفاستوبول" نشرته صحيفة *Red Black Sea Sailor* [بحار البحر الأسود الحمراء]، التي كانت توزع بانتظام على خطوطنا، نشرت التقارير يومياً عن إنجازاتهم، مع عدد طائرات العدو التي أسقطها رماة AA وطاقم الدفاع الجوي في

فوج تدمير الحراس السادس.

جاءت ملاحظاتي عن تلك المدة كما يلي: صفى القناصون السوفيات ٣٢ جندياً وضابطاً ألمانياً في ٣١ آذار/ مارس، و ١٨ في ٣ نيسان/ أبريل، و ٢٦ في ٤ نيسان/ أبريل، و ٢٥ في ٦ نيسان/ أبريل، و ٢٦ في ٧ نيسان/ أبريل، و ٦٦ في ٨ نيسان/ أبريل، و ٥٦ في ٩ نيسان/ أبريل، و ١٠٨ في ١٠ نيسان/ أبريل، و ٥٣ في ١١ نيسان/ أبريل، و ٥٥ في ١٤ نيسان/ أبريل، و ٥٠ في ١٥ نيسان/ أبريل، و ٨٣ في ١٨ نيسان/ أبريل، و ٦٥ في ١٩ نيسان/ أبريل. بذلك، بلغ إجمالي قتلى النازيين الذين أرسلهم القناصون السوفيات إلى العالم الآخر ١,٤٩٢ خلال نيسان/ أبريل، إضافة إلى ١٠١٩ خلال الأيام العشرة الأولى من أيار/ مايو.

لم يستسلم سكان سيفاستوبول للكآبة، بل نظروا إلى المستقبل بأمل. بحلول احتفال "يوم أيار"، كان السكان قد أعادوا النظام إلى المدينة التي دمرها حصار الأشهر الستة. وبدعوة من لجنة الدفاع في المدينة، نظموا عدداً من أيام العمل الطوعي أيام السبت، إذ نظفوا الساحات، وأحرقوا القمامة التي تكدست في الطرقات خلال الشتاء، وملؤوا الحفر التي خلفتها القذائف والقنابل بالأتربة والحجارة، وأزالوا أكوام الدمار، ووضعوا الألواح الخشبية والخشب المضغوط على النوافذ المحطمة في الطوابق الأرضية للمباني، كما طلوا سياجات ومقاعد الحدائق العامة والمتنزهات، وكذلك سيقان الأشجار بالطلاء الكلسي وأصلحوا الطرقات والأرصفة.

وفقاً لأوامر اللواء بتروف، يُمنح القناصون إجازة ليوم واحد أسبوعياً، وغالباً ما كنت أسافر إلى سيفاستوبول وأشهد درجة الحماسة التي أبدتها السكان أثناء ترميمهم المدينة. من ناحية النظافة والترتيب، بدأت تشبه المدينة الجنوبية الرائعة في ما قبل الحرب، التي تميزت عن قريناتها "بنزهاتها البحرية" المميزة. كان الطريق البحري مكاني المفضل للتنزه. فمن هناك، يتكشف منظر خلّاب للخليج وعلى مسافة أبعد قليلاً لعرض البحر. أزيلت بقايا حطام الأشجار التي دمرها القصف عن معابر الطريق، وفرشت بالرمال، وزرعت الزهور على أطرافها - كالأقحوان وأذن الفأر - كما تم إصلاح المقاعد الخشبية ومنصات المراقبة. بدا الجسر الحجري أخذاً بتنانينه التي تعتليه، وكذلك بدا النصب التذكاري الشهير للسفن المحطمة

قرب الرصيف البحري الإسمنتي.

عند قدومهم إلى المدينة، يُتاح لجنود الخط الأمامي فرصة الذهاب إلى الحمامات العامة، وزيارة مطعم، وصالون حلاقة، والساعاتي، واستديو التصوير، وإرسال البرقيات إلى الأحبة من مركز البريد الرئيسي. كانت دار السينما تعمل لثلاثة عروض في النهار، وتعرض الأفلام السوفياتية لفترة ما قبل الحرب ونشرات الأخبار السينمائية. كان كل ذلك مطمئناً. رغم غارات القصف الجوي المتكررة والقصف المدفعي (كم هو غريب أننا اعتدنا ذلك)، هناك حديث متداول في الفوج حول انتقال بعض الوحدات العسكرية السوفياتية من شبه جزيرة كيرش Kerch إلى سيفاستوبول في القريب العاجل. سيضرب الجيش البحري العدو أيضاً، وبهذه الطريقة، سيتم سحق الألمان بين فكي كماشة، وفك الحصار عن المدينة.

يجدر القول إن هناك أرضية لمثل هذه الافتراضات. بالرجوع إلى كانون الثاني/يناير ١٩٤٢، نزلت قواتنا (ست فرق رماة، لواءين وفوجين، أي ما مجموعه ٤٢ ألف جندي) شرق جزيرة القرم، ودفعت الألمان إلى التراجع لمسافة مئة كيلومتر، وحررت Feodosia Kerch وأسست جبهة القرم. على الجبهة المقابلة من الجبهة، هناك وحدات من الجيش الألماني الحادي عشر (قراءة ٢٥ ألف رجل).

على أي حال، تكشف الأحداث تباعاً على نحو مختلف كلياً عما توقع المدافعون الأشاوس عن سيفاستوبول. في الصباح الباكر من ٨ أيار/مايو ١٩٤٢، بدأ النازيون التقدم نحو شبه جزيرة Kerch. لم يكن لديهم ميزة التفوق العددي، لكنهم ركزوا قواتهم نحو قطاع واحد ضيق فقط من الجبهة، وحققوا تقدماً هناك. يتحمل مسؤولية هذا الخطأ إلى درجة ليست قليلة قائد جبهة القرم الفريق دي. تي كوزلوف D.T. Kozlov، وممثل هيئة الأركان المفوض من الدرجة الأولى إل. زي مخلص L.Z. Mekhlis، اللذين لم يتوقعا مخططات العدو في الوقت المناسب، وفشلا في مهمات الاستطلاع بطريقة ملائمة، ومن ثم فقدوا السيطرة العملياتية على قواتهما عامة. بدأت وحدات من الجيشين ٥١ و ٤٧ التراجع بأسلوب غير منظم نحو الشرق، باتجاه مضيق Kerch. بحلول منتصف أيار/مايو، كان النازيون قد احتلوا Kerch، وبعد ذلك شبه جزيرة Kerch برمتها. كانت خسائرنا فادحة، حيث قتل وجرح وأسر عشرات

الآلاف. كما وضع الألمان أيديهم على بعض الغنائم المهمة: ثلاثمئة دبابة، أربعمئة طائرة، قرابة ٣٥٠٠ مدفع ثقيل ومدفع هاون.

جعلت الهزيمة على جبهة القرم مسألة هجوم ثالث على سيفاستوبول أمراً محتوماً. وبسرعة، شعرنا بوقع ذلك. ابتداء من ٢٠ أيار/ مايو، بدأت طائرات العدو هجمات واسعة على القاعدة البحرية الرئيسية لأسطول البحر الأسود. كانت المئات من طائرات Junker وقاذفات Messerschmitt تحلق في السماء يومياً، مسقطة الآلاف من القنابل على المدينة. كانت الطائرات التي تحمل رسم الصليب الأسود على أجنحتها تجوب سماء سيفاستوبول، إذ كان كل سرب من القاذفات يفسح المجال لآخر. لم يكن في مقدور القوات الجوية الروسية (قرابة مئة طائرة) مقاومتهم. كانت الأطقم الجوية تعمل بطاقاتها القصوى، إذ كانت تقوم بست أو سبع طلعات يومياً. والمدفعية الألمانية البعيدة المدى تقصف مطارهم القريب من منارة Chersonese، ما أدى إلى اشتعال النيران في الطائرات هناك نتيجة انفجار القذائف ذات العيار الثقيل، ومقتل بعض الأفراد العاملين.

تحولت المدينة إلى لهب ساطع فظيع، إلى بحر من اللهب والدخان. ما زاد الطين بلة درجات الحرارة المرتفعة جداً - وصلت حتى ٤٠ مئوية - وانقطاع الماء كلياً نتيجة لتدمير الألمان الأنابيب. على مدار بضعة أيام، تابع الألمان قصفهم المباني الأساسية التي نجت سابقاً من القصف. صارت أحياء المدينة، وبالأخص تلك التي في مركزها والمجاورة لشاطئ الخليج، أثراً بعد عين. انهارت بعض المباني، واحترق الآخر وبقي واقفاً كصناديق عملاقة متفحمة بلا نوافذ أو أسقف.

كانت الأمور ساخنة بالنسبة إلينا أيضاً، على خطوط قطاع الدفاع الثالث. فالنيران الأكثر تدميراً تأتيان من مدافع الهاون الثقيلة التي وفقاً لمعلوماتنا الاستطلاعية نصبها الألمان على طول الجبهة بمعدل عشرين مدفعاً في الكيلومتر الواحد. استمر تساقط نيرانها القوية والعنيفة على خطنا الأمامي من ٢ إلى ٦ حزيران/ يونيو ١٩٤٢. على أي حال، لم تتكبد فرقة شباييف 25 خسائر كبيرة في الأرواح لأن جنودها وضباطها اختبؤوا في مخابئ عميقة، وفي ملاجئنا الخاصة التي كنا ندعوها حفر الثعالب. في مقر هيئة أركان الجيش ١١، كانوا على الأرجح يعتقدون أن الروس، بعد

مثل هذا العمل، إن لم يكونوا قد أبعدوا، فإنهم على أقل تقدير قد خسروا معنوياتهم ولن يبدوا أي مقاومة في وجه وحدات فرماخت المتقدمة. وكالعادة، كان الألمان على خطأ.

بدأ الهجوم الثالث على المدينة في ٧ حزيران/يونيو، في تمام الرابعة فجراً. استمرت عاصفة نيران المدفعية والغارات الجوية المركزة قرابة ستين دقيقة. كان الأمر أشبه ببركان يضرب ضواحي سيفاستوبول. شكلت أعمدة الدخان المتصاعدة، ورائحة الاحتراق، والتربة التي تناثرت عالياً في الجو نتيجة للانفجارات، غمامة سوداء ضخمة فوق مواقعنا. لا يمكن تقريباً رؤية ضوء الشمس من خلالها. ترافقت التحضيرات النارية للعدو مع هدير محركات الطائرات ودوي الانفجارات التي بدت كضوضاء مجنونة لا يمكن تصورها.

نحو الخامسة صباحاً، بدأت قوات المشاة الألمانية، مدعومة بالدبابات والمدفعية المحمولة، التقدم على الخط الأمامي للمدافعين عن المدينة. لقد مضى وقت طويل منذ شاهدت هذا المنظر لآخر مرة، منذ حصار أوديسا. كان ذاك النهار الحار من حزيران/يونيو قد بدأ للتو. والنسيم العليل ينفخ أعمدة الدخان السوداء الملتوية والغبار والتراب يستقر تدريجياً. في السكون الذي تلى الضجيج الشيطاني، كانت محركات الدبابات تشخر وهي تتقدم في وادي نهر Belbek، وتتقدم خلفها أنساق متراصة من جنود المشاة. وهناك جنود عراة الصدر يتقدمون منتصبين القامة بخطى حثيثة.

هناك أيضاً مجموعات من رماة بنادق Mauser ورماة الرشاشات مزودين برشاشات من نوع MP. 40. كانت المسافة بين النازيين، والريزنين الذين يتركزون في الخنادق تبعاً لأوامر ضباطنا، تتضاءل، فقد صارت الآن أقل من ستمئة متر.

”أهذا هجوم نفسي؟“ سأل فيودور سيدك الذي كان يقف قربي في خندق قناص مموهاً بجذع شجرة بلوط كانت قد تحطمت إلى أجزاء.

”هؤلاء الفئران صاروا أكثر جسارة“، قلت ذلك، واضعة المنظار على عيني، مراقبة صفوف المشاة. أظهرت العدسات المكبرة وجوهاً كالحية مشوهة بنظرات التجهم، وأجساداً قوية البنية لم تلفحها أشعة الشمس. لقد نُقل جنود ”ألمان إمبراطوريون“ حقيقيون من مرتبات الجيش ١٧ الألماني، ممن تم إطعامهم جيداً وتدريبهم على نحو

ممتاز، من دونيتس بيسن إلى سيفاستوبول. لقد أفدنا بذلك من مصادرنا الاستطلاعية التي كانت تعبر الخط الأمامي لاصطحاب سجناء من أجل الاستجواب. صارت قوات النخبة الخاصة بأدولف هتلر أمامنا الآن. مشوا بخطى واسعة، يتعثرون فوق الحجارة، يتحدثون مع بعضهم بعضاً، يلکزون أكتاف بعضهم بعضاً، ويتقاذفون بنادقهم جيئة وذهاباً في بعض الأحيان. اكتشفت شيئاً غريباً في تصرفاتهم، وفي الحال أدركت أن الألمان كانوا أبعد ما يكون من الوعي.

مساء الأسس، بعد التفكير في الوضعية التي ينبغي لقواتنا اتخاذها في حال مهاجمة العدو قطاعنا من الأمام، اتخذت قراراً بأن على قناصتنا اصطحاب بندق SVT-40 معهم إلى خط الرمي. كان هناك ١٢ منها في فصيلتي. تفحصتها بنفسي، ومرة أخرى نظفت بندقيتي المنقوشة الذاتية الإلقام من نوع Tokarev. لقد آن الأوان لسماع صوتها المدوي. على أي حال، سوف يطغى صوت رشقات الرشاشات ودوي قذائف مدافع الهاون وبنادق الفوج من عيار ٧٦ ملم و ٤٥ ملم على صوتها.

خندقنا يقع على الميمنة، أمام الخط الأساسي، إلى جانب رماة الرشاشات. وبعض أفراد الفصيلة في الميسرة، والعديد منهم في خندق عادي مع جنود المشاة. إن غاية القناصين تكمن في إرداء الضباط والضباط المتمرنين في الأرتال بسرعة، ثم تحويل نيران قناصاتهم نحو دشمل رشاشات العدو وأطقم مدافع الهاون.

كان النازيون يزحفون باتجاهنا، وقمنا بدورنا بإمساك بندقنا المرتكزة على الساتر. ثبت مخزناً إلى بندقية Sveta، وأزلت الغطاء الجلدي عن عدسة آلية التسديد التلسكوبية، ونظرت من خلالها لتحديد المسافة.

لقد أمضيت وقتاً طويلاً أعلم المجندين الجدد أبسط قواعد القنص الأساسية، وطالبتهم بحفظها كما يحفظون برامجهم: إذا غطى الجزء العريض من الشعيرة المتعامدة لآلية التسديد جسم الهدف المتحرك حتى ركبتيه، فإن المدى ٢٥٠ متراً، وإن غطى حتى نقطة الخصر، ستكون المسافة أربعمئة متر، وإن غطى حتى الكتفين، فالمسافة ستمئة. أما إذا كان كامل الجسد مرئياً، فتكون المسافة ٧٥٠. بالطبع هناك طرق أخرى أكثر دقة لتحديد المسافة بين القناص والهدف وفقاً لآليات التسديد PE و PU التلسكوبية، لكن ذلك يتطلب حساب معادلة رياضية، وبكل بساطة لم تكن مهارات معظم أفراد "الجيش

الأحمر“ في الرياضيات مناسبة لذلك. على أي حال، سيتدبرون أمرهم اليوم، فكل ما عليهم فعله هو الاستماع للقائد.

كان يقود الفصيلة في ذاك الوقت الرقيب أول فيودور سِدِك، فيما تمت تسميتي معلّم قنص تحت تصرف هيئة الأركان العامة للفوج ٥٤ منذ بداية أيار/ مايو ١٩٤٢. كانت الأهداف كما في السابق: تدريب القادمين الجدد من جنود ”الجيش الأحمر“ على القنص، والتحقق من حالة أسلحتهم، وتسليم الأسلحة الجديدة ومعايرتها، والتشاور مع قادة الفصائل في ما يخص تكتيكات القنص، ودعوة القناصين للاجتماع كل أسبوعين لتبادل الخبرات وتعديل التعليمات، ولتنظيم غارات القنص في المنطقة المنزوعة السلاح وفي مؤخرة قوات العدو، الشيء الذي سار على أفضل وجه في الوقت الذي كانت فيه الجبهة مستقرة. لكن بدا أنه علينا أن ننسى أمر الغارات ابتداء من هذا اليوم. لقد بدأ العدو هجومه، وبالمقارنة مع ما يحدث الآن في وادي بلبك، نستطيع القول إن نياتهم خطيرة.

ظهر ضمن مدى مهداف بندقيتي رجل على الجانب الأيمن من صفوف الألمان يخطو مسرعاً، حاملاً بيده مسدساً. بدا جلياً أنه ضابط، وهذا أفضل هدف لقناص على الخط الأمامي. تغيرت المسافة وأصبحت الآن قرابة خمسمئة متر. دعه يقترب أكثر. كان رأسه قد صار في منتصف مهداف بندقيتي. كانت يدي اليمنى ممدودة بأريحية على قبضة الأخمص، وسببتي على الزناد. لم تكن إلا ضغطة خفيفة على الزناد، وإذا بصوت الرصاصة يدوي؛ ارتدت البندقية إلى كتفي وسقط حامل المسدس.

وكانهم يستجيبون لإشارة، أطلقت قواتنا المدفعية نيرانها، فوجاً مدفعية الهاوتزر ٦٩ و ٩٩، وكتائب فوج الهاوتزر رقم ٩٠٥، و ٥٢، و ١٣٤، جميعها. أعطب الرماة بضعة دبابات فوراً، ثم صبوا نيرانهم على صفوف المشاة. بالتزامن مع ذلك، بدأت بطاريات المدفعية الساحلية ذات العيار الكبير سحق العدو. ومرة أخرى تصاعد الدخان في السماء، لكن الروس هم من يشن الهجوم المدفعي هذه المرة. أما الرتل المهاجم، فأبيد بالكامل. باءت محاولة الألمان الأولى بالفشل. أخطأت حساباتهم بأن المدافعين عن سيفاستوبول سيفقدون شجاعتهم تحت وطأة غارات طائراتهم وقذائف مدافعهم.

كان هناك خمس دبابات تحترق في ميدان المعركة، أما البقية، فزحفت عائدة إلى مواقعها الأساسية. بدت جثث الجنود العراة الصدر بيضاء على خلفية العشب البني الذابل وتلك البقع السوداء في الأماكن التي اشتعلت فيها النيران نتيجة الانفجارات. لكن الهدوء لم يستمر طويلاً. ظهرت بعض طائرات Junker 87، وألقت عشرات من القنابل على مواقعنا، ثم أمطرت رجال الريزن بنيران رشاشات أجنحتها أثناء انقضاضها. اختبأ الجنود في حفر الثعالب. بعد قرابة الساعة، وبعد أن أعادوا تنظيم وحداتهم المتقهقرة وتعزيزها بوحدات جديدة، دفعت قيادة الفرقتين الألمانيةتين ٥٠ و ١٣٢ صفوف مشاتهما إلى الأمام مرة أخرى عبر السفح الشمالي السهل الانحدار لوادي Kamyshly. في هذه الأثناء، عدنا وفيودور إلى الخندق وتلقفنا بنادقنا الآلية الإلقام.

اقترحت على فيودور سِدك تجربة نوع آخر من العمل القتالي: ضرب النسق الثاني عوضاً عن استهداف الأول، وفي الوقت نفسه أن نستهدف منطقة البطن. تسبب الرصاصة في هذه المنطقة جرحاً قاتلاً لكن الموت ليس مباشراً بالضرورة. بعد إطلاق بضع رصاصات، شاهدنا مدى تأثيرها. متلوياً من الألم، كان النازي يقع على الأرض مستجدياً المساعدة وهو يئن ويصرخ. بدأ جنود النسق الأول يتلفتون حول أنفسهم، خارجين من أنساقهم، ثم يتوقفون. أدى ذلك إلى فوضى في النسق الثالث أيضاً. في نهاية المطاف، تمت عرقلة الهجوم الذي شنّه الألمان وهم في غاية السرور والحيوية. أسهم في ذلك بالطبع إلى حد ليس بالقليل رماة رشاشاتنا وأطقم الهاون الذين كانوا منخرطين بالرمي الموجه. بحلول المساء، كان النازيون قد أدخلوا أرض المعركة في قطاعنا، وكنا قد شرعنا في إحصاء أعداد الجنود الألمان الذين لا تزال جثثهم على الأرض ممن اخترقت الرصاصات بكلات أحزمتهم المصنوعة من الألمنيوم. كان هناك ما يزيد عن العشرين.

على أيّ حال، وجه النازيون ضربتهم الرئيسية كيلومترين اثنين إلى اليسار من خطوط الفوج ٥٤ الواقع في قطاع اللواء البحري ٧٩ وفرقة الرماة ١٧٢ المجاورة له. هناك، كان وضع القوات السوفياتية يزداد سوءاً. متقدمة على طول نهر وادي Belbek، اخترقت مجموعة من الدبابات الألمانية هذين التشكيلين عند نقطة اتصالهما، وفي

الوقت نفسه، ظهرت مجموعة أخرى قادمة من وادي Kamyshly وهاجمت المرتفع الذي يتمركز فيه جنود اللواء ٧٩. حقق العدو بعض النجاح. مع حلول المساء في ٧ حزيران/ يونيو، كان الألمان قد استولوا على مثلث يمتد اثنين إلى ثلاثة كيلومترات ضمن دفاعاتنا على طول خط هجومهم الرئيسي.

استهل اليوم اللاحق بمدفعية العدو وهجمات بالهاون، تلاها ضربات من سلاح الجو النازي. استمر القصف العنيف خمس ساعات بلا توقف. بعد ذلك، في العاشرة صباحاً، تقدم الألمان على طول جبهة قطاع الدفاع عن سيفاستوبول برمته، لكن تركز قواتهم الأعظم عند نقطة الاتصال بين القطاعين الثالث والرابع، قبالة اللواء ٧٩ والفرقة ١٧٢. في هذا الوقت، لم يكن الألمان يتقدمون بصفوف متراسة، بل بحذر شديد على شكل مجموعات، تحت غطاء من الدبابات والعربات الذاتية الدفع، وفي المصفحات.

تلقت قواتنا خسائر فادحة في خضم هذه المعارك الطاحنة. بقي عدد ضئيل جداً من الجنود ضمن التشكيل في كل من اللواء ٧٩ والفرقة ١٧٢، وكانوا قد أجبروا على الانسحاب. سطر المدافعون عن سيفاستوبول أساطير في البطولة والصمود، لكنهم عانوا من نقص حاد في الذخيرة. وبسبب تفوق الألمان في الجو، صار إيصال الحمولات من مدن نوفوروسيسك وبوتي Poti وتوابسي Tuapse بحراً أمراً إشكالياً من منتصف أيار/ مايو. في حزيران/ يونيو، كانت تُنقل الذخيرة والأسلحة والمؤن وتعزيزات الجيش من المجندين بواسطة الغواصات أساساً، وهذه الغواصات لها حمولة محدودة لا تكفي لسد حاجات المدافعين كلياً.

في ٩ حزيران/ يونيو، ومع أول ضوء، ظهرت دبابات العدو وأرتال مشاته أمام فرقة شباييف على طول الطريق الرئيسي متجهة نحو محطة قطار هضاب Mekenzi. مع إطلاق إشارة تحمل الرمز "ليو Leo" بين وحدات المدفعية في القطاع الثالث، فتحت جميع أفواج وكتائب المدفعية نيرانها على الخطوط المستهدفة سابقاً. دُمر جزء كبير من الدبابات، أما المشاة، فولوا مدبرين.

مع ذلك، ببطء لكن بثبات، شق الألمان طريقهم، كالجرذان، عبر الدفاعات السوفياتية. كان هدفهم إحراز خرق في الجانب الشمالي للخليج الرئيسي، وضرب

قلب المدينة البطلة من هناك للسيطرة عليها.

التقيت بشبان كتيبتنا الأولى لآخر مرة في اجتماع لـ "رابطة الشباب الشيوعي". كان ذلك في ١٦ حزيران/يونيو ١٩٤٢، تحت جرف صخري في وادي Martynov. آنذاك، كان وادي Kamyshly برمته تحت سيطرة العدو، وكذلك قرية Kamyshly ومحطة قطار هضاب Mekenzi، إضافة إلى المرتفعات ٣١٩،٦، و ٢٧٨،٤، و ١٧٥،٨، وكذلك الأمر للبطارية الساحلية رقم ٣٠، وقرى Verkhny Chorgun و Nizhny Chorgun، و Kamary و بعض المراكز السكانية في ضواحي المدينة. كان هناك معارك ضارية تدور رحاها في منطقة مقبرة الأخوة.

قدم منظم الرابطة في الفوج، ياكوف فاسكوفسكي، عرضاً موجزاً عن الوضع على الخطوط الأمامية. أخبرنا أنه خلال الأيام التسعة التي مرت منذ بدء الهجوم الثالث، قتل ثلثا الأعضاء المسجلين في "اتحاد الشباب الشيوعي" في الكتيبة. لم نلقَ أي تعزيزات، ووضع مخصصات الذخيرة والطعام والماء يزداد سوءاً. لا جدوى من إخفاء الأمر: لقد حُسم مصير سيفاستوبول. لكن ذلك لا يعني بأن بإمكان الغزاة السير عبر شوارعها مبتهجين على أنغام فرقة موسيقية. سيضحي رجال الريزن بأرواحهم ويؤدون واجبهم العسكري حتى النفس الأخير.

استمعنا له بصمت. كان هناك ملل قاتل يعتري وجوه الجنود الشبان. وحرارة الشمس الحارقة التي لا تطاق لفحت بلهيبها ستراتهم العسكرية المملطخة بعرقهم. وحوّل البارود لون ضمادات جروحهم إلى الأسود. لقد قدموا بأسلحتهم مباشرة من مواقع الرمي. التفت المنظم إليّ، بحكم أنني الرقيب أول الوحيد بين الحضور، متوقفاً رداً على خطابه. لم أشعر أنني أود مناقشة أي شيء، ولم يكن لدي إلا رد وحيد.

- نقسم أن نقاتل حتى آخر قطرة دم!

"نقسم على ذلك!" ردد البقية القسم بعدي كأنه صدى.

كلمة من قائد الجيش

صارت ضربات مدفعية العدو الثقيلة على دفاعاتنا أكثر دقة. بالطبع، يعود الفضل بذلك إلى الراصدين الألمان. صار بإمكانهم توجيه مدفيعتهم لأن الألمان قد احتلوا بعض المرتفعات الحاكمة. كنت قد صفيت ١٢ من رجالهم الذين كانوا يختبئون في الأشجار، وعلى الهضاب، وفي الأدوار الأخيرة للمباني. لكن لم يكن هناك أي فائدة من هذا الآن. كان حائط النار الموجه على المدافعين عن سيفاستوبول فظيماً. وصل الأمر بالطيارين النازيين إلى مطاردة واستهداف أفراد المارة والسيارات العابرة على طرقات المدينة المدمرة، وعلى الطرقات المؤدية إلى الخط الأمامي.

بدأ الهجوم المدفعي على مقر أركان فوجنا فجأة. تساقطت القذائف بغزارة مركزة، وأثناء الصلية الثالثة، أصابت إحداها أحد المخابئ الذي فيه عدد من الأفراد. كان هناك دخان كثيف، وأصوات انفجارات وتحطم، وصفير شظايا. قُتل النقيب بزروني في الحال إثر تلقيه إصابة في الرأس. على أي حال، حالفني الحظ؛ خلفت إحدى الشظايا جرحاً عميقاً في خدي الأيمن، ومزقت شحمة أذني اليمين، كما تمزقت طبلة أذني من شدة موجة العصف وصدمة الانفجار. نقلت إلى الكتيبة ٤٧ الطبية في فوجنا. لست متأكدة من عدد المرات التي خاط فيها الطبيب المميز بِشِل-غايك جروحاً في وجهي. في اليوم اللاحق، تلقت الكتيبة الطبية أمراً بتجهيز مجموعة من الجرحى ليصار إلى إخلاتهم إلى مدينة نوفوروسيسك، فقرر الجراح أنني، نظراً إلى وضعي

الحالي، مؤهلة لهذه الرحلة.

الجمعة، ١٩ حزيران/يونيو، وصلت خمس غواصات معاً إلى سيفاستوبول قادمة من نوفوروسيسك. كانت تحمل ١٦٥ طناً من الذخيرة، وعشرة أطنان من وقود الطيارات، وعشرة أخرى من المؤن للمدينة المحاصرة. لم ترجع الغواصات إلى نوفوروسيسك بلا حمولة، بل نقلت الجرحى إلى المستشفيات في المؤخرة. كانت أكبرها على الأقل، (L-4 (Leninyets-4، قادرة على حمل مئة فرد على متنها، بحسب تقديرات هيئة الأسطول الخاصة. بنيت هذه الغواصة عام ١٩٣٣ لزرع الألغام، ويبلغ طولها ثمانين متراً وعرضها سبعة أمتار. عام ١٩٤٢، كانت تحت قيادة النقيب (من الدرجة الثالثة) بولياكوف Polyakov.

كانت غواصة L-4 هي التي أفرغت حمولتها في خليج Kamysh، وهكذا خصصت أماكن لجنود فرقة شباييف على متنها. في ساعات المساء المتأخرة من ١٩ حزيران/يونيو، وجدت نفسي على شاطئ منحدر عند حافة سهب مكشوف للرياح من كل جانب. بقيت الغواصة تحت الماء طوال اليوم لحماية نفسها من سلاح الجو الألماني الذي ينتشر في كل مكان. لم تكن قد طفت بعد، لكن العديد من الجرحى تجمعوا. قبل ظهور هذه الغواصة من أعماق البحر بهتافات الفرحة. أول ما شاهدناه عند الغسق في ذاك اليوم من حزيران/يونيو كان برج قيادة L-4 الطويل نسيماً، والرشاش من عيار ١٠٠ ملم من أمامه، ثم كامل البدن طويلاً وضيقاً كسيجار عملاق. انزاحت المياه تدريجياً مظهرة جوانبها المستديرة.

أخيراً فُتح غطاء الكوَّتَيْن. وخرج طاقم الغواصة إلى السطح المعدني. كانت الغواصة وسط الخليج، حيث سينقل الجرحى إليها على متن قارب لا يزال مربوطاً إلى رصيف المرسى الخشبي. أخرج المساعد أول المحترف، وهو رجل عريض المنكبين وقصير القامة، قائمة أسماء من جيبه وبدأ قراءتها مستعيناً بمصباح يدوي. شكل الجرحى رتلاً؛ كان هناك بعض من يستطيعون السير بأنفسهم وبعض من يحتاجون المساعدة من المساعدين الطبيين أو الممرضات.

كان بإمكان القارب استيعاب ١٥ شخصاً، ولذلك عليه إجراء رحلات عدة لنقل الجميع من المرسى. بقيت المياه في خليج Kamysh هادئة، وانتقلنا من القارب إلى

الغواصة بسرعة كبيرة. ساعدنا البحارة ورافقونا إلى الكوة المفتوحة خلف البرج. بعد ذلك، كان علينا النزول عبر سلسلة من الدرجات الضيقة إلى القطاع السادس، قسم الإطعام، حيث تم وضع فراش من الفلين على الأرضية. بإمكان المرء الاستلقاء أو الجلوس عليها، لكن لا ينصح بالمشي. وضعت حقيتي على الأرض قرب جدار فاصل معدني ونظرت حولي. كان السقف منخفضاً والإنارة ضعيفة نظراً إلى وجود مصباحين فقط.

تحتنا، في الأسفل، كانت محركات الديزل تهدر بهدوء. خلال الليل، كانت تطفو إلى السطح، أما أثناء النهار، فكانت تغوص إلى العمق الأعظمي. كان قد مضى على L-4 ثلاثة أيام في طريق العبور عندما اكتشف الألمان قاربنا. أطلقت قوارب الطوربيد المعادية قنابل أعماق وألقت طائراتهم القنابل من الجو. كانت انفجاراتها تُسمع تحت الماء بوضوح كأنها ضربات قوية على متن غواصتنا الحربية. اهتزت الغواصة، وومضت المصابيح في قسمنا، تضيء تارة وتنطفئ تارة. ارتفعت حرارة الهواء إلى ٤٥ درجة وأصبح الجو خانقاً. عندما فقد عدد من الجرحى وعيهم، أعطوا جميعهم عبوات أكسجين، الشيء الذي مكنهم من الصمود حتى مساء اليوم اللاحق، عندما طفت الغواصة إلى السطح وفتحت الكوات، ما سمح لهواء البحر المنعش بالنفاذ إلى الممرات والقمرات الكهفية الضيقة للغواصة.

عند شروق الشمس، في ٢٢ حزيران/يونيو ١٩٤٢، دخلت L-4 خليج تسيميس وهي طافية على سطح الماء. استقبلتنا نوفوروسيسك التي تمتد على مسافة ٢٥ كلم على طول الشاطئ بحفاوة. وضع الجرحى في ثلاث عربات إسعاف أولي ذات حمولة ١,٥ طن، ونقلوا إلى المستشفى. نظرت إلى الأفق، حيث أضاء اللون الوردي لغروب الشمس البحر، وفكرت في ما يحدث في هذا الوقت على خطوط النار في سيفاستوبول بعيداً من هنا، حيث بقي زملائي في فوج شباييف الأشاوس. لم أدرك في ذلك الوقت أن هذا سيكون يومي الأخير في الحرب.

تابعت المدينة المحترقة، التي سواها النازيون بالأرض، الأعمال العسكرية ضد الغزاة. تم إخلاء المئات من هناك إلى نوفوروسيسك. أجرت هذه الرحلات قائدة المدمرات "Tashkent"، والمدمرتان "Bezuprechny" و "Bditelny"، وزورق

الدوريات "Shkval"، وكاسحتنا الألغام "Vzryv" و "Zashchitnik" في الميناء، إضافة إلى ٢٤ غواصة. لم تترك قصص الجنود الذين تم إخلأؤهم إلى القوقاز أدنى شك في نفوسنا: سوف يستولي العدو على قطاع دفاع سيفاستوبول في القريب العاجل. استعلمت عن فرقة الرماة ٢٥ والفوج ٥٤، لكن لم يستطع أحد الإجابة عن أسئلتي. ثمة ملازم واحد فقط، علقت يده اليمنى إلى كتفه بالضمادات، قال إنه رأى قائد فرقتنا، اللواء كولوميتس، برفقة مجموعة من الجنود في Inkerman، قرب ضفة نهر Chornaya، يستعد لصد هجوم العدو. كان من الصعب عليّ تصديقه لأن مصبّ Chornaya، الذي يتدفق إلى الخليج، يقع في عمق مؤخرة قواتنا.

كما العادة، أحضرت الصحف الحديثة إلى أجنحة المستشفى السبت. قرأت في الصفحة الأولى من صحيفة Pravda تقريراً من مكتب المعلومات السوفياتي، جاء فيه:

بموجب الأمر الصادر عن القيادة العليا للجيش الأحمر بتاريخ ٣ تموز/ يوليو، سلمت القوات السوفياتية مدينة سيفاستوبول. طوال ٢٥٠ يوماً، صد الشعب السوفياتي البطل هجمات القوات الألمانية المتكررة بشجاعة وإصرار منقطع النظير. على مدار ٢٥٠ يوماً تلك، هاجم العدو المدينة بشراسة من البر والبحر دون توقف. رغم انقطاع الاتصال مع المؤخرة، والصعوبات التي واجهوها في نقل الذخيرة والمؤن، وفقدان مطار تحت تصرفهم، وفي النتيجة غياب غطاء جوي كافٍ، صنع رجال المشاة والبحارة والضباط والمعلمون السوفيات المعجزات وسطروا أروع صور البطولة العسكرية في الدفاع عن سيفاستوبول. في حزيران/ يونيو، زج العدو بقرابة ثلاثمئة ألف من جنوده، وما يزيد عن أربعمئة دبابة وقرابة تسعمئة طائرة في مواجهة المدافعين عن سيفاستوبول الشجعان. تم اختزال الهدف الأساسي للمدافعين عن المدينة إلى إعاقة تقدّم القوات الألمانية النازية قدر المستطاع في قطاع سيفاستوبول من الجبهة وإبادة أكبر قدر من قوتهم البشرية والتكنولوجية.

بالنسبة إلى أمثالي ممن جرحوا في خضم الهجوم الثالث وهم الآن يستكملون

العلاج في نوفوروسيسك، بدت عبارة "سلمت القوات مدينة سيفاستوبول" غريبة. بالإضافة إلى ثلاثة ألوية وفوجين من مشاة البحرية، كان هناك سبع فرق رماة منخرطة في الدفاع عن المدينة. إن كان الآلاف والآلاف من الجنود والضباط المسؤولين عنهم قد غادروا سيفاستوبول، فإلى أين ذهبوا؟ أين كانت قيادة هيئة أركان الفرقة، ووحدات المؤخرة، والكتائب الطبية، ووسائل النقل البرية والمدفعية؟ أين كانت الأفواج والكتائب العملياتية؟ منطقة شمال البحر الأسود وشبه جزيرة القرم... لقد تم الاستيلاء عليها جميعها على يد الألمان. هذا يعني أن أطقمنا صارت بالضرورة هنا في نوفوروسيسك وبوتي وتوابسي. لكن أحداً لم يرههم.

لم يأت أي تقرير على ذكر ذلك، لكن في بداية تموز/ يوليو ١٩٤٢، بقي قرابة ثمانين ألفاً من المدافعين عن المدينة في الميدان قرب منارة Chersonese، وصاروا أسرى لدى النازيين. لقد تمّ التكتّم على مأساة الحرب في أرض الآباء والأجداد العظيمة مدة طويلة. عندما كنا نتحدث بيننا، حاولنا، نحن الجنود والأفراد الذين شاركوا في الدفاع، أن نحلل الأسباب التي أدت إلى حدوث ذلك، وأن نجد تفسيراً (أو مسوّغاً) لتصرفات القيادة العليا، وقائد قطاع الدفاع عن سيفاستوبول، نائب الأدميرال أوكتيابرسكي (الذي نُقل جواً خارج المدينة المحترقة برفقة عدد آخر من الجنرالات والضباط القادة)، وقائد الجيش الساحلي، اللواء بتروف (الذي غادر سيفاستوبول مع أعضاء من فريقه ليلاً على متن غواصة ووصل إلى نوفوروسيسك في ٤ تموز/ يوليو). هل كان هناك خطة تم تحضيرها مسبقاً قبل هذه الأحداث الحزينة في مقر قيادة أركان الأسطول لإخلاء قوات الدفاع عن سيفاستوبول من القرم إلى شواطئ القوقاز؟ أكان من الممكن تنفيذها في خضم السيطرة المطلقة لسلاح الجو المعادي؟

ما زلت أحمل في ذاكرتي صوراً حية لعملية نقل الجيش الساحلي المؤلف من آلاف الجنود من أوديسا إلى القرم، التي نُفذت بنجاح باهر في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤١. لكن الكثير قد تغير منذ ذلك الوقت لجهة توازن القوى في منطقة البحر الأسود. أغرق الألمان عدداً كبيراً من سفننا (طراداً حريباً، أربع مدمرات، أربع سفن نقل ضخمة، غواصتين). على سبيل المثال، أغرق الطراد "Chervona Ukraina"، مفخرة أسطول البحر الأسود والأجمل بين سفنه، إثر هجوم من القاذفات النازية في

خليج سيفاستوبول الشرقي في ١٢ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤١. تم تفجير السفينة العاملة بمحركات الديزل "Zhan Zhores"، التي كانت مألوفة لديّ، بواسطة لغم مغناطيسي في ١٦ كانون الثاني / يناير ١٩٤٢، في منطقة فيودوسيا Feodosia. أصيبت السفينة العاملة بمحركات الديزل "Armeniya"، التي كان على متنها ما يزيد عن خمسة آلاف جريح وجندي يجري إجلائهم من أرض المعركة، بقذيفة ألقتها قاذفة من نوع Heinkel 111 في ٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤١، على مقربة من يالطا، ما أدى إلى تدميرها وغرقها مع كامل ركبها في دقائق^١.

حقاً كان الناس يتهايمسون أنه في المقر السري للبطارية الساحلية ٣٥، وهو الملاذ الأخير للضباط القادة، تصرف الضباط بطرائق مختلفة قبل أن يغادروا إلى الأراضي غير المحتلة. لم يشعر نائب الأدميرال أوكتيابرسكي بتأنيب الضمير، بينما حاول اللواء بتروف إطلاق النار على نفسه من مسدس عندما علم بفداحة الكارثة التي حلت بقواته. لقد منعه مفوض الفرقة تشوخنوف Chukhnov، العضو في المجلس العسكري للجيش الساحلي، من ذلك. أعتقد أن ذلك صحيح.

بعد لقائي الأول مع الجنرال في خريف ١٩٤١، في قرية Dalnik القريبة من أوديسا، كنت انطباعاً جيداً عنه. بدا بتروف كأنه لا يتصف بالغطرسة والفوقية التي يتصف بها بعض القادة في "الجيش الأحمر"، فهو ديموقراطي جداً وقد أبدى اهتماماً بجنود الجيش ليس بالأقوال فقط وإنما بالأفعال. بالنسبة إليه، كنا جميعنا بمنزلة أبناءه. أذكر مرة في سيفاستوبول، عندما أراد تكريم الجنود والأفراد الذين شاركوا في الدفاع عن المدينة ممن أظهروا بطولة فائقة في صد الهجوم الألماني الثاني، أنه أعطى أمراً لطباعة عشرة آلاف شهادة شرف ووقع كل واحدة منها شخصياً. بعد ذلك، تم تقديمها إلى الجنود في السرايا والكتائب.

أفضل من فهم شخصية بتروف كان مراسل صحيفة Red Star، كاتب قصص الحرب والشاعر الشهير كونستانتين سيمونوف Konstantin Simonov، الذي زار اللواء في مركز قيادة فرقة شباييف ٢٥، حيث كتب:

١ واحدة من أسوأ الكوارث البحرية على مر العصور، بمصاف Lancastria. فالخسائر في الأرواح مجهولة، وقد تفوق خمسة آلاف، رغم العثور على ثمانية ناجين في واقع الأمر.

كان بتروف شخصاً استثنائياً من نواح عدة. لقد جمع بين الخبرة العسكرية الهائلة والمعرفة المهنية، وبين المستوى الرفيع من الثقافة العامة والقراءات الواسعة والولع الخالص بالفن، خصوصاً الرسم. من بين أصدقائه المقربين، ثمة رسامون بارزون لم يحالفهم الحظ بالحصول على الاعتراف الرسمي خلال تلك الأعوام. مع أنه كان يتعامل مع محاولاته الشخصية كرسام هاوٍ بقدر من السخرية المتحفظة، فإن بتروف، بغض النظر عن كل شيء، كان يمتلك ذوقاً فنياً مميزاً وقوياً.

كان بتروف رجلاً حاسماً بطبيعته، لكنه يمكن أن يكون قاسياً في الأزمات. رغم كل هذا "النفس العسكري"، إن كان في مقدوري استخدام هذا المصطلح، كان يدرك أن الطاعة العسكرية الصارمة تنطوي على كبت من نوع ما للكرامة الإنسانية، وهو لم يحبذ الأشخاص المتحمسين لهذا الجانب من الطاعة في الخدمة العسكرية. كانت شجاعته من النوع الهادئ وغير المتسرع، النوع الذي يجعله خاصة ليو تولستوي في الناس. على العموم، كان في سلوك بتروف شيء من شخصية الضابط القوقازي التقليدية كما يصورها الأدب الروسي في القرن التاسع عشر.

لم أعتقد يوماً أن القدر سيمنحني لقاء آخر مع القائد، لكن هذا الاجتماع سيكون ذا أهمية خاصة. فضلاً عن ذلك وقع اللقاء بمحض المصادفة في مكتب الأمر في نوفوروسيسك، عندما ذهبت هناك بوثيقة من المستشفى تثبت أنني قد تعافيت. حياني اللواء بنفسه. للوهلة الأولى، ألقني مظهر بتروف. كان وجهه كئيباً ويبدو عليه التعب، لكنه صافحني وابتسم، ثم بدأ يسألني عن الجنود والضباط الموجودين هنا من فرقة شباييف السابقة. أعلمني بتروف أن الفرقة لم تعد موجودة. مات أفرادها في سيفاستوبول، وحُرقت سجلاتهم، ودفنت أختامها في مكان ما على شاطئ خليج Kamysh، ورميت راياتها في البحر. اغرورقت عينايا بالدمع عندما تلقيت هذه الأنباء.

نظر اللواء إليّ بتمعن وسألني: "هل تذكرين رفاق السلاح من فوجك؟"

"كيف لك ألا تتذكرهم، يا إيفان يفموفتش؟" أجبته ماسحة الدموع من عيني

بمنديل، "كم من الأيام قضيناها معاً تحت القصف!"

- هل جرحت منذ وقت طويل؟

- كلاً، في منتصف حزيران/ يونيو. من انفجار قذيفة، أصابتنى شظية في خدي، وخسرت نصف أذني.

”وما الذي تنوين فعله الآن؟“ نظر متمعناً إلى الندبة التي لا تزال واضحة على خدي.

- إلى الجبهة، سيدي الرفيق اللواء. كما يفعل الجميع.

- هل لديك طموح معين، يا لودميلا؟ سأل القائد فجأة بلهجة غير عسكرية تماماً، وبصوت هادئ وودود. أخبريني، لا تخجلي.

”بالطبع لدي“، تنهدت قائلة، ”لكن كيف لي أن أحققه الآن؟ لقد تشتت الفوج، ومات الضباط، وحرقت الوثائق...“.

- إذاً، ما هذا الطموح، أيتها الرفيقة الرقيب أول؟

- أكثر أنواع الطموح طبيعية. أرغب في أن أصبح ضابطاً.

- أتقصد أن تحصل على رتبة ملازم متمرن؟

- نعم، فأنا أظن أنني قد استحققت ذلك.

لسبب ما، قررت في تلك اللحظة أن أكون صريحة تماماً مع بتروف. أرغب في المتابعة مع الجيش. أحب الحياة العسكرية وباستطاعتي إطلاق النار جيداً. خلال العام المنصرم، تعلمت كيفية قيادة الجند، والتفكير فيهم، وأن أكون مسؤولة عنهم في المعركة. فضلاً عن ذلك لم أسوّ حسابي مع النازيين لمقتل أصدقائي في الجيش، ولموت السكان المسالمين الأبرياء. تنبغي معاقبة النازيين على كل ما اقترفته أيديهم على أرضنا.

- هذا طموح عظيم، قال بتروف بلهجة جديدة. أعجبني ذلك. لكنك مخطئة إن اعتقدت أن ذلك لا يمكن تحقيقه. في غضون ثلاثة أيام، سأغادر نوفوروسيسك إلى مقر قيادة جبهة شمال القوقاز في كراسنودار Krasnodar. لقد طلب إليّ القائد العام للجبهة المارشال بوديوني Budyonny أن أرشح له بعض أبطال ”رابطة الشبيبة الشيوعية“ ممن دافعوا عن سيفاستوبول. سوف تذهبين برفقتي. سيجهز رئيس هيئة أركان الجيش

الساحلي، اللواء شيشينين Shishenin، الأوراق اللازمة. إن مقره هنا. لا شك أن المارشال سيوقع عن طيب خاطر أمراً بمنح رتبة ملازم متمرن للرفيق أول لودميلا بافلتشنكو تقديراً للمناقبية التي أبدتها في الدفاع عن المدينة في وجه النازيين الغزاة.

في اليوم اللاحق، تم تشكيل مجموعة من "رابطة الشبيبة الشيوعية". استلمنا وثائق ولباساً موحداً جديداً وانطلقنا بالطائرة إلى كراسنودار برفقة القائد، حيث استُضفنا في فندق اللجنة الحزبية لإقليم كراسنودار. انتظرنا اللقاء مع بطل الحرب الأهلية الأسطوري سميون ميخايلوفتش بوديوني Semyon Mikhailovich Budyonny على أعصابنا، نتأمل في الطريقة التي سيسير فيها اللقاء، وتساءلنا عن الأشياء التي يمكن للقائد العام أن يسأل عنها، وماذا ينبغي أن نقول له.

كان الاستقبال في مقر جبهة شمال القوقاز حاراً جداً وغير رسمي إلى حد ما. نتيجة لمعرفتنا بالمآثر المجيدة لقائد جيش الخيالة الأول في الصراع ضد البيض، تخيلنا أننا سنواجه بطلاً صارماً من أبطال الفولكلور الروسي. لكن رحّب بنا رجل ستيني، متوسط الطول، قوي البنية، مرح، دمث، ذو ابتسامة لطيفة مخبأة خلف شاربه الكثيف.

قدم بتروف الشبان المشاركين في الدفاع واحداً تلو الآخر: رامبي رشاش، ثلاثة من رماة المدفعية، رامي مدفع هاون واحد، أربعة جنود مشاة بمن فيهم أنا. سأل بوديوني كلاً منا باختصار، ثم صافحنا متوجهاً إلينا بضع كلمات إيجابية، متقدماً بالشكر أساساً على الثبات والشجاعة التي أبديناها أثناء القتال، ثم قدم إلينا المكافآت.

أمسك الخيال المخضرم يدي بقبضته المحكمة. نظر إليّ بابتسامة لطيفة وسألني: "ما حصيلتك في المعارك حتى الآن، أيتها الرفيق أول؟"

- ثلاثمئة وتسعة فاشيين قتلى، سيّدي الرفيق المارشال.

- أحسنت صنعاً يا لودميلا! أنت قناصة مذهلة. لقد أسهمت بصورة معتبرة في الدفاع عن المدينة.

- أنا أخدم الاتحاد السوفياتي.

"من المؤكد أن مربعات رتبة الملازم ستبدو جيدة على امرأة جميلة مثلك"، قال بوديوني بعد أن انحنى قليلاً باتجاهي. وأيضاً "وسام لينين للاستحقاق".

- شكراً لك، سيّدي المارشال.

أعطيت صندوقاً صغيراً مربوطاً بشريطة من المخمل والكتيب المرافق للوسام. كان من الصعب إيجاد كلمات تعبر عن المشاعر التي انتابني في تلك اللحظة، الفرحة المجنونة والغبطة والحماسة. فـ "وسام لينين للاستحقاق"، الذي أحدث في ٦ نيسان/ أبريل ١٩٣٠، من أعلى الأوسمة في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. كان يُمنح خاصة للخدمات المميزة، وحقيقة أن القيادة العليا قد قيمت إنجازاتي المتواضعة على هذا النحو أيقظت داخلي شعوراً بالفخر والحياء في الوقت نفسه. تذكرت أولئك الذين حاربوا معي بشجاعة على خطوط النار في أوديسا وسيفاستوبول، ولكن لم تكتب لهم الحياة لرؤية هذا اليوم المجيد.

كانت قلادتي، التي تحمل صورة لينين، مصنوعة من البلاتين، وتحمل الرقم ٧٦٠٦. عُلمت على الجهة اليسرى من بزتي العسكرية بواسطة دبوس وبرغي من نوع خاص. ابتداءً من ١٩٤٣ فقط، صار الوسام يقلد على قرص ثماني، ويثبت إلى شريطة حرير حمراء محددة بخطين صفراوين.

جاء في المنشور الموزع على قوات جبهة شمال القوقاز، المتضمن النسخة المكتوبة للأمر رقم ١٣٧. الصادر بتاريخ ١٦ تموز/ يوليو ١٩٤٢، ما يلي:

باسم رئاسة المجلس السوفياتي الأعلى، تمنح الرقيب أول بافلتشنكو، لودميلا ميخايلوفا، القناصة في فوج الرماة ٥٤ التابع لفرقة الرماة ٢٥، "وسام لينين للاستحقاق" تقديراً لتنفيذها المثالي لأوامر القتال على الجبهة في مواجهة الغزاة الألمان والبسالة والشجاعة التي أبدتها أثناء ذلك.

قائد قوات جبهة شمال القوقاز، مارشال الاتحاد السوفياتي إس بوديوني، ورئيس هيئة أركان جبهة شمال القوقاز، اللواء زاخاروف Zakharov. وعضو المجلس العسكري لجبهة شمال القوقاز، الأدميرال إساكوف Isakov. إلى المفوض العسكري ورئيس قسم الأفراد في جيش شمال القوقاز، بتوقيع، المفوض الأعلى للكتيبة، كوسكوف Kosikov. أصدر

في أربع نسخ^١

١ الوثيقة مودعة في أرشيفات وزارة الدفاع المركزية، الاتحاد الروسي، برقم إيداع ٣٣، Op 682524، الخانة ٦١٣.

صدر الأمر الذي منحت بموجبه رتبة ملازم بتاريخ ١٦ تموز/ يوليو أيضاً، لكن الترقية الرسمية إلى رتبة ضابط جاءت في مستودع الجيش للمخصصات العينية للأفراد الموجودين في الخدمة. منحني ذلك شعوراً عظيماً بالرضا. لم تكن السترة سترة جندي قطنية، بل مصنوعة من الكبردين الممزوج بالصوف، وذات عرى حمراء توتية على الياقة مطرزة بخيوط ذهبية بشكل بديع، ومربع من المينا التوتية وسط العروة وشعار المشاة - بندقيتين متصالبتين - في الزاوية. عوضاً عن قبعة العمل التي سفعتها شمس القرم التي لا تطاق، استلمت قبعة ضابط ذات حافات توتية وواقية وجه ملمعة سوداء. أما المعطف، فكان من الصوف عوضاً عن ذاك القماش السميك غير المكوي. وبالطبع، الحذاء مصنوع من الجلد الطبيعي وليس الصناعي. كان للحزام حمالة للكثف وقراب مسدس وبكلمة نحاسية خاصة بالضباط على شكل نجمة ثمانية. هنا يبرز السؤال حول مستقبل خدمتي العسكرية في الأيام المقبلة. التزمت المثل القديم المتبع في الجيش: "لا تطلبها ولا ترفضها". إن الأمر سيان بالنسبة إلي أنني أرسلوني. وكما يقول مثل عسكري آخر: "لن تعطى أقل من كتيبة، ولن ترسل إلى أبعد من الجبهة". كان الألمان يتحضرون لتقدم جديد وقد تم تحديد الهدف: ستالينغراد. لكن قسم الأفراد التابع لجبهة شمال القوقاز نظر إلى مستقبلي المهني بصفة ضابط على نحو مختلف. تم تعييني قائد كتيبة قناصة في فرقة الحراس المظليين رقم ٣٢. بصراحة، كنت خائفة جداً وبدأت أشرح لهم أنني أخاف من المرتفعات منذ طفولتي، فهي تتسبب لي الدوار، وفوق كل هذا لا أعرف كيف أقفز بالمظلة.

"لا تقلقي، يا لودميلا ميخايلوفا"، قال لي نقيب شاب شديد التألق يجلس خلف مكتب عليه أكوام من الورق، "تم استلام الأمر بتشكيل فرقة الحراس المظليين ضمن القوات المجوقلة حرفياً منذ يوم أو يومين فقط. لن يكون عليك الطيران إلى أي مكان. وليس لدينا طائرات نقل كفاية. في الوضع الراهن، إن وحدات المظليين هي ببساطة نخبة وحدات المشاة لدينا، أو أفضلها".

- من دون طيارة؟

- بالتأكيد.

- وأين موقع الفرقة؟

- ستسافرين إلى قطاع موسكو العسكري. هناك سيدوون تشكيل ثماني كتائب مظليين جدد في آب/ أغسطس، مستخدمين الرمز التنظيمي نفسه الذي استخدم في السابق من أجل الحفاظ على السرية. هل فهمت؟

- نعم، سيدي الرفيق النقيب.

- عرّجني على المكتب المجاور. يفترض أن تستلمي شارة حارس، بما أنك الآن قائدة كتيبة في وحدات الحراسة، وشارة قناص أحدثت في أيار/ مايو من هذا العام جائزة للقناصين الذين أظهروا تميزاً خاصاً.

تبع ذلك مصادفة مثيرة للاهتمام. كان اللواء بتروف على وشك المغادرة إلى موسكو للمثول أمام ستالين. أخبرني بذلك في حفل استقبال في مقر هيئة أركان جبهة شمال القوقاز، اختتم بتقديم وجبات خفيفة إلى جنود "رابطة الشبيبة الشيوعية" الذين تم تقليدهم الأوسمة والنياشين. عندئذ شكرت إيفان يفموفتش على كل ما فعله من أجلي. يمكن أن يكون للكلمة في الوقت المناسب والمكان المناسب وقع مؤثر. اكتفى اللواء بالابتسام. لم تبد عيناه الرماديتان من خلف عدسات نظاراته التي تركز على أنفه متعبة وحزينة كما كانت يوم لقائنا السابق في نوفوروسيسك. كان ألم الخسارة يخف تدريجياً ويصير أقل حدة. علينا التفكير في معارك جديدة ضد العدو الذي لا يزال يندس التراب الروسي كما في السابق. لكننا لم نعرف هل سيكتب لنا القتال معاً مرة أخرى. لعل ذلك لم يكن مهماً. لقد جمعت ملحمة سيفاستوبول جميع من شاركوا فيها بروابط غير مرئية، لكنها سرمدية.

نجوم موسكو

بما أنني عشت في كييف، عاصمة أوكرانيا، لعشر سنوات تقريباً، تخيلت أن موسكو، عاصمة الاتحاد السوفياتي، ستكون مشابهة لها. على أي حال، بدت موسكو من النظرة الأولى مختلفة تماماً: كبيرة، ملوكية، قاسية. كانت موسكو تجسداً مثالياً لبلدنا الكبير في قوته وعظمته. كانت الشوارع والساحات في المدينة مذهلة بأبعادها الاستثنائية، وذلك ينطبق على الأبنية بارتفاعاتها وهندستها المعمارية المميزة والرائعة. لم يمضِ وقت طويل جداً، نصف عام فقط، على معركة دارت رحاها على أسوار موسكو. انخرط "الجيش الأحمر" في عمليات دفاعية من ٣٠ أيلول/ سبتمبر حتى ٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤١، ثم تحولوا إلى الهجوم خلال الشتاء حتى نيسان/ أبريل ١٩٤٢. خطط النازيون للسيطرة على عاصمتنا دون التوقف لالتقاط أنفاسهم، لكنهم فشلوا بالهجوم الأول. جهزوا بعد ذلك لعملية تحمل اسم "Typhoon"، إذ اقترحوا تقطيع أوصال الدفاعات السوفياتية عن طريق ثلاث ضربات من مجموعات دبابتها القوية، ثم محاصرتهم وإبادتهم. لم تنجح هذه الخطة أيضاً رغم التفوق العددي بعدد الدبابات والمدافع والطائرات. في نهاية المطاف، ومقابل الخسائر الفادحة التي تكبدوها، تمكنوا في نهاية تشرين الثاني / نوفمبر وبداية كانون الأول/ ديسمبر من الوصول إلى قنال موسكو في بلدة Yakhroma، وعبور نهر Nara قرب Naro-Fominsk والاقتراب من Kashira. وعندها وجهت قواتنا المقاتلة ضربة

ساحقة ضد قوات الألمان. ومع بداية كانون الأول/ ديسمبر، حررت قواتنا عدداً من المراكز السكانية من ضمنها: Rogachov، Istra، وSolnechnogorsk، وKlin، وVolokolamsk، وKalinin.

أذكر كيف انتظرنا في سيفاستوبول الأخبار من جبهة موسكو بصبر فارغ. أثارت الأخبار الأولى عن الهزيمة المنكرة التي تلقتها القوات الألمانية النازية على أسوار موسكو شعوراً بالفرحة العارمة وأعطينا الثقة بأنه من الممكن هزيمة الآلة العسكرية الألمانية. ومع هجوم النازيين على القاعدة البحرية الرئيسية لأسطول البحر الأسود، الذي بدأ صبيحة ١٧ كانون الأول/ ديسمبر، ذكر المدافعون الذين صدوا الهجمات الشرسة عن المدينة أنفسهم بضرورة أن يحذو حذو جنود موسكو. ألهمتنا أمثولتهم. تراجع العدو عن أسوار العاصمة، لكن الوضع بقي ساخناً على الجبهة. شاهدت المضادات الجوية في الحداثق العامة وعلى مفارق الطرق. وهناك فريق مع حاجز سد منطادي منشور على طول الطريق. كان الجنود يسحبون الحبال الطويلة في محاولة للسيطرة على منطاد ضخّم يشبه وحشاً من حقبة ما قبل التاريخ. كانت نوافذ المتاجر والمنازل السكنية معلمة بإشارة X مصنوعة من قصاصات عريضة من الورق الأبيض. وكانت بعض الأبنية (بناء مسرح Bolshoi مثلاً) مموهة بالألوان، ما أدى إلى تشويه أبعادها وجعلها متماهية مع خلفية المدينة.

كانت وجهتي إلى شارع Maroseika حيث مقر قيادة اللجنة المركزية لـ "رابطة الشبيبة الشيوعية" لعموم روسيا بدا وجود بعض الأشياء في البهو الواسع غريباً في مبنى الإدارة: صناديق مليئة بالرمال، ورفوش، وملقّط وكماشة للتعامل مع القنابل الحارقة. هذه الأشياء تستخدم في تسليح الجنود العاملين في فرق الإطفاء الذين يحرسون على أسطح المباني. طلب الحراس رؤية أوراقتي، فأخرجت بطاقة "رابطة الشبيبة" من جيب سترتي العلوي.

شغل قسم السكرتارية للجنة المركزية الدور الرابع من المبنى. في منطقة الاستقبال الخاصة بالسكرتير الأول، كان الناس قد تجمعوا من أجل الحديث، الشبان الذين شاركوا في الدفاع عن سيفاستوبول مثلي، وقدموا إلى موسكو من كراسنودار، بعد أن تم تقليدهم أوسمة، بناء على توجيهات الهيئة العامة لجبهة شمال القوقاز. استقبلنا

نيكولاي ميخايلوف Nikolai Mikhailov، السكرتير الأول للجنة المركزية للرابطة، وقد كان رجلاً في الخامسة والثلاثين تقريباً، لطيفاً وساحراً للغاية، ذا عينين بنيتين وشعر داكن. هنا بوصولنا سالمين إلى العاصمة، وجلس معنا على طاولة طويلة في مكتبه الواسع إلى حد ما، ثم بدأ المحادثة.

قاد السكرتير الأول مجريات الجلسة بمهارة. وفي الحال، شعر الجنود المتمرسون بالراحة وشرعوا بالحديث عن الأحداث الأخيرة في شبه جزيرة القرم. أنصت ميخايلوف بانتباه، وطرح الأسئلة، وألقى الطرف العرضية وحكى الحكاية الغريبة من تجربته في "رابطة الشبيبة الشيوعية". في المجمل، سار الاجتماع دون أي قيود في ظل جو من المودة. بعد ذلك، جاء دوري في الكلام. لم يكن في نيتي مشاركتهم ذكرياتي عن إنجازاتي لكنني أردت تقديم الاحترام الواجب إلى زملائي في الفوج الذين بذلوا أرواحهم في الكفاح ضد الغزاة النازيين: الملازم أندريه فورونين الذي قاد فصيلتنا في الهجوم على تاركا، وقائد الكتيبة الأولى، النقيب إيفان سرغينكو، الذي ميزه أداؤه في معارك Ishun الدامية، والملازم المتمرن ألكسي كسنكو (دعوته القناص)، وتلك الرقيب أول البطلة من فصيلة الرشاشات، نينا أنلوف، فارسة "وسام النجمة الحمراء للاستحقاق" التي توفيت متأثرة بجراحها في ٧ آذار/ مارس ١٩٤٢ في أحد مستشفيات سيفاستوبول.

بدا كأن ميخايلوف أحب مساهماتي. صدف أنه عامل حزبي خبير وخبير بروباجاندا. بعد أن بدأ العمل بصفة عامل يدوي في السادسة عشرة، نُقل إلى مصنع Hammer and Sickle في موسكو، حيث عين عامل لف قضبان حديدية، ثم انضم إلى صفوف الحزب الشيوعي، وبدأ كتابة المقالات لصحيفة المصنع الواسعة الانتشار. بدأ العمل صحافياً منذ ١٩٣١، لصحيفة *Komsomolskaya Pravda* في البداية، ثم لـ *Pravda*. ورُشح لمنصب السكرتير الأول للجنة المركزية لـ "رابطة الشبيبة" عام ١٩٣٨ وقيل أن ترشيحه قد نال موافقة ستالين شخصياً الذي عول كثيراً على مواهبه التنظيمية وتفانيه في سبيل بناء الاشتراكية في بلد واحد منفصل.

اختتم الاجتماع بطريقة تقليدية للغاية: تقديم هدايا قيمة. لكن ميخايلوف اقترب مني متوجهاً إليّ بطلب. قال إن خطابي يتسم بالدقة اللغوية والأسلوب الأدبي الجيد،

وإنني أمتلك صوتاً جهوراً، وعلى علم ممتاز بموضوعي (أي بأحداث الحصار) ولذلك عليّ أن أغادر ضمن يومين لحضور اجتماع في مصنع Compressor، حيث أقدم إلى العمال الشبان لمحة مشابهة، بسيطة ونزيهة وحيوية، عن الطريقة التي آلت إليها الأحداث في سيفاستوبول.

”لم يسبق لي أن تحدثت في الاجتماعات وليس لدي فكرة عن ذلك“، أجبته.

- لا تكوني متواضعة، يا لودميلا. وجدت ما قلتيه ممتعاً جداً.

- حسناً، لكن هذا كان هنا، في مكتبك.

- لا عليك، ستعتادين الأمر. لديك كل ما يحتاجه الخطيب. يحتاج الناس أن يعرفوا عن هذه الحرب المروعة. ما نحتاج إليه فقط هو إخبارهم عنها بلهجة متفائلة. لن أقول إن اقتراح ميخايلوف راق لي. لكن، كالعديد ممّن نجوا من معارك الخط الأمامي، أحسست بشعور بالذنب في ما يخص رفاق الفوج الذين قضوا في النيران الجهنمية. وبتكرار أسمائهم مرة تلو أخرى، أعيدهم من عالم النسيان بطريقة أو بأخرى. لقد بقوا أحياء عبر ذكرياتنا.

ضمن الجيش، لم تكن الأمور سيئة إلى ذاك الحد أيضاً. في زيارة إلى مكتب مفوض المدينة، استلمت قسائم التموين الجاف والإقامة في سكن مفوضية الدفاع الشعبي الواقع في شارع Stromyn. هناك، خصصت لي غرفة بمساحة ١٦ متراً مربعاً. قدمت نفسي بعد ذلك إلى القيادة العليا الجديدة في فرقة الحراس المظليين. أرسلت إلى أحد مراكز التدريب بصفة معلم قنص. أعطيت مجموعة مؤلفة من ثلاثين جندياً تم اختيارهم من مفارز الفرقة على أساس نتائجهم في اختبارات القنص في فرق الأغرار. لدي شهر واحد لتعليمهم مبادئ القنص الأساسية، وإخضاعهم لدورة قصيرة في علم المقدوفات والتمويه، وإجراء تدريبات عملية، ثلاث مرات أسبوعياً، في حقل رمي يقع ضمن المركز.

ورغم ذلك، كنت وحيدة تماماً في موسكو الكبيرة، بلا أقارب أو أصدقاء أو معارف. لم يكن هناك إلا اللقاءات مع ميخايلوف فقط، الدورية تقريباً. كان عليّ الذهاب معه بسيارته التي يقودها سائق إلى مختلف المناسبات العامة. لم يعد نيكولاى ألكساندروفيتش Nikolai Alexandrovich يخفي انجذابه تجاهي بعد الآن، لكنني لم

أكن سعيدة بذلك. كنت أعيش على ذكريات زوجي المرحوم. لا يمكن لأحد أن يعيش في قلبي كحبيبي الذي لا ينسى، "ليونيا"، الذي يرقد في مقبرة الأخوة في مدينة يستولي عليها الغزاة الآن.

لجأت إلى سبل أخرى للتعبير عن نفسي، وشرحت لميخايلوف أنه ليس من اللائق لملازم متمرن أن يستجيب لمغازلة من جنرال، وأقصد السكرتير الأول لـ"اللجنة الإقليمية لرابطة الشبيبة الشيوعية"، وأنه سيكون من الأفضل لكلينا أن نبقي مجرد أصدقاء لو كان حقاً يرغب في الحفاظ على هذه الصداقة. فوجئ مفضل الرفيق ستالين بما قلته. لكن، كما أظهرت الأحداث التي تلت، كُتب لصداقته معي أن تستمر، وكان لها دور حاسم في ما تلى.

في ما يتعلق بأمور الخدمة، كنت أيضاً أهتم بشؤوني فقط، فلم أغازل أحداً، ولم أبق من أجل حفلات الضباط الاعتيادية، بل كنت أعود مسرعة إلى غرفتي في السكن. هنا، شغلت نفسي بذكرياتي الحزينة، وقرأت وأعدت قراءة روايتي المفضلة *War and Peace* [الحرب والسلام]، وكتبت الرسائل إلى جمهورية أودمورتسكيا Udmurtia. شكوت لأمي حنيني المرعب للوطن وطلبت منها القدوم إلى موسكو، حتى لو لشهر واحد. سألت أختي الكبرى عن صحة مورجك الغالي ووضعه في المدرسة.

على أي حال، أدخل ميخايلوف بسرعة عنصراً جديداً من التنوع إلى حياتي. في مكتب السكرتير، وبمبادرة منه، تعرفت إلى بوريس أندريفيتش لافرينيوف Boris Andreyevich Lavrenyov، الكاتب السوفياتي المشهور ومؤلف الروايات، والروايات القصيرة، والقصص القصيرة، والمسرحيات وسيناريوات الأفلام التي كانت تعرض على شاشات بلدنا قبل الحرب. أخبرني لافرينيوف أنه قد طلب من مكتب الإعلام السياسي لـ"الجيش الأحمر" - أو توخياً للدقة، قسم الصحافة والمعلومات فيه - إصدار كراس عن القناصة لودميلا بافلتشنكو كجزء من السلسلة المشهورة *Frontline Library of Red Navy Mariners* [مكتبة الجبهة عن بحارة البحرية الحمراء]. لقد أخذ على عاتقه كتابة هذا التقرير ويرغب في التحدث إليّ بشأنه.

بالطبع كان اسم بوريس لافرينيوف مألوفاً بالنسبة إليّ؛ قرأت روايته القصيرة *The Forty-First* [الرجل الحادي والأربعون]، كما شاهدت الفيلم المبني عليها الذي

تم تصويره عام ١٩٢٧ بواسطة المخرج ياكوف بروتازانوف Yakov Protazanov. في جميع الأحوال، بدت كلتا الشخصيتين في هذا الفيلم - فتاة المصنع الخجولة ماريوتكا Maryutka، الجندية في إحدى مفارز "الجيش الأحمر"، وسجينها المثقف الرفيع المستوى الذي يعشق الكتب، غوفروخا أوتروك Govorukha-Otrok، الملازم في الجيش الإمبراطوري - والصراع الدائر بينهما بكامله مصطنعاً إلى حد ما. إن مسألة كيفية التعامل مع عدو يحاول الهرب لن تشغل اهتمام رامي بنديقة أكثر من نصف دقيقة. بكل بساطة ضغطة من السبابة على زناد البندقية ستحل المشكلة.

يقف أمامي الآن رجل في الخمسين، طويل القامة وضخم الجثة، يضع نظارة ذات إطار معدني ويرتدي بذلة من صوف التويد الخشن. كان له رأس جميل يغطيه الشيب. تفحصني لافرينيوف بنظره من أعلى رأسي إلى أسفل قدمي بنظرة ثابتة وقال عرضاً إنه رأى في نسخة مطابقة تماماً لبطلته روايته القصيرة *The Forty-First*، شخصية الفتاة ماريوتكا، وعليه، تكوّن لديه فهم جيد لشخصيتي. إن استطعت الإجابة عن عدد من أسئلته الآن، سيكون العمل جاهزاً في غضون أسبوع، يُسلم بعدها للطباعة. سيصدر الكراس في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٢. هكذا، سيعرفني الجميع، وهذا سيكون رائعاً.

كان هذا بمكانة التلويع بالرداء الأحمر للثور. في المقام الأول، أنا لست فتاة مصنع بلهاء، بل طالبة جامعية في جامعة كييف الحكومية، وضابطاً في "الجيش الأحمر" أيضاً.

ثانياً: كان لدينا وضعان مختلفان: تلك الفتاة الحمقاء قد وقعت في غرام سجينها الملازم، وبفهمي نص الرواية، صارت عشيقته؛ أما في حالتي، فسيبقى جنود الألمان مجرد أهداف لا تستثير في أي مشاعر عاطفية شخصية. ثالثاً: لم أجد أي سعادة في أن يصير اسمي وقصة حياتي معروفتين لآلاف الأشخاص الذين لا أعرف عنهم شيئاً. رابعاً: سبق أن خضت تجربة الاحتكاك بالكتاب والصحافيين، وكانت النتيجة سلبية. بإمكان المحترم بوريس أندريفتش أن يذهب ويكتب عن شخص آخر. يوجد اليوم كثير من الأبطال الذين يدافعون بشجاعة وجرأة عن الوطن الأم.

لم يتوقع الكاتب المشهور مثل هذا الرفض، ما جعله يفقد اتزان. لقد أخذت صور

الحرب الأهلية الرومانسية منه مأخذاً لدرجة أنها منعت من رؤية الحقيقة بموضوعية. عام ١٩٢٠-١٩٢١، انتقل الملازم المدفعي بوريس سيرجييف (Sergeyev) (لافرينيوف اسمه الفني) من جيش المتطوعين البيض إلى جانب "الجيش الأحمر"، وقاتل المتمردين المسلمين الباسماخين في السهول الواقعة وراء البحر الأسود، حتى أنه قاد قطاراً مدرعاً. بعد ذلك، بالتعاون مع الكاتبين كونستنتين ترييوف Konstantin Trenyov وفيزيوفولود إفانوف Vsyovolod Ivanov، اعتُبر مؤسس المسرح البطولي الثوري الرومانسي. لكن لم يكن هناك الكثير من الرومانسية الثورية في سياق مقاومة شعبنا للفاشية الألمانية وعدد من حلفائها الأوروبيين.

تخيلت أن معرفتي ببوريس أندريفتش Boris Lavrenyov ستنتهي بهذه الطريقة. لكن لافرينيوف أبدى إلحاحاً، واشتكى من تصرفاتي غير المقبولة للمجلس المركزي للإعلام السياسي في "الجيش الأحمر". وعدوه باتخاذ إجراءات، وفعلوا ذلك: أصدر رئيس المجلس العميد إي. إي. شيرباكوف A. A. Shcherbakov أوامر صارمة، وأعطى لافرينيوف رقم هاتف سكن مفوضية الدفاع. أجرى اتصالاً، فوافقت على لقاء آخر. تمت كتابة كراس Lyudmila Pavlichenko في الوقت المحدد بقلم بي. إي. لافرينيوف وصدر في أواخر ١٩٤٢، ونُشر في دار نشر القوات البحرية التابع لمفوضية بحرية الشعب السوفياتي. قبل ذلك بمدة قصيرة، في آب/أغسطس، عُرض النص على صحيفة Izvestiya التي نشرته في عددها رقم ٢٠٩ (٧٨٩٥) الصادر في ٥ أيلول/سبتمبر ١٩٤٢ تحت العنوان نفسه. سأقتبس فقرة من بداية العمل:

كان الصباح دافئاً في ذاك اليوم الجميل من تموز/يوليو. السماء زرقاء ساطعة فوق الأشجار العتيقة على طريق ساحة البلدية، كما في القرم. مشينا عبر ممر جانبي وجلسنا على أحد المقاعد. نزعنا قبعاتنا العسكرية عن رؤسها. تلاعبت الريح بشعرها المنفوش والمقصوص قصيراً، الذي بدا بنعومته كشعر طفلة. تطايرت خصلة من شعر الصبية الحريري فوق جبهتها البارزة الصافية. كانت معالم وجهها الرقيقة القلقة تحمل تعبيراً ينم عن النهم الطائش والشغف الشديد. يمكن لأبيات لرمنتوف أن تعبر عن ذلك على أفضل وجه:

عرّف قوة فكرة واحدة لا غير،
شغف وحيد، لكنه متقد.

كان وجهاً يعبر عن الكرامة الإنسانية النبيلة، عن شخصية قادرة على الفعل المباشر، غير راغبة في تحمل أي تسويات أو تأييد أي مساومات. كانت عيناها البنيتان الغامقتان بلمعانهما الذهبي تغفوان تحت حاجبيها الرفيعين. حتى أنهما بدتا كئيبتين. لكن بعد دقيقة واحدة، لمعت عيناها فرحاً، بشفاافية طفولية، لدرجة أنهما أضاءتا كل شيء من حولها، قائلة: "حسناً، سأخبرك بما أذكر".

كان هذا أصدق جزء من التقرير.

في ما تبقى من التقرير، حاك الكاتب وقائع منفصلة من سيرتي الذاتية، مع القليل من اختراعاته واقتباسات من *Great Soviet Encyclopedia* [الموسوعة السوفياتية العظيمة]، كأنه يعيد كتابة تاريخ أوكرانيا. لم يذكر مثلاً متى وكيف انضمت إلى صفوف "الجيش الأحمر". من الجهة الأخرى، تضمن الكراس وصفاً نابضاً بالحياة لواقعة قصف مدينة كييف، التي لا يمكن أن أكون قد شهدتها إذ أنني في حزيران/يونيو ١٩٤١ كنت في أوديسا، كما تضمن قصة عن محادثة مؤثرة بيني وبين أمي التي كانت قد سبق وانطلقت مستقلة القطار أثناء عمليات الإخلاء في أودمورتسكيا. ركز الكاتب بكثير من الاهتمام على الصراعات التي جرت بيني وبين المعلمين في المدرسة الثالثة في بيللا تسيركفا (لم تحدث أصلاً)، وعزا ذلك إلى نزعة مشاكسة في شخصيتي. فضلاً عن ذلك ذكر لافرينيوف بطريقة غير صحيحة تواريخ بدايتي في مصنع الأسلحة، وفي جامعة كييف، ودورة القنص لعامين، لكنه اختلق قصة مفادها أنني وضعت شهادة الدبلوم جانباً بعد التخرج، ونسيتها كلياً لأنني لم أكن أحب العسكرية وقد حلمت طوال حياتي بدراسة تاريخ وطني الأم أوكرانيا.

بخمسين ألف نسخة مطبوعة، وُزّع هذا العمل التخيلي بسرعة فائقة في أرجاء البلاد كلها. لاحقاً استخدمه زملاء لافرينيوف، الأطقم الصحافية في الصحف والمجلات المركزية والمحلية، كمصدر موثوق للمعلومات عندما يؤلفون مقالاتهم الخاصة عني. أستطيع مقارنة هذه الملحمة بأكملها بالمرآة المتلوية التي تحطمت إلى أجزاء في قصة

The Snow Queen [ملكة الثلج] لـهانز أندرسن Hans Andersen، إذ تناثرت أجزاؤها التي شوهت الواقع على نحو مؤذٍ في مختلف الأصقاع. على كل حال، لم تعتمد السلطة السياسية المركزية لـ"الجيش الأحمر" على الكتاب البارزين وتخيلاتهم الغريبة فحسب، بل أرسلوا عنصرين من طاقم البروباغاندا ليلتقوني أيضاً. قالوا إنه إضافة إلى الكراس قد تقرر إصدار مئة ألف قصاصة ورقية تحمل صورتي ودعوة لجميع جنود "الجيش الأحمر" تقول: "أطلق النار على العدو ولا تخطئ الهدف!" صاغوا نص المنشور بأنفسهم بعد محادثة معي دامت قرابة ثلاثين دقيقة. كانت بسيطة لكن شاملة، وفي المجمل، عبّرت عن أفكارى وأحاسيسي بدقة، قائلة:

"الموت للغزاة الألمان!"

القناصة البطلة، لودميلا ميخايلوفا بافلتشنكو.

الابنة البارة لـ"رابطة الشبيبة الشيوعية اللينينية-الستالينية"، التحقت بـ"الجيش الأحمر" متطوعة خلال الأيام الأولى من الحرب في أرض الآباء والأجداد العظيمة. أردت لودميلا بافلتشنكو ببندقيتها ٣٠٩ قتلى من الألمان على جبهات أوديسا وسيفاستوبول. "هذا هو التوجه الصائب والملائم الذي ينبغي تبنيه في التعامل مع الألمان. إن لم تقتلهم فوراً، لن تنتهي مشكلاتك"، هذا ما كتبه لودميلا لأُمها في إحدى المرات. كانت شجاعة لودميلا بافلتشنكو ومستوى خبرتها العسكرية الرفيع تلهم الآلاف من قناصي "الجيش الأحمر" - أبطال الإنتاج على الجبهة - ليسطروا مآثر إضافية. يا جنود "الجيش الأحمر!" دمروا الأعداء بلا رحمة كما تفعل لودميلا بافلتشنكو!

أطلق النار على العدو ولا تخطئ الهدف!

عندما مشيت في شوارع سيفاستوبول، كان الأولاد يوقفونني دائماً ويسألونني بلهفة: "كم ألمانياً قتلت البارحة؟" كنت أقدم إليهم تقريراً تفصيلياً عن عملياتي بصفتي قناصة. في أحد الأيام، كان عليّ أن أخبرهم بصدق أنني أطلقت النار على العدو لأيام. "هذا سيئ"، قال الأولاد بصوت واحد.

واحد منهم، الأصغر، أضاف بصرامة: "هذا سيئ جداً. ينبغي قتل النازيين كل يوم". لقد نطق بالحق، هذا المواطن الصغير الجدي من سيفاستوبول. منذ ذاك اليوم المشهود

الذي اقتحم فيه النازيون السفاحون وطني، اتسم كل يوم من أيام حياتي بفكرة وحيدة، برغبة وحيدة: أن أقتل الأعداء.

عندما ذهبت إلى الحرب للمرة الأولى، شعرت بالغضب فقط من الألمان لتعكيرهم صفو حياتي الهادئة ولأنهم هاجمونا. لكن ما رأيته لاحقاً ولّد داخلي كراهية يتعذر إخمادها، لدرجة أنه كان من الصعب التعبير عنها بأي طريقة أخرى سوى رصاصة تخترق قلب النازي. شاهدت جثة فتاة في الثالثة عشرة في إحدى القرى التي استعيدت من العدو. لقد ذبحها النازيون. هذه هي الطريقة التي أظهرها فيها قدرتهم على استخدام الحرية. المتوحشون! رأيت دماغاً متناثراً على جدار منزل، وبجواره جثة طفل في الثالثة. كان الألمان يعيشون في ذاك المنزل. لعب الطفل وبكى مانعاً أولئك الوحوش من الحصول على قسط من الراحة. حتى أنهم لم يسمحوا للأم بدفن طفلها. ففقدت المسكينة عقلها...

تعلمك الكراهية الكثير. علمتني أن أقتل الأعداء. أنا قناصة. أبدت ٣٠٩ فاشيين بينديتي القناصة في أوديسا وسيفاستوبول. شحذت الكراهية في البصر والسمع، أعطتني الإرادة والمهارة؛ علمتني الكراهية أن أموه نفسي وأخدع العدو، أن أتوقع مكره وأفخاخه. علمتني أن أتعب قناصة العدو بصبر فارغ إلى ما لا نهاية.

محال لظماً الانتقام أن ينطفئ. هناك غازٍ وحيد على تراب أرضنا؛ لن أفكر إلا في شيء واحد فقط: قتل العدو. وسأتحدث عن شيء واحد فقط مع رفاقي في السلاح ورفاقي في المواطنة: اقتلوا النازيين!

الملازم المتمرن القناص لودميلا بافلتشنكو.

من منشورات "السلطة السياسية المركزية للجيش الأحمر"، ١٩٤٢، ١.

استمرت حياتي في موسكو على المنوال نفسه، وفي الثالث من آب/ أغسطس ١٩٤٢، التقيت والدتي، يلينا، في محطة Kazan. احتاجت إلى إذن خاص للقدوم إلى العاصمة وكنت قد سبق وتقدمت بطلب إلى قيادة الفرقة. أصدر الإذن وأرسلته إلى قرية Vavozh في جمهورية أودمورتسكيا الاشتراكية المستقلة. بعد انفصالنا الطويل، عانقتني لينوسيا على منصة المحطة والدموع في عينيها وقالت إنني قد تغيرت كثيراً وكبرت. كنت قد طلبت سيارة من القائد، ولذلك كانت رحلتنا من المحطة إلى السكن في شارع Stromyn سريعة على نحو استثنائي. أعجبت لينوسيا بغرفتي رغم

١ أتاح "متحف الدفاع البطولي عن سفاستبل وتحريرها" الحكومي عرض هذه الوثيقة.

أن الحمام والمرحاض كانا في نهاية الممر. لكن في قرية Vavozh كانوا يعيشون في كوخ متداع بارد، في باحته بئر ماء، ولم يجروا حتى أن يحلموا بتحسين ظروف معيشتهم. أما في السكن، فهناك صنادير مياه ساخنة وباردة في المطبخ. رأت أمي هذا الإنجاز الحضاري معجزة عظيمة، وكانت تغمرها السعادة حقاً.

أعلم الآن أنه في ذاك اليوم بالتحديد حدث شيء قلب مسيرة حياتي العسكرية رأساً على عقب. في اليوم نفسه أيضاً، الثالث من آب/ أغسطس، أرسل السفير الأميركي في الاتحاد السوفياتي، أفيريل هاريمان Averell Harriman، برقية إلى القائد العام الأعلى، الرفيق ستالين، من الرئيس الأميركي فرانكلن روزفلت Franklin Delano Roosevelt، يخبره فيها أن واشنطن ستستضيف تجمعاً دولياً للطلاب بين ٢ وه أيلول/ سبتمبر، حيث يتوقع أن يلعب وفود القوى الأربع المتحالفة - الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وبريطانيا العظمى والصين - دوراً أساسياً. عبر رئيس الولايات المتحدة عن رغبته في أن يحضر التجمع وفد من ثلاثة أو أربعة طلاب سوفيات، ويُفضل أن يكونوا ممن شاركوا في القتال ضد الفاشيين الألمان.

ورقيات كثيرة تحتاج قرارات سريعة انتهى بها المطاف على مكتب الرجل الذي كان يشغل منصب رئيس لجنة دفاع الدولة التي صار يتبع لها الآن جميع مؤسسات الدولة، والقائد العام الأعلى للقوات المسلحة السوفياتية، ومنصب مفوض الدفاع الشعبي. انتظرت برقية روزفلت مرفق بها الترجمة إلى الروسية دورها. عند المساء فقط قرأ ستالين البرقية ثانية، وفكر في اقتراح الرئيس الأميركي.

تبادلت القوتان الرسائل العاجلة على نحو متكرر. مثلاً منذ أسبوعين تلقى الكرملين رسالة من الحلفاء يرفضون فيها فتح جبهة ثانية ضد ألمانيا في أوروبا الغربية ذاك العام. كانت هذه أنباء غير سارة إطلاقاً. في صيف ١٩٤٢، كان الوضع على جبهات "الجيش الأحمر" يصير صعباً. خلال الأيام الأولى سقطت سيفاستوبول وصارت القرم بيد الألمان كلياً. كان النازيون يجهزون لزوج قواتهم المتوفرة حديثاً في القوقاز من أجل السيطرة على حقول النفط. فضلاً عن ذلك كانوا يخططون لاحتلال المناطق الخصبة في Don، و Kuban، وفولغا السفلى. كما كان الجيش الألماني السادس يتقدم على جبهة ستالينغراد بقيادة اللواء أوبرست باولس Oberst Paulus.

الآن يعتزم الحلفاء عقد تجمع طلاب دولي ما شمالي أميركا لأسباب لا تزال غير واضحة بالنسبة إلى قائدنا العام الأعلى. يبدو أنه ليس لديهم أمور مهمة أخرى يفعلونها. ما الذي يمكن للشباب، خصوصاً السوفييات، فعله خلال مثل هذه الأوقات القاسية القلقة؟ الصراع ضد الفاشية فقط، الجهود الموحدة للإنسانية التقدمية جمعاء في وجه المعتدي الذي أطلق العنان للمذابح الدامية في ميادين أوروبا. في هذا السياق، سيكون بالإمكان، أو من الضروري حقاً، طرح مسألة الجبهة الثانية. إن كان هذا الموضوع سي طرح أثناء التجمع، فعلى الرحب والسعة...

طلب ستالين إيضاحات عن برنامج الفعالية الأميركية. وصل رد من واشنطن: نعم، سيتم تبني إعلان يدعو الطلاب، بما أنهم العنصر الأكثر تقدمية بين الشبان، أن يرفعوا الصوت ضد الفاشية. تبع ذلك اتفاق حول ظروف إقامة الوفد السوفيياتي في الولايات المتحدة ونقاش حول مسار طريق الرحلة، لأن السبيل الوحيد المتاح للوصول إلى شمال أميركا سيكون عن طريق الطيران غير المباشر عبر إيران ومصر والمحيط الأطلسي. عمل طاقم "مفوضية الشعب للعلاقات الدولية" بجد بغية تحقيق ذلك.

في هذه الأثناء، كانت السلطة السياسية المركزية لـ "الجيش الأحمر" تنظر بسرعة في مئات الطلبات المقدمة من الطلاب الذين تم استدعاؤهم إلى الخدمة. أخذ بالاعتبار استحالة إيجاد واستدعاء أي فرد من وحدات الخط الأمامي في غضون أسبوع واحد. وبناء عليه، قرروا أن يكون الخيار محصوراً ضمن قطاع موسكو العسكري. قال السكرتير الأول لـ "اللجنة المركزية لرابطة الشبيبة الشيوعية"، نيكولاي ميخايلوف، قوله. كان لديه بعض المرشحين. أصر على أن من ينبغي أن يذهب إلى الولايات المتحدة ليس الجنود الذين يؤدون الخدمة العسكرية فحسب، بل أطقم "رابطة الشبيبة الشيوعية" أيضاً، بما أنه من الضروري أن يتبع المشاركون خط الحزب الشيوعي السوفيياتي بوضوح.

أخيراً قرّرت عضوية الوفد: نيكولاي كرازافتشنيكو رئيساً، وهو السكرتير لشؤون البروباغاندا في لجنة مدينة موسكو لـ "رابطة الشبيبة الروسية"، البالغ ستاً وعشرين عاماً، وهو ناشط في حركة المناصرين (كان على وشك أن يأسره الألمان في

سمولينسك Smolensk، لكنه تمكن من اجتياز الخط الأمامي)، والملازم أول فلاديمير بشلنتسف، يحمل "وسام بطل الاتحاد السوفياتي" وعضو في "رابطة الشبيبة"، في الثالثة والعشرين، طالب سابق في السنة الثالثة في معهد لينينغراد للتعبدين ومدرس حالي في المدرسة المركزية لأساتذة القنص، والملازم المتمرن لودميلا بافلتشنكو التي تحمل "وسام لينين للاستحقاق" بمرتبة فارس، وهي عضو في "رابطة الشبيبة"، تبلغ ستاً وعشرين عاماً، طالبة سابقة في السنة الرابعة في جامعة كييف، قائدة كتيبة قناصة في الفرقة ٣٢ للحراس المظليين حالياً.

كما أخبرني ميخايلوف لاحقاً، أثار اقتراح إدخال امرأة ضمن صفوف الوفد معظم النقاش. في إحدى جلسات "اللجنة المركزية لرابطة الشبيبة الشيوعية"، قال كل من المعارضين لهذه الفكرة (يصعب السيطرة على النساء) والمؤيدين لها (إن كنّ جميلات، سوف يمثلن الاتحاد السوفياتي على أفضل وجه) قولهم. دافع نيكولاي ألكساندروفتش، الذي أضاف اسمي إلى القائمة، عن قراره بحماسة. لكن بالطبع كانت لجوزيف فزاريونوفتش ستالين الكلمة الفصل.

ذهب ميخايلوف إلى الكرملين ليقدم تقريراً عن الوضع، مصطحباً معه استمارات تفصيلية وصوراً شخصية وتفاصيل عن الخدمة لكل من أعضاء الوفد. تصفح القائد العام الأعلى الملفات الثلاثة بترواً، وأمسك ملفي بيديه وسأل السكرتير الأول لـ "اللجنة المركزية لرابطة الشبيبة الشيوعية" هل هو واثق بخياره. أكد له ميخايلوف أنه واثق كل الثقة.

غير مدركة أي شيء من هذا القبيل، أذن لي بالمغادرة في ذلك اليوم بعد نوبة استمرت أربعاً وعشرين ساعة، وكنت قد خلدت إلى النوم. كانت نوبة حافلة بالأحداث. عند قرابة الحادية عشرة مساءً، وصلت أربع شاحنات من الذخيرة والأسلحة الجديدة نسبياً: رشاشات آلية من نوع Degtyarev-Shpagin (DSHK) عيار ١٢,٧ ملم. اقتضى الأمر تنظيم عملية التفرغ، وتجهيز الوثائق، وتأمين مأوى للطواقم المرافق في الشكنات. لم أسمع الطرق على الباب مباشرة. لكنه تكرر وصار أقوى وأكثر إلحاحاً. "أيتها الرفيقة الملازم المتمرن، مطلوبة على الهاتف!"

— لحظة واحدة.

لم أرغب في النهوض، وارتداء السترة العسكرية، والذهاب للإجابة على الهاتف في نهاية الممر، والتحدث مع أحد ما، وأنا لا أزال نصف نائمة. لكن الواجب هو الواجب، وهذه الحال تحديداً في حامية موسكو، بما أن القيادة العليا قريبة للغاية. "كيف الحال يا لودميلا؟" دوى صوت نيكولاي ميخايلوف الجمهور عبر سماعة الهاتف، "نظمي أمورك وتعال لي لرؤيتي في المقر الرئيسي للجنة المركزية في شارع Maroseika".

- من أجل ماذا يا نيكولاي ألكساندروفتش؟
- إنه نداء الواجب.
- هل يحتمل الأمر الانتظار حتى الغد؟
- ما الذي تقولينه، أيتها الملازم المتمرن؟ هذا أمر من الرفيق ستالين! كل ساعة تمر مهمة. هل هذا واضح؟
التقيت شاين في مكتب السكرتير الأول. الأول ضخم، له عينان بنيتان وشعر داكن، يرتدي لباساً مدنياً. قدمه ميخايلوف إليّ أولاً: نيكولاي كرازافتشنيكو، رئيس الوفد السوفياتي الذي سيغادر إلى تجمع الطلبة الدولي في واشنطن. أما الثاني، فكان طويلاً ونحياً كقصبه فاصولياء، يرتدي زياً عسكرياً تظهر عليه المربعات الثلاثة الخاصة بملازم أول على عرى توتية، وكان مألوفاً لي. كان هذا فلاديمير بشلنتسيف الذي التقيته سابقاً في مدرسة القناصين في Veshnyaki عندما كنت أقوم ببعض الأعمال هناك.

في هذه الأثناء، تبادلنا نظرات ليست ودية تحديداً. مقابل مئة من الألمان أبادهم على جبهة لينينغراد، صار فلاديمير، في شباط/فبراير ١٩٤٢، أول قناص في الاتحاد السوفياتي يتقلد لقب "بطل الاتحاد السوفياتي". أما أنا، فاستلمت بندقية قناصة من نوع SVT-40 نُقش عليها اسمي مقابل مئة روماني قتلتهم في محيط أوديسا خريف ١٩٤١. خلال اثني عشر شهراً في الخدمة، تمت ترقيته ثلاث مرات: أولاً إلى رتبة ملازم متمرن، وثانياً إلى رتبة ملازم، وأخيراً إلى رتبة ملازم أول في الوقت الذي وصلت فيه حصيلته إلى ١٥٤ فاشياً، فيما تمكنت، وقد بدأت الخدمة منذ حزيران/يونيو من العام المنصرم وبلغت حصيلتي ٣٠٩ قتلى من النازيين، من الحصول على

رتبة ملازم متمر من الشهم إيفان يفموفتش بتروف.

هنا تكمن أهمية العلاقات الجيدة مع القادة في مؤخرة القوات وفي الجبهة على حد سواء. كان عليّ التفكير في ذلك من قبل عوضاً عن الجدال الصريح مع قائد الكتيبة درومن وقائد الفوج ٥٤ متوشيفتش والمفوض العسكري مالتسيف، وعوضاً عن تحدي اللواء كولوميتس والرفاق القياديين عن طريق شرح تفاصيل عمليات القنص، والدفاع عن عناصره، والمطالبة بإمدادات أفضل من الذخيرة والسلاح والمعدات من أجل سريتي. في خلاصة الأمر، عليّ أن أولد رجلاً بدلاً من امرأة. عندئذ فقط لن ينظر إليّ هذا الملازم أول الشاب، الذي يتقلد النجمة الذهبية للقب "بطل الاتحاد السوفياتي" على سترته العسكرية التي لم تتجدد بعد، بهذه الطريقة المتعالية.

جعلنا خطاب ميخايلوف ننسى كل شيء آخر للحظة. اتضح أننا، نحن الثلاثة، ستمثل الوفد السوفياتي الذي سيغادر إلى الولايات المتحدة الأميركية لحضور التجمع الطلابي الدولي المزمع عقده بين الثاني والخامس من أيلول/ سبتمبر في واشنطن. هكذا، في الصباح الباكر من ١٤ أيلول/ سبتمبر، أي في غضون يومين، سنطير من مطار فنوكوفو Vnukovo على متن طائرة الشحن Li-2 إلى الولايات المتحدة عبر إيران ومصر.

بصراحة، للوهلة الأولى لم أصدق أذني، وظننت أن ما سمعت هو دعاية بليدة، إذ إن نيكولاي ألكساندروفتش كان رجلاً مرحاً يهوى إطلاق النكات. كانت الحرب والدمار والموت وسفك دماء الملايين من الأبرياء تحيط بنا من كل صوب وناح، فيما كان البريطانيون والأميريكيون، عوضاً عن تقديم المساعدة إلى دولتنا بجدية، يدبرون لإلهاء من نوع غريب.

على أي حال، أفتعنتني مجريات الأحداث لاحقاً أن الوفد قد شكّل حقاً وسيطير عبر المحيط. انتقلنا بسرعة من مكتب ميخايلوف إلى مكتب ألكساندروف، رئيس قسم البروباغاندا التابع لـ "اللجنة المركزية للحزب الشيوعي". أخضعنا لامتحان صعب حقاً عن تاريخ الحزب و"رابطة الشبيبة الشيوعية"، واستعلم عن المعلومات الشخصية وتفاصيل خدمتنا في "الجيش الأحمر"، ومشاركاتنا في الاشتباكات وتقييمنا للسياسة الحالية. من ردود أفعاله، بدا الرفيق ألكساندروف سعيداً بإجاباتنا.

قضينا ما بعد الظهر على نحو مثمر أيضاً. استقبلنا خورخي ميخايلوفتش ديمتروف Gheorghy Mikhailovich Dimitrov، السكرتير العام لـ "اللجنة المركزية للكونميتيرن" (الشيوعية الدولية الثالثة، المنظمة الدولية التي توحد أحزاب العمال والأحزاب الشيوعية في الخارج). اعتبر هذا الثوري البلغاري البارز بطلَ محاكمة لايزرغ عام ١٩٣٣، حيث نجح بمقدرته المذهلة في اللغة الألمانية في إدانة النازية الألمانية حين اتُّهم دون أي دليل بحريق الرايشتاغ Reichstag. في الاتحاد السوفياتي، عرف أن ديمتروف مناضل متفانٍ في سبيل تحرير الطبقة العاملة، ورجل ملتزم المثل الشيوعية. استمر حديثنا مع ديمتروف ثلاث ساعات. تحدث عن المنظمات الشبابية في الدول الرأسمالية، وحروب الطبقات، وكيفية التصرف أثناء جلسات التجمع الطلابي الدولي. في المساء، اصطحبنا إلى مفوضية الشعب للشؤون الخارجية. انتهى بنا المطاف في قبة المبنى الذي كان يشبه متجرّاً كبيراً للبضائع، لكن دون أي زبائن. في نوافذ المتجر وتحت طاولات البيع الزجاجية هناك قطع لباس للرجال والنساء لم تكن تعرض للبيع في موسكو منذ زمن طويل.

رافقني عضو شاب من الجهاز الإداري. شعرت قليلاً بقلّة الارتياح في اختيار ما أرغب فيه بحضوره. لكنه قدم إليّ نصيحة منطقية جداً، دون أي شعور بالخجل، وفي الحال، امتلأت كلتا الحقيبتين اللتين خُصصتا لي بشكل كامل. الفساتين، والبلوزات، والتنانير، والسترات، والألبسة الداخلية، والجوارب، والمناديل، والقبعات، والقفازات، والأوشحة بألوان وموديلات مختلفة، وحتى الأحذية... تسلمنا كل هذه الأشياء، وتم توضيها بانتباه والتوقيع على استلامها على لائحة طويلة.

لم يكن هذا كل شيء. كنت وبشلتنسف في الخدمة العسكرية وقد قرروا تزويدنا بكل ما يلزم على نحو ملائم. ولهذا السبب، انتهى بنا المطاف في ورشة الخياطة التجريبية الخاصة بمفوضية الشعب للدفاع على جانبي سد Frunze، الذي كان يعرف شعبياً باسم "المستودع العام". في الوقت الذي تم فيه تجهيز زي المراسم الخاص ببشلتنسف في غضون ساعة، بالنسبة إليّ لم يثمر أي شيء. لم تكن هناك سترات مراسم نسائية من الصوف والكبردين الصافي الجيد النوعية. أزيلت العلامات، ووعدوا بإرسالها مباشرة إلى مقر قيادة "اللجنة المركزية لرابطة الشبيبة الشيوعية" صباح اليوم

اللاحق. وبما أن هناك دكان لصانع أحذية تحت الطلب، أحضروا إلينا بعض الأحذية الملمعة التي كانت جميلة جداً، على شكل قارورة، ومقدمة مربعة تحاكي الموضة. هنا برزت مشكلة المقاس التاريخية. كان عليّ قبول مقاس ٣٧ بما أنه لم يكن لديهم مقاس أصغر. الحذاء بالنسبة إلى القناصين قضية مهمة نظراً إلى الكيلومترات الكثيرة التي عليهم قطعها سيراً. لكنني لم أتعلّ أبداً حذاء خفيفاً ومريحاً كهذا من قبل، مريحاً للغاية في القدم.

سيكون ضرباً من التضليل إن لم أذكر المشاورات المميزة التي عقدها معنا طاقم السلطات المختصة. تعلمنا الكثير عن الأشياء الجديدة التي تخص السياسات المعاصرة للقوى المتحالفة، وقادتها وبنية الدولة في الولايات المتحدة. أخبرنا بأن أمراً طارئاً قد يحدث، وحذرونا من استفزازات محتملة (الشيء الذي حدث حقاً، والذي نظمه أناس مناهضون للتقارب بين شعبي الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة)، وقدموا إلينا النصح حول كيفية التصرف في مثل هذه الحالات. في ما عدا ذلك، أعطينا ملاحظات جاهزة من أجل الخطابات. نصحونا بحفظ بعضها عن ظهر قلب، كما سُمح لنا بكتابة بعضها الآخر. في ما تلى، كان كل ذلك مفيداً خلال زيارتنا الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا.

كانت مشكلة اللغة عويصة للغاية. سيتم تأمين الوفود ب مترجمين، لا شك في ذلك، لكن من الأفضل لو امتلكننا بعض المعرفة بنفسنا لأن التواصل مع الأناس العاديين في الاجتماعات سيكون ممكناً، وقد كان لهم أهمية بالغة. أقر نيكولاي كرازافتشنيكو بصراحة أنه لا يعرف أي لغة أجنبية. ودرس فلاديمير بشلنتسف الألمانية فقط في معهد التعدين. أما أنا، فتذكرت دروسي مع أمي في المنزل والمستوى العالي لتعليم اللغة الأجنبية في الجامعة، وقلت إنني أعرف الإنكليزية قليلاً.

أحضرت جوازات سفرنا الأجنبية من "مفوضية الشعب للشؤون الخارجية". بدت جميلة وممتازة: مستطيلة الشكل، ذات غلاف قاس، مغطاة بالحرير الأحمر، حُفر عليها شعار الاتحاد السوفياتي بأحرف نافرة. داخلها، كُتبت المعلومات باللغتين الروسية والفرنسية، وتضمنت صورة شخصية صغيرة في الأسفل.

بمبادرة من موظفي المفوضية، تم تحديد وضعي العائلي في جواز السفر "عازبة".

أُلحق أيضاً وصف لعلاماتي المميزة. علمت أنني متوسطة الطول، ولي عيناان بنيتان وأنف مستقيم، وأن لون شعري بني. في ما عدا ذلك، زود الوفد بالعملة الأجنبية: ألفا دولار أميركي لكل واحد. في تلك الأيام، كان هذا مبلغاً محترماً. لقد أصدر المبلغ بأوراق من فئات نقدية صغيرة حيث أخذت الرزمة الثخينة من النقود الأميركية التي تحمل صور رؤسائهم حيزاً كبيراً من حقيبتني.

كان كل شيء يحدث بسرعة كبيرة لنا لنقدر بصراحة كاملة كم كانت هذه المهمة معقدة وغير اعتيادية. لم نُعطَ الوقت للتفكير، ونتيجة لارتباكنا الشديد بسبب ما آلت إليه الأمور وما شاهدناه وسمعناه في الساعات القليلة الأخيرة، انتهى بنا المطاف مرة أخرى بوقت متأخر من المساء في مقر قيادة "اللجنة المركزية لرابطة الشبيبة الشيوعية" الواقع في شارع Maroseika على ناصية شارع Serov، في مكتب نيكولا ميخايلوف في الدور الرابع.

بدا أنه الشخص الوحيد الذي أدرك المشاعر التي تعترينا والأفكار التي تدور في خلدنا. قال إننا صغار لكننا لسنا أطفالاً، وإن لنا باعاً في الحرب، والحرب رغم قسوتها معلم حكيم. لا يعلم الأميركيون أي شيء عن الحرب الحالية، وكان علينا إيصال معرفتنا بها وفهمنا لها بطريقة تجعلهم يدركون أنها صراع حياة أو موت من أجل مستقبل الإنسانية جمعاء. لن يكون علينا أن نخلق أي شيء. الشيء الأساسي لكل منا هو أن نكون أنفسنا. بالطبع، كان هذا تحدياً: أن يجد المرء نفسه في عالم أجنبي تماماً. ولكن هنا في موسكو، تم فعل كل ما أمكن لتحضير أعضاء الوفد الطلابي جيداً للتعامل مع هذا الوضع. استمعنا لنصيحته بصمت.

ربما كان علينا أن نستجيب للسكرتير الأول مباشرة، وأن نظمئنه أننا لن نخيب ظنه، وأننا سنفعل ما في وسعنا ونثبت أن الثقة الكبيرة التي أعطيت لنا كانت في محلها. ولكن لم تتحول الكلمات إلى جمل، ونظرت بتمعن خارج النافذة إلى سماء موسكو الصيفية: شامخة، صافية تتلألأ بالآلاف النجمات. وباتجاه الجنوب على البحر الأسود، كانت السماء أكثر ظلمة في الليل لكن النجوم أكثر لمعاناً. كم مرة ابتدأت مهمتي الوحيدة تحت تلك النجوم! كم مرة أضاءت لي طريقاً ملتفاً عبر غابة القمر السحرية! "هل لديك أي سؤال، يا لودميلا؟" صرح صوت ميخايلوف المفعم بالثقة.

- كلا. لكن عليّ أن أخبرك: أنا قلقة من أن أرتكب كثيراً من الأخطاء.

”هذا هراء، أيتها الرفيقة الملازم المتمرن!“ ضحك نيكولاي ألكساندروفتش بمرح، ”لا أشك في نجاحك أبداً. تصرفي على سجيتك فقط“.

دعانا ميخايلوف إلى عشاء أخير. كان لديه الفكرة الصائبة: أن يجمع المسافرين وأقاربهم المقربين معاً حول طاولة في جو مريح وأليف إلى حد ما. أحضرت زوجة فلاديمير بشلنتسيف، ريتا Rita، من Veshnyaki، وكذلك أحضرت أمي من السكن في شارع Stromyn، وأيضاً زوجة كرازافتشنيكو، امرأة شابة جميلة تدعى نادياجدا Nadyezhda. قدم العشاء في مكتبه وكان بسيطاً ومتواضعاً. كان هناك فودكا وخمر. رفع ميخايلوف النخب الأول. فجأة رنّ جرس الهاتف على مكتب السكرتير الأول، هاتف أبيض مميز طُبع وسط قرصه شعار الاتحاد السوفياتي. التقط نيكولاي ألكساندروفتش السماعه مباشرة وأجاب بصوت ينم عن احترام، إن لم يكن عن خوف عظيم: ”ميخايلوف يتكلم... نعم، فهمت ذلك... سوف نحضر في الحال“.

كانت موسكو فارغة ومظلمة في الساعة الأولى بعد منتصف الليل. على كل حال، كانت بوابات بوروفتسكي التي عبرت سيارة ميخايلوف إلى حرم الكرملين مضاءة من كلا الجانبين. هناك رماة رشاشات يحرسون وهم مرتدون لباس قوات الأمن الداخلي، وجنود يحملون بنادق Tokarev الذاتية الإلقام. تم التحقق من وثائقنا بدقة بالغة، لكن كان بحوزتهم قائمة بأسماء ضيوف منتصف الليل. حيّا الملازم المسؤول عن النوبة ميخايلوف، وأعطى الأمر بالسماح للسيارة بالمرور.

كان صدى وقع خطواتنا يصدح في الممر. انعطافة أولى، تلتها ثانية، تلاها صعود درج وإذ بنا هناك، في منطقة الاستقبال، خارج باب المكتب. فتح سكرتير القائد العام الأعلى، بوسكريبيشيف Poskrebyshv، الباب ورأيت الرجل العظيم بشحمه ولحمه. كان يرتدي سترة عسكرية بسيطة ذات ياقة مثنية إلى الأسفل، ولكن من دون أي علامات مميزة: لم يكن طويلاً كما بدا لي سابقاً، كان نحيلاً يميل إلى السمنة، في وجهه علامات بثور خفيفة. كان يمسك بسماعة هاتف بيده اليسرى.

مرت عشرون دقيقة على وجودنا في مكتب ستالين لكننا لم نكن نشعر بمرور الوقت. توقف الزمن بالنسبة إلينا. قدمنا ميخايلوف فرداً تلو الآخر، وكنت الأخيرة.

تحدث جوزيف فزاريونوفتش Joseph Vissarionovich ببضع جمل فقط عن المهمة الأساسية للحزب والحكومة، وعن الحلفاء الذين لا يرغبون في فتح جبهة ثانية، وعن الشعب الأميركي الذي يحتاج إلى معرفة حقيقة صراعنا ضد النازية.

”هل لديكم أي طلبات؟“ سألنا القائد العام الأعلى.

كان كرازافتشنكو وبشلتنسيف في حالة شلل تام، وخيمت حالة من الصمت في أرجاء المكتب. لم أتأثر بالطريقة نفسها. فقد اختبرت شيئاً مغايراً، أي حماسة غير مسبقة. أردت سماع كلمات من القائد العام الأعلى موجهة إليّ خصيصاً.

”نعم أيها الرفيق ستالين، لديّ طلب“، قلت بنعومة، ”نحن بحاجة ماسة إلى معجم إنكليزي-روسي وروسي-إنكليزي، مع كتاب قواعد أيضاً. من المهم أن تعرف حلفاءك جيداً، تماماً كما تعرف أعداءك!“

”أحسن القول، أيتها الرفيقة بافلتشنكو“، قال قائد البروليتاريا في العالم مبتسماً، ”ستستلمين الكتب. ومني شخصياً“.

مهمة إلى واشنطن

كان هناك سديم صباحي كثيف يلتف كدوامة فوق وادي Potomac. تلاشت في غشاوتها الهضاب الوادعة والسهول الخضراء والغابات والبساتين والتجمعات السكنية. قطار ميامي-واشنطن السريع يقترب من وجهته النهائية وقد قاربت سرعته ستين كيلومتراً في الساعة. شق طريقه عبر السحابة البيضاء التي كللت وجه الأرض بسهولة كأنه سيف متوهج.

استيقظت مراراً على وقع إيقاع تراقص السكة وطرطقتها السريعة، ثم كنت أعود إلى النوم. كنت وحدي في مقصورة بسريرين ولذلك كان باستطاعتي خلع ملابس الخروج وملابسي الداخلية، وأن أعطي نفسي بملاءة منشأة حتى الذقن وأسترخي بسلام.

بجانبي على المنضدة، هناك قاموس بسماكة ثلاثة أصابع يهتز نتيجة الحركة. التزم القائد العام الأعلى للقوات المسلحة السوفياتية كلمته. وجدت أنه من الملائم أن أحمل المجلد في جيبتي. تصفحت صفحاته يومياً، غالباً عند وقت النوم، لتأكد من معلوماتي ولأشاهد الإهداء الأنيق على أحد جوانب صفحة العنوان: جي. ستالين. في المقصورة المجاورة، هناك نيكولاي كرازا فتشنيكو وفلاديمير بشلنتسيف، رفيقي السفر في هذه الرحلة التي ستستمر أسبوعين وتشمل الجبال والصحارى ومياه المحيط الأطلسي. بصراحة، كنت قلقة قليلاً من وجودهما الدائم. كانا شاوين لطيفين،

لكن القناص انغزالي بطبعه. يحتاج الهدوء، سواء أكان رجلاً أم امرأة، والسكينة، والوقت الكافي للتأمل وللرؤية التغيرات التي تطرأ على المحيط.

العلاقات التي تطورت بيننا كانت مهذبة ورفاقية، محكومة بحدود واضحة حول ما هو ممكن أو غير ممكن. عندما انفضت حفلتنا "المختلطة من كلا الجنسين" في موسكو وأرسلنا في رحلتنا البعيدة، أعطينا تعليمات مناسبة. نظروا إلى كل منا مباشرة وحددوا الأشياء بصراحة؛ ربما كان الأمر أكثر صرامة في حالة بشلنتسف الذي يرتاد صالات الرقص، والقيادي القليل الكلام في "رابطة الشبيبة الشيوعية" كرازاتشنيكو، لأن ميخايلوف، السكرتير الأول لـ "اللجنة المركزية للرابطة"، عرف بالخطوط العريضة عن موت ألكسي كتسنكو والعهد الذي قطعه بالتأثر لموته من الأعداء.

أبقى نيكولايف نفسه بعيداً إلى حد ما، مذكراً إيانا أنه رئيس الوفد. كان التقارب بيني وبشلنتسف أمراً حتمياً، إذ تطورت علاقتنا جيداً، متجاهلين الفروق في حصيلتنا بصفتنا قناصين، والرتبة العسكرية. خلال الوقفات المطولة - ثلاث ساعات في القاهرة مثلاً - تجولنا في المدينة معاً واشترينا قليلاً من الأشياء. لم يتمكن فلاديمير تحديداً من منع نفسه فاشترى ساعة سويسرية من شخص عربي في أحد المتاجر مقابل ٤٠ دولاراً أميركياً. تبين أن فيها ميزات متنوعة تمكّنك ليس من معرفة الأيام والثواني فحسب وإنما من تسجيل مسافة سير الطلقة، وهذا أمر جوهري للقناص.

في القاهرة، وجب علينا لقاء السفيرين البريطاني والأميركي. هنا للمرة الأولى ارتدّيت إحدى الفساتين الفخمة التي انتقيتها من مخزن "مفوضية الشؤون الخارجية" في القبو. كنت خائفة للغاية من العجز عن التصرف بحرية وبصورة طبيعية أثناء ارتدائي له. لكن الحذاء ذا الكعب العالي سبّب لي المشكلة الأكبر. خلال العام الذي قضيته في الخدمة العسكرية، صرت غير معتادة ارتداء هذا النوع من الأحذية. حتى دون ذلك، كانت قدماي تميلان إلى التزحلق على الأرضية المرصوفة بالخشب في القصر الفخم، التي تم تلميعها حتى بدت كأنها تشع. قدم فلاديمير إليّ يده بتهذيب. سار الاجتماع على أحسن وجه. حقاً عبّر الممثل البريطاني عن شكه في كوننا قناصين أو جنديين على الخط الأمامي.

في ميامي، التي طرنا إليها من أفريقيا، تأخرنا يوماً. كان باستطاعتنا سماع هدير

المحيط قريباً منا، فذهبت أنا وبشلتنسف إلى الشاطئ. أبقنا الرمال الذهبية والأمواج البطيئة الكسولة المائلة إلى الأخضر والشمس الساطعة هناك ثلاث ساعات. بقي كرازفتشنكو، الذي أصيب بالرشح أثناء الطريق، في غرفة الفندق.

كان بالإمكان سماع خطوات المضيف بعيداً من باب المقصورة المغلق بإحكام. كان يجول بين المسافرين ويخبرهم أن الرحلة ستصل نهايتها في غضون ثلاثين دقيقة. كان هناك طريقة خفيفة على الباب وصوت خافت يقول: "واشنطن، سيدتي". - نعم، شكراً لك.

أجته بالإنكليزية وشرعت في ارتداء ملابس.

وصل القطار السريع إلى واشنطن على الوقت تماماً: الخامسة وخمس وأربعون دقيقة في ٢٧ آب/ أغسطس ١٩٤٢. توقفت عربتنا تحت مظلة محطة العاصمة. في جميع الأحوال من الصعب مشاهدة المبنى لأن الوقت لا يزال ليلاً. في هذه الأثناء، تجمع حشد ليس قليلاً على رصيف المحطة. لم نزن أن الأمر متعلق بنا وكنا نستعدّ لجر حقائبنا الثقيلة عبر ممر العربة إلى رصيف المحطة. لم نعلم أن خبر وصول وفد الطلاب السوفياتي إلى الولايات المتحدة قد بُثّ في ٢٥ آب/ أغسطس عبر "وكالة الأنباء السوفياتية" (تاس)، وأن بعض الصحف الأميركية قد أعادت طباعته.

لهذا السبب، لم نواجه أي مشكلة في تأمين أمتعتنا. على العكس تماماً، كنا محاطين بطاقم السفارة السوفياتية المسرور والبعثة التجارية، ولاحقاً بالصحافيين الأميركيين اللحوحين. وسط هذا الحشد الصاخب، مشينا من الرصيف إلى الساحة أمام المحطة، حيث تكومنا، وسط كثير من الجلبة والهرج والمرج، في سيارة Limousine كبيرة وانطلقنا - تخيلوا ذلك! - مباشرة إلى البيت الأبيض، مسكن الرؤساء الأميركيين.

رغم أن الوقت لا يزال باكراً، استقبلتنا على المدخل إليانور روزفلت Eleanor Roosevelt شخصياً، زوجة الرئيس. هنأت الزائرين الروس على وصولهم بالسلامة وقالت إننا سنمضي أيامنا الأولى على الأراضي الأميركية تحت سقف البيت الأبيض. هذا قرار زوجها فرانكلن ديلاانو روزفلت، الرئيس الثاني والثلاثين، المحبوب من شعبه والرجل الوحيد الذي انتخب لولاية ثالثة في تاريخ الولايات المتحدة.

قادتنا السيدة الأولى شخصياً إلى الطابق الثاني، وأرثنا غرفنا، واقترحت أن نأخذ

قسطاً من الراحة بعد الرحلة، وأخبرتنا أن الإفطار سيقدم في الثامنة والنصف في غرفة الطعام الصغيرة في الطابق الأول.

ذهبت إلى نافذة غرفتي الصغيرة والمفروشة بشكل بسيط لكنه حميم. كانت الشمس قد أشرقت، وخيوطها الأولى تضيء المنطقة أمام البيت الأبيض. وهي محاطة بحدائق تم العناية بها على الطريقة الفرنسية بشكل خلّاب، بممراتها المثورة برمال نهريّة صفراء اللون، ومروجها العشبية المجزّزة، وأحواض الزهور البيضاء الناصعة وأجمات الشجر الصغيرة المتناثرة هنا وهناك. وهناك صوت مياه متدفقة يصدر عن نافورة في بركة مياه أمام المدخل الرئيسي. يذكر مسكن الرئيس بمسكن ريفي لرجل نبيل لديه دخل منتظم، لكنه بالتأكيد ليس استثنائياً.

في الوقت المحدد، نزلنا إلى غرفة طعام صغيرة ووجدنا ليس زوجة الرئيس روزفلت فحسب، بل آخرين أيضاً. أول من قدّم كانت غيرتروود برات Gertrude Pratt، الأمينة العامة للجنة الأميركية لمكتب الطلبة الأجانب، وتبين بعد أنها من قامت على تنظيم التجمع الدولي. صافحتنا السيدة برات، الشقراء ذات الجسد النحيل اللافت والأعوام الخمس والعشرين، بحرارة، فرداً فرداً، وقالت إنها مسرورة للغاية لرؤيتها الزوار الروس، ثم قدمتنا إلى هنري لَشْ Henry Lush، نائب رئيس مكتب الطلبة الأجانب نفسه.^١ أسهم وجود ثلاثة شبان يافعين يرتدون الزي الرسمي للضباط الأميركيين في سير المحادثة، إذ كان في مقدورهم التعبير عن أنفسهم بأسلوب جيد باللغة الروسية. دعتنا السيدة روزفلت إلى المائدة. قالت مبتسمة إنه بإمكاننا في البداية التعرف إلى أسلوب الحياة الأميركي من هنا مباشرة بفطور أميركي تقليدي. لقد ورث بعض الأشياء

١ في الواقع، إنه الصحفي والمؤلف الحائز "جائزة Pulitzer"، جوزف بي لاش Joseph P. Lash (١٩٠٩-١٩٨٧)، المولود في أميركا لأبوين يهوديين من أصول روسية، والمشهور خير شهرة الآن بسبب السيرتين الذاتيتين لفرانكلن وإلينور روزفلت. ويوصفه صديقاً مقرباً من إلينور روزفلت، تم تجنيده في مرحلة مؤتمر المحطة الفضائية الدولية. أخفقت محاولته الانخراط في الاستخبارات البحرية بسبب خلفيته المنطوية على تعاطف شيوعي، ولذلك تطوّر في الجيش الأميركي في الثامن والعشرين من نيسان/أبريل ١٩٤٢. ونظراً إلى زواجه بنانسي بدفور-جونز Nancy Bedford-Jones (١٩٣٥)، بات لاش على علاقة رومانسية بغيرتروود "تروود" برات (١٩٠٨-٢٠٠٤). طُلقت غيرتروود زوجها عام ١٩٤٣، وتزوجت لاش بعد سنة، الذي طلق نانسي (أو طلقته).

من الفطور الإنكليزي التقليدي أيضاً، ولكن كان له بعض الصفات التي تميزه خاصة. لم يكن على المائدة مجرد بيض مقلي وشرائح من لحم الخنزير المشوي والنقانق (أو "السجق") وفطر المشروم المتبل فحسب، بل أيضاً قطع صغيرة من "بان كيك" منفوخ ومحلى - ندعوها في ما بيننا "oladi"، وهي أسماك من "blini" - مع شراب القيقب. يمكن لعصير البرتقال أو القهوة أو الشاي مساعدة المرء على هضم الطعام. الطعام وسيلة ممتازة لكسر الجليد بين الأشخاص الذين لا يعرفون بعضهم بعضاً جيداً. لكن الإفطار استمر، وكونه رئيساً للوفد، ألقى نيكولاي كرازافتشنيكو خطاباً مملأً بخصوص جدول أعمال الجلسة الأولى لتجمع الطلاب الدولي. كان الأمير كيون أكثر اهتماماً بأخبار الأعمال العسكرية على أراضي الاتحاد السوفياتي. استمتع فلاديمير بشلنتسيف بإخبارهم عن تفاصيل فن القنص: بنادق ذات أجهزة تسديد تلسكوبية، والتمويه، ومراقبة العدو. لم أشارك في الحديث، لكنني أصغيت بانتباه، ليس له، بل للمترجمين. كانوا يترجمون بسرعة كبيرة ودون دقة.

فجأة، وجهت إلينور روزفلت سؤالاً إليّ، وترجم هذا السؤال إلى الروسية شاب برتبة ملازم: "إن تمكنت من رؤية وجوه أعدائك جيداً من خلال جهاز التسديد التلسكوبي، ومع ذلك أطلقت النار لتقتليهم، سيكون من الصعب على النساء الأميركيات فهمك، يا عزيزتي لودميلا".

حاول المترجم تخفيف قوة الجملة إلى حد ما. بدت مهذبة، لكنها مبطنة بتلميح مزعج. نظرت السيدة الأولى إليّ بثبات، دون أن تشيح بصرها عني. لم يكن هدفها من هذا السؤال واضحاً تماماً بالنسبة إليّ. ربما قررت اختباري. كنا قد أخبرنا سابقاً بشأن منشورات في بعض الصحف البريطانية والأميركية ألمحت إلى أننا لم نكن جنوداً قادمين من الخطوط الأمامية أو قناصين، وإنما مجرد مروجين دعائية شيوعيين أرسلنا خصيصاً لمخاطبة تجمع الطلاب الدولي. كان هذا يعني أن عليّ إعطاء زوجة الرئيس إجابة كافية وافية.

"سيدة روزفلت، نحن سعيّدون لزيارة بلدكم الجميل الازدهار. لسنوات عدة أتمم لا نعرفون الحروب. لا أحديدمر مدنكم وقراكم ونباتاتكم. لا أحديقتل سكانكم وأخواتكم وإخوتكم وآباءكم"، قلت ذلك بتأنٍ، لكن لسبب ما فاجأت كلماتي الحاضرين.

بالطبع، لم يكن خطابي مميزاً بفصاحته؛ هناك بعض الأخطاء باللفظ، واستخدام الأزمنة، وكانت بنية الجمل بسيطة للغاية. لكن الأميركيين فهموا المعنى. شرحت لأولئك الذين يعيشون في دولة بعيدة عن الصراع ضد الفاشية أننا قدمنا من مكان تدمر القنابل فيه المدن والقرى، وتسفك فيه الدماء، حيث يقتل الأبرياء، وأن وطني الأم يعاني من محنة شديدة.

إن رصاصة تصيب الهدف بدقة ليست إلّا ردّاً على عدو غاشم. فقد زوجي حياته في سيفاستوبول أمام عيني، وبالنسبة إليّ، كل رجل رأيته من خلال جهاز التسديد التلسكوبي هو قاتله.

الشيء الغريب أن إلينور شعرت بالإحراج. أشاحت بنظرها بسرعة وقالت إنها لم تقصد إهانتني؛ على أيّ حال، اعتقدت أن هذه المحادثة مهمة جداً وسنكملها في مقام مناسب أكثر، أما الآن، لسوء الحظ، فكان عليها المغادرة. نهضت السيدة الأولى عن الطاولة ملقاة تحية الوداع بسرعة، وغادرت غرفة الطعام الصغيرة.

”ما الذي قلتيه لها للتو؟“ عقد نيكولا ي كرازافتشكو حاجبيه، ومستغلاً مكانته رئيساً للوفد، نظر إليّ بصرامة مباشرة.

”لا شيء بالتحديد“، قلت له متجاهلة إياه، ”لا يمكننا أن ندع هؤلاء الأميركيين الشماليين الوقحين يفلتون بقولهم“.

عقب الإفطار، أعدت لنا غيرتروود برات جولة قصيرة في البيت الأبيض. زرنا غرفة الوزارة، ومكتب السيدة الأولى، ومكتب الرئيس البيضاوي. هناك استرعت انتباهنا صورة لبعض الشبان المبتسمين الذين يرتدون اللباس العسكري الرسمي. كان هؤلاء أبناء روزفلت: إليوت Eliot، نقيب في سلاح الجو، وفرانكلين Franklin، ملازم مفوض في سلاح البحرية، وجايمس James الذي كان في مشاة البحرية الاحتياطية. أنجبت إلينور لزوجها ستة أولاد، ومات واحد منهم فقط في الطفولة.

كان البرنامج الزمني لوفدنا قد صار ضيقاً جداً. أسرعنا وبشلتنسف إلى غرفنا وارتنينا اللباس العسكري. كانت هذه الفرصة الأولى لارتدائه منذ غادرنا موسكو. أعطى الأمر السفير الروسي في الولايات المتحدة، مكسيم مكسيموفتش ليتفونوف Maxim Maximovich Litvinov. في العاشرة صباحاً، تجمع المصورون الفوتوغرافيون

ومصورو التلفزيونات في سفارتنا. أرادوا التقاط الصور لأبطال النضال ضد الفاشية وهم بكامل ألقهم العسكري لتظهر في صحف الغد.

وصلنا في سيارة السفارة. وفوراً أحاط بنا حشد من الصحفيين. عانينا من أجل الوصول إلى الرواق حيث توقفنا بطلب من المندوبين الصحفيين لكي يتمكن المصورون من التقاط بعض الصور. وبسرعة، التقط المراسلون الصور ودفعوا ميكروفوناتهم أمامنا وشرعوا في طرح أسئلتهم بصوت يشبه الصراخ. كان المترجمون يعملون بالطاقة القصوى. اتضح لي شيئاً فشيئاً أن نسبة كبيرة من الأسئلة موجهة إليّ. بعد ثلاثين دقيقة، توقفت هذه الفوضى العارمة ودخلنا مبنى السفارة. تقدم السفير لتفنوف، وهو رجل معمر ممتلئ الجسد وذو وجه مدور ويضع نظارات دون أذرع ترتكز على عظم أنفه، لاستقبالنا، وهنأنا لوصولنا سالمين. كان علينا الخروج إلى الرواق مرة أخرى، هذه المرة برفقته، مصافحاً إيانا بمودة. استمر الظهور الشعبي، ولا بد أنه كان ذا فائدة عظيمة للاتحاد السوفياتي.

كانت المأدبة في السفارة رسمية وهادئة. حضرها موظفو "مفوضية الشعب للشؤون الخارجية" وزوجاتهم. هناك أنخاب بالروسية وأحاديث تتلام والمناسبة؛ على وجه الخصوص، قدم كرازافتشنكو تقريراً مفصلاً عن رحلتنا بالطائرة من موسكو إلى طهران، ومن القاهرة إلى ميامي. كان يلتفت إليّ بين فينة وأخرى. على ما يبدو، كان متوجساً من أن أقدم على شيء غير متوقع ولا يتناسب والبروتوكولات الدبلوماسية هنا أيضاً.

لم يكن هناك أي أساس لقلقه. إذا لم أستفز، أنا شخص عاقل ووديع وهادئ. في السادسة مساءً، كان هناك مؤتمر صحفي آخر لساعتين، ثم بثه إذاعياً إلى أرجاء أميركا كلها. حضره ممثلون عن اثنتين وخمسين صحيفة ومجلة، إضافة إلى اثنتي عشرة محطة إذاعية. كل شيء منظم على نحو مختلف هذه المرة. في البداية، أعطيت الحديث لأعضاء الوفد الطلاي. في خطاب مقتضب، أعطيت النقاط الأساسية فيه من ألكساندروف في موسكو، فلخص كرازافتشنكو الوضع في بلدنا عامة: مؤخرة القوات توازر المقدمة. تحدث بشلنتسف عن وضع "الجيش الأحمر". كان الجيش جاهزاً لإنزال ضربات جديدة بالقوات الألمانية المسلحة.

كان بين يدي أيضاً نص متفق عليه مسبقاً في ”اللجنة المركزية للحزب الشيوعي“ جاء فيه:

أصدقائي الأعزاء! يسعدني أن أنقل إليكم تحيات النساء والشباب السوفيات الذين يقاتلون في المواقع المتقدمة ضد الفاشيين المتعطشين للدماء. إن الاتحاد السوفياتي لا يقاتل في سبيل حريته فحسب، وإنما في سبيل الأمم والشعوب على وجه الأرض كلها. منذ الأيام الأولى للصراع، وجّه الشعب السوفياتي إمكاناته وطاقاته كلها للدفاع عن وطنه. حلت النساء السوفيات محل أزواجهن وآبائهن وإخوتهن على خط الإنتاج.

فعلوا كل شيء ليتمكنوا رجالهم من القتال. يتقدم الشعب السوفياتي إليكم بالشكر على ما قدمتموه من مساعدة، لكن الصراع الذي تقوده روسيا يتطلب المزيد والمزيد من الموارد. ننتظر منكم المساندة الفعالة، وفتح الجبهة الثانية. أود إخباركم أننا سنتنصر، وأنه ليس هناك قوة قادرة على عرقلة مسيرة شعوب العالم الحر إلى النصر. علينا أن نتحد. بصفتي جندياً روسية، أمد يدي إليكم. يدأ بيد علينا القضاء على الوحش الفاشي!

بعد ذلك، أضفت، مرتجلة باللغة الإنكليزية: ”رفاقي الجنود، تقدموا فالنصر حليفنا!“

صفق الصحفيون تصفيقاً خافتاً في البداية ما لبث أن أصبح أكثر حيوية. منحهم السفير لثفنوف، الذي أدار المؤتمر، الفرصة لطرح الأسئلة. عندما يحين دور أحدهم في السؤال، عليه الوقوف، وتقديم اسمه، والوكالة التي يمثلها، وتحديد عضو الوفد الطلابي الذي سيوجه إليه السؤال.

في البداية، أربكنا سلوك الصحفيين. توقعنا منهم أن يطرحوا أسئلة تتعلق بالتصريحات التي أدلينا بها، لكي نؤكد أو نوضح ما عبرنا عنه باقتضاب شديد فيها. لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل. تجاهل الأميركيون هذه التقارير شبه الرسمية، وحاولوا البحث عن شيء ما لم يرد فيها.

كانت معظم الأسئلة موجهة إليّ. وبينما كنت أشاهد الناس المتحمسين يجلسون

في القاعة ويطرحون أسئلتهم بصوت أشبه بالصراخ - من وجهة نظري، أسئلة غبية في بعض الأحيان - ذكرني ذلك لسبب ما بـ "الهجمات السيكلوجية" الرومانية والألمانية. في تلك الحالات، أراد العدو أن يخيفنا ويصدمننا ويخرجنا من مواقعنا ليتمكن من تصفيتنا في النهاية. أما هنا، فيستشعر المرء تقريباً الرغبة نفسها: أن يصدموك ويجبروك على قول شيء يتخطى الحدود الرسمية، ويضعوا المتحدثين في موقف حرج، ويجعلوا منهم أضحوكة. في ما يلي مقطع من التسجيل الحرفي للمؤتمر:

- سؤال: لودميلا، هل تستطيعين أخذ حمامات ساخنة على الخط الأمامي؟
- جواب: بالتأكيد، مرات عدة يومياً. إن كنت جالسة في خندق وهناك هجوم مدفعي، تصبح الأمور ساخنة. ساخنة جداً. هذا هو الحمام الحقيقي، الشيء الوحيد المختلف أنه حمام غبار.

- سؤال: هل توفرت لك أيّ حماية؟

- جواب: بنديتي فقط.

- سؤال: هل بإمكان النساء استخدام أقلام الحمرّة أثناء وجودهن في ساحة الحرب؟

- نعم، ولكن لا يتوفر لهن الوقت دائماً. دائماً ما تحتاج أن تكون قادراً على الوصول إلى رشاش، أو بنديّة، أو مسدس، أو رمانة يدوية.

- سؤال: أي لون للملابس الداخلية تفضلين، يا لودميلا؟

- جواب: ستصفع على وجهك في روسيا إن سُئلت مثل هذا السؤال. يطرح هذا السؤال عادة على الزوجة أو العشيقة. أنا وأنت لا تربطنا مثل هذه العلاقة. لذلك، سيسعدني أن أصفعك. اقترّب قليلاً...

- سؤال (من صحافية أثنى): هل هذا لباس المراسم الخاص بك أم هو اللباس اليومي؟

- جواب: ليس لدينا وقت للاستعراض الآن.

- سؤال (أيضاً من صحافية أثنى): لكن اللباس الرسمي يجعلك تبدين بدينة. أو ربما ليس لديك مانع؟

جواب: أشعر بالفخر لارتدائي اللباس الرسمي لـ "الجيش الأحمر" الأسطوري. لقد تعمّد بدماء رفاقي الذين قضوا في المعارك ضد الفاشيين. ويحمل "وسام لينين للاستحقاق"، وهو جائزة للتميز العسكري. أتمنى لو بإمكانك أن تختبري غارة جوية. بصراحة، سوف تنسين كل شيء يتعلق بقصة ردائك مباشرة.

- سؤال: إن شركة فيليب موريس Philip Morris للتبغ تعرض عليك عقداً. إنهم مستعدون لدفع نصف مليون دولار مقابل وضع صورتك على علب السجائر. هل توافقين على ذلك؟

- جواب: بإمكانهم الذهاب إلى الجحيم.

كان لُتْفَنُوف يقف بقربي. في البداية، لم أكن أعرف كيف سيكون رد فعله على مثل هذه الملاسنة. لكن لم يكن في وسعي الإجابة عن أسئلة الأميركيين بأي طريقة أخرى، إذ إن العاطفة والحماسة قد أخذتا مني مأخذاً. في بادئ الأمر، نظر السفير إليّ مندهشاً، ثم ابتسم بعدها وبدأ تشجيعي: "أحسنْتَ القول، يا لودميلا. لقد نالوا ما يستحقون، صراصير واشنطن!"

بعد انتهاء المؤتمر، عاد الوفد الطلابي إلى البيت الأبيض. هناك بانتظارنا مستشار الرئيس المقرب وصديقه القديم، هاري لويد هوبكنز Harry Lloyd Hopkins. بتفويض من روزفلت، زار هوبكنز الاتحاد السوفياتي عام ١٩٤١، عندما انتهكت ألمانيا النازية حدود بلدنا، والتقى ستالين الذي أحبه كثيراً. تبين أن هذا الشعور كان متبادلاً. لدى عودته إلى الولايات المتحدة، تحدث هوبكنز لمصلحة التقارب مع الاتحاد السوفياتي. طمأن الرئيس إلى أن الروس سيتمكنون من تحمل ضربة غير مسبقة بقوتها، ولكنهم يحتاجون المساعدة. هوبكنز، الرجل النحيل ذو المظهر المريض الآن، سألنا، نحن جنود الخط الأمامي، بإسهاب عن القتال على جبهة لينينغراد وأوديسا وسيفاستوبول. كان مهتماً بصدق بتطورات حربنا وأراد أن يعرف التفاصيل جميعها.

لماذا لم ترغب الصحافة الأميركية في معرفة ذلك؟

في خضم نقاشنا، دخلت السيدة روزفلت وأعلنت أننا مدعوون إلى عشاء في منزل فيرجينيا هابي Virginia Haabe، ابنة جوزف ديفس Joseph Davies، السفير الأمريكي

الأسبق في الاتحاد السوفياتي. قال هوبكنز إنه سيذهب معنا. كان هناك سوء فهم بخصوص السيارة. لم تكن Cadillac تتسع إلا لكراسي اثنين وبشلتنسف وهوبكنز ومترجمين من السفارة الروسية. لذلك، اقترحت السيدة الأولى أن أذهب معها بسيارة مكشوفة ذات مقعدين قادتها بنفسها.

أصابني الدهشة، إذ لم أتوقع من هذه السيدة المرموقة أن تنسى إجابتي الوقحة أثناء الحديث الذي جرى اليوم على الإفطار بهذه السرعة. على أي حال، بقامتها التي تبلغ خمسة أقدام وعشرة إنشات، رمتني السيدة الأولى بنظرة لطيفة للغاية وكررت دعوتها لي.

بدأت السيارة الزرقاء الغامقة الصغيرة رائعة. وكانت سريعة إلى حد ما. رغم أن إلينور كانت في الثامنة والخمسين، فإنها قادت السيارة كسائق سرعة حقيقي. بلحظة واحدة، ابتعدنا عن دورية الأمن التي ترافق سيارة Cadillac واندفعنا عبر شوارع واشنطن كالإعصار. عند زوايا الطرقات، كانت السيدة روزفلت تنقص سرعة دوران المحرك بشكل حاد فتشخر السيارة كوحش. وعند تقاطعات الطرقات حيث إشارات المرور، تضغط بقوة على الفرامل، فتترك العجلات الصاخبة خطوطاً سوداء على الإسفلت. لم أتوقع أي شيء كهذا، وكنت بالتناوب أتشبث بمقبض الباب من شدة الهلع وأعصر نفسي إلى الخلف في المقعد الطري بجانب إلينور. نظرت إلي كأنها تعرف كيف أشعر، لكنها لم تخفف سرعتها. وأنا لم أطلب منها حتى أن تفعل ذلك.

في الحال وجدنا أنفسنا في ضاحية بُنيت فيها المنازل الفسيحة على شكل أنساق ضمن حدائق خضراء. حالما توقفت السيارة المكشوفة، تنفست الصعداء. ذلك طبيعي إذ إنني غير معتادة مثل هذه الرحلات المتهورة بالسيارات. كنا من جنود المشاة، ونشعر بالراحة أكثر أثناء المسير على الأقدام.

خرجت فيرجينيا هابي، سيدة جميلة المظهر تبلغ قرابة الثلاثين، لاستقبال السيدة الأولى عند درجات المدخل. عاشت فيرجينيا مع والدها الدبلوماسي في موسكو لأعوام وكانت تتقن الروسية جيداً. كانت من المعجبين الكبار بالموسيقى الكلاسيكية الروسية، كما أخبرتني مباشرة. تجاوزنا أطراف الحديث ونحن نصعد إلى المائدة

حاملين مشروباتنا الخفيفة بأيدينا. على طاولة المائدة، هناك زبديات مملوءة بأنواع مختلفة من المكسرات المالحه وبسكويت جاف صغير مع كؤوس وزجاجات تحتوي على أنواع مختلفة من المشروبات.

كيف للمرء أن يعرف أنه كان شراباً قوياً جداً؟ افترضت عموماً أن البسكويت والمكسرات يرافقها العصير عادة، وعندما أشار نادل، يرتدي قميصاً أبيض وصدريه سوداء وربطة عنق فراشية، إلى زجاجة تحتوي على مشروب بني، أومأت له بالموافقة. ملأ لي قرابة ثلث كأس. شربته دفعة واحدة، وسعلت بقوة، وضغطت على حنجرتي بيدي. كان في الكأس شراب moonshine اسكتلندي، أي ويسكي.

“حاذري!” قالت السيدة روزفلت بحنية. أمسكت يدي وقادتني إلى حجرة الطعام.

بدا من الظاهر أن الذين حضروا العشاء يعرفون بعضهم بعضاً منذ زمن طويل ولهم وجهات النظر نفسها في الحياة. بالنسبة إليهم، صار وصول وفد شبابي سوفياتي حدثاً مهماً من الممكن أن يكون له أثر في السياسة الأميركية الراهنة. جرت المحادثة بسلاسة وكانت بالأهمية نفسها لكلا الطرفين: الضيوف والمضيفين. لكن إلينور أجلسنتي بقربها وألهتني عن المحادثة طارحة علي مختلف أنواع الأسئلة.

“لغتك الإنكليزية ليست سيئة”، همست لي.

- شكراً لك. لكن هذه مجرد مجاملة. لسوء الحظ، لا أستطيع التحدث بها جيداً.

- أين تعلمت الإنكليزية؟

- تعلمت دروسي الأولى من أمي، عندما كنت طفلة.

- هل هي معلمة؟

- نعم.

حاولت أن أجعل إجاباتي مقتضبة لأنني أردت أن أصغي إلى ما كان يقوله حينئذ السيد ديفيس، السفير الأميركي السابق لدى موسكو، لما كان يصف ديبلوماسية ألمانيا الهتلرية في الثلاثينيات.

“وماذا عن والدك؟” تابعت إلينور تحقيقها.

- إبّان الثورة، خدم ضابطاً في “الجيش الأحمر”.

- هل أخذت ولعك بالأسلحة منه؟
- ربما...

أخبرونا في جلسات التعليمات التي جرت قبل الرحلة عن فرانكلن دي لانور روزفلت وزوجته. انحدرت إلينور روزفلت (١٨٨٤-١٩٦٢) من عائلة غنية أرستقراطية، وتلقت تعليماً رائعاً في موطنها، وأمضت ثلاثة أعوام في لندن في مدرسة أليينود للدراسات الثقافية والكياسة، ثم أجرت جولة حول أوروبا الغربية. في آذار/ مارس ١٩٠٥، تزوجت إلينور بقريها البعيد فرانكلن الذي كان طالباً في كلية الحقوق بجامعة كولومبيا. بدلاً من والدها الذي توفي باكراً، زفها عمها ثيودور روزفلت Theodore Roosevelt، الرئيس الأميركي آنذاك.

كسيدة أولى، قامت السيدة روزفلت على رعاية مختلف المنظمات الشبابية والنسائية، وكانت دائماً منخرطة بالأعمال الخيرية وأصبحت ناشطة شعبية معروفة ومحترمة جداً لدى الجميع، وصحافية، وكذلك "وزيرة بلا حقيبة" في حكومة فرانكلن دي لانور روزفلت. ابتداءً من ١٩٢١، عندما مرض زوجها بالتهاب سنجابية النخاع الشديد، ما حدّ قليلاً من حركته، أدارت جميع حملاته الانتخابية، وراحت تجول في أرجاء البلاد متحدة إلى الفئات الانتخابية أثناء التجمعات والاجتماعات. كما عرفت أنها "عينا وأذنا وساقا الرئيس" لأنها كانت تذهب حيث لا يستطيع، كما أنها تؤثر في قراراته. فازت إلينور بمحبة واحترام الشعب. لم يكن عبثاً أن السيدة الأولى، حسب نتيجة استطلاعات الرأي عام ١٩٣٩، حلت بمرتبة أعلى من زوجها من ناحية الشعبية. قيم ٦٧% من الأميركيين سجل أدائها أنه "جيد"، فيما حصل فرانكلن على ٥٨% فقط.

لم تكن السيدة روزفلت معروفة بجمالها. كانت ملامحها قاسية وغير متناسقة. لكن جاذبيتها الساحرة وذكاءها ولطفها جعلت منها امرأة لا تقاوم وقربت الكثير، حقاً الكثير من الناس إليها. لأكون صادقة، في بداية رحلتنا إلى الولايات المتحدة، كنت متحاملة ضد إلينور فهي مليونيرة أرستقراطية تنتمي إلى الطبقة المستغلة، أو هذا ما ظننته. لم يخطر على بالي أبداً أنني قد أثير اهتمام هذه المرأة المميزة.

شهدت الصحف الصباحية، التي وصلت إلى البيت الأبيض وقت الإفطار يوم

٢٨ آب/ أغسطس، على نجاح مؤتمرنا الصحافي. زينت صورنا الصفحات الأولى. حتى أن "الصحافة الحرة" في الولايات المتحدة خصصت لشخصي المتواضع بعض الانتباه. ثرثروا بشأن تفصيلة سترتي العسكرية، واقتبسوا إجاباتي عن الأسئلة وقلّبوا الفكرة المتمثلة في قدرة ممثلي الجنس اللطيف حقاً على الخدمة في الوحدات العسكرية. دعاني البعض بالقاتلة القاسية التي لا ترحم سيئي الحظ من الجنود الألمان الذين كانوا ينفذون أوامر قيادتهم العليا لا أكثر.

بعد أن أزاحت فنجاناً من القهوة الساخنة جانباً، أعطتني إلينور نسخة حديثة من *New York Post* الثخينة وأشارت إلى عمود طويل حمل توقيع إلسا ماكسويل Elsa Maxwell. "إنها إحدى معارفي القدماء"، قالت السيدة الأولى. "كانت في مؤتمرهم وقد أعجبها كل شيء فيه. لقد تصرفت جيداً. إن إلسا خبيرة وشديدة الملاحظة وسيدة قلم مذهلة. في تصوري، وصفتك بدقة، أو بالأحرى، وصفت الانطباع الذي خلّفته".

ما تمتلكه الملازم بافلتشنكو هو شيء أبعد من الجمال. هدوؤها الرزين وثقتها ينبعان مما كان عليها أن تقاسيه وتختبره. لها وجه مادونا Madonna من لوحة كوريجيو ويذا طفل، أما سترتها العسكرية الزيتية بعلاماتها الحمراء، فسفعتها نيران المعارك الشرسة. سألت إحدى النساء التي حضرت المؤتمر، وهي صحافية كانت بجانبني وترتدي فستاناً أنيقاً خاطته على الموضة، لودميلا، بقدر من السخرية: "كنت أتساءل هل هذا لباس المراسم الرسمي الخاص بك أم لباسك اليومي؟" نظرت لودميلا إلى جارتي المتأنقة بدرجة من قلة الاكتراث، وقالت: "اسمحي لي أن أخبرك أنه ليس هناك من استعراضات في روسيا في الوقت الراهن. هناك أمور أخرى تشغل بالنا".

شغلت أصداء نقاشات النسوة بشأن الملابس الرجال أيضاً، كما اتضح لاحقاً، ووصلت إلى صفحات أكثر الصحف المعنية بعالم الأعمال ثقيفاً، وهي *Daily News*. تضمن العدد صورة لي بالطول الكامل ذُيلت بعبارة: "القناصة لودميلا بافلتشنكو".

أرتدي لباسي العسكري باعتزاز! لقد تعمّد بدماء رفاقي بالسلاح ممن قضاوا في ساحة المعركة. ولهذا اعتبره أئمن من أجمل فستان يخيطة أفضل الخياطين!“
بعد الإفطار، ودّعنا إلينور بحرارة. وصل وقتنا في البيت الأبيض إلى نهايته، فانطلقنا إلى السفارة السوفياتية. كان بانتظارنا هناك مؤتمر جديد، هذه المرة مخصص لوكالات الأنباء الدولية *Reuters* و *Associated Press*.

بينما كنت أوضّب حزمة الصحف الضخمة التي تحمل صوري، والتي ستلزمني عند كتابة تقرير في موسكو، خطر في بالي أن الجزء الجديد من الجبهة التي الذي أوكلتني إليه قيادة ”الجيش الأحمر“ قد بدأت تتضح معالمه. إنها المعركة ضد الصحفيين. ليس لأنهم أشخاص بغضون ومقززون، بل لمجرد أن لديهم أفكارهم الخاصة حول ما هو جيد وما هو سيئ، وما هو ممتع وما هو ممل. كانوا يقفون بيني وبين الملايين من القراء والمستمعين والمشاهدين في أميركا الذين عهد إليّ الرفيق ستالين إخبارهم حقيقة الحرب. وهذا يقتضي أن كون المرء صادقاً، واثقاً من نفسه، رابط الجأش إلى أقصى درجة، مرحاً وفطناً. حينئذ سيصدقونا.

في ذاك المساء، ذهب ثلاثتنا - كرازافتشنكو وبشلتنسيف وأنا - لحضور عرض في المسرح الوطني، وهو المسرح الأقدم في الولايات المتحدة الأميركية ويقع على جادة بنسلفانيا، ليس بعيداً من البيت الأبيض. هناك عرضت أوبرا *Madame Butterfly* [مدام بترفلاي] من تأليف الإيطالي جياكومو بوتشيني *Giacomo Puccini*. كان المدرج مليئاً بأشخاص من عامة الشعب الأثرياء الذين يرتدون لباساً جيداً. في بادئ الأمر، لم يتنبه أحد إلى وجودنا، فقد كنا نرتدي ملابس مدنية. ولكن عندما أنيرت الأضواء في الاستراحة بين الفصلين الثاني والثالث، اعتلى المدير خشبة المسرح وأعلن أن أعضاء الوفد الطلابي السوفياتي يجلسون بين الجمهور. كان هناك تصفيق حار. كان علينا الصعود إلى خشبة المسرح. تحدث فلاديمير بشلتنسيف نيابة عن الوفد ولم يدم خطابه أكثر من خمس دقائق. بعد ذلك، ظهر في المدرج فتيات يرتدين ملابس جميلة ويحملن بين أيديهن صناديق ملونة، وشرعن في جمع التبرعات لمساعدة ”الجيش الأحمر“.

سارت عملية جمع التبرعات جيداً. صعد العديد من الذين دفعوا الأموال إلى المسرح محاولين مصافحتنا، وتفوهوا بعبارات من الدعم. بعد هذه المرة، تكرر

هذا المشهد مرات عدة خلال رحلتنا عبر أميركا. في المجمل، جمع وفدنا وحول إلى السفارة السوفياتية قرابة ثمانمئة ألف دولار أميركي، وهذا مبلغ محترم. لكننا كنا نتجادل بيننا بشأن المنظور الذي ينبغي لنا النظر به تجاه هذه العملية. قال بشلنتسف إنها تنطوي على شيء من الإهانة، كأن دولتنا العظيمة وجيشها الذي لا يقهر تتوسل الأميركيين الأغنياء إعطاء صدقة للفقراء. وبصفته رئيساً للوفد، لم يسأم كرازافتشكو من شرح حقائق الأمور لفلاديمير، صاحب الرأس الحامي: ستشتري هذه النقود المواد الغذائية والأساسيات للشعب السوفياتي الذي حرم سقفاً يؤويه، وخسر كل ممتلكاته وانتهى به المطاف بالترحيل. كان ذلك في مجمله صحيحاً، لكنه ترك انطباعاً كريهاً.

في جميع الأحوال، كانت رحلتنا زيارة رسمية ونشرت وكالة "تاس" بشأنها البيان اللاحق في ٣٠ آب/ أغسطس ١٩٤٢:

مكتبة

t.me/soramnqraa

حضور الوفد السوفياتي

لمؤتمر الطلبة الدولي في واشنطن

لدى وصولهم إلى واشنطن، تمت دعوة أعضاء الوفد السوفياتي إلى مؤتمر الطلبة الدولي، الرفاق كرازافتشكو وبشلنتسف ولودميلا بافلتشنكو، إلى البيت الأبيض في اليوم نفسه، حيث أمضوا ليلتهم في ضيافة الرئيس الأميركي. في اليوم الثالث، تحدث أعضاء الوفد للإذاعة، وتم بثّ خطاباتهم عبر أثير إحدى محطات واشنطن الرائدة. وتحدث الأعضاء عن تجاربهم في محاربة النازيين.

وُصف وصول بافلتشنكو وكرازافتشكو وبشلنتسف بالتفصيل عبر برنامج إذاعي خاص تم بثه في أرجاء الولايات المتحدة كلها. كما نشرت الصحف الصباحية صوراً للطلبة السوفيات، ومحادثة أجريت معهم، ووصفاً تفصيلياً لوصولهم إلى واشنطن.

خلال حديثه مع الصحفيين، طلب كرازافتشكو منهم أن ينقلوا إلى الشباب الأميركيين والشعب كلّ تحيات الشعب السوفياتي الذي يحارب حشود النازيين على الخطوط الأمامية. وصف كرازافتشكو باقتضاب

نواحي متعددة من مشاركة الشعب الروسي في النضال ضد المعتدين. ونقلت لودميلا بافليشينكو التحية العسكرية من النساء السوفيات إلى النساء الأميركيات ووصفت كيف تضحى النساء السوفيات اللواتي ألهمهن كره العدو بأنفسهن. تحدثت بشلنتسف عن فن القنص وقال في الختام: "يمكننا أن نتصر وسوف نتصر. هذا ما قاله ستالين، وهذا ما سيحدث". كما عبّر الطلبة السوفيات عن امتنانهم للسيد روزفلت لكرم الضيافة التي خصّهم بها في البيت الأبيض.

صباح الثاني من أيلول/سبتمبر، استعدنا للجلسة الأولى من تجمع الطلبة الدولي. ارتدينا لباسنا الرسمي، وتحققنا من أن كل شيء وفق الأصول وفي مكانه، وبقليل من التوتر، تأملنا كيفية سير الجلسة والطريقة التي سيجري بها استقبالنا. "التجمع الدولي!" رددنا هذه الكلمات لبعضنا بعضاً غير مدركين أن الأميركيين هم سادة الخداع عبر التاريخ. لم يكن في القاعة أكثر من أربعمئة شخص؛ كان هذا العدد الإجمالي للتمثيل الدولي. حقاً أتى الطلاب من ٥٣ دولة. هناك أميركيون لاتينيون وأفارقة وآسيويون وأوروبيون. من البديهي أنه لم يكن هناك أي وفود من ألمانيا أو الدول التي تحالف معها.

بعد أن نظر إلى القائمة، قال موظف "رابطة الشبيبة الشيوعية" المتمرس نيكولاي كرازافتشنكو، إن هدف منظمي التجمع الدولي جلي بالنسبة إليه. إن ممثلي الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وكندا يشكلون غالبية يعتد بها. وهذا سيؤثر في التصويت. ستمكنهم هذه الغالبية من فرض أي شيء يريدونه على البقية. وهذا يعني، ختم نيكولاي حديثه، أنه من الضروري المطالبة بتبني قاعدة تعطي صوتاً واحداً لكل وفد عوضاً عن إعطاء صوت لكل ممثل بين الحضور.

كوننا حضرنا بلباس "الجيش الأحمر" الرسمي، لفتنا انتباه الجميع مباشرة. مرة أخرى تهافت علينا المراسلون عند المدخل. لمعت أضواء الكاميرات وانهاالت علينا الأسئلة بغزارة من كل حذب وصوب. بعد صراع من أجل الوصول إلى الرواق، وجدنا السيدة روزفلت هناك. كانت تحيي الوفود. أحاط الصحفيون بالسيدة الأولى مباشرة وطلبوا منها أن تأخذ صورة معنا.

لم تمنع إلينور ذلك. وقف الملازم أول بشلنتسف إلى يسارها، ووقفت إلى يمينها. أمسكت كلينا من يديه. وبهذه الطريقة، جسّد التحالف الروسي-الأميركي ضد الفاشية بشكل مادي وحيوي. في اليوم اللاحق، ظهرت الصورة في الصحف، وبرع المعلقون بتوقعاتهم وتأويلاتهم لها بهذه الطريقة أو تلك.

إضافة إلى التعريف بالوفود والتصويت على جدول الأعمال، تضمن اليوم الأول من التجمع جلسة عامة ونقاشاً حول قضية "الجامعات في زمن الحرب". ألقى نيكولاي كرازفتشنيكو بأحد الخطابات وقدم فيه تقريراً مفصلاً وعميقاً عن العمليات العسكرية والأعمال التي يقوم بها الطلاب السوفييات في المؤخرة. شهد المساء الافتتاح الرسمي للفعالية التي حضرها العديد من ضيوف الشرف وضمت ممثلين عن المنظمات المدنية الأميركية، وممثلين رسميين عن الإدارة الأميركية، وزوجة الرئيس. لم يكن حفل الاستقبال قد انتهى بعد عندما أتت السيدة روزفلت إلينا وقالت إن الوفد السوفياتي مدعو إلى العشاء في البيت الأبيض، وعليهم المغادرة فوراً.

لم يمض وقت طويل حتى علمنا سبب هذه العجالة. كأنها مصادفة: شاءت الأقدار أن نقابل الرئيس فرانكلن ديلاانو روزفلت في البيت الأبيض. كان في إحدى الغرف جالساً على كرسي خشبي له ظهر طويل وأذرع واسعة يدها ترتاح عليها. كانت قدماه مغطاتين برداء من الصوف الاسكتلندي المنقوش على شكل مربعات.

"فرانك"، قالت السيدة الأولى، "أود أن أقدم إليك أصدقاءنا السوفييات الجدد". من دون أدنى شك، كان رجلاً استثنائياً جداً، يمتلك ذهنًا حاداً وإرادة قوية. جالت هذه الفكرة في بالي مباشرة عندما اختبرت نظرتة الثاقبة وصافحت كفه النحيل، لكن القوي. أصغى بانتباه بينما كان المترجم يقدمنا إليه وردد أسماء المدن التي أتينا منها: "موسكو... لينينغراد... أوديسا وسيفاستوبول... يا للروعة! تاريخ حقيقي مقتضب لحرب الألمان الحالية في روسيا!" كرجل نبيل حقيقي، تحدث إلينا أولاً، وسألني عن المعارك التي شاركت فيها، وعن الأسباب التي أدت إلى منحي الأوسمة العسكرية، وكيف قاتل رفاقي في الفوج. على العموم، كان مطلعاً على العمليات على مختلف الجبهات، لكنه كان مهتماً بسماع التفاصيل وبانطباعات المعنيين بالأمر مباشرة.

خلال ثلاث سنوات من الحرب تقريباً، لم ينجح الأنغلو-أميركيون في أي مكان

في مقاومة أعدائهم كما فعل الروس في موسكو ولينينغراد وأوديسا وسيفاستوبل. أراد الرئيس أن يفهم كيف تمكننا من ذلك. هل كان بسبب الروح العسكرية التقليدية القوية للجيش الروسي، أو نتيجة للتدريب العسكري الذي يتلقاه الجند، أو بسبب مهارة الضباط، أو موهبة الجنرالات بالإستراتيجيات، أو الأسلحة الممتازة، أم هل كان السبب الرئيسي: وحدة الجيش والشعب الذي حمل السلاح في وجه الغزاة؟ على الأرجح، كان روزفلت يعد الخطط من أجل المستقبل.

منذ ٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤١، عندما دمرت حليفة ألمانيا، اليابان، الأسطول البحري الأميركي في بيرل هاربر Pearl Harbor، وبعدها أبعدوا الأميركيين بسرعة خارج جنوب شرق آسيا، كان الرئيس يبحث عن إجابة لسؤال يراوده: من سيساعد أميركا في العودة هناك؟ لم تسعفه دول التحالف ضد النازية بأي أمل على وجه الخصوص. لقد ضعفت قوة الإمبراطورية البريطانية أثناء العمليات العسكرية. واحتل النازيون نصف فرنسا وكان النصف الثاني تحت سيطرة النظام الفيشي، المتعاون مع هتلر. أما في الصين، فهناك حرب أهلية؛ لم يبقَ إلا روسيا السوفياتية، بالطبع إذا تمكنت من هزيمة الألمان في ستالينغراد وطرده قواتهم خارج أراضيها، وإذا تمكنت من إعادة بناء إمكاناتها الصناعية.

اختتم روزفلت حديثه معي بسؤال: "كيف تشعرين وأنت في بلادنا؟" "ممتاز سيدي الرئيس"، أجبته.

- وهل كان الأميركيون ودودين معك؟

- لقد تعاملوا معنا كضيوف مرحب بنا في كل مكان. لكن بصدق، كنا نتعرض في بعض الأحيان لهجمات مفاجئة. "حقاً؟" بدا الرئيس متفاجئاً.

"أعني هجمات من مراسليكم الصحفيين"، قلت ذلك وأكملت الحديث بلهجة جدية، "إنهم أناس لجوجون. ببساطة، من المستحيل أن تتحمل الضغوط التي يمارسونها عليك. عليك تحمل كل شيء".

ابتسم الرئيس. لقد أعجبته الملاحظة.

كان بإمكانني الاستمرار بالمزاح، لكنني كنت أرغب في طرح ذاك السؤال المهم

على روزفلت، بشأن تقديم دعم أكثر فعالية إلى الاتحاد السوفياتي، وبشأن فتح جبهة ثانية في أوروبا الغربية التي من شأنها أن تؤدي إلى انسحاب بعض الفرق العسكرية الألمانية التي تقاتل حالياً على ضفاف الفولغا.

بدا أن روزفلت قد قرأ أفكاره. قال بتمعن: "أخبري الحكومة السوفياتية والسيد ستالين شخصياً أنه من الصعب عليّ في الوقت الراهن أن أحول دعماً حقيقياً أكبر إلى بلدكم. نحن الأميركيين لسنا جاهزين لاتخاذ عمل حاسم إلى هذه اللحظة. ما يعوقنا هم شركاؤنا البريطانيون. لكن الشعب الأميركي يقف مع حليفه السوفياتي قلباً وقالباً". أخذت مجريات التجمع الطلابي الدولي مسارها الطبيعي. هناك خطابات ممتعة وحوارات ساخنة أو شك خلالها المشاركون على تبادل اللكمات. مثلاً أثناء مناقشة ما يسمى "المسألة الهندية" صرخ طالب هندي يعتمر توباناً يدرس في جامعة بومباي على آخر بريطاني من جامعة أكسفورد قائلاً: "أيها الكلب الاستعماري البغيض! عاجلاً أم آجلاً سنهزمكم جميعاً ونحظى باستقلالنا!" تم الفصل بين الهنود والبريطانيين بصعوبة، وهرع وفد بومباي إلى الوفد الروسي مشتكياً. كنا متعاطفين جداً مع شعوب آسيا الصغرى وشعوب جنوب شرق آسيا المظلومة، أما عن إثارة ضجة ضمن فعالية دولية، فلم يأمرنا أي أحد في موسكو أن نفعل ذلك.

دعوني أقول في البداية إنه بدا من المستحيل تضمين فقرة بشأن افتتاح جبهة ثانية في أوروبا في البيان الذي تبناه المؤتمرون في الجلسة الختامية لتجمع الطلاب الدولي. ولكن توصلنا مع المنظمين إلى تسوية ترضي الطرفين. تبني المؤتمرون "مذكرة سلافية" أدانت بشدة الفاشية الألمانية ودعت إلى الوحدة بين جميع الشعوب في النضال ضدها. نقل عدد كبير من الصحف والمحطات الإذاعية خبر تبني المذكرة، فيما أفردت "ناس" لها التغطية الأوسع.

أمضى المشاركون في التجمع المساء المشمس الدافئ من ٥ أيلول/سبتمبر ١٩٤٢ على الساحات الخضراء المجاورة للبيت الأبيض. نظمت الحكومة الأميركية حفل استقبال هناك بمناسبة انتهاء أعمال المؤتمر، وأدارته إينور روزفلت. كان العشرات من الشبان والشابات يتجولون في الأرجاء فرادى أو ضمن مجموعات على طول ممرات الحدائق الفرنسية التقليدية المذهلة، حاملين أطباقاً ورقية وسندويشات وزجاجات من

المشروبات الباردة، وناقشوا أهداف وغايات حركة الشباب الديموقراطي. أولت السيدة الأولى وفدنا بالاهتمام الأكبر. كانت تعرف خمس كلمات بالروسية فقط: spasibo (شكراً)، khorosho (جيد)، و da و nyet و konyechno (كلها تعني طبعاً). لم تكن دردشاتنا معها رسمية جداً بعد الآن، وشعرنا بالراحة أكثر. أطلقت إلينور النكات، وضحكت وأخبرتنا كيف خطرت لها فكرة إقامة هذه الفعالية وكيف خططت لها. من وجهة نظرها، كان الهدف من المؤتمر أن يكون له طابع ثقافي وتعليمي، وأن يعزز نشر القيم الأميركية في سياق شبابي دولي. إن ظهور الطلاب الروس غير كثير من الأمور. تحدثنا عن الحرب بشغف كبير وعواطف جياشة. عرفنا كثيراً عنها. لذلك، فجأة اكتسبت الحرب، التي كانت بعيدة كل البعد وغير مفهومة للأميركيين سابقاً، ملامح واضحة: معاناة الناس العاديين، والدماء التي أريقَت في المعارك، والموت الفوري. شكرتنا السيدة روزفلت على هذا وعبرت عن أملها أن يسمع جميع المواطنين الأميركيين، والقارة بأكملها، ما جئنا لقوله.

حبّيتي

في الصباح اللاحق، حضرنا إلى مكتب لثفنوف وسلمناه نص بيان التجمع الطلابي الدولي و"المذكرة السلافية". شكرنا السفير على ما فعلناه، وقال إننا أظهرنا درجة عالية من التدريب الأيديولوجي والسياسي، ومقدرة على التحدث على المنابر العامة والدفاع عن المثل الشيوعية في المناظرات مع الخصوم البرجوازيين. أعلمنا أن شركاءنا الأميركيين قد عرضوا تمديد إقامة الوفد الطلابي وإرسالنا في جولة حول المدن الأميركية لإضفاء شعبية أكبر على فعاليات دول التحالف ضد هتلر. وقد قبلت السفارة السوفياتية هذا الطرح.

لم نكن مسرورين بهذا القرار. حلمنا وبشلتنتسف بالذهاب إلى الوطن بأسرع ما يمكن لأن معارك شرسة قد اندلعت على جبهة ستالينغراد في نهاية تموز/ يوليو. كان الألمان يقتحمون باتجاه نهر الفولغا. مع بداية آب/ أغسطس، اقتربت وحدات من جيش هتلر السادس من مشارف ستالينغراد.

أظهرت القوات السوفياتية مقاومة شرسة في وجه الغزاة، ولكن نتيجة لتفوقهم العددي أطبق العدو على شوارع المدينة وهناك مناوشات مستمرة. كانت الأحداث تتخذ نمط حرب المواقع ما يعين أن هذا هو الوقت الأمثل لعمل القناصين. لم يكن لدينا أي نية للوقوف على أطلال أمجادنا: لدى فلاديمير ١٥٤ قتيلاً من الألمان في جعبته ولدي ٣٠٩، وكلانا يرغب في زيادة حصيلته القتالية على خطوط النار في

المدينة قرب النهر الروسي العظيم.

أصغى لثَنُوف إلى الجدال الدائر بهدوء، وذكرنا بأنه ينبغي للضباط تنفيذ أوامر القائد العام الأعلى لـ "الجيش الأحمر"، واقترح أن نجهز أنفسنا من أجل الرحلة إلى نيويورك الأحد ٦ أيلول/ سبتمبر. هذا اليوم عطلة وطنية في الولايات المتحدة الأمريكية، عيد العمال. سننطلق في الصباح الباكر مستقلين قطار واشنطن-نيويورك السريع، وكنا مطالبين بارتداء زي المراسم الرسمي.

كما جرت العادة، استقبل الصحفيون الوفد في محطة القطار في نيويورك. لكنهم لم يحظوا بالفرصة للانخراط كلياً في التهريج حيث تم إبقائهم على مسافة منا. جلسنا في سيارة وأخذنا تراقفنا الشرطة على وقع صوت صفارات الإنذار وضجيج محركات الدراجات الآلية إلى المدخل الرئيسي لسترتل بارك. كان قد تجمع حشد غفير هناك. حملنا بعض الشبان الضخام الجثة المرتبطين بالجيش، يرتدون سترات وقبعات، على الأكتاف، ووضعونا على المنصة. أعلن عمدة المدينة، فيوريلو لا غوارديا Fiorello La Guardia، عبر مكبر الصوت أن ممثلي "الجيش الأحمر" البطل قد وصلوا، وعبر عن إعجابه بنضال الشعب الروسي العظيم ضد الفاشيين الألمان. قابل الحشد الموجود في الحديقة كلام العمدة بصرخة حماسية. تبع ذلك أغنية من المغني الأسود بول روبسن Paul Robson الذي غنى بالروسية أغنية "واسع هو وطني الأم" للمؤلف دونايفسكي Dunayevsky.

اختتم اللقاء بتقديم هدية رمزية إلى الضيوف السوفيات: ميدالية نُحتت بمهارة من خشب السنديان البحري على شكل قلب، ونُقش على قرص فضي وسطها: "للمشاركة الفعالة في النضال ضد الفاشية". كنت من عليه أن يستلم الهدية. بعد ذلك، وجب إلقاء خطاب في المقابل، مقتضب لكن مفهوم. "أصدقائي الأعزاء،" بدأت قائلة، "نتيجة لإحساسه بنهايته المحتومة، يقوم الوحش الفاشي بمحاولات يائسة لتوجيه ضربة إلى شعوبنا المتحدة قبل أن نوجه، نحن الحلفاء، الضربة إليه. إنها مسألة حياة أو موت لجميع الشعوب المحبة للسلام في كل دولة أن نستجمع جميع قوانا لتقديم الدعم إلى الجبهة. ما نحتاجه دبابات أكثر، طائرات أكثر، بطاريات مدفعية أكثر، أيها الكادحون الأميركيون العظماء!"

نتيجة لتضخمه عبر مكبر الصوت، صدح صوتي فوق رؤوس الحشد الصامت وتردد صده على طول أبعد ممرات الحديقة. بالطبع، لم يفهم سكان نيويورك ما قلت إلا بعد أن انتهى المترجم من حديثه، لكنهم استشعروا الحماسة من نغمة صوتي. أردت أن تصل حماسي إلى الحشد، أن أثير تعاطفهم مع شعبنا، أن أستثير استجابة في قلوبهم. وعلى ما يبدو، أتت المحاولة بثمارها. استجاب الحشد بتحفظ في البداية ثم بعاصفة من التصفيق وصرخات التأييد.

تلى ذلك غداء رسمي بضيافة القنصل العام للاتحاد السوفياتي، فيكتور ألكسيفتش فديوشين Victor Alexeyevich Fedyushin. كان هناك أيضاً حفل استقبال مسائي في مبنى نقابة تجار الفراء، حيث قدمت إلينا الهدايا: هديتي معطف طويل من فرو الراكون، أما الشبان، فتلقوا سترات فاخرة من جلد القندس. جمع تجار الفراء على الطاولة مجموعة من الضيوف المميزين؛ كان بين الحاضرين العديد من ممثلي الدوائر التجارية وموظفي الدوائر الحكومية في المدينة وشخصيات من عالم الفن والثقافة.

في ذلك اليوم، قُدمت إلى شخص يدعى وليم باترك جونسن William Patrick Jonson، مليونير ومالك شركة تعدين. 'لم أجد أي شيء مميز فيه. كان رجلاً في الخامسة والثلاثين تقريباً، طويلاً بعض الشيء، ذا بنية متوسطة ومظهر جميل؛ كجميع من كان في الاستقبال، قبل يدي بنعومة وتفوّه ببعض الكلمات المبتذلة عن مظهري وفتاني الرائع في لقاء سترال بارك، إذ تبين أنه كان بين الحضور. الشيء الوحيد الخارج عن المألوف بخصوصه دعوته الملحة لي لزيارة ملكيته الواقعة في ضواحي نيويورك، حيث يمتلك مجموعة من لوحات الرسامين الرياديين الروس من بدايات القرن العشرين. كان لدي فكرة ضبابية عن الشخصيات الريادية ومعرفة جيدة بـ Peredvizhniki [بريدفجنكي]، أو ما يسمى الفنانين "الجوالين"، وراقت لي على وجه الخصوص لوحات رسام الحرب فاسلي فرشتشاغن Vasily Vereshchagin.

كانت الرحلات الفردية والمعارف من هذا النوع ممنوعة بالنسبة إلينا. كان عليّ

١ رغم حرص بافلتشنكو على تهجئة الاسم في الإنكليزية، أي بصيغة "Jonson" نادرة الوجود، يُشك في صحة هذا التفسير. يُعد وليم جونستن III، الباحث المتخصص بالتعدين المدرج في إحصاء نيويورك لعام ١٩٣٣، المرشح الأكثر قبولاً لأنه لم يكن في الفئة العمرية المناسبة فحسب، بل في المهنة الملائمة أيضاً.

إخبار السيد جونسن مع ابتسامة أن جدول أعمالنا الضيق، لسوء حظي، لا يسمح لي بفرصة قبول دعوته. اعتبرت أن محادثتنا قد انتهت وأن لقاءنا هو الأخير. لكن كان هناك المزيد.

بعد أن ألهمتهم أصدقاء النجاح التي لاقاها اجتماعنا في نيويورك، خطط المنظمون من مكتب الطلبة الأجانب، والسفارة السوفياتية وإدارة الرئيس الأميركي لرحلة دعائية أخرى - في العاشر من أيلول/ سبتمبر - إلى مدينة Baltimore الكبيرة الواقعة على شاطئ المحيط الأطلسي. كان هناك طريق سريع ممتاز من واشنطن يتألف من مسارات عدة. انطلقنا منذ الصباح الباكر في سيارة للسفارة ووصلنا في منتصف النهار. ومرة أخرى، لاقتنا مراسم من الشرطة: دوي الصفارات وأرتال من سائقي الدرجات النارية يرتدون الخوذ البيضاء والسترات السوداء. أثناء الطريق لمقابلة العمدة، شاهدنا الناس يقفون على جانبي الطريق ويلوحون لنا بأيديهم ترحيباً ويطلقون التحيات بصوت عالٍ. لقاء آخر في ساحة المدينة، وخطاب آخر مني، وصراخ الحشود مرة أخرى ويافطات باللغة الروسية والإنكليزية كتب عليها: "عاش الجيش الأحمر!"، "نرحب بالمحاربين ضد الفاشية"، "نؤيد فتح جبهة ثانية". تلى ذلك استقبال رسمي في مبنى المحافظة يضم شخصيات مميزة من بلتمور. هنا أيضاً دنا مني وليّم باترك جونسن - حقاً، هذه المرة ببذلة مختلفة مقلمة بخطوط رمادية - وقال إنه مسرور جداً لرؤيتي مرة أخرى، وإن لديه نسيباً في بلتمور يمتلك مجمعاً تجارياً ضخماً يتضمن قسماً مذهلاً للملابس الجاهزة، ولا بد للسيدة بافلتشنكو من زيارته خصوصاً أنه قد استقدم في المدة الأخيرة بضاعة من أحدث الأزياء من لندن. عندما انتهى من الكلام، اقتربت منا امرأة متوسطة العمر تتقلد الألباس بشكل مفرط؛ كانت هذه بالطبع نسيبة السيد جونسن. أخبرتني بابتسامة أن الأزياء التي تناسب مقاسي كانت ببساطة رائعة إلى أبعد الحدود، واقرحت أن أذهب مباشرة من أجل القياس. أضاف جونسن أنه يرغب في تقديم أي رداء يستهويني هدية إليّ.

كان هذا أكثر جدية وعلي إعطاء المليونير الملحّ رداً رادعاً، لكن بطريقة ناعمة ومهذبة وديبلوماسية. شرحت له أنني أحب الملابس الجيدة، لكنني أنفذ أوامر الرفيق ستالين. فوجئ كلا مالكي العقارات: أي أوامر يمكن أن تعطى لامرأة شابة جميلة

ترغب في تجديد محتويات خزانتها؟ سألتها هل الرئيس روزفلت أمر بذلك، أم أنهما يتصرفان بدافع نزواتهما الاقتصادية الخاصة. بينما كان النسيان يستجمعان أفكارهما، ظهر نيكولاي كرازافتشنيكو بالقرب مني؛ كان له موهبة مميزة لفعل ذلك في اللحظة المناسبة. أخذت يده وابتعدنا بسرعة إلى الجهة المقابلة من الغرفة.

في اليوم الذي تلى، ١١ أيلول/ سبتمبر، عاد وفدنا إلى واشنطن. كانت هناك أخبار سارة تنتظرنا في السفارة. لقد وجه الرئيس الأميركي وزوجته دعوة إلى الطلبة السوفيات لقضاء أسبوع في مزرعة العائلة، هايد بارك Hyde Park، التي تبعد ثمانين كيلومتراً عن نيويورك على نهر هدسن Hudson. بالإضافة إلى الطلبة الروس، دُعي بعض المشاركين في التجمع الطلابي الدولي: ريتشارد مايلز Richard Miles وديف سكوت Dave Scott من بريطانيا، ويوهان والتر Johann Walter من هولندا، ويون وانغ Yoon Wang من الصين. سندهب بالقطار وستستقبلنا السيدة الأولى في المحطة.

كانت مزرعة آل روزفلت شاسعة جداً وخلاصة ومزودة بأحدث التجهيزات. لم يكن ممكناً أن تغطي المنطقة كلها بيوم واحد. تداخلت حديقة ذات ممرات مستقيمة وأحواض من الزهور والمروج والمقصورات والمقاعد الخشبية بشكل مبهم مع غابة كثيفة تشغل مساحة ما لا يقل عن ثلاثة كيلومترات. وليس بعيداً من مركز المزرعة، ومبناها الحجري المؤلف من دورين، هناك بحيرة كبيرة. كانت إحدى ضفافها مكسوة بعيان القصب ما أضفى عليها نفحة برية إلى حد ما، أما الضفة الأخرى، فتم العناية بها جيداً. وهناك كوخ للاستحمام أيضاً وأرصفة ملونة تمتد داخل المياه النظيفة الصافية، تراقص مع النسيم العليل بقرها قوارب مثبتة بالحبال على دعائم.

بعد الإفطار، انطلقت في جولة قصيرة سيراً على الأقدام. أثار انتباهي زورق ضيق غريب الشكل، من الواضح أنه مغطى بالجلد، يتوسطه مقعد صغير ومجدافان قصيران مثبتان على جانبيه. في مرة من المرات، في منزلنا في بيلا تسيركفا، استمتعت وأختي فالنتينا بنزهة في قارب مسطح يدعى Cossack Oak في نهر روس. ومن دون تفكير مطول، قفزت إلى "الزورق الهندي" الأميركي (هذا ما كان يُطلق عليه، كما تبين لاحقاً)، وجدفت مبتعدة عن المرسى.

انطلق القارب إلى الأمام بسرعة وسهولة فائقة، لكن غاطسه كان ضحلاً إلى حد

ما. وبانعطافة حادة واحدة، انقلب القارب، وانتهى بي المطاف في المياه الباردة. لم تتوج محاولتي لاستعادة قبعتي المصنوعة من اللباد بالنجاح. لقد غرقت بسرعة. كما لم أنجح في إعادة القارب إلى وضعه السابق؛ انزلقت يداي عن حافاته الرطبة المائلة التي كانت حقاً مغطاة بالجلد. جل ما كان في وسعي فعله هو السباحة نحو الضفة وأنا أجر القارب خلفي. شهد الحادثة شخصان واقفان في المكان: ريتشارد مايلز وديف سكوت.

وقف النييلان الإنكليزيان المهذبان هناك مرتبكين لا يعرفان ما يتوجب عليهما فعله: أن ينقذا الفتاة والقارب، وهذا يعني أنهما سيخلعان ملابسهما ويقفزان إلى الماء، أو أن يستدعيا الخدم من أجل المساعدة، ما سيتطلب منهما الركض إلى وسط المزرعة رغم أن المسافة ليست بعيدة.

عندما رأيت وجهيهما الواجمين، لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك. لأكون صريحة، أن تفعل مثل هذه الأشياء الحمقاء في بلد أجنبي هو ضرب من الجنون: أن تبحر إلى الطرف المقابل من البحيرة بقارب غير مألوف لك، وأن تضرب الماء بيديك، وأن تغوص في الماء بحثاً عن قبعتك، وأن تخرج إلى الشاطئ أمام أعين شابين مخبولين يحدثان بك باندهاش كأنهما قد شهدا للتو غزاة من كوكب المريخ.

فيما كنت لا أزال أضحك، شققت طريقي إلى كوخ الضيوف المخصص لي، الذي يقع بعيداً من البحيرة، خلف المنزل المؤلف من دورين. كانت ياقة سترتي الرطبة ملتصقة بعنقي. وصارت طيات فستاني المصنوع جزئياً من الصوف مثقلة بالماء ما جعل المشي صعباً. امتلاً حذائي بالوحل بشكل منفر. لكن لم يكن بإمكانني أن أخلع ملابسني هناك! وسيكون الجو بارداً دون ملابس تغطيك.

لم تكن نسائم أيلول/ سبتمبر العليلة دافئة على الإطلاق، ولم تكن حرارة الجو أكثر من ست عشرة درجة. "لودميلا!" صدح صوت السيدة الأولى الهلع فجأة عندما فتحت نافذة في الدور السفلي لمنزل المضيفين. "ما الذي حدث؟"

- كنت أسبح في البحيرة دون ثوب استحمام.
- لكن الجو غير مناسب للاستحمام على الإطلاق. عليك تبديل ملابسك بسرعة.
تعالى إلى هنا.

قابلتني السيدة روزفلت في الرواق واصطحبتني إلى غرفة الدراسة والنوم الخاصة بها، التي تتصل بحمام ومرحاض. في الطريق وأنا لا أزال مبتسمة، أخبرتها على سبيل الدعابة عن سلوك القارب المخادع، وعن قبعة اللباد التي غرقت كأنها قطعة من الحجر، وعن أبناء الضباب اللذين كانا خائفين من الماء حتى الموت واللذين ربما لم يشاهدا امرأة متعرية من قبل.

أحضرت إلينور منشفة ناعمة كبيرة وأعطتني إياها. بحذائي الرطب، كنت خائفة أن أدوس على السجادة الفارسية الفاخرة الممدودة على أرضية مكتبها. قالت: "انزعي ملابسك في الحمام، سأعود بعد قليل".

عادت زوجة الرئيس بعد نحو خمس عشرة دقيقة. كانت تحمل رداء نوم لها ومقصاً وصندوق يحتوي على إبر وخيوط. انتظرتها وأنا ملتحفة بالمنشفة. تركت ملابس الرطبة وملابسي الداخلية وجواربي النسائية وحذائي في الحمام، ووقفت حافية على السجادة، خجلة للغاية مما حدث. رأيت انعكاساً لصورتني من خلال المرآة الكبيرة على طاولة الملابس: شعر رطب متشابك، وكتفان عاريتان، وذراعان وساقان، إذ إن المنشفة لم تغط جسدي كاملاً.

رمقتني إلينور بنظرة عابرة، وابتسمت ونادت الخادمة. شرحت لها ما عليها فعله بالأشياء الموجودة في الحمام: أن تغسلها إن كانت مبتلة، ثم تجففها، وتكويها وتعيدها إلينا. هزت الخادمة السوداء الممتلئة والمتوسطة العمر، التي ترتدي قبعة بيضاء تغطي شعرها الأسود المموج ومئزرًا ذا حافات مخرمة، رأسها بالموافقة، بينما كانت تنظر إليّ بين فينة وأخرى. ربما لم يظهر أي من ضيوف الرئيس أمام الخدم بمثل هذا اللباس الفاضح. غادرت الخادمة، فالتفتت إلينور إليّ قائلة: "عليك ارتداء رداء النوم خاصتي".

- لكن ليس لنا الطول نفسه.

- لا تهتمي! سأقصر الأكمام والسيقان.

- بنفسك؟

دهشت لأبعد الحدود.

- أجل يا صديقتي. أم هل تظنين أن نساء عائلة روزفلت نساء مترفات؟ أؤكد لك

أن جميع النساء الأميركيات يعرفن حقاً كيفية القيام بالأعمال...

في البداية، وضعت رداء النوم على السرير الواسع. كان رداء جديداً مصنوعاً من الساتان الزهري السميك، طُرِّز على ياقته وأزرار أطرافه وجيوبه أزهار بنفسج؛ بدا جلياً أنه ليس رخيصاً. لكن إلينور قصته بحماسة ثم أخرجت شريط قياس طويل من الصندوق. في النهاية، قبل أن تقوم بعملية القص، على المرء أن يأخذ المقاسات بدقة، وليس أن يقدرها بالنظر.

مستخدمة أداة الخياط هذه ببراعة، حددت السيدة الأولى طول ذراعي بسرعة، وبعد ذلك التفت لتقيس عرض كتفي من الوراء. غطت المنشفة حتى إبطي فقط فلمحت السيدة الأولى الندبة الطويلة الحمراء المتشعبة التي تمتد بشكل مائل من لوح كتفي الأيمن إلى عمودي الفقري. صدمها المنظر؛ خطت خطوة إلى الخلف وقالت مندهشة: "يا إلهي! ما هذا يا لودميلا؟"

أجبتها: "إنها ناجمة عن قطعة معدنية"، إذ إنني لم أكن أعرف في ذلك الوقت الكلمات الإنكليزية المرادفة لـ "ندبة"، أو "شظية"، أو "قذيفة"، ولهذا السبب لجأت إلى استخدام البدائل.

"لكن كيف وصل المعدن إلى هنا؟" تحسست إلينور الندبة بإصبعها.

- في كانون الأول/ ديسمبر من العام الماضي، في سيفاستوبول.

- وأنت تقاتلين الألمان؟

"أجل"، أكدت لها.

"أيتها الفتاة المسكينة!" عانقتني السيدة روزفلت بان دفاع وقبّلتي على جبهتي

بلطف قائلة: "لكم قاسيت من المصاعب الرهيبة!"

تكلمت زوجة الرئيس بإحساس صادق لدرجة الألم. صدقتها رغم أن لقاءنا الأول في البيت الأبيض لم ييشر جيداً بالتفاهم المتبادل. ربما استرجعت الآن كلماتها التي وجدتها جارحة. كان هناك شيء لم يعجبها في تصرفاتي في ذلك الوقت، وكونها ضليعة بالحوار العام، قررت أن تنزل بي ضربة خفيفة برمحها على درع - كما اعتبرتها - "محاربة سيفاستوبول" الغريبة. لكنها تلقت إجابة صريحة ومناسبة. من الجائز، بعد ذلك، أن إلينور بدأت تتساءل إن كان ثمة شيء غامض حول الشعب الروسي يتعذر

على الأنغلو-ساكسوني فهمه. لقد أرادت فهم هذا السر.

عندما وصل فرانكلن دي لانو روزفلت، الذي كان يتساءل عن سبب غيابنا عن طاولة الغذاء مع اقتراب مواعده، على كرسيه المتحرك إلى منتصف المنزل الذي تشغله زوجته، وجدنا في غرفة النوم. كنا جالستين على حافة السرير الواسع، منهنكيتين بالخياطة. كانت مهمة إعادة تفصيل رداء النوم تجري على قدم وساق وقد أوشكت على النهاية. كانت قطع القماش الناصعة مرمية حولنا، وكذلك المقص، وهناك أيضاً خيوط قطنية وإبر مغروزة في قصاصات الساتان. كنا نخوض نقاشاً مثيراً حول موضوعة اليوم: أفضل قصة فستان لكل منا، أجمل الألوان، اللمسات الأخيرة، إكسسوارات المجوهرات الملائمة. كنت قد ارتديت سترة رداء النوم؛ على أي حال، عندما رأيت رئيس الولايات المتحدة قفرت واقفة من دهشتي، وممسكة بالبشكير حول وركي، قلت دون تفكير: "أستميحك عذراً، سيد روزفلت!"

انفجر الرئيس من الضحك. في نظره، كان هذا مشهداً مسلياً. هنا امرأتان مختلفتان في العمر والتربية والوضع العلمي والاجتماعي، أضف إلى ذلك حاجز اللغة، لكن شيئاً لم يمنعهما من الدردشة بحماسة حول قضايا في غاية التفاهة. بعد أن اكتشفنا تطابقاً تاماً في وجهات النظر حول مختلف جوانب الحياة، كانتا تنظران إلى بعضهما بعضاً بسرور وتستمتعان بمحادثة تافهة عن لا شيء. لم تقدم محادثتهما أي معلومات جديدة، ولم ينجم عنها أي خلاصات أو استنتاجات مهمة، ومع ذلك، كانت قد دخلت ساعتها الثانية.

في المساء، هبت ريح عاصفة على نهر هدسن، وانهمر المطر متحولاً بسرعة إلى هطول غزير. أوقدت النار في غرفة الطعام، وجاء ذلك في الوقت المناسب، لأن الألواح الزجاجية كانت تهتز ضمن إطارات النوافذ بسبب الرياح العاصفة في الغرفة الواسعة التي قدم فيها طعام العشاء. بدا كأن طقس الخريف الكتيب قد اخترق جدران المنزل الحجري الكبير وملاه بالرطوبة المتصاعدة من هدسن.

وصل هاري هوبكنز Harry Hopkins، مستشار الرئيس الذي كان مألوفاً لنا آنذاك، إلى هايد بارك من أجل العشاء. أحضر معه بعض الصحف من واشنطن، وتبين أن وجوده على طاولة العشاء كان ظريفاً. لم يكن هوبكنز من شاربي الكحول، وهو

لا يتناول الأطعمة المُلحة أو المبهرة أو المقلية بسبب خضوعه لعملية جراحية في المعدة العام الماضي نتيجة ورم سرطاني. لكن ذلك لم يؤثر لو قليلاً في مزاجه، إذ إنه أمتع الحاضرين بتعليقاته الذكية بشأن الأحداث الأخيرة. لاحظت أن إلينور على وجه الخصوص كانت مسرورة بقدومه. أنبأت المستشار سلفاً بأنها ترغب في مناقشة قضية خاصة معه.

انقضت الأيام السبعة في مزرعة آل روزفلت كلمح البصر. عدنا إلى واشنطن، وزرنا سفيرنا مرة أخرى. نقل إلينا القرار الذي اتخذته موسكو بشأن الفعاليات الإضافية للوفد الطلابي. ولدهشنا، علمنا أن الوفد سينقسم إلى فريقين. سينطلق كرازافتشنيكو وبشلتنسيف في جولة على المدن الشمالية لشرق الولايات المتحدة: كليفلاند، وبوفالو، وألباني، وبيتسبرغ، وريتشموند، وغيرها، لكي يلتقوا طلاب الكليات والجامعات. أما أنا، فسأذهب إلى الغرب والغرب الأوسط: شيكاغو، ومينيابولس، ودنفر، وسياتل، وسان فرانسيسكو، وفريزنو، ولوس أنجلوس. تبادلنا والشابين وداعاً ودياً في ٢٤ أيلول/سبتمبر. علمت أن السيدة روزفلت سترافقني طوال الجولة. حدد حضور السيدة الأولى مستوى اللقاءات مع الأميركيين: حفلات استقبال مع حاكمي مختلف الولايات أو في مباني المحافظات، وغدوات عمل، ووجبات عشاء مع دوائر رجال الأعمال، ولقاءات مع الصحف المحلية والمحطات الإذاعية.

بعد أن اكتسبت السرعة، انطلقت Limousine الرئاسة ذات النوافذ المضادة للرصاص مسرعة على الطريق السريع، ترافقها سيارة أمن من أمامها وأخرى من خلفها. تلاشت منازل وطرق ديربورن، إحدى ضواحي ديترويت، وهي واحدة من أقدم المدن في الغرب الأوسط، مع المسافة. كنا قد أنهينا زيارتنا إلى المقر الرئيسي لـ Ford Motor، وهي الشركة الأكبر في الولايات المتحدة والمشهورة في أنحاء العالم. ابتدأت الرحلة بزيارة إلى معمل الطائرات حيث يتم تصنيع القاذفات ذات المحرك المزدوج المعروفة لدى الأميركيين باسم "Tin Goose". شاهدنا عملية التجميع

١ كانت Tin Goose ناقلة ثلاثية المحرك مصنوعة في ١٩٢٦-١٩٣٣ فحسب. من المحتمل أن بافلتشنيكو كانت تشير إلى B-24 Liberator الرباعية المحرك المصنوع في مصنع Willow Run التابع لـ Ford في ١٩٤٢-١٩٤٥.

برمتها ابتداء من عملية لحام البدن من إسطوانات معدنية وكبس أجنحة الديورالومين Duralumin في مكبس ميكانيكي ضخمة، انتهاء بحزام الناقل الرئيسي حيث تكتسب آلة الحرب هذه مظهرها الخطير. قدم الشرح شخص ما يدعى الـ ميدلورانس Lawrence، مدير الشركة.

في مبنى إدارة المصنع، استقبل الضيوف "ملك السيارات" شخصياً وأفراد أسرته وموظفو الصف الأول من إدارة المصنع. كان هنري فورد Henry Ford، الرجل المرح التحيل المعمّر، يتوق إلى مقابلي، وقدم إليّ الشارة الذهبية لـ Ford Motor، واستأذن لأخذ صورة معي ومع إلينور روزفلت التي كانت معنا أيضاً في هذه الرحلة. تقدم المراسلون إلى الأمام مباشرة، ضغطوا على أزرار كاميراتهم التي لمعت أضواءها، ثم بدؤوا طرح أسئلتهم عن المصنع والقاذفات والقوة العسكرية الأميركية.

لم يدع ممثلو الصحافة إلى الغداء. قُدمت وجبة لائحة لمجموعة صغيرة منا، تضمنت السندويشات والكعك المحلي والكوكاكولا. ألقى مؤسس الشركة ومالكها خطاباً وطنياً مقتضباً، وتحدث بعده عمدة ديربورن، ثم أعطي الكلام لي. استمر الاستقبال ثلاثين دقيقة تماماً. لم يكن هناك مناص: في إمبراطورية هنري فورد، خلافاً لكل مكان آخر، "الوقت يساوي المال".

أدهشني جداً سلوك العمال. تم تجميعهم في مستودع من نوع ما، ربما قرابة ثلاثمائة منهم لا أكثر. كانوا رجالاً كثيرين لا يتسمون، ومهمومين إلى حد ما، ويرتدون بدلات زرقاء داكنة. طُلب مني أن أتحدث باقتضاب وأن أتجنب الشعارات والدعوات الشيوعية. هذا ما فعلته؛ نقلت التحيات إلى البروليتاريا الأميركية من عمال الاتحاد السوفياتي الذين ينتظرون المساعدة في نضالهم ضد الفاشية الألمانية. في المقابل، لم يكن هناك أي تصفيق أو أسئلة أو تمنيات بالتوفيق، كما جرت العادة. بينما كنت أغادر، نهضوا من مقاعدهم صامتين.

"عدو العمال!" قلت ساخرة وأنا أنظر بأسى من خلال نوافذ السيارة إلى الأشجار على جانبي الطريق، التي أصابها الذبول الخريفي وبدأت أوراقها بالتساقط. "أنت مخطئة يا عزيزتي"، قالت إلينور مبتسمة.

- لكن كيف له أن يعامل عماله بهذه الطريقة؟ وضعهم أسوأ من قطع من المغفلين

يتشاجرون مع كلاب الحراسة. لم بقوا صامتين؟

- هؤلاء هم الطبقة العمالية الأرستقراطية. يدفع لهم فورد بسخاء. لديهم ما يخسرونه. أجل، إنه يراقبهم: اذهب إلى الكنيسة، لا تشرب الويسكي، لا تقامر، ادمع عائلتك، لا تنتسب إلى أي نقابة عمالية، لا تضرب عن العمل... كانوا خائفين من التحدث إليك. أنت من روسيا الشيوعية.

”حسناً!“، ضربت بقبضتي على ركبتي. ”في المرة المقبلة، سيكون لدي ما أقوله للأيركيين!“

لم يكن بإمكان السائق والعنصر الأمني الجالس بجانبه، اللذين يفصلهما عن الركاب حاجز زجاجي، سماع محادثتنا. لم يكن صوت المحرك الناعم يعوق هذه المحادثة. سارت السيارة بالسرعة الثابتة المحددة للموكب الرئاسي في الطرقات الداخلية للمدينة. سافرنا من ديترويت إلى شيكاغو في ما يزيد عن ٤٥٠ كيلومتراً بقليل، واستغرقت الرحلة أكثر من خمس ساعات ونصف.

امتدت المساحات المنبسطة لولاية ميشيغان على جانبي الطريق. من الواضح أن إلينور قد اختارت هذا المسار خصيصاً لكي تريني الغرب الأوسط من وطنها بمدنه الصغيرة البسيطة: Ann Arbor، و Albion، و Kalamazoo، و Benton Harbor. بعد ذلك، انعطفت الطريق باتجاه شواطئ بحيرة ميشيغان الكبيرة التي كانت تشبه البحر. هنا تغير المشهد. كان سطح البحيرة الساطع كالمرآة يختفي أحياناً بالهضاب والغابات الصغيرة. كان بإمكانك رؤية عدد من الجزر الصغيرة قرب الشاطئ. وكلما تعمقنا باتجاه الشرق أكثر، ازداد عدد الكثبان الرملية الجميلة التي كانت مرتفعة جداً.

قدمت السيدة الأولى تعليقاً مفصلاً وذكياً ومسلماً. لقد أحبت الولايات المتحدة الأميركية ولديها معرفة مذهلة عنها، فقد عبرتها طويلاً وعرضاً لما كانت تساعد زوجها في حملاته الانتخابية وإنجاز مختلف اللجان للرئيس. أرادتني أن أعرف إلى الولايات المتحدة بشكل أفضل. بالطبع، رغم انتماء قلب ملازم متمرن بصورة كاملة وغير منقوصة إلى دولة روسيا العظيمة، قالت مازحة، لكنّ التعرف على بلدان أخرى وفهم حياة شعوبها أمرٌ مفيدٌ لأيّ كان.

حاولت السيدة روزفلت جاهدة أن تتحدث الإنكليزية ببطء وبساطة مستخدمة

الزمن الحاضر البسيط فقط. مع ذلك، نظراً إلى قلة خبرتي في التواصل بلغة أجنبية، حتى الكلام المكوّن من جمل قصيرة، كان يقتضي هذا تركيزاً حاداً، ونال مني أثناء رحلة الساعات الخمس. بمعزل عن ذلك، لم أعتد السفر بالسيارة، ولا حتى بواحدة مريحة مثل Cadillac الرئاسية.

في الواقع، لم يتسنّ لي رؤية ضاحيتي شيكاغو، Cicero و Oak Park، الخلاتين لأنني غطّطت في النوم متكئة برأسي على كتف السيدة الأولى. كنت خجلة للغاية عندما استيقظت حين توقفت السيارة. ابتسمت إلينور كأن شيئاً لم يكن، قائلة: "استيقظي رجاء، يا عزيزتي. وصلنا شيكاغو".

اختارت سلطات شيكاغو غرانت بارك Grant Park من أجل اللقاء، وهي منطقة تاريخية صُممت على الطراز الفرنسي على شواطئ Lake Michigan. شغلت حديقة مساحة شاسعة ومتطورة إلى أبعد الحدود تشمل المروج، وأحواض الزهور، والطرق المخصصة للدراجات، ونافورة Buckingham، ونصباً تذكاريّاً لأبرهام لنكن Abraham Lincoln بالإضافة إلى مسرح موسيقي. كان المسرح مزيناً برايات دول التحالف المناوئ ليهتلر: الولايات المتحدة الأميركية، وبريطانيا العظمى، والاتحاد السوفياتي، والصين، وصور قادتها: روزفلت، وتشترشل، وستالين، وشيانغ كاي شِك Chiang Kai-shek. أذيع الخبر عن الاجتماع مع دعوة لحضوره في صحيفة المدينة Chicago Tribune.

من ضمن ضيوف الشرف في اللقاء كانت إلينور روزفلت، وفرد مايرز Fred Myers، مدير المنظمة الخيرية الأهلية لغوث الحرب الروسية، التي تم تأسيسها في تموز/ يوليو ١٩٤١ على يد الشيوعيين الأميركيين والمتعاطفين الأحرار، من طبقة المفكرين المبدعين بصورة أساسية (مثلاً الممثل شارلي تشابلن والمخرج السينمائي أورسن وِلْس Orson Welles والفنان رُوكُول كِنْت Rockwell Kent). سيحضر اللقاء أيضاً ممثل عن الجيش الأميركي، الكولونيل ستيفن دوغلاس Stephen Douglas، الذي قدم من قاعدة Fort Knox العسكرية في ولاية كنتاكي، المجاورة لإلينوي. وعلى عاتقي، وقع شرف تمثيل "الجيش الأحمر".

كما جرت العادة، افتتح اللقاء عمدة المدينة. وبعد تقرير مقتضب عن التحالف

ضد هتلر والمشاركة الأميركية فيه، أعطى العمدة الكلام إليّ. تقدمت إلى الميكرفون. كان قد تجمع حشد كبير أمامي. باستطاعتي قراءة وجوه الجالسين في الصف الأول: غالبيتهم من الرجال البالغين بين الثلاثين والأربعين. كانوا ينظرون إليّ ويتسمون بطريقة ودودة. ابتدأت الكلام بوضع جمل عن الحرب الدائرة الآن في روسيا بعيداً من هنا، ثم توقفت ورفعت صوتي بطريقة حادة: "أيها السادة! أبلغ ٢٥ عاماً. على الجبهة، أردت حتى الآن ٣٠٩ ضباط وجنود فاشيين. ألا تعتقدون، أيها السادة، أنكم اختبأتم خلف ظهري بما فيه الكفاية؟"

التفت إليّ المترجم مذهولاً وترجم الجمل، محاولاً الحفاظ على نبرة صوتي. لبضع ثوانٍ، كان الحشد صامتاً. بعد ذلك، انفجرت عاصفة حقيقية في أجواء old park. صرخوا، وهتفوا شيئاً، وصفروا، وضربوا أقدامهم بالأرض، وصفقوا. اندفع الصحفيون نحو المنصة. كذلك توجه إليها، مبعدين الصحفيين عن طريقهم، أولئك الذين يرغبون في التبرع لتمويل الدعم للاتحاد السوفياتي، الشيء الذي دعا إليه عمدة شيكاغو عندما افتتح اللقاء والذي من أجله وُضعت صناديق خاصة بغوث الحرب الروسية أمام المنصة. كان هناك أيضاً بعض المتحمسين ممن أرادوا الإسهام في التبرعات مباشرة لي شخصياً. شكّل الحراس الأمنيين الضخام الجثة حاجزاً بشرياً أمام المنصة ومنعواهم من التسبب في الفوضى.

كنت لا أزال واقفة قرب الميكرفون ويدي متدلّيتان نحو الأسفل وقبضتاي مشدودتان. كان الاندفاع العاطفي للحضور قوياً على ما يبدو ولم أتوقع أي شيء كهذا عندما صغت خطابي. كنت فقط، بعد نكسة معمل فورد، أرغب في التفكير في شيء من شأنه أن يصل إليهم مباشرة، إلى أولئك المواطنين المحظوظين والمرتاحين والانتهازيين للغاية ممن يسكنون القارة التي اكتشفها كولومبس.

كما أخبرت لاحقاً، نشر تقرير عن لقاء شيكاغو وعن خطابي هناك على الصفحات الأولى لعدد من الصحف الأميركية. نشرت Reuters الخبر في كل أرجاء العالم وأرفقته بتعليق إيجابي. كتبوا أنني عبّرت بحيوية ودقة عن جوهر الموقف الذي يتخذه الأنغلو-أميريكيون بخصوص نضال روسيا الدامي ضد الغزاة الألمان.

في حفل استقبال مسائي نظمه عمدة شيكاغو، قُدم إليّ رسمياً وثيقة مطبوعة بشكل

جميل، وشارة ذهبية كُتب عليها "مواطن شرف في الولايات المتحدة الأميركية"، وهو وسام أحدث في هذه الولاية. كنت الرفقة المفضلة لجميع الحضور في الصالة: سيدات مرتدية أثواب السهرة ورجال بسترات العشاء الرسمية. ربما بدت سترتي العسكرية ذات اللون الكاكي المزينة بـ "وسام لينين للاستحقاق" وميدالية "من أجل الخدمة العسكرية" وشارتي "حارس" و"قناص" بالأحمر اللامع والعاج الأبيض متواضعة في مثل هذا السياق. لكن تلك كانت رغبة المنظمين وأنا نفذتها. تحدث إليّ العديد عن التعاون الروسي-الأميركي في الحرب وعن ضرورة فتح جبهة ثانية في أوروبا. فكرت لوهلة أنه من الجيد لو اقترنت هذه الكلمات بالأفعال. قيل عني الكثير من الكلمات السارة. وعرفت كيف أجيب، بابتسامة وبهدوء وبرباطة جأش، لكن بلا غرور.

على أي حال، تبين أنه من الصعب الحفاظ على رباطة الجأش هذه حتى النهاية. يمكنني القول إن وليم باتريك جونسن ظهر فجأة عند نهاية هذا الحفل الظريف. لم أميزه مباشرة بين الرجال الآخرين: سترة العشاء الرسمية نفسها، والقميص الأبيض، وربطة العنق على شكل فراشة، وشعر أسود مفروق، وتعبير الوجه الأميركي التقليدي ("كل شيء على ما يرام، أشعر بالسعادة")، وابتسامة مهذبة.

"كيف دخلت إلى هنا؟" هذا كل ما استطعت قوله رداً على ترحيبه لي بباقة من الزهور.

"أوه، ببساطة تامة يا سيدة بافلتشنكو"، أجاب بأسى، "لقد تبعتك بسيارتي من ديترويت. لسوء الحظ، لم يسمحوا لي بالدخول إلى مقر إدارة فورد. لديه حراسة أمنية صارمة".

- أليست الحراسة مشددة هنا؟

- الأمر مختلف هنا. يوجد مصنع للمعادن في جنوب شيكاغو. تعود قرابة ٣٠% من أسهمه إليّ. لم يكن من الصعب التحدث إلى المدير، وهنا.

"اسمع يا وليم، هل لديك وقت فراغ كثير؟" قاطعت هذا الرجل الغريب، الذي نظراً إلى كل ما كان يحدث، كان يلاحقني بصورة متعمدة.

١ هذه الجائزة مودعة في "متحف القوات المسلحة الفيدرالية الروسية" المركزي، برقم إيداع ٣٧٧٦/٢.

”ليس لدي وقت“، تنهد، ”كما تعرفين، أنا مطلق. توفيت زوجتي الشابة الجميلة منذ عام ونصف نتيجة ورم في الدماغ. قرأت في الصحيفة أن زوجك قد خسر حياته أيضاً أثناء المعارك في سيفاستوبول“.

- أجل، هذا صحيح.

- لذلك، أرغب في التقدم للزواج بك.

”هل فقدت عقلك!“ أجبت بفضفاضة رغم أنني حاولت الحفاظ على التعبير الودي على وجهي.

- سيدة بافلتشنكو، أحبتك منذ اللحظة التي شاهدتك فيها في لقاء Central Park بنيويورك. أنت امرأة استثنائية ويستحيل مقاومتها. قلبي يخبرني أنك خيار الوحي.

- هذا ليس المكان المناسب لهذه الأحاديث.

”بالطبع، هذا صحيح“، بدا مالك شركة التعدين سعيداً. أخبرني أين يمكننا أن نلتقي.

كان اللقاء يقترب من نهايته، وبدأ الضيوف مغادرة الصالة. كانوا يودعون بعضهم بعضاً، ويتبادلون بعض المجاملات، وكان البعض قد انتبه إلى الحديث دار بيني وبين وليم جونسن. كانت إلينور الوحيدة التي أبقت عينيها عليّ. توقعت مباشرة أنني أحتاج إلى المساعدة. نظرت السيدة الأولى إلى الحشد، وشقت طريقها إلينا بحسم. لم يكن المليونير مسروراً بقدوم زوجة الرئيس. تراجع مباشرة إلى الوراء، وانحنى مغادراً دون أن ينظر خلفه.

تنفست الصعداء وشرحت للسيدة الأولى ما جرى. وعدتني بأن تنقضي عن جونسن. ما عدا ذلك، أسرعت بتقديمي إلى الكولونيل ستيفن دوغلاس من قاعدة Fort Knox العسكرية، وإلى رئيس رابطة قناصة شيكاغو، وهو رجل يدعى السيد مكورمك MacCormick. قدموا إلي الدعوة للقاء أعضاء من الرابطة في نادي الرماية الخاص بهم في اليوم اللاحق. وأنا وافقت على ذلك.

خلال إقامة وفد شباب ”رابطة الشبيبة الشيوعية“ في الولايات المتحدة، حاول بعض الصحفيين المحليين مرات عدة التثبت من فرضيتهم بأن البلشفيين الخبيثين لم يوفدوا قناصين، بل اختصاصيين مدربين على البروباغاندا والمحرضين ممن لم

يعرفوا الجبهة على الإطلاق. واضعين ذلك نصب أعينهم فرضوا على الوفد زيارات إلى الوحدات العسكرية ونوادي الضباط التي تحتفظ بأسلحة نارية يدوية، إضافة إلى زيارة إلى حقل رمي تضمنت رمايات على الأهداف. لهذا السبب، لم أفاجأ على الإطلاق عندما رأيت رجلاً متحمساً في المبنى الخاص برابطة قناصة شيكاغو يحمل كراساً بيده، ويرافقه رجلان قوياً البنية يحملان كاميرات.

من جهة أخرى، كان من المهم لي شخصياً مشاهدة أسلحة القناصين الأميركيين، ولقد سنحت لي هذه الفرصة. في البداية، التقطت بندقية Garand M1 الذاتية الإلقاء ثم بندقية يدوية من نوع Springfield M1903. كلتا البندقيتان كانت مزودة بمنظار من نوع Weaver. كالعادة، تلمست بأصابعي المغلاق والسبطانة والفوهة، وتفحصت آلية الإطلاق والمخزن. ذكرتني Garand ببندقية SVT-40 التي تعمل عن طريق تحويل الغاز الدافع عبر منفذ مخصص في الجف ليحرر المغلاق. أما Springfield، فتشبه رتاج المغلاق الانزلاقي Mosin الثلاثية الخطوط. في ما عدا ذلك، جعلها مسمار الأمان غير الأوتوماتيكي شبيهة ببندقية الجيش الألماني Mauser Zf. Kar. 98k التي كنت أعرفها جيداً.

راقب الأميركيون ما كنت أفعله طوال الوقت. من الواضح أن صورة الحسنة التي شاهدت بندقية للمرة الأولى في حياتها قد تلاشت مباشرة، وبدؤوا الابتسام. بمساعدة المترجم، شرحت للحلفاء نقاط الشبه والاختلاف بين أسلحتهم والأسلحة الروسية. في الحقيقة، كان عليّ إلقاء محاضرة قصيرة كأنهم جنود مستجدون في سريتي ممن وصلوا إلى سيفاستوبول قادمين من المناطق غير المحتلة. أصغى إليّ أعضاء رابطة القناصين بانتباه، وسرعان ما فقد المراسل الصحافي الذي يحمل الكراس اهتمامه باللقاء إذ لم يكن هناك أي عملية كشف للمستور، ولم يحدث أي شيء مثير.

انطلقنا من قسم الأسلحة إلى حقل الرمي. لا أنكر أنني كنت متوترة. لم أمسك قناصة بيدي منذ شهر ونصف، وعلى القناص المحترف الحقيقي أن يتمرن مرتين في الأسبوع. كما أنني لم أكن أثق بالأسلحة الأميركية. لكن تبين أنها ذات نوعية جيدة جداً، وكان حقل الرمي مجهزاً بشكل مذهل. كالعادة، استمتعت بالرمي على الأهداف، وأصابت معظم طلقاتي قلب الهدف.

من حقل الرمي، تابعت فرقة القناصين المرحلة المتناغمة طريقها إلى قاعة حيث قدمت إليهم المشروبات المنعشة. كان على الطاولة مشروبات كحولية قوية مثل الجن والويسكي والبراندي. كانت الرابطة مؤلفة بصورة أساسية من جنود وضباط الجيش الأميركي السابقين، وقد شارك أغلبهم في الحرب العالمية الأولى وخدموا فعلياً قناصين. لكنهم لم يفرطوا في الشرب. كان كل كأس يحتوي على ٤٠ ملل من الشراب. وافقت على احتساء نخبين معهم: نخب التعاون العسكري ونخب افتتاح الجبهة الثانية. بعد ذلك، صارت العلاقات مباشرة وأكثر انفتاحاً. شارك المحاربون القدماء ذكرياتهم واستمعت لقصص شيقة عن أسلحتهم، وأساليب التمويه المتبعة، ونزالاتهم ضد العدو، وهلم جرأً.

في نهاية الزيارة، كان بانتظاري مفاجأة سارة. على وقع صوت التصفيق الحار، قدم إليّ رئيس رابطة شيكاغو، السيد مكورمك، هدية: مسدس Colt M1911A1 في صندوق من خشب الماهونجي، يحتوي داخله على مختلف الملحقات ومخزين مع الطلقات. كان على الغطاء قرص فضي منقوش ليحدد المناسبة. من دون تردد، التقطت السلاح مباشرة. استهواني هذا المسدس القوي من عيار ٤٥. إن مخترع هذا النوع هو مهندس الأسلحة النابغة المشهور عالمياً جون موزز براوننج John Moses Browning ببساطة، أبرمت شركة Colt عقداً معه. وقد تم اعتماد المسدس في الجيش الأميركي عام ١٩١١. اشترته روسيا عن طريق بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى (ومن قبل عدد من الدول الأوروبية الأخرى)، لكنني لم أرَ مسدس Colt واحداً بين يدي أي من مراتب جيشنا في الخدمة.^١

لدى عودتي إلى الفندق، فككت الهدية إلى أجزائها الأساسية لكي أتعرف إلى آليتها

١ كان لهذه المسدسات تاريخ مشوّق. تم شراؤها من Colt أثناء الحرب العالمية الأولى، لكن البريطانيين هم من اشتروا الطلبية ليتم تعويضها باعتمادات مضمونة بالذهب الروسي. لقد زُعم على نحو موثوق موافقة خط الإنتاج التجاري لدى Colt على مسدسات M1911 51,100 مزودة بأرقام متسلسلة ترجع بين C89000-C23000، وتم شحنها بين التاسع عشر من شباط/ فبراير ١٩١٦ والثامن من كانون الثاني/ يناير ١٩١٧. فيبقى عدد هذه المسدسات الموسومة بـ"طلبية إنكليزية" على الجانب الأيسر من المزلاق التي وصلت الجيش الروسي قبل "ثورة أكتوبر" مسألة مفتوحة. من المفترض أن كثيراً من مسدسات Colt فُقدت في الحرب الأهلية، الأمر الذي يعلل ندرتها في "الجيش الأحمر".

أفضل. ألهمتني إلينور عن ذلك. وكان عليّ إعادة تركيب المسدس وإعادته إلى صندوقه. في هذه الأثناء، طلبت السيدة الأولى العشاء من خدمة الغرف لأن ارتياد المطاعم، كما حدث عندما ظهرت في مطعم Grant Park المحلي، كان عادة ما يتحول إلى ماراثون لتوقيع الأوتوغرافات، الشيء الذي أزعجني جداً.

تم توصيل طعام العشاء، فجلست والسيدة روزفلت على المائدة. نظرت إليّ بابتسامة وقالت: "لديّ لك أخبار سارة، يا عزيزتي".

- أي أخبار؟

- إن وليم باتريك جونسن يمتلك حقاً مصنع تعدين. حقاً، لقد أصبح أرمل منذ شهر ونصف. لقد غيَّب المرض الشديد زوجته الشابة الفاتنة.

- لمَ تظنين أن هذه أخبار جيدة بالنسبة إليّ؟

- بإمكانك التفكير في عرض الزواج.

- هل أنت جادة، يا إلينور؟

"لم لا يا عزيزتي؟" مدّت السيدة الأولى يدها نحو طبق السلطة، "ستتزوجين رجلاً ثرياً يعشقك بجنون وسيضمن لك حياة سعيدة حتى آخر يوم في حياتك. هكذا سوف تظلين في بلادنا وسيكون بإمكاننا أن نلتقي. إنني أقدر هذه الفرصة غير الواردة التي أتاحها لنا الأقدار".

- أنا لا أحب السيد جونسن.

"يا إلهي!" قالت زوجة الرئيس متعجبة، "لم تقابليه إلا ثلاث مرات. إنه رجل لطيف، وظريف، وحسن التربية".

"كلاً، أنا لست مخطئة!"، نهضت عن المائدة والتقطت نسخة جديدة من *Chicago Tribune* وأعطيتها لإلينور. "انظري إلى هذا: السيدة بافلتشنكو ستطير فرحاً من الطعام الأميركي. تناولت خمس حصص على الإفطار. كذب واضح! من أين جاؤوا بهذا الكذب؟ هل استجوبوا النادل أو تفحصوا فاتورة المطعم؟ لم هم مهووسون بمثل هذا الهراء؟ في بلدك، أشعر كأنني أضحوكة ومحط سخرية للجميع، أو مؤذية في عرض للسيرك. أشعر كامرأة لها لحية. لكنني ضابط في 'الجيش الأحمر'. لقد حاربت وسأتابع القتال من أجل حرية بلدي واستقلاله".

بالطبع، كانت بداية كلامي عاطفية للغاية وغاضبة أيضاً. خلال بحثي عن المفردات المناسبة، انتقلت من الإنكليزية إلى الروسية، ثم عدت إلى الإنكليزية بعد أن أدركت ذلك، معتقدة أن السيدة روزفلت قد تجد ذلك مهيناً. لكنها واضعة سكين الطعام والشوكة جانباً كانت تراقبني بابتسامة حنونة. تلك ربما الطريقة التي يتعامل فيها البالغون مع السلوك العايب للمراهقين الطائشين، الذين في جميع الأحوال يكتنون لهم الحب. لم تقاطعني إلينور وإنما كانت تهز رأسها بالموافقة فقط. أنهيت حديثي بالقول إنني هنا تنفيذاً لأوامر الرفيق ستالين حصراً، وإنه السلطة الوحيدة التي تقرر تمديد إقامة الملازم المتمرن بافلتشنكو في الولايات المتحدة أو إعادتها إلى الجبهة، إلى وحدة عسكرية تقاتل الغزاة الألمان الفاشيين.

”كل شيء على ما يرام يا حبيبتى“، نجحت إلينور أخيراً في إقحام عبارة وسط اندفاعتي المشوشة، ”رجاء، انسي كل شيء بخصوص السيد جونسن في هذه الأثناء. سنطير إلى لوس أنجلوس غداً“.

كجميع المدن الجنوبية، كانت لوس أنجلوس، أو ”مدينة الملائكة“، الواقعة في ولاية كاليفورنيا، مكتظة بالسكان وصاخبة ومتنوعة. تقع المدينة على شواطئ المحيط الهادئ، ضمن وادٍ تحميه الجبال من طرف واحد. هنا، لا تكاد تستطيع الشعور بالخريف الذي قد حلّ في الغرب الأوسط الأميركي. في الصباح، تغمر أشعة الشمس شوارعها بضوء ساطع، وفي منتصف النهار، يصير الجو حاراً جداً. في المساء، يهب النسيم العليل على ناطحات السحاب والمنازل الصغيرة في الضواحي، ويستمتع كل سكان لوس أنجلوس بمنظر الشمس وهي تغرب فوق المحيط اللامتناهي.

من بين مجموعة اللقاءات المفروضة والخطابات هناك، لن أقول إن أحدها كان مميزاً وممتعاً باستثناء الرحلة إلى Beverly Hills. هناك تنتصب منازل شخصيات هوليوود الناجحة: الممثلون، والمخرجون، والمصورون السينمائيون والمنتجون. دون سابق إنذار، اصطحبني طاقم القنصلية السوفياتية مباشرة إلى منزل تشارلز سبنسر تشابلن Charles Spencer Chaplin، وهكذا تعرفت إلى هذا العبقرى الإنساني والصدّيق العظيم للاتحاد السوفياتي.

فتح تشابلن الباب بنفسه واصطحبني إلى غرفة الجلوس حيث تجمع أصدقاؤه

وزملاؤه. عرفت من بينهم الممثل دوغلاس فيربانكس Douglas Fairbanks الذي لعب الدور الأساسي في فيلمي المفضل The Mark of Zorro [علامة زورو]، والممثلة ماري بكفورد Mary Pickford المعمّرة قليلاً لكنها لا تزال جميلة. أما بقية الضيوف الذين على ما يبدو لا يقلون شهرة عنهم، فكانوا ينظرون إليّ بالفضول الارتجالي نفسه الذي يميز عامة البشر.

عارضاً عليّ الجلوس على إحدى الأرائك أدى تشابلن خدعة من خدع السرك: وقف على يديه ومشى إلى سلة فيها زجاجات من الخمر وعاد حاملاً زجاجة شمبانيا بأسنانه. فتحت الزجاجة وملاّت الأقداح، ومنحنياً حتى كاد يلامس الأرض قرب قدمي، رفع الفنان العظيم نخب فتح جبهة ثانية في أوروبا على وجه السرعة.

بعدئذ انتقلت الرفقة الفنية من غرفة الجلوس إلى سينما صغيرة. جعل تشابلن الجميع يشاهد فيلمه الجديد The Great Dictator [الديكتاتور العظيم]، الذي يسخر فيه من هتلر بطريقة مسلية. تبع العرض وجبة عشاء. أجلسني الفنان والمخرج العظيم بجانبه وبدأ يسألني عن رأيي في الفيلم. قلت إن الفيلم أعجبني، لكن الفاشية حالياً، مهما يكن، مخيفة أكثر من كونها مضحكة. خلاصة الأمر أن الناس في أوروبا وأميركا لم يعرفوا حتى الآن بجميع الجرائم الوحشية التي ارتكبتها النازية.

لعب تشارلي تشابلن دوراً كبيراً في فعاليات المجتمع الخيري "غوث الحرب الروسية" وساعد في جمع مبلغ محترم لشعبنا، ولتأمين المعدات والتسليح لـ "الجيش الأحمر". كان الحديث معه أخاذاً. كان مطلعاً على كل المستجدات على الجبهة السوفياتية-الألمانية وطلب مني أن أقدم إليه عرضاً مفصلاً عن الدفاع على جبهة أوديسا وسيفاستوبول، وعن الخدمة قناصةً أيضاً. انتهى لقائي معه على نحو غير متوقع على الإطلاق. جاثياً على ركبة واحدة قال تشابلن إنه مستعد ليقبل كل إصبع في يدي من أجل أولئك الألمان الثلاثمئة وتسعة الذين بقوا ممدّين على تراب روسيا. وبالشدة خجلي، نفذ قوله مباشرة. بصورة طبيعية، كان المراسلون الصحفيون سعيدين للغاية وبدؤوا التقاط الصور. ظهرت صورة في الصحف الأميركية مذيلة بعبارته: "تشارلي تشابلن يجثوا على ركبتيه أمام ضابطة روسية ويقبل يدها".

في ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٢، اجتمع أعضاء الوفد الطلابي من جديد ضمن

جدران سفارة الاتحاد السوفياتي لدى واشنطن. استمع لثَنُوف لتقارير جولاتنا في أرجاء أميركا. أطلق النكت وابتمس وأطلق المجاملات. كما قال لنا، حققنا ما هو شبه مستحيل. لقد تحول الرأي العام الأميركي تدريجياً لمصلحة الاتحاد السوفياتي. تداعت ابتكارات "الصحافة الحرة" الجنونية عن الشعب السوفياتي والحياة في الاتحاد السوفياتي بفضل اللقاءات مع هؤلاء الشبان الشجعان السعيدين، وعلى وجه الخصوص بوجود فتاة جذابة ترتدي سترة عسكرية بسيطة.

جلسنا بحضرة السفير واستمعنا بصمت إلى خطابه المطول. كنا بانتظار الخبر الرئيسي: متى وكيف سنعاد إلى موسكو. لكن لثَنُوف تجنب الحديث في هذا الموضوع، رغم أنه أدرك بالطبع أن الموفدين إلى التجمع الطلابي الدولي قد ضاقوا ذرعاً إلى أبعد الحدود بالعيش تحت الأضواء. لقد تلقينا أكثر مما نطبق من كرم الضيافة الأميركية والمطبخ الأميركي الذي لا يجمعه مع الطعام الروسي التقليدي أي قاسم مشترك على الإطلاق، والاستجوابات الأميركية للجوجة التي لا تنتهي بخصوص أشياء يفهمها أي مراهق في بلدنا.

في النهاية، أعلمنا مكسيم مكسيموفتش بآخر توجيه تلقاه من الكرملين: علينا متابعة الرحلة، وزيارة كندا، ثم الطيران إلى بريطانيا العظمى. تم تحويل المهمة إلى واشنطن، بكل سلاسة، إلى مهمة إلى لندن. نهضنا وتوجهنا إلى الباب ومعنوياتنا في الحضيض. على أي حال، أراد السفير طرح سؤال خاص عليّ، وطلب مني البقاء في مكتبه.

- هل سارت الرحلة برفقة إينور روزفلت على ما يرام؟
- أجل، على خير ما يرام.
- هل هناك شيء تريدني قوله بشأن وليم باتريك جونسن؟
- "ما أدراك بشأنه؟" لم أستطع إخفاء دهشتي.

"اقرأ هذا"، أخرج السفير ورقة سميكة من درج مكتبه وأعطاني إياها. دون أدنى شك، بدا هذا الطلب المقدم من السيد جونسن إلى السفارة لافتاً. مكتوباً على ورق نافر، وبشهادة كاتب بالعدل سجلت في مكتبه تحت رقم ثلاثي، نصّ الطلب على أن مالك شركة التعدين "جونسن وأبنائه"، وصاحب حساب في بنك أميركا بقيمة

نصف مليون دولار أميركي، وأسهم أخرى في الممتلكات المنقولة والثابتة في كل من ولايتي إلينوي ونيويورك، الأرمل ولِيم باتريك جونسن، يطلب الإذن من حكومة الاتحاد السوفياتي للموافقة على زواجه بمواطنة من اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، لودميلا بافلتشنكو، وأن يسجل هذا الزواج وفقاً للقوانين النافذة حالياً في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية.

لا أظن أن جونسن كان يدرك ما قد يسببه هذا الطلب إلى السفارة من تبعات عليّ. افترض أن أحداً ما (على الأغلب إلينور روزفلت بنفسها) قد نصحه بالتقدم بطلب مباشر إلى حكومة الاتحاد السوفياتي. كان هذا برمته دليلاً على سذاجة الأميركيين، وثقتهم اللامحدودة بأنفسهم وأفكارهم العبثية عن العالم الذي يقع خارج حدود قارتهم.

وضعت الطلب والترجمة الروسية المرفقة به على منضدة السفير وقلت بهدوء: "حسناً، لقد فقد عقله".

"هل أنت متأكدة؟" سألت لُتْنُوف بحزم.

- بالطبع.

- إذاً، اكتبي رداً.

"أي نوع من الردود؟ لمن؟"، سألتها وأنا تعتريني الدهشة.

- وصلت رسالة السيد جونسن عن طريق البريد وسُجِلت في مستشارية السفارة. لا ينبغي لنا الإبلاغ عن هذا إلى "مفوضية الشعب للشؤون الخارجية" فحسب، بل ينبغي أيضاً كتابة رد رسمي إلى مقدم الطلب، على ورقة رسمية من السفارة أيضاً، وإرسالها إلى العنوان المدون على الغلاف.

- من الصعب التفكير في شيء فوراً. الأمر برمته لم يكن في الحسبان إطلاقاً. "أسهل الطرق"، نظر لُتْنُوف إليّ بعطف شديد، "أن تقولي إن لديك خطيباً، لديك حبيب ينتظرك في روسيا".

في هذه الأثناء، استمرت عملية إرجاء مغادرة الوفد السوفياتي إلى بريطانيا العظمى. كونهم من هواة التحايل البيروقراطي، افتعل الإنكليزيون جلبة، تارة بشأن تحديد نوع الزيارة (ديبلوماسية أو عسكرية أو عامة)، وتارة بشأن الاتفاق على نوع الطائرة

(ركاب أو قاذفة؟)، وتارة أخرى بانتظار الطقس المناسب، الذي مع نهاية تشرين الأول/ نوفمبر كان قد صار متقلباً.

كانت السيدة روزفلت على اطلاع على التحضيرات كافة. وعندما تم التوافق على تاريخ المغادرة (١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٢)، دعتنا إلى وجبة عشاء أخيرة في البيت الأبيض. هناك، قدمت السيدة الأولى الهدايا إلى كل فرد منا. بادئ ذي بدئ، أهدتنا صورة كبيرة لها ترتدي فيها فستان سهرة أسود، يظهر في خلفيتها رسم للرئيس، مع إهداء نقش في الزاوية اليمينية العليا. إضافة إلى الصورة استلمنا ألبومات ملونة تضم صوراً لواشنطن ونيويورك، وكتباً وصناديق تذكارية من الأشكال والأحجام كافة. أهدتني صندوقاً إضافياً. قالت إلينور مبتسمة إن بعض الرجال المهذبين، المفتونين بمظهرها، قد قرروا إهدائي طقمًا من المجوهرات. لم يخطر على بال أي منا أن يفتح الصناديق مباشرة على الطاولة المجهزة للعشاء. حزمها الخدم في صرر ورقية، ثم نقلوها خارجاً إلى السيارة.

لم أنظر إلى الهدايا إلا بعد أن عدت إلى غرفتي، وبدافع الفضول، فتحت أولاً العلبة المغلفة بقماش ملون. كان داخلها طقم من الذهب المرصع بأحجار الألماس، أشياء فاخرة حقاً: عقد، وإسوارتان، ودبوس، وخاتم. هناك إيصال دفع من متجر المجوهرات بقيمة ثمانية آلاف دولار معلق بها، تجنباً لأي أسئلة قد تخطر على بال الزبون عند المراجعة. تحت العقد وجدت صورة صغيرة لوليم جونسون. كتب على ظهر الصورة: "حبيبتي، سنلتقي ثانية. إلى لودميلا، مع فائق الحب، من دبل. يو. بي جونسون".

لكنني لم أر السيد جونسون بعد ذلك. أخذت هديته المميزة معي إلى موسكو وحفظتها. في العاصمة موسكو وفي مدن أخرى من العالم، سنحت لي الظروف بعد ذلك بحضور حفلات استقبال رسمية وارتداء فساتين السهرة الجميلة، وتبين أن هذه الزينة الألماسية ستكون مناسبة جداً لها. في جميع الأحوال، لم أرتدّها أبداً، حتى أنني لم أرها لأي أحد. بقيت في منزلي كتذكّار من الرحلة إلى الولايات المتحدة، ومن الرجل النبيل الأميركي الذي أخفى في قلبه شعوراً غريباً لا يمكن تفسيره.

تطورت علاقتي مع إلينور روزفلت على نحو مختلف. التقينا مرة أخرى في تشرين

الثاني/ نوفمبر ١٩٤٢ في إنكلترا. استقلت الطائرة لحضور مؤتمر الشباب العالمي الأول الذي حضره وفدنا أيضاً. لم يمضِ إلا وقت قصير بعد الانتصار النهائي على ألمانيا الفاشية حتى بدأت "الحرب الباردة"، ويعود الفضل إلى عدو الاتحاد السوفياتي الخبيث، رئيس وزراء المملكة البريطانية المتحدة، ونستون ليونارد سبنسر-تشرشل Winston Leonard Spencer-Churchill؛ لا الرئيس الأميركي فرانكلن ديلانو روزفلت الذي مات في نيسان/ أبريل ١٩٤٥، ولا زوجته إليانور روزفلت كانا متواطئين في ذلك. خسرت إليانور تأثيرها العظيم الذي كانت تتمتع به سابقاً في رسم السياسات، ولكن، كونها شخصاً يؤمن بالمثل الديمقراطية، تابعت أعمالها الخيرية والعامة على نطاق واسع.

تراسلنا، وأطلعنا بعضنا بعضاً على أخبار عائلتنا، وتبادلنا الآراء حول الأعمال الأدبية الممتعة وناقشنا قضايا الرحلات إلى المؤتمرات العالمية المكرسة للنضال من أجل السلام. بدعوة مني، زارت السيدة روزفلت بلدنا مرتين عامي ١٩٥٧ و١٩٥٨. أمضينا الكثير من الوقت في موسكو وسافرنا معاً إلى لينينغراد حيث ذهبنا إلى المسارح وزرنا متحف الإرميتاج والمتحف الروسي وقصر Peterhof ومدينة غاتشينا Gatchina وبلدة Tsarskoye Selo. نسقت إليانور من أجل زيارة ثانية لي إلى الولايات المتحدة، لكن وزارة الخارجية (على ما يبدو متذكرة خطاباتي النارية في لقاءات ١٩٤٢) لم توافق على منحي الإذن.

٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٧.

عزيزتي لودميلا،

سررت جداً باستلام رسالتك وأود أن أشكرك من كل قلبي من أجل الصور. كان لطفاً منك أن ترسلني إلي الصور وأنا مسرورة لاستلامها كتذكارات لاجتماع شملنا السار في موسكو.

منذ عودتي، تحدثت إلى الجميع عن استقبالك الحار واللفظ الذي بدر منك تجاهي. كانت ترود Trude وجوي لاش Joey Lash مسرورين لأننا التقينا وهما يشاركانني بدورهما إرسال عدد من الرسائل الحميمة.

١ غير ترود "ترود" برات وجوزف بي لاش، ضابطان في مكتب الطلبة الأجانب.

آمل أن يكون بإمكانك زيارتنا هنا ثانية في القريب العاجل. مع فائق الامتنان
وأطيب التمنيات.
صديقتك المحبة، إلينور روزفلت.^١

١ الرسالة مودعة في "متحف القوات المسلحة الفيدرالية الروسية" المركزي، برقم إيداع
٣٨-١٥/٣٧٦١/٤.

جزيرة في المحيط

مكتبة

t.me/soramnqraa

انتقل وفدنا الطلابي السوفياتي من الولايات المتحدة إلى مدينة مونتريال الكندية. لم نبقَ في ذلك المكان طويلاً. كان علينا الذهاب إلى قاعدة سلاح الجو البريطانية في مدينة هاليفاكس Halifax. ففي مساء الثالث من تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٢، انطلقنا من ذلك المكان في طريقنا عبر الأطلسي على متن "الحصن الطائر"، القاذفة Boeing B-17 الرباعية المحرك^١. مع ذلك، لم يتسنَ لنا مشاهدة فسحات المحيط الزرقاء لأننا كنا جالسين على مقاعد خشبية طويلة في حجرة القنابل.

بعد عشرة ساعات، في صبيحة الرابع من تشرين الثاني / نوفمبر، هبطت القاذفة بأمان في قاعدة جوية أخرى في الجزر البريطانية ليست بعيدة عن مدينة غلاسكو الاسكتلندية. ساعدنا أفراد الطاقم على الخروج من الطائرة الحربية. مشينا بخطى واسعة على طول المهبط الإسمنتي وصولاً إلى مبنى إداري من طابقين كان يرفرف فوقه علم المملكة المتحدة، الذي يُطلق عليه "علم الاتحاد"، بخلفية كحلية مزودة

١ كان سلاح الجو الملكي يستخدم ثلاثة أنواع من طائرات B-17، المعروفة بـ Fortress [الحصن] I و II و III. كان يتوخى منها أصلاً قصف نهاري على ارتفاع عال، لكنها كانت مخيبة للآمال، وتم تحويلها لعمل دوريات مضادة للغواصات البعيدة المدى، أو الاستطلاع بمواكبة القيادة الساحلية، أو ناقلات بين القارات بمواكبة قيادة العبارات المرابطة في قاعدة Ayre التابعة لسلاح الجو الملكي (المعروفة بـ RAF Heathfield أيضاً). من المحتمل أن تكون إحدى الناقلات التي وصفتها بافلتشنكو.

بصليبين أحمرين وأبيضين متداخلين.

خرجت امرأة شابة شقراء جذابة، قصيرة القوام ونحيلة البنية، من البهو للترحيب بنا. ابتسمت بحفاوة، وصافحتنا، وقدمت نفسها باسم هيلين شيفرز Helen Chivers، وأخذت تتكلم الإنكليزية بسرعة. فاستوعبنا جملها الأولى تقريباً. كانت هيلين مدرّسة، وترأس رابطة شبيبة ما، وقدمت من لندن إلى غلاسكو للترحيب بنا خاصة. لكن لم تكن بقية كلامها مفهومة.^١

كانت هيلين تتكلم الإنكليزية البريطانية الأفصح. أمّا نحن، فتعودنا الكلام الأميركي بعد قضاء شهرين في الولايات المتحدة. مع ذلك، إنه مختلف قليلاً. مستعينة بمعرفتي الشخصية المتواضعة، شرحتُ هذا الأمر لمعرفتنا الجديدة. فاحمرّ وجهها خجلاً، ثم بدأت مجدداً، لكن هذه المرّة ببطء، فاصلةً كلماتها، ومستخدمةً جملًا بسيطة وقصيرة. سار كل شيء على ما يرام مباشرةً.

قضينا يومين في غلاسكو. كان الطقس دافئاً ومشمساً تماماً وملائماً للمشي. وقبلت السيدة شيفرز بحماسة أن تؤدي دور الدليل السياحي. فتعلّمتنا منها تاريخ المدينة التي تأسست في القرن السادس وباتت مركزاً صناعياً رئيسياً الآن. كما اطلعنا على معالمها، أي كاتدرائية القديس منغو Mungo و برج ساعة تالبوت Talbot المبنيين في العصور الوسطى، على وجه الخصوص.

على أيّ حال، كنا معنيين أكثر بالوقت الحاضر. أعلمتنا هيلين أن المجلس الوطني للطلبة ورئيسه، السيدة مارغريت غيل Margaret Gale، وراء دعوتنا لزيارة بريطانيا. وعليه، تخيلنا أننا سنشارك في مؤتمر دولي للشباب من المزمع عقده في لندن بين ٢٤ و ٢٥ تشرين الثاني / نوفمبر.

سبق أن حضرنا مؤتمراً مثله في واشنطن، وتكوّنت لدينا فكرة عن آلية تنظيم مثل هذه الفعالية. كنا نعرف كيف نتصرف ونتحدث ونقترح ونحاجج في المناقشة. لقد أتينا للمطالبة بفتح جبهة ثانية في أوروبا، وللحديث عن مقاومة الشعب السوفياتي البطولية للغزو الألماني النازي. لقد آزرنا الناس العاديون في المدن الأميركية بحماسة.

١ ربما هذه هيلين لويز شيفرز Helen Louisa Chivers، المولودة عام ١٩١٦ والمتزوجة بآرثر Arthur. ظهرت على القوائم الانتخابية اللندنية حتى ١٩٣٩، ثم في غلاسكو بعد ١٩٤٧.

لكن أصحاب السلطة تبنا موقفاً حذراً، ولم يعدوا بشيء.

وصل القطار القادم من غلاسكو إلى لندن في الصباح الباكر. كانت الإنارة في المحطة سيئة. فسرت هيلين أن سبب هذا الأمر التعيم في مواجهة الهجمات الجوية الألمانية. وطأنا رصيف المحطة، وتنشقنا الهواء الرطب البارد. كان كل شيء حولنا يسبح في ضباب كثيف تبدت أشكال المارين العابرين له مثل الأشباح.

رحب الناشطون من الاتحاد الوطني للطلبة بنا، وهم مجموعة مرحلة من الشباب والصبايا. اصطحبناهم معنا في السيارة، وذهبنا إلى فندق Royal وسط لندن. قد يُدهش المرء من مهارة سائقنا، إذ كان يناور طريقه ببراعة عبر الستار الأبيض المغلف لكل شيء، متفادياً الاصطدام بالمركبات التي كانت تخرج من الضباب فجأة. بعبارة أخرى: كان شاعرنا العظيم، ألكساندر بوشكين، صائباً عندما أطلق على هذه الجزيرة في المحيط "بياض ضبابي"؛ كانت ضبابية للغاية حقاً.

خُصص فلاديمير بشلنتسف ونيكولاي كرازفتشنيكو بجناح "فخم" في الفندق من ثلاث غرف فسيحة. أما أنا، فخُصص لي مأوى أكثر تواضعاً، لكنه مريح، من غرفة واحدة مزودة بمرايا وكراسي بسيطة. وجب علينا أن نكون على أهبة الاستعداد الآن لارتداء بزاتنا العسكرية، إذ كان مستخدمون مدنيون من وزارة الإعلام البريطانية، ومسؤولون قياديون من اتحاد الطلبة، وصحافيون، وموظفو السفارة السوفياتية بانتظارنا في بهو الفندق.

كانت زيارتنا الأولى في لندن إلى وزارة الإعلام. اقتربنا من مبنى هائل، وأصابنا الدهول. كان ثلّة من جنود مسلّحين يرتدون بزات استعراض يقفون ساكنين كالصنم في الساحة الإسفلتية أمامنا. ما إن اقتربنا، حتى بدأت فرقة موسيقية عسكرية بعزف "نشيد الاتحاد السوفياتي"، وكان علم بلادنا يرتفع أعلى السارية، وقدم الجنود سلاحهم. بدا الأمر رائعاً!

لم يأت أحدهم بهذه الفكرة في أميركا رغيدة و"مدنية" بكاملها. لكن البريطانيين مخلصون لتقاليدهم الضاربة في القدم. إنهم ضليعون بالمراسم الرفيعة. أما الآن، فكان

١ في الواقع، تظهر العبارة في رسالة من باتيوشكوف مكتوبة بعد سنة من زيارته إلى بريطانيا عام

”الجيش الأحمر“ حليفاً لقوات جلالته، الملك جورج السادس، المسلحة في حرب ضد ألمانيا هتلر. وجب الترحيب بضباط قوات التحالف بطريقة معينة، وتم إنجاز قواعد التشريفات المناسبة بدقة بالغة.

بعد تبادل خطابات موجزة، مُنحت وبشلتنسف الفرصة لـ ”تفقّد“ القوات. ردّ الجنود على أسئلتنا بابتسامة. ونزولاً عند طلب المصوّرين حملت بندقية Mark I رقم ٤ العائدة إلى العريف لي إنفيلد Lee-Enfield، التي كانت شبيهة جداً ببندقية Mosin خاصتنا في الشكل. كان المراسلون مسرورين، وأخذت أضواء الكاميرات بالوميض. ظهرت هذه الصورة في اليوم اللاحق في إحدى الصحف الإنكليزية (لا أتذكّر تماماً، ربما *The Times* أو *Daily Mail*. ليس بحوزتي سوى مقالة معنونة بـ ”الملازم لودميلا تتفقّد الحرس الوطني“).

أمّا الآن، فكان لقاء مع الصحافة بانتظارنا في قاعة مؤتمرات وزارة الإعلام. لم تكن تجربتنا مع الصحافة الأميركية بلا طائل. كنا حذرين، وجهّزنا أنفسنا من أجل الإجابة عن الأسئلة غير المتوقعة والغريبة إطلاقاً، والغيبة حقاً في بعض الأحيان.

بدأ المؤتمر بالطريقة المعهودة، واستمر قرابة ثلاث ساعات. أما بالنسبة إلى الأسئلة الغيبة، فلم نرصد أيّاً منها. نظرنا إلى قاعة الاجتماعات باندهاش. كان يجلس في ذلك المكان سادة جديون يرتدون سترات وقمصاناً وأربطة عنق. أما السيّدات، فكن يرتدين أزياء إنكليزية رسمية. كانوا يحملون دفاتر ملاحظات وأقلاماً، وتكلموا بهدوء وبالدور ودون ضجّة. كان المرء يشعر كأنهم أتوا إلى المؤتمر مزوّدين ببعض المعرفة عن مجريات الأعمال الحربية في لينينغراد وأوديسا وسيفاستوبول، التي شاركت وبشلتنسف فيها. لا يمكنني إنكار أن هذا الأمر حظي بالاحترام. بمعزل عن ذلك، سألونا عن معركة الدفاع عن ستالينغراد المستمرة، وعمليات صناعتنا الدفاعية، وأنواع الدبابات والمدفعية والطائرات الحربية السوفياتية الجديدة.

كما ثمة سؤال عن الفضاء التي ارتكبتها الغزاة الألمان على الأرض التي استولوا عليها، وطلب للتوضيح، أي هل كان هذا الأمر صحيحاً؟ أجابه نيكولاي كرازفتشنيكو بحدّة: ”صحيح!“ وأردف قائلاً إن مجرمي الحرب سيخضعون للمساءلة عما اقترفت أيديهم أمام محكمة دولية عاجلاً أم آجلاً.

استهوتنا الطريقة التي سَيرَ فيها موظفو الصحف والمجلات والمحطات الإذاعية البريطانية أمورهم. ناقشنا هذا الأمر أثناء ذهابنا إلى سفارتنا بعد المؤتمر. ووجدنا التفسير بسيطاً للغاية. فخلافاً للأميركيين كان البريطانيون مطلعين سلفاً على ماهية الحرب العصرية والفاشية الألمانية لأنهم واجهوا الألمان في ميدان المعركة. كان العمل العسكري في بلدة دنكيرك Dunkirk في صيف ١٩٤٠ مخففاً خاصة بالنسبة إليهم، إذ تكبدوا هزيمة مصحوبة بحلفائهم الفرنسيين.

تمت متابعة هذا الموضوع في حديث مع السفير السوفياتي في بريطانيا العظمى، إيفان ميخايلوفتش مايسكي Ivan Mikhailovich Maisky. بوصفه دبلوماسياً خبيراً ومتمكناً باللغة الإنكليزية تمكناً فائقاً وضيعاً بتاريخ وثقافة "البياض الضبابي"، شغل هذا المنصب عشر سنوات. كان مُلمّاً بأعراف وآداب سلوك الناس المحليين.

أعطانا إيفان ميخايلوفتش محاضرة كاملة عن أحداث العامين المنصرمين. تبع دنكيرك معركة بريطانيا، أي اشتباك جوي كبير يشمل مئات الطائرات الحربية البريطانية والألمانية. كان النازيون يريدون تدمير سلاح جو المملكة المتحدة، ونفذوا غارات على مدنها ومراكزها الصناعية ومواقعها العسكرية. مثلاً ثمة ضربات جوية على لندن وبلفاست وبورتسموث وكفنتري التي سوّيت بالأرض تقريباً. لكن لم يفلح هتلر في كسر إرادة الشعب البريطاني في المقاومة، وألغى عملية "أسد البحر" وغزو الجزر البريطانية.

أخبرنا مايسكي: "لا تستغربوا تصميم البريطانيين. مع ذلك، لم يكن النازيون، بطبيعة الحال، قادرين على شن عمل عسكري في منطقة الأطلسي لأنهم غرقوا في مستنقع ستالينغراد بصورة خطيرة".

سأله كرازفتشنيكو ممازحاً: "إذاً، الروس يحمون إنكلترا القديمة الطيبة؟" ردّ عليه مايسكي: "لا تزال قوات الحرب الجوية، Luftwaffe، على شطآن القناة الإنكليزية. ففي نيسان/أبريل من هذا العام، قصفوا باث Bath وإكستر Exeter. ومؤخراً في تشرين الأول/أكتوبر، هاجموا كانتربري Canterbury. تبعاً للصحافة المحلية، كان قرابة ثلاثين طائرة حربية معادية مشتركة في القصف".

قلتُ: "حبذا لو أظهرنا دعمنا للحلفاء".

نظر إيفان ميخايلوفتش إليّ مبتسماً قائلاً: "تم التخطيط لقيامك برحلة إلى ذلك المكان، وطلبت إعداد برنامج لإقامتك كلها. فالجدول الزمني ضيق للغاية. مثلاً يجب أن تكوني غداً صباحاً، في السابع من تشرين الثاني / نوفمبر، في صالة الإمبراطورة من أجل اجتماع لعناصر المجتمع البريطاني التقدمية المخلصين للذكرى السنوية الخامسة والعشرين لثورة أكتوبر الاشتراكية العظيمة، وثمة حفل استقبال رسمي في السفارة مساءً للاحتفال بالمناسبة نفسها".

كان الطريق من لندن إلى الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة وإقليم كنت Kent، المعروف بـ "حديقة إنكلترا" أيضاً، وهذه التسمية مسوغة تماماً، إسفلتياً ممتازاً. شمس الخريف تُنير الحقول المحظية بعناية جيدة على جانبي الطريق وبساتين التفاح والمروج والأجمات. يلفت نظرنا بين فينة وأخرى مزارع صغيرة أخاذة، وأبراج القلاع الرمادية وأسوار الحصون بجانبها، وقرى من البيوت الحجرية، وعلى مقربة منها كنائس ريفية ضخمة تبدت مثل الدّمي من بعيد.

غادرنا عاصمة الإمبراطورية البريطانية في الصباح الباكر من الثامن من تشرين الثاني / نوفمبر في قافلة من سيارتين. كانت إحداها مقدمة وزارة الإعلام، وتنقل موظفيها الذين كانوا يرتدون الزي العسكري، أي النقيب جون هاركر John Harker، اللطيف والبشوش في الأربعين، والملازم روبرت سميث Robert Smith، الشاب النحيل ذا الطلعة القاسية. كان بحوزتهما كاميرتان سينمائيتان وبعض الأضواء، وصناديق تحتوي على بعض الأنواع من اللوازم. شرح لنا النقيب هاركر تكليفه تصوير لقاءاتنا مع سكان كنت كلها، وصناعة فيلم طويل عن جولة الوفد الطلابي السوفياتي في أرجاء بريطانيا. فطلب مساعدتنا في هذا الأمر، ووافقنا فوراً بطبيعة الحال.

كانت السيارة الثانية من ملاك سفارتنا. ويتعين على عضو هيئة السفارة، سيرغي كراينسكي Sergei Krainsky، مرافقتنا في كل مكان، والعمل مترجماً. كنا مسرورين لهذا الأمر. لقد سبق لسيرغي أن قضى ثلاث سنوات في المملكة المتحدة. لم تكن لديه معرفة جيدة باللغة فحسب، بل بالقوانين الناظمة للحياة في هذا المكان أيضاً.

في البداية، زرنا كلية Birkbeck، حيث كانت المحاضرات تسير على قدم وساق حتى أيام الأحد. رَحّب الشبان بنا بحفاوة. وأخبرناهم عن الأحداث على الجبهة

السوفياتية-الألمانية، وأجبنا عن مختلف الأسئلة. مع ذلك، كان برنامجنا موقوتاً بالساعة. وعليه، انطلقنا في الجولة مجدداً.

انعطفت السيارتان نحو تحصينات القطاع الدفاعي الجنوبي. كان يتعين علينا زيارة لواء دبابات سيشارك في الإنزال على القارة الأوروبية مع فتح الجبهة الثانية. لم يكن زمان ذلك الأمر معلوماً، لكن حظينا بترحيب رسمي مصحوب بحرس شرف، وفرقة موسيقية، ولقاء قصير، وحديث ممتع مع قائد اللواء.

بدا أنه إنكليزي إجمالاً، أي طويل ونحيل، وشعر ضارب إلى الحمرة، وعينان زرقاوان. كان معطفه الوافي من المطر وسرواله مكوّين بطريقة مثالية، لكنه كان يرتدي أحذية مزودة بلفافات للساقين، الأمر الذي وجدناه مُذهلاً جداً. أما في "الجيش الأحمر"، فلم يكن القادة من هذه الرتبة يرتدون لفافات للساقين، بل أحذية من جلد العجل سوداء طويلة، ومصقولة بالورنيش غالباً.

صافحنا الجنرال بابتسامة، وأخبرنا عن لوائه. علمنا أنه كان يتألف من ثلاث كتائب دبابات، يشتمل كل منها على قرابة اثنتين وخمسين دبابة، وعتاد آخر. كانت الكتيبة تضم قرابة ستمئة فرد. أما الدبابات، فكانت من نوعين، أي Churchill و Churchill III. IV. ثم دعانا لزيارة مركز التدريب والاطلاع على عملية التدريب في إحدى الكتائب. راقبنا الأمر من عل لأننا أخفينا أنفسنا في برج Churchill IV^١.

لم يتسن لي مشاهدة أي دبابات سوفياتية أثناء الدفاع عن سيفاستوبول بين آب/أغسطس وتشرين الأول/أكتوبر ١٩٤١. مع ذلك، ألقيت نظرة جيدة على الدبابات التشيكية LT vz. 35 التي هاجم الرومانيون مواقع فوجنا تحت غطاء نيرانها. كان جنودنا يلقون قنابل "مولوتوف" الحارقة عليها، واحترقت شرّ احتراق. فأثناء الدفاع عن سيفاستوبول، كان لدينا دباباتنا T-26 و BT-7 الخفيفة التي ساعدت قوات المشاة على دحر الهجمات النازية بين فينة وأخرى.

تبدّت Churchill IV عملاقاً حقيقياً لدى مقارنتها بهما! فكان طولها ٧,٥ متر، وعرضها ما يفوق ثلاثة أمتار، ووزنها أربعين طناً. أما تصفيحها الأمامي، فكان بسماكة

١ تم تزويد الاتحاد السوفياتي بهذه الدبابات على سبيل الإعارة والإيجار منذ تموز/يوليو ١٩٤٢. فكانت منخرطة في المعركة في Kursk bulge، أي في رفع الحصار عن لينينغراد، وفي تحرير كييف.

١٠١-١٩٢ سم. وكانت تسليحها يشمل مدفعاً رشاشاً، وثلاثة رشاشات، ومدفع هاون، وطاقماً من خمسة أفراد.^١

أدى الطاقم التحية العسكرية الرسمية لنا أثناء اصطفا فهم بجانب دبابتهم. اقتربنا من الشبان الشجعان، وصافحناهم، وأعربنا عن إعجابنا الصادق بهذه المنتجات الفعالة للصناعة العسكرية البريطانية. فاستلطفوا ما وجب علينا قوله. تبين أنهم كانوا مولعين بوحشهم الآلي لأنه فسيح للغاية من الداخل، وتصفيحه مضمون، ولن يكون في مقدور أفضل الأسلحة الألمانية اختراقه. ولتزويدنا بالصورة الكاملة، سمحوا لنا بالجلوس في مقاعد السائق/ الميكانيكي، ورامي الرشاش في مقدمة المركبة، إذ فتحنا الطلّاقات المزدوجة الأغطية على الميمنة والميسرة، ثم ساعدونا في الصعود إلى برج الدبابة. كان التدريب ذا معيار فني عالٍ. أطلعنا الطاقم على آلية تقدّمهم في أرتال، ونشر صفوفهم من أجل الهجوم، وتعاملهم مع الخنادق وسلاسل الجبال والعوائق المائية، وإطلاق المدافع الرشاشة والرشاشات. ارتفع الغبار في مركز التدريب على شكل عمود، وأخذت محركات المركبات المصفحة تهدر، والمجنزرات تُصلصل. كانت سرعتها الأمر الوحيد الذي فاجأنا إلى حد ما، إذ لم تتجاوز ٢٥ كيلومتراً في الساعة. بعد جلسة التدريب، دعانا ضباط الكتيبة لتناول العشاء. وشرينا كمية لا بأس بها من الخمر الجيد احتفاءً بالانتصار على عدونا المشترك و برفاقية السلاح.

قلت أثناء وداع طواقم الدبابات: ”أمل أن نلتقي في ميادين المعارك الأوروبية من أجل إلحاق الهزيمة بالقوات النازية معاً“.

أجاب الجنرال: ”أجل، بالطبع“. لكن ثمة أمر حزين بشأن ابتسامته. استمرت رحلتنا عبر إقليم كنت الرائع. كان الطقس ممتازاً ودافئاً ومشمساً. أما الطرقات، فكانت في أحسن حالاتها، ولم تكن المسافات بين القرى كبيرة. فكانت

١ على ما يبدو، لم تُطرح دبابة Churchill IV حتى ١٩٤٣، فمن المحتمل وصف بـفلتشنكو Churchill I، كونها الوحيدة التي تحمل قذيفة هاون ثلاثية البوصات، و Churchill III التي طُرحت في الخدمة أواخر ١٩٤٢، وكانت باكورة Churchill IV أساساً، لكنها مزودة ببرج مُصنّع بدلاً من صَبّ من قطعة واحدة. فالأبعاد مشابهة للأبعاد المطروحة في هذا المقام تقريباً، لكن Churchill III و IV كانتا مزودتين بمدفع pr6 ورشاشي Besa من عيار ٧,٩٢ ملم، لا ثلاثة، ولم يكن أي منهما يحمل قذيفة هاون.

السيارتان قبالة حاجز تفتيش فوج المشاة السبعين في غضون نصف ساعة^١. كنتُ وبشلتنسف ننتمي إلى هذه الطبقة العسكرية المجيدة، أي قوات المشاة. وعليه، تم ترحيب الفوج بنا بطريقة بسيطة ورفاقية، ودُعينا في الحال للذهاب إلى ميدان الرمي من أجل عرض مستوى تدريب القناصين في "الجيش الأحمر". لم يكن هذا الأمر شيئاً جديداً بالنسبة إلينا. لقد بُذلت جهود في بعض الأجزاء من الولايات المتحدة لاختبار مهارتنا في الرماية، وإثبات، إن أمكن بالطبع، اختراعات "الصحافة الحرة" الجامحة أننا لم نكن جنديي خط أمامي، بل مجرد عميلي دعاية شيوعية. كان يحدث أحياناً وجود بعض العيوب الثانوية في الأسلحة التي كانوا يعطوننا إياها. كان مضيفونا الكريمون يراقبوننا عن كثب، ويظهرون خيبة أملهم الواضحة من سرعة اكتشافنا تلك المشكلات، والتخلص منها، وإطلاق نيران دقيقة على الأهداف. فرض علينا تكرار هذا السيناريو اتخاذ بعض الإجراءات الاحترازية. بوصفه أقدم رتبة، كان فلاديمير يتفحص السلاح أولاً، ويُطلق طلقتين أو ثلاثاً "لاختبار السبطانة"، على حد تعبير القناصين. في هذه الأثناء، كنتُ أروي حكاية مرحلة لحشد من المراسلين والمصورين. ثم يناولني البندقية أو الرشاش القصير مترافقاً بتعليق طفيف عنها. كانت السرية برمتها تبغني بلهفة خاصة. لمَ لا، امرأة مزودة بسلاح ناري! وعليه، وجب عليّ الأداء التام والمنقطع النظير.

كان ميدان رمي فوج المشاة عادياً للغاية في الشكل، أي جدار طوب مُصمّت، وألواح خشبية تحمل أهدافاً فوقه. المسافة من هذا المكان إلى خط النار خمسون متراً تقريباً. سُلّمت رشاش Sten Mark I البريطاني القصير، الشبيه جداً برشاش "Erma" 38 MP الألماني الصّنع، الذي نُطلق، نحن العاملين في الجيش، عليه Schmeisser. كنتُ وفلاديمير مُطلعين عليها. لقد باتت غنائم عقب الاشتباكات مع رماة الرشاشات وخبراء الألغام ورجال الإشارة النازيين. لكن تبدّى الطراز البريطاني أكثر خشونة، ولم يكن مخزن رصاصه الذي يتسع لـ ٣٢ طلقة يقع تحت السبطانة، بل على الجانب الأيسر.

١ تم دمج الفوج السبعين مشاة في فوج East Surrey نتيجة لإصلاحات في الجيش البريطاني لعام

فحص بشلتنسف السلاح، وحولّه إلى الرمي دراكاً، وتوجّه إلى خط النار، وأطلق طلقات شتّى على الأهداف. أعلمني أن الرشاش القصير في وضع مثالي. وحولت الرشاش Sten إلى وضعية الرمي الآلي مجدداً، ثم أطلقت ثلاث رشقات قصيرة. بلغت الرصاصات أهدافها كلّها، وكان المصورون راضين. ثم أمضوا وقتاً طويلاً في تصويري، في حين كان فلاديمير وجنود المشاة البريطانيون يدرّدشون معنا في محيط اللوحات المثقوبة بالرصاص.

كتذكّار لرمينا الممتاز من رشاش بريطاني قصير، زوّدنا الفوج ٧٠ للمشاة بشارات معدنية وشهادات تجعلنا ضباطاً فخرين في وحدتهم.^١

انتهى اليوم الغني بالتجارب بزيارة إلى مساكن برنارد بارون Bernhard Baron. ثمة مدرسة داخلية في ذلك المكان لأطفال من يخدمون في جيش المملكة المتحدة.^٢ أحاط الطلاب، بنين وبنات تتراوح أعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة، بسيارتنا في حشد كثيف. ثم خرج علينا الحارس باسيل هنريك Basil Henriques، وزوجته روز Rose، وأطلعانا على المنشأة. أظهر كبار السن من الطلاب براعة في الرمي والقتال دون سلاح، في حين أدّى صغار السن من الطلاب رقصات وأغاني شعبية. تبع العشاء جلسة لنادي النقاش الشبابي شارك فيها وفدنا الطلابي أيضاً.

إن كانتربري بلدة صغيرة تقع في جنوب شرق كنت، على بُعد ٢٥ كلم من الشاطئ. إنها إحدى أقدم بلدات بريطانيا. أسسها الإمبراطور الروماني كلاوديوس عام ٤٣ على موقع مستوطنة كلتيّة سابقة. وكانت مقر ملك كنت إثلبرت Ethelbert في القرن السادس. ثم أحدثت الأبرشية والكنيسة. باتت منذ ذلك الحين مقر مطران كانتربري، رئيس الكنيسة الكاثوليكية، ثم رئيس الكنيسة الإنجيلية بموجب قانون السيادة. كانت كاتدرائية كانتربري، المبنية بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر، صرحاً جميلاً

١ هذه المقالات مودعة في الوقت الراهن في "متحف القوات المسلحة الفيدرالية الروسية" المركزي، برقم إيداع ٣٧٧٦/٢.

٢ كانت المزرعة ممولة من قطب التبغ الروسي المولد، برنارد بارون (١٨٥٠-١٩٢٩)، الذي اخترع إحدى أوائل آلات صناعة السجائر، وكان لديه ملكية أسهم واسعة في كارزاس وغالغر Carreras and Gallagher. مول بارون تشييد كتل سكنية هائلة... في Stepney، شرق لندن، من أجل الإيواء في أندية الأطفال اليهودية، بما فيه نادي أكسفورد والقديس جورج للبنين، التي أسسها بازل Basil وروز هنريك Rose Henriques أثناء الحرب العالمية الأولى.

ومهيأ، لكنها تعرضت لأضرار بالغة الآن.

سألتها: "لماذا؟" مقاطعة التعليق المشوّق من سيرغي كراينسكي، مرافقنا من السفارة.

أجاب: "تعرضت للقصف من الألمان الذين وجهوا ضربات شتى إلى البلدة".

- هل ثمة موقع عسكري ما في هذا المكان؟

- لا، صناعة خفيفة فقط. على الأرجح، كان النازيون يريدون تهيب الإنكليز بإبادة رموز تاريخهم.

توقّفت سيارتنا في محيط دار البلدية. في صالة الاستقبال، رحّب بنا العمدة، فريدريك ليفير Frederick Lefevre، مرتدياً زيّ التقليدي، رداء مخملياً مبهرأ وطويلاً وسلسلة ذهبية ضخمة على صدره. كان بصحبة زوجته التي كانت ترتدي رمزاً مشابهاً لكن أكثر تواضعاً. بعد تبادل التحيات، انطلقنا بصحبة العمدة من أجل الاطلاع على البلدة.

استحضر منظرها ذكريات حزينة. تمشينا على طول شارع تحوّل إلى ممر ضيق بين ركام البيوت. تعرضت البيوت الإنكليزية القديمة المؤلفة من طابقين تبعاً للطراز المعماري التيودريّ، أي هيكل خشبي مملوء بالطوب، والحجارة، والطين، وحتى القش، للدمار بسهولة. تلك حال سيفاستوبول، التي باتت عزيزة جداً بالنسبة إليّ، عندما شنّ النازيون هجوماً ثالثاً عليها في حزيران/يونيو من ذلك العام. فسوّوها بالأرض عملياً بهجمات بالمدفعية وغارات القصف اليومية. بقلب موجوع، كنت أنظر الآن إلى تلك المشاهد في بلدة بعيدة من موطني، وأبدي أن الحرب التي أطلق الألمان العنان لها كبّدت الأوروبيين كلّهم ويلات كثيرة للغاية.

سرعان ما كانت كاتدرائية كانتربري الشهيرة ماثلة أمامنا. فكان داخل الكنيسة برمته مكّوماً بالأنقاض، وفتحات واسعة بالجدران. لقد نجا كثير من نوافذ العصور الوسطى ذات الزجاج المعشق الفخمة. على طول ممر ضيق طويل يؤدّي إلى المذبح، خرج رجل نحيل البنية بإكليل أشيب الشعر، مرتدياً ثوب كاهن أسود، للقائنا. كان مطران كانتربري، هيوليت جونسون Hewlett Johnson، المُسمّى "المطران الأحمر". أطلق سيرغي كراينسكي عليه هذا اللقب عندما أخبرنا عن كانتربري وسكانها. كان

الموقرّ جونسن خريج جامعة أكسفورد وخادماً للكنيسة منذ ١٩٠٤. رحّب بشغف بالأنباء الواردة عن "ثورة أكتوبر" الاشتراكية العظيمة، وناصر بثبات إقامة علاقات ديبلوماسية بين اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية وبريطانيا العظمى، وألّف كتباً ممتعة شتّى عن بلادنا. أمّا حالياً، فيشغل منصب رئيس اللجنة المشتركة للغوث السوفياتي.

أخذنا المطران في جولة حول الكنيسة مبيّناً لنا ميزاتنا الخاصة، وشارحاً أهمية المنحوتات والصور المتنوعة، وآتياً على ذكر أسماء القديسين والكهنة ورجالات الدولة المرتبطين بكاتدرائية كانتربري. في حديث لاحق، كرّس المطران مزيداً من الاهتمام بي على حساب كرازافتشنكو وبشلتنسف. وبالنظر إلى سلوكه، يصعب عليه استيعاب أن تحمل امرأة سلاحاً وتذهب للحرب، أي تبني وظيفة ذكورية بصورة تقليدية. وعبر عن نفسه بطريقة منمّقة للغاية: "لكن بالتأكيد، يا سيدتي العزيزة، لا بدّ أنك تشعرين بالظلم من وزر الأعداء الذين قتلتهن؟"

أجبت: "لا، إطلاقاً. الأعداء دوماً أعداء. لا تقتضي طبيعة النساء خلق حياة جديدة فحسب، بل الدفاع عن أطفالهن وأسرهن ووطنهن إذا لزم الأمر. لقد منحنتي دولتنا تلك الفرصة".

تراجع الكاهن فوراً، قائلاً: "أجل، أجل، أنت على حق. أعرف أن روسيا بلد مميّز. فشعبكم يقاتل إلى أن يظفر بالنصر دوماً. إنني معجب بشجاعتك الشخصية. فالبزة العسكرية تليق بك مثل فستان امرأة عادية. لكن آمل أن أراك في هذا المكان، بعد الحرب، في زيّ وقت السلم المختلف".

– طبعاً! ستضع الحرب أوزارها يوماً ما.

قال المطران بطريقة تدعو إلى التفاؤل: "سيأتي ذلك الوقت. فالجدران في هذا المكان ستبنى من جديد وسيتم إصلاح التجهيزات الداخلية. الكنيسة ستغصّ بأبناء الأبرشية. وسنصلّي كي لا نرى مزيداً من الحروب ولا النساء في البزة العسكرية إطلاقاً، بل في تربية أطفالهن. فالكنيسة تُفضل عدّ المرأة كمريم العذراء حاملة رضيعاً بين ذراعيها، كما الحال في لوحات رافائيل Raphael الزيتية، بدلاً من رشاش".

– أشاطرك الرأي تماماً. لكن قبل أن يأتي ذلك الوقت، علينا أن نسحق الفاشية

أولاً. هذا يعلل وجودي بالبزة العسكرية. سنبداً تربية الأطفال عندما يسود السلام العالم بأسره.

رافقني المطران إلى سيارتنا مودّعاً وراسماً إشارة الصليب فوقنا. بينما كنا نبتعد، بقي واقفاً يتابعنا لمدة طويلة. أتذكر شكل ردائه الأسود على خلفية المبنى الهائل والرائع الذي نجا من العصور، لكنه لم يسلم من برايرة الحياة المعاصرة.

كانت دوفر Dover، الميناء الرئيسي والمركز الصناعي والقاعدة البحرية الملكية، مقصدنا الأخير في رحلتنا عبر كنت. هي بلدة جبهوية منذ بداية الحرب. قصفها الألمان مراراً وتكراراً باستخدام مدفعية من عيارات كبيرة منصوبة شمالي فرنسا، على بُعد بضعة أميال من الطرف الآخر من القناة الإنكليزية، وأخضعوها لضربات قصف على نطاق واسع. كنا قادرين على القيادة بحرية إلى دوفر لأنه كان لدينا تصريح مرور خاص.

أخيراً، وقع نظري على البحر الذي يحيط بهذه الدولة الجزيرة. فاستمرت ألوانه بالتغير تحت أشعة شمس خريفية، أي من السماوي إلى الزمردّي فالآزوري. أطلعنا مضيفونا البريطانيون على كيفية تحوّل شطآن إنكلترا الجنوبية الخلاّبة إلى منطقة منيعة في تفصيلاتها المجرّدة كلّها، أي حقول الألغام، وجدائل الأسلاك الشائكة، والمخابئ، ونقاط الرشاشات، ومواقع المدفعية المجهزة جيداً. لقد استعد البريطانيون لغزو معاد لجزيرتهم بصورة صارمة. لكن لحسن الحظ، لم يحدث هذا الأمر.

لدى عودتنا إلى لندن، زرنا مايسكي، وقدمنا تقريراً عن رحلتنا. كانت انطباعاتنا إيجابية تماماً. أما الآن، فكنا ننتظر من إيفان ميخايلوفتش أن ينطق بالعبارات المنشودة: "ستغادرون إلى موسكو غداً... بعد غد... في غضون يومين...". واحسرتاه، لم تأت هذه العبارات. بدلاً من هذا التصريح نظر السفير إلينا نظرة حزينة قائلاً: "يا رفاقي في رابطة الشبيبة الشيوعية"، ليس الشتاء البريطاني بعيداً، وليس قاسياً كما الحال في روسيا. لكن ثمة هطولات ثلجية متفرقة. فأنتم بحاجة إلى معاطف شتوية".

سأل بشلنتسف باستغراب: "من أين سنحصل عليها؟"

- سنعمل على خياطتها وفق الطلب. سنحضر أنواعاً مختلفة من القماش إلى فندقكم غداً. فاختاروا أفضل ثوب ملائم.

تبيّن أن هذا الأمر ليس قضية بسيطة. لم يكن القماش المتين والسميك والخشن وغير المنفوش الذي يصلح لمعاطف الجيش في بلادنا يُنتج في هذا المكان. فوجب علينا أن نرضى بنسيج المعاطف العادي الذي كان شبيهاً له في اللون والتركيب. أما الصعوبات الأكبر، فبرزت في الإكسسوارات، أي الأزرار النحاسية المزودة بنجوم، والعري التوتية، و”مكعبات” الملازمين المعدنية من الخزف الأحمر، وعلامات الرتب العسكرية ذات شريط الزينة الذهبي. كانت السفارة تطلبها من ورشة خاصة الواحدة تلو الأخرى. تبين أن المعاطف الشتوية لم تكن طالحة إطلاقاً، وثمّنا الرعاية التي أولاها إيفان ميخايلوفتش عندما وجدنا أنفسنا في رحلة أخرى عرضة للمطر المصحوب بريح باردة وبرّد نافذين.

أما الآن، فكنا متوجّهين نحو الشمال الشرقي، قاصدين كمبردج، المدينة الواقعة على ضفاف نهر Cam وتبعد من لندن سبعين كيلومتراً. تمت دعوتنا إلى لقاء مع طلبة جامعة كمبردج بوصفها أقدم جامعة في إنكلترا. بدأت زيارتنا بكلية Trinity. ما إن اقتربنا من البوابات الضخمة، حتى شاهدنا تمثالاً للملك هنري الثامن، مؤسس الكلية عام ١٥٤٦، في مشكاة فوق قوس البوابة. لقد تخرّج كثير من الناس المرموقين فيها بمن فيهم ملك الإمبراطورية البريطانية الحالي، جورج السادس، إضافة إلى طلبة مثل إسحاق نيوتن، وفرانسيس بيكن Francis Bacon، والشاعر لورد بايرن Lord Byron أيضاً.

تتألف كلية Trinity من مباني شتّى، ثلاثية الطوابق ومبينة منذ ثلاثة أو أربعة قرون خلت. ثمة فناء فسيح ذو مرج مُشدّب بعناية ونافورة جميلة وسطه. لكن ما أعجبنا خير إعجاب قاعات المحاضرات العصرية حقاً والمريحة، والمخابر المجهّزة على نحو ممتاز، ومتحف Fitzwilliam ومجموعته الهائلة من الأعمال الفنية، ومكتبة Wren التي كانت تضم آلاف المخطوطات الثمينة من القرون الوسطى، وأول كتاب مطبوع في إنكلترا لوليم كاكستين William Caxton.

مساء الحادي عشر من تشرين الثاني / نوفمبر، تجمّع الطلبة من أجل اللقاء الذي برهن أنه صاخب ونابض بالحياة. فسمعنا كثيراً من العبارات الطيبة عن الاتحاد السوفياتي. وأطلقت عليه رئيسة اتحاد الطلبة اللندني، السيدة جوي ريد Joy Reid، لقاء تاريخياً. وقال

إرنست بنيانز Ernest Benians، عميد كلية القديس جون، في وجهنا إنه يُحيي "الجيش الأحمر" البطل. كما أخبرنا رئيس مجلس الدراسات العليا في جامعة كمبردج، ريتشارد تايلر Richard Taylor، عددًا لا بأس به من الأشياء الممتعة عن حياة الطلبة والتعليم. وما أثار دهشتنا خاصة أننا علمنا أن كثيراً من طلاب كمبردج كانوا يعملون نوبة ليلية في المصانع العسكرية إسهاماً منهم في المقاومة المشتركة ضد النازية.

تم تنظيم العرض التقديمي بالطريقة المعتادة. فتحدث كرازفتشنيكو عن حركة المحاربين في مؤخرة القوات النازية، وبشلتنسف عن حرفة القنص. أمّا أنا، فتحدثت عن الدفاع عن أوديسا وسيفاستوبول. وفي ختام خطابي الموجز، أتيت على ذكر كانتربري أيضاً، مقارنةً هذه البلدة الإنكليزية المنكوبة بسيفاستوبول التي قصفها الألمان بلا رحمة ولا شفقة. سألنا الجمهور أسئلة كثيرة. يمكنني وصف ردّ فعلهم أنه ينمّ عن قلق شديد. على ما يبدو، كانوا مُطلعين على الأحداث على الجبهة السوفياتية-الألمانية، وتمنّوا لنا، من صميم قلوبهم، النصر على العدو.

عُدنا إلى لندن في ظهيرة الثاني عشر من تشرين الثاني / نوفمبر. كانت الظلمة تخيم على العاصمة سلفاً. مُتكلة على قدرتنا على الاسترخاء في الفندق مساءً بعد رحلة يومين مضنية، طلبنا العشاء في الجناح الفخم. لكن بعد ساعة وصلت سيارة من السفارة من أجلنا. تبين أنه كان يُنتظر منا حضور لقاء نظمته جمعية الصداقة بين الشبيبة البريطانية والسوفياتية. لم تكن نوي الحديث؛ كنا متعبين للغاية. مع ذلك، كان جوّ اللقاء، الذي حضره قرابة ثلاثمئة شخص ودياً وعاطفياً للغاية لدرجة لم نستطع فيها أن نخلف الميعاد. صحيح، تحدث فلاديمير بشلتنسف فقط. كان القرار الذي تمّ تبنيه في اللقاء براغماتياً للغاية، أي قررت منظمات الشبيبة في بريطانيا العظمى جمع ٢٥ ألف طرد كهدايا لجنود "الجيش الأحمر".

عندما كان سلاح جو هتلر يقصف المدينة، انتاب اللندنيين مزيدٌ من الخوف ليتغلبوا عليه في خريف ١٩٤٠. لقد أمضوا الليالي في محطات تحت الأرض، وأياماً في البحث بين أكوام الركام والدمار. كان مُرضياً رؤية تضافر الجهود المبذولة لاستعادة مظهر المدينة مع نهاية ١٩٤٢. شهدنا ذلك بأنفسنا عندما ذهبنا في مشوار صبيحة الثالث عشر من تشرين الثاني / نوفمبر.

كانت Piccadilly منطقتي المفضلة وسط لندن، ويستمنستر Westminster. كنت أتجول في ذلك المكان، وأرقب المحلات الفخمة (مثل Fortnum و Mason)، بفضول، والمباني المهيبة (فندق Ritz، ومسرح Criterion، وكنيسة القديس جيمز)، والنصب التذكاري المُخلد لتمثال إيروس Eros في Piccadilly Circus. كان الطريق يؤدي إلى Hyde Park المنسقة بعناية والدائمة الاخضرار، حيث يصادف المرء سيدات وسادة يمارسون ركوب الخيل على طول الممرات.

لم يُخصص إيفان ميخايلوفتش لنا وقتاً للاسترخاء لوجه الله. كان الوفد الطلابي السوفياتي بحاجة إلى التعرف إلى الناس العاديين في إنكلترا عن كثب والاحتكاك بهم، وليس من خلال نوافذ السيارات. نصحن السفير بجمع أفكارنا، وتذكر مهمتنا المسؤولة. ثمة سبب وجيه: كان من بين الراغبين في لقائنا رئيس وزراء بريطانيا العظمى ذاته، السير ونستون تشرشل، وزوجته كلمنتاين Clementine.

لدى سماعنا هذا الأمر، أصابنا الدهول للوهلة الأولى. كان يُشار إلى تشرشل كعدو لدود للنظام الاشتراكي ولدولة العمال والفلاحين الفتية. وتبين أنه كان منظم تدخل القوات البريطانية والفرنسية والأميركية في بلادنا أثناء ١٩١٨-١٩٢١. وتم توجيه اللوم إليه على ما يدعى "اتفاقية ميونيخ" مع هتلر وموسوليني عام ١٩٣٨ (رغم أن تشرشل لم يوقع عليها على الإطلاق). وهذا ما لم تكتبه الصحف السوفياتية عن السيد تشرشل أثناء سنوات ما قبل الحرب!

لدى رؤيته نظرة الاستغراب على وجوهنا، ابتسم مايسكي فحسب، قائلاً: "يا رفاقي في 'رابطة الشبيبة الشيوعية'، تلك هي الحقيقة اليوم! لقد أظهر ونستون تشرشل مؤخراً أنه سياسي حكيم وأبعد نظراً. فسرعان ما أدرك الخطر الذي سيحدثه هجوم ألمانيا على الاتحاد السوفياتي بحق العالم برّمته. وأبرمت حكومة تشرشل اتفاقية في أوائل حزيران/ يونيو ١٩٤٠ مع اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية من أجل عمل مشترك ضد هتلر. وأخيراً في أيار/ مايو من هذا العام، تم توقيع معاهدة تحالف أنغلو-سوفياتية وتعاون متبادل لما بعد الحرب في لندن ضد ألمانيا النازية".

حدث اللقاء مع رئيس الحكومة في مجلسي البرلمان. انحنى الموظفون الأكفاء أثناء فتحهم الأبواب أمامنا. دخلنا قاعة مُربعة صغيرة مزودة بمدفأة هائلة مزخرفة

بالرخام الأبيض. أما وسط القاعة، فثمة طاولة مُحاطة بكراسي مريحة. كان رجلاً قصير القامة، ومكتنز البنية، وعريض المنكبين، برأس دائري هائل، يتجه نحونا من محيط المدفأة. كان لديه سيجار في فمه. وعيناه الرماديتان المنتفختان نسبياً تُمعن النظر فينا. يمكنني وصف نظرتَه بالثاقبة.

قال مايسكي: "اسمح لي، سيادة رئيس الوزراء، أن أقدم بعض ضيوف بريطانيا العظمى، ثلاث شخصيات شابة من الاتحاد السوفياتي".

أخرج تشرشل السيجار من فمه، وخطى بخطوة نحوِي، ومدّ يده. كانت عريضة وناعمة لكنها قوية. قال رئيس الوزراء بابتسامة طفيفة: "كيف ترين بريطانيا، يا سيدة بافلتشنكو؟ هل يجعلك ضبابنا تشعرين بالإحباط؟"

أجبت: "لا، الضباب لا يُزعجني. نحن سعيّدون بزيارة حليف في زمن الحرب. فالضباب تمويه جيد. ومن المحتمل أن يقلل إزعاج الطيران المعادي".

ثم تحدث تشرشل مع رئيس مجموعتنا، نيكولاي كرازافتشنكو، وسأله على سبيل الدعابة هل سهل عليه أن يحظى بفتاة جميلة مثل الملازم بافلتشنكو تحت إمرته. بعد ذلك، قدّم مايسكي فلاديمير بلشتنسف. في هذه المرحلة، فوجئنا نسبياً لأن رئيس الوزراء أظهر بعض المعرفة بنظام الأوسمة في بلادنا. فلدى مشاهدته نجمة "بطل الاتحاد السوفياتي" الذهبية على صدر فلاديمير، سألت عن المناقب التي مُنحَ بموجبها هذه المكافأة الرفيعة. أجابه بلشتنسف بأنها لقاء القتال دفاعاً عن لينينغراد، ولإبادة مئة نازي في ذلك المكان.

استمرت الدردشة قرابة عشرين دقيقة. ثم دعانا تشرشل إلى جانب المدفأة حيث ثمة لهيب ضعيف، وعرض علينا الجلوس. ظهرت في القاعة امرأة نحيلة وجميلة في الخامسة والخمسين تقريباً، متأنقة في ملابسها بدقة. فقدّمها مايسكي إلينا فوراً، قائلاً: "السيدة كلمنتاين أُغلفِي سبنسر-تشرشل Clementine Ogilvy Spencer-Churchill". صافحتنا زوجة رئيس الوزراء بابتسامة، واستمعت لوصف السفير السوفياتي لكلّ منا. جلسنا كلّنا على الأرائك في محيط الطاولة. وانفتح باب جانبي، وأدخل موظف طاولة ذات عجلات معدّة للقهوة، مزودة بإبريق قهوة، وإبريق حليب، وأكواب، وصحون للسندويش والبسكويت.

أشعل تشرشل سيجاره، وجلس بجانب إيفان ميخايلوفتش، وتابعا حديثاً جدياً عن مستقبل معاهدة التحالف الأنغلو-سوفياتية المُبرمة في أيار/ مايو. كان انتباهنا منشغلاً بالسيدة تشرشل. كانت تتحدث بحماسة عن مساعدات "الصليب الأحمر" البريطاني لصندوق روسيا التي أنشأتها في أيلول/ سبتمبر ١٩٤١. تبرعت كلمنتاين التبرع الأول للصندوق، ثم انضم ملايين المساهمين البريطانيين، إذ لبوا نداءها، وبدؤوا يتبرعون بنس واحد من رواتبهم للصندوق أسبوعياً. كما كان الصندوق ينظم مناسبات خيرية، أي مباريات كرة قدم، على وجه الخصوص، تذهب عائداتها إلى حسابه. لم يكن لدى الصندوق موارد زائدة تحت تصرفه، لكنه كان قادراً على الحصول على الأدوية، ومعدات المستشفيات، والمواد الغذائية، والملابس، والبطانيات، وحتى الأطراف الاصطناعية للمعوقين، وإرسالها إلى بلادنا.

كانت زوجة رئيس الوزراء مهتمة بطريقة تنظيم الخدمات الطبية في "الجيش الأحمر"، وبالمساعدة التي كان جنوده وضباطه يتلقونها في ميدان المعركة ولاحقاً. أخذت على عاتقي إجابتها بموجب تجربتي الشخصية. عندما تعرضت للإصابة في أوديسا، قدمت الإسعافات الأولية إليّ ممرضة سرية الفوج الطبية التي انتهى بها المطاف في كتيبة الفرقة الطبية، حيث أجرى جراح عملية لانتزاع قطعة شظية. في حال الاختلاطات، كنت سأُرسل إلى مستشفى ميداني حربي، ثم إلى مستشفى في مؤخرة القوات من أجل عملية جراحية كاملة، إذا لزم الأمر.

اعتقدت السيدة تشرشل أنه نظام عقلائي. فسألتني مختلف الأسئلة في محاولة لاستجلاء تفاصيل متعلقة باستخدام الأدوية، والتكنولوجيا الطبية، ورعاية المصابين. وأجبتها عن طيب خاطر. بات حديثنا حماسياً جداً. لم يُدلِ بشلتسلف وكرازافتشنيكو بدلويهما لأنهما لم يدخلتا مستشفى على الإطلاق.

قرعت دقات ساعة Big Ben، ونهض مضيفونا اللطيفون إيذاناً لنا بنهاية الاجتماع. لدى رحيلنا، تبادلنا المصافحات والابتسامات الودية مجدداً. وشكرتني كلمنتاين على معلوماتي التي ستساعد على تحديد توجهات عملها من أجل دعم "صندوق روسيا" بصورة أدق.

بالمناسبة، جمع صندوق كلمنتاين تشرشل، أثناء وجوده بين ١٩٤١ و١٩٥١، ما

يفوق ثمانية ملايين جنيه إسترليني^١، وجَهَّز مستشفيات شتّى في ستالينغراد ورستوف-أون-دون. زارت زوجة رئيس الوزراء روسيا في ربيع ١٩٤٥. واعترافاً بالشكر والعرفان لإسهام كلمنتاين العظيم في مساعدة "الجيش الأحمر" كافأها ستالين في الكرملين بمنحها هدية شخصية منه، خاتماً ذهبياً مرصعاً بالألماس، في حين منحها حكومة بلادي "وسام راية اليد العاملة الحمراء".

لم أستطع سوى إجراء مقارنات بين كلمنتاين وإلينور روزفلت. كان لديهن قواسم مشتركة كثيرة في العمر، والتعليم، والموقع الاجتماعي، والوضع العائلي. كما كانتا توديان دوراً فعالاً في الحياة العامة. أمّا إيلينور، فكانت أكثر إنصافاً في تعاملها، وأكثر ديمقراطية، وتؤدي دور مسؤول سياسي. وتدير حملات زوجها الانتخابية كلها، وتجوب البلاد، وتراقب إنجاز مهماته، وتعد تقارير عنها للرئيس، وتحضر جلسات الحكومة. كانت كلمنتاين تميل إلى البقاء سيّدة الامتيازات القادمة من المجتمع الإنكليزي الراقى. فلم تستهوها المساعي الذكورية بصورة أساسية. وتقصر التزاماتها على الأعمال الخيرية، وأبدعت فيها.

استمرت رحلاتنا عبر الجزيرة، أي Cardiff، وBirmingham، وNewcastle، وLiverpool، وCoventry، ومعامل صناعة الأدوات الموسيقية والمعادن والسلاح، وأحواض السفن (حضرنا إطلاق سفينة حربية جديدة)، والمؤسسات التعليمية، والوحدات العسكرية. تم الترحيب بنا بحفاوة في كل مكان، ومنحنا هدايا مثل نسخ احتفالية لبنادق القنص غالباً.

مع ورود أنباء عن التقدم السوفياتي في ستالينغراد، وتطويق جيش المارشال باولس Paulus، واستسلام آلاف وآلاف الجنود الألمان، بات البريطانيون متحمسين على نحو خاص في نهاية تشرين الثاني/نوفمبر. أدرك حلفاؤنا أن هذا الأمر شكل نقطة تحول في الحرب العالمية الثانية، وأن ألمانيا هتلر لن تستعيد عافيتها من هزيمة مثل هذه. أمّا الآن، فكانت أفكارنا منصّبة باستمرار على العودة إلى الوطن.

١ يساوي قرابة مئتي مليون جنيه إسترليني اليوم. ففي مستشفى مدينة فولغوغراد Volgograd (ستالينغراد)، ثمة نقش برونزي غائر يصوّر البارونة كلمنتاين أغلفي سينسر تشرشل مرتدية "وسام راية اليد العاملة الحمراء" على صدرها. ويصف النص المرافق أنشطة صندوقها المالي في الحرب بأرض الآباء والأجداد العظيمة.

”هكذا أمرنا الرفيق ستالين...”

في ظلمة المساء، كانت القاذفة Liberator B-24 ذات المحركات الأربعة أشبه بسمكة هائلة مسحوبة إلى الشاطئ. تبدّى بطنها البدين مستلقياً على الأرض، إذ أعطت ذلك الانطباع تبعاً لعجلات هبوطها الثلاثية المزودة بدعامات قصيرة. كان إحداها يقع في المقدمة تحت بدن الطائرة. أما العجلتان الأخريان، فكانتا تحت الجناحين اللذين كانا يفوقان ٣٣ متراً في باع الجناح. رغم هذا الأمر، منحت مقدمتها المصقولة المزودة بسبطانات رشاشة الطائرة مظهراً تهديدياً. وثمة رشاشات في الأعلى أيضاً، أي خلف قمرة قيادة الطيار والملاح مباشرة.

لم تكن القاذفة تستعدّ لرحلة حربية هذه المرة. فلم يكن على العرب، التي كان فنيو الطائرة يدفعونها داخل عملاق مُجنَّح متعدد الأطنان قنابل، بل حقائب سفر وصناديق وسلال. إنها متاعنا، أي هدايا من الحلفاء بصورة رئيسية. مما لا شك فيه أن الكمية فاقت الضعف. كان الجنود يقدفون الأشياء داخل فتحة للقنابل مفتوحة بشكل رشيق، ثم أغلقت الأبواب.

كان أعضاء الوفد الطلابي السوفياتي يصعدون سُلّم الألمنيوم إلى الطائرة، مرتدين مثل الطيارين بدلات طيران وقفازات من الفراء، وأحذية عالية من الفراء، وخوذ طيران، لكننا استُضيفنا في قسم الشحن المتاخم لحجيرة القتال بدلاً من المقصورة. لم تُقدّم أي أسباب لراحة المسافرين في ذلك المكان. فبدلاً من المقاعد العادية، ثمة مقاعد

خشبية ضيقة وقاسية للغاية على طول الجانبين. لم يكن الجلوس عليها مريحاً، وكان الاستلقاء عليها صعباً. لم تكن ثمة فتحات تهوية، بل بضع لمبات كهربائية على السقف فقط تبعث ضوءاً خافتاً.

يواجهنا قضاء اثنتي عشرة ساعة اللاحقة من ليلة الرابع والخامس من كانون الثاني/يناير ١٩٤٣ في هذه الأماكن الكئيبة والمفتقرة إلى التدفئة. كان ذلك الوقت الذي نُقلع فيه القاذفة Liberator من قاعدة ل سلاح الجو الملكي البريطاني بالقرب من غلاسكو إلى مطار فنوكوفو بالقرب من موسكو. كانت القاذفات تسلك هذا المسار منذ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٢، إذ يمتد من شمال اسكتلندا فوق بحر الشمال، ومضيق Skagerrak، والجزء الغربي من السويد، وبحر البلطيق، دون أيّ حالات هبوط بينها. كان المقطع الواقع فوق المنطقة الأمامية بين لينينغراد وموسكو يُشكل خطراً معيناً. مع ذلك، تطير القاذفة ليلاً على ارتفاع يفوق تسعة آلاف متر وبسرعة ثلاثمئة كيلومتر في الساعة. لم تستطع المقاتلات الألمانية التحليق على ذلك الارتفاع. لقد تبين أن هذه الطائرة الثقيلة، التي جمّعها مصممون من شركات أميركية موحّدة الميزانية قبل الحرب العالمية الثانية وزادوا مداها إلى ٤,٥٦٠ كلم مركبة ناجحة ومجدية.

شغل الطاقم المحركات الواحد تلو الآخر. أخيراً كانت المحركات الأربعة تهدر كلّها. اهتزّت الطائرة وأخذت تدرج إلى الأمام. فازدادت سرعتها، وبات هدير المحركات أعلى فأعلى. وانتهت انطلاقة طويلة نسبياً على طول المدرج بقذفة قوية إلى الأعلى. ارتفعت القاذفة Liberator فوق المطار، ولفّت واتخذت المسار المرسوم من الملاح. أمّا الآن، ففي مقدورنا سماع طنين المحركات المنتظم.

لكن صوت المحركات جعل الحديث مستحيلاً. تعين علينا أن نستلقي على المقاعد الخشبية، أي كرازافتشنكو وبشلتنسيف على الجانب الأيمن، وأنا على الأيسر. كانت بلورات الصقيع تظهر على تصفيح بدن الطائرة تدريجياً. وترداد ساعة تلو أخرى محوّل المساحة إلى شيء يشبه مخدع ملكة الثلج. وكان البرد يعوق تنفسنا. لكن بدلات الطيران الفرو المزودة بلباس داخلي خاص، بما فيه عنصر كهربائي، كانت تحافظ على الحرارة، باستثناء جلد المرء المتوخّز بشكل طفيف بسبب ضعف التيار الكهربائي في شبكة النحاس المخيطة في القميص الداخلي والملابس الداخلية الطويلة.

كان أعضاء من طاقم القاذفة ينزلون السلم من مقصورتهم غالباً للسؤال عن أحوالنا. ففي الأشهر الأربعة التي أمضاها في الولايات المتحدة وكندا بريطانيا العظمى، التقط نيكولاي كرازافتشنكو وفلاديمير بشلنتسف مئتي كلمة إنكليزية يومياً، وكانا قادرين على الرد بصورة معقولة للغاية. فبمساعدة القاموس والكتاب الدراسي، أحرزت تقدماً كبيراً في دراسة اللغة والتكلم بها بطلاقة. ففي زيارتنا الأخيرة إلى الوحدات العسكرية البريطانية، حيث كنا نطلع على العتاد المدفعي أو الطائرات أو السفن، تجرأت على إلقاء خطابات قصيرة أعجبت الحلفاء كثيراً جداً.

أما الآن، فكنا عائدتين إلى الوطن ونفكر في الحرب بطبيعة الحال. بالنسبة إليّ وإلى بشلنتسف، كان السؤال واضحاً: إلى أيّ جبهة، وجيش، وفرقة، وفوج، سنرسل الآن؟ في البداية، كنا نفترض أننا سنرسل إلى ستالينغراد. كانت الصحف الأميركية والبريطانية تكتب عن خصال القناص فاسلي زائتسف الذي أباد ٢٢٥ نازياً في غضون ثلاثة أشهر. مع ذلك، طوّقت القوات السوفياتية في نهاية كانون الأول/ ديسمبر الجيش الألماني السادس، وهزمت الفرق الرومانية والإيطالية التي كانت تحاصر الحصن في الفولغا، إضافة إلى قوات هتلر. لقد بلغت الأمور خواتيمها في ستالينغراد، أي انتصار ”الجيش الأحمر“ الساحق على العدو.

على أيّ حال، استمر حصار لينينغراد. روى لي فلاديمير بشلنتسف، الذي خدم على جبهة لينينغراد منذ الأيام الأولى للحرب، كثيراً عنها. أوقف زحف الألمان في ذلك المكان في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤١، لكن لم تكن لدينا قوات كافية لدحر العدو من مهد ”ثورة أكتوبر“ الاشتراكية العظيمة مباشرة. لقد بدأت حرب موضعية، الأمر الذي يعني إنزال خسائر فادحة بالعدو المزود بموارد ضخيلة. أكد بشلنتسف بداية تطوير القنص على نطاق واسع في سهول أنهار Neva، وSvir، وVolkhov المستنقعية، وأنه أحد رواده. فتلقى لقب ”بطل الاتحاد السوفياتي“ لقاء ذلك.

نزل فنيّ الطائرة من قمرة القيادة لرؤيتنا. أحضر معه ترساً من القهوة الساخنة، وأكواباً، وصحناً مملوءاً بالجبن وسندويشات من اللحم. وزعهم علينا، وأبلغنا أن موسكو على بُعد ساعة ونصف. أرسلت برقية لاسلكية إلى مطار فنوكوفو، وسوف يستقبل الأقارب الطائرة.

أخيراً حططنا الرحال في مطار روسي هائل يكسوه الثلج. كان يمتد إلى مسافة شاسعة بلغت حزاماً حرجياً غير منضبط يلوح باللون الأزرق من بعيد. ثمة مبان على اليسار كان الناس يركضون منها نحو القاذفة التي توقفت على حافة المدرج تماماً. كان في مقدوري رؤية ريتا، زوجة بشلتسف، والدتي العزيزة، يلينا تروموفنا. تعانقنا، وقبلنا بعضنا بعضاً ثلاث مرات. ووقفنا في عناق طويل. كانت والدتي تبكي وتقول: "الحمد لله، الحمد لله، يا حبيبتي! ذهبت لشهر، وعدت بعد أربعة".

باتت الغرفة في سكن "مفوضية الدفاع الشعبية" العائلي مكتظة بلمح البصر. فتعين نقل حقائب السفر مقابل الجدار الوحيد غير المشغول، وأخرجت الأشياء منها بصورة تدريجية. كان يمكن وضع معطف فرو الراكون الثقيل والضخم في الخزانة، على أقل تقدير. وعلقت على مسمار مدقوق في الخزانة بندقية Winchester M1897 ذات جوف ناعم أعطاني إياها عمال في مصنع أسلحة كندي في تورونتو. تبدى الطعام، المقدم إلينا من مخصّصات ضباط المطار البريطانيين في القاعدة العسكرية في غلاسكو، شهياً عند تقديمه في صحون على الطاولة، وكانت بمنزلة هدايا أيضاً، أي جبنه ولحم وسمك معلّب، وشوكولاتة، وبسكويت. أضفت إلى هذه الحياة الخاملة زجاجة ويسكي White Horse اسكتلندي. لم أعد أذكر من زوّدي بزجاجة سعتها نصف لتر وزمانها. تحدثت ووالدتي بلا توقف في ذلك اليوم. ووصفت الحفاوة التي لقيناها من الأميركيين والبريطانيين، وكيف كانوا يصفقون في الاجتماعات، ويتبرعون بالمال لصندوق "الجيش الأحمر"، وكيفية قبول مجلس الطلبة الدولي "المذكرة السلافية" لمناهضة الفاشية، وكيف أن عائلة الرئيس الأميركي فرانكلين ديلاانو روزفلت قد دعت الوفد الطلابي السوفياتي إلى مزرعتها، Hyde Park، وكيف أن الممثل والمخرج الشهير شارلي تشابلن قد طلب مني نقل تحياته إلى الشعب السوفياتي. بوصفها مدرسة للغات الأجنبية، كانت والدتي مهتمة بالصحف الأجنبية التي أحضرتها معي. كنا نناقش الاختلافات بين اللغتين البريطانية والأميركية. فأشارت إلى بعض الكلمات في المقالات، وطلبت مني ترجمتها. أثبت هذا الأمر جدواه برمته بالنسبة إليها لأن والدتي لم تسافر إلى الخارج على الإطلاق.

لن تُعدّ رحلتنا منجزة ما لم نعدّ تقريراً عنها. فمُنحنا أسبوعاً لإعداده. وحرصاً مني

على التركيز وألا أنسى أي شيء، أو تشويهه، لم أغادر المبنى. على العموم، أحطت بثلاثين صفحة تقريباً، وحذفت، وتوسّعت، وصوّبت كثيراً منها. بالنسبة إلى التقرير، تعين علينا انتقاء أهم الأحداث، وليس جعله دقيقاً فحسب، بل مُتسقاً سياسياً أيضاً. قدّم الوفد الطلابي تقاريره في جلسة لأمانة ”اللجنة المركزية لرابطة الشبيبة الشيوعية“ أولاً، ثمّ في مكاتب سلطة ”الجيش الأحمر“ السياسية، وفي اجتماع للجنة الشبيبة في مكتب الإعلام السوفيياتي مجدداً في العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٤٣. أسّس محضر هذا الاجتماع لبث إذاعي بارز مكّن الملايين من سكان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيياتية من الإحاطة بالرحلة التي أجراها ثلاثة أعضاء من ”رابطة الشبيبة“ إلى البلدات والمدن الرأسمالية من أجل المطالبة بفتح سريع لجبهة ثانية في أوروبا.

انتقلت مقاطع شتى من تقرير عبر موجات البث على النحو الآتي:

أرغمنا على السفر إلى الولايات المتحدة عبر أسترخان Astrakhan، وباكو، وطهران، والقاهرة، والبرازيل، ولقاء شعوب من جنسيات متنوعة وأطراف مختلفة. في البداية، لم يكن أحد يعرف أن الوفد سوفيياتي. لكن عندما اكتشفوا أننا من الاتحاد السوفيياتي، تغيرت المواقف في الحال، فباتت ودبةً ورائعة تماماً...

سافرنا بالقطار من ميامي إلى واشنطن، وانطلقنا من المحطة إلى البيت الأبيض، حيث استقبلتنا زوجة الرئيس الأميركي، إلينور روزفلت. وتناولنا وجبة الفطور معها، ثم ذهبنا إلى مؤتمرنا الصحافي الأول في السفارة السوفيياتية. لا بدّ من القول مباشرة إن السيدة روزفلت أولتنا اهتماماً خاصاً. واقتداءً بها كان مسؤولون آخرون في أميركا لطيفين وودودين معنا أيضاً... على الأغلب، كان يتعين علينا عقد مؤتمرات للإجابة عن الأسئلة الواردة من الصحافة الأميركية كلها. يُجلّ الأميركيون الإعلام، ويحبون أنواع المواد الأخبارية كلها. مع ذلك، لم يكن الصحافيون في المؤتمرات يسألون عن التطورات العسكرية كثيراً. كانوا يحاولون اكتشاف أمر شخصي عنا، وعن الأوضاع المعيشية على الجبهة. كانوا مذهولين من عيش جنودنا في

الخنادق. على العموم، لم يكن لديهم تصور عن الحرب الحديثة. فأمر كما تعيش في ظروف آمنة، إذ لم تنفجر قبلة واحدة على أراضيها. لقد أعلن عمدة نيويورك في إحدى المرات إنذاراً بوقوع غارة جوية تدريبي، ونقلت الصحافة في اليوم اللاحق وفاة خمسة أشخاص جراء سكتة قلبية... فمّن ناحية، أميركا أرض رفاهية بحد ذاتها، وأرض حرمان من ناحية أخرى. فالزئوج يعيشون في ذلك المكان بنمط حياة مخزٍ للغاية. تسنّى لنا زيارة مناطق تقتصر أبسط مقومات العيش. كما كنت مذهولة من التمييز العنصري، أي ثمة عربات في القطارات مخصصة للبيض فقط، وأخرى للملّونين فقط...

لم تكن لدينا أدنى فكرة عن كيفية استجابة المستمعين لتقاريرنا. أما المسؤولون، فكان لهم تقييمهم الخاص لنشاط الوفد في الخارج. حاز كرازافتشكو وبشلتنسف هتافات عادية بتقدير "جيد". أُحطت علماً أنهم كانوا مسرورين مني على نحو خاص، وقُيّم عملي بوصفه "ممتازاً".

ثم أعلّمنا بحلّ الوفد. فعاد كرازافتشكو إلى عمله مع لجنة "رابطة الشبيبة" في موسكو. وسرعان ما انطلق فلاديمير بلشتنسف إلى الجبهة، حيث تابع القتال ببسالة وإبادة الجنود والضباط المعادين بقناصته؛ بلغت حصيلته مع نهاية الحرب ٤٥٦. أما أنا، فكنت أنهيّ لمغادرة موسكو لأن فرقة الحرس المظلي الثانية والثلاثين، التي عُيّن فيها قائد فصيلة قناصين، قد أُنيطت الجبهة الجنوبية الغربية بها.

لكن انحرف الأمر برمته عن وجهته على نحو مختلف. فمع نهاية كانون الثاني/يناير، دُعيت إلى شعبة عمليات الفرقة، حيث كان رجل مهذب جداً يرتدي سترة عسكرية مزودة بعري نقيب نيلية يتبادل أطراف حديث طويل معي. تطرقت أسئلته إلى تفصيلات سيرة حياتي الأكثر تنوعاً، أي معرفتي للغة أجنبية، وانخراطي في العمل العسكري في أوديسا وسيفاستوبول، والرحلات إلى الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا العظمى، واللقاءات مع إلينور روزفلت. فضلاً عن ذلك ملأت استمارة من خمس صفحات. كانت تقتضي جملة من المعلومات ليس عن نفسي فحسب، بل عن والديّ وابني وزوجي وأقاربي الآخرين (وصولاً إلى الطريقة التي كانوا يعيشون فيها،

وطبيعة عملهم، وأماكن دفنهم). قال النقيب إنني نُقلت من الفرقة الثانية والثلاثين، ووُضعت تحت تصرف الاحتياط لقيادة ”الجيش الأحمر“ العليا. بعبارة أخرى: لن أذهب إلى الجبهة.

سألته رافعةً صوتي: ”لكن لماذا، سيدي الرفيق النقيب؟“

- من المحتمل أن نجد لك شيئاً آخر تفعلينه. سيكون منسجماً مع قدراتك الاستثنائية.

- أنا قناصة.

- الأمر الأهم أنك ضابط وأقسمت اليمين...

كان مصيباً بشأن قدراتي. فموجب الأمر الصادر عن السلطة المركزية للأفراد في مفوضية الدفاع الشعبية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية (الأمر رقم ٠٢٨١، وتاريخ الثالث من حزيران/ يونيو ١٩٤٣)، رُقيت إلى رتبة أعلى، ملازم. وبدلاً من تثبيت المربعات الياقوتية على عرى ياقتي التوتية، ثبتت نجمتان على كتافيتي سترتي العسكرية. بدءاً من كانون الثاني/ يناير، تغير مظهر سترتي العسكرية نفسها، أي باتت ياقتها قاسية ومقلوبة إلى الأعلى بدلاً من الأسفل، وجيوبها الصدرية مشقوقة بدلاً من المخيطة. لم أستطع الحصول على نمط البزة النظامية الجديد مباشرة، لكنني زُودت بكتافيتي الاستعراض ذات الضفائر الذهبية فوراً.

في وقت متأخر من المساء، كنت ووالدتي نقضي الوقت بالاستماع للموسيقا من مذياع أحضرته من الولايات المتحدة، جودة صوته ممتازة. كانت تُبث حفلة موسيقية تُليها طلبات المنتصرين على جبهة ستالينغراد من جنود وضباط حققوا في شباط/ فبراير هزيمة الجيش الألماني بقيادة المارشال باولس. كانت الحفلة الموسيقية تتضمن بعض الموسيقى الكلاسيكية، وبضع أغنيات شعبية، وبعض الألحان السوفياتية الشعبية. فجأة ثمة قرع على الباب. دخل ضابطان شابان من جهاز الأمن الداخلي، وأديا التحية، ولمحا إلى ضرورة الاستعداد للذهاب معهما.

أسقطت المسكينة يلينا تروفوموفا، التي كانت تنسّف الأكواب بعد كوب الشاي المسائي، أحدها على الأرض. وأخذت يدا والدتي ترتجفان من الخوف. لم تكن آلية تنفيذ ”الأجهزة“ الاعتقالات سراً، إذ يظهر موظفوها في بيوت المشتبه فيهم

فجأة، ويخاطبونهم بلباقة، ثم يقتادون ضحاياهم على جناح السرعة. ارتدّيت سترتي العسكرية الموشّحة بحمالة كفي، وأوثقت حزام الضابط خاصتي حول خصري. فعلى جانبه الأيمن، يتدلّى قراب جلدي بني غامق لمسدسي TT. إذا طلبوا مني نزع، سيصادرون المسدس، ويُعد هذا الأمر اعتقالاتاً.

قال أحد الضابطين: "أيتها الرفيقة، الملازم، أنت ذاهبة إلى الكرملين". سألته: "إلى الكرملين؟" مشيت بخطى واسعة نحو خزنة الكتب، واخترت القاموس الروسي-الإنكليزي، ودفعت به في جيبِي، ووضعت كتاب القواعد الإنكليزية في جيب معطفي الداخلي، لأن هذه الكتب تعود إلى القائد العام الأعلى. إذا سنحت الفرصة، سيُصار إلى إعادتها إليه.

كانت المسافة من شارع Stromyn إلى وسط موسكو قرابة عشرة كيلومترات. فسدّ نهر Yauza، وبيوت الطوب القديمة، وبعض المنشآت القبيحة العائدة إلى الحقبة السوفييتية مثل نادي Rusanov الذي كان طابقه الثاني يشبه جزءاً من عجلة مسنّنة هائلة، انحسرت في المسافة خلفنا. كانت الأجسام تثب من الظلام إلى مصابيح السيارة، أي الأشجار على جانبي الطريق العريض، وسكك القطار الخفيف، وجدران المباني المتعددة الطوابق. أثناء محاولتي التركيز، تساءلت هل ستوكل إليّ مهمة مهمة جديدة على نحو خاص، أو هل جوزف فرايوسفتش Joseph Vissarionovich مهتم بتفصيلات زيارتنا الأخيرة إلى الولايات المتحدة.

ساعدني الملازمون في غرفة الاستقبال بكياسة على خلع معطفي. وبعد حلّ أزرار قراب المسدس، سلّمت السلاح لسكرتير ستالين، ألكساندر نيكولايفتش بوسكرينيشيف Alexander Nikolayevich Poskrebyshchev. فوضع مسدس TT في درج مكتب، قائلاً إنه يمكنني استعادته بعد الزيارة، ومشيراً إلى الباب: "تفضلي، الرفيق ستالين بانتظارك".

كانت ألواح المكتب من البلوط البني الغامق، والطاويلتان المجموعتان معاً لتشكيل حرف T، والخريطة الضخمة للغاية المغطاة بالستائر، تعود بي بالذاكرة كلها إلى آب/أغسطس ١٩٤٢، عندما كان وفد "رابطة الشبيبة الشيوعية" قاصداً أميركا. أما الآن، فأنا أقف أمام الأمين العام لـ "اللجنة المركزية للحزب الشيوعي" بمفردي فقط. خطي

جوزف فزاريونفتش خطوة نحوي وصافحني، وابتسم قائلاً: ”مرحباً، يا لودميلا ميخايلوفنا“.

- احترامي، سيّدي الرفيق القائد العام. الملازم بافلتشنكو يمثل رهن أوامركم. هاكم كتابيكما، قاموس وكتاب دراسي. وضعتهما على حافة الطاولة الطويلة، ووقفت باستعداد مجدداً.

- هل كانا نافعين؟

- كثيراً جداً. في الواقع، تمكنت من النطق بأشياء.

- علمت أنك أجريت زيارة ناجحة.

تابعت الوقوف منتصبّة القامة، والنظر إلى السلطة، كما يقتضي القانون العسكري، قائلة: ”كنا نسعى لتنفيذ أوامرك، سيّدي الرفيق ستالين“.

أشار جوزف فزاريونفتش إلى كرسي متاخمة للطاولة، وجلس قبالي قائلاً: ”تفضلي بالجلوس. علمت أنك أمضيت، أثناء دعوة الرئيس روزفلت وزوجته، أسبوعاً في مزرعتهما، Hyde Park“.

- صحيح، سيّدي الرفيق ستالين.

رفع القائد العام غليونته الشهير إلى فمه، وأخذ نفثاً عميقاً منه قائلاً: ”من المحتمل أن ألتقي هذا الأميركي هذا الخريف. أخبريني، أي نوع من البشر هم؟“

لا أعرف السبب، لكن كنت متوترة للغاية هذه المرة. كان السؤال عن الكتب أمراً. أما المثل أمام رئيس الدولة بشأن نتائج رحلة معقدة، فكان أمراً آخر. تبين أننا لم ننجز هدفها الرئيسي، أي الترويج لفتح جبهة ثانية بالوسائل شتى، لأن الحلفاء لم يستهلوا أيّ عمليات عسكرية في أوروبا، في واقع الأمر. لقد نجح وفدنا الطلابي في ممارسة تأثير معين في المزاج العام في الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا العظمى، مستدعيّاً تعاطفاً من الناس العاديين مع نضال الشعب السوفيياتي ضد الفاشية. كان قادة هذه البلدان يلعبون لعبتهم الخاصة، ولم يكن لديهم أي تعاطف خاص مع بلدنا. مع ذلك، تبدّى لي أن الرئيس روزفلت وزوجته، خلافاً للسيد تشرشل، مخلصان وصادقان وقادران على تقبّل وجهة نظر أخرى.

كان خطابي مشوشاً ومتراًفاً بوقفات طويلة. لم يقاطعني جوزف فزاريونفتش،

لكنه حاول تهدئتي على مشارف النهاية، وسألني برقة: "لماذا أنت متوترة، يا لودميلا ميخايلوفنا؟"

– إن المثل أملك بصورة شخصية مهمة مسؤولة.

– لم ينل منك الارتباك عندما كنت في مهمة قنص. لو كنت متوترة بهذه الطريقة على الجبهة، لكنت من عداد الموتى منذ مدة طويلة.

أجبتة بنعومة: "لا تمكن مقارنة هاتين الحالتين على الإطلاق".

مازحني القائد العام الأعلى قائلاً: "حسناً، فلنقارن بينهما. تحدث عن خدمتك بصفتك قناصة، وعن تدريب القناصين وأسلحتهم والأساليب التي استخدمتها في السهوب القريبة من أوديسا والتلال القريبة من سيفاستوبول. لا بدّ من وجود بعض الاختلافات بينها".

لم أتوقع اهتمام ستالين بمهنتنا العسكرية؛ كان يعرف كثيراً عن طبيعتها الخاصة. فكانت أسئلته في صلب الموضوع ومحدّدة جداً. وفي إجابتي عنها، هدأت روحي حقاً، وبّت شجاعة، وقررت التماس طلب. فطلبت من القائد العام الأعلى العودة إلى الجبهة. قال جوزف فزاريونفتش: "أنت تعانين من صدمة القصف وجروح. لماذا تريدين العودة إلى الخط الأمامي مجدداً؟"

أجبتة: "ثمة إصابات كثيرة جداً في هذه الحرب. لكن لا بد لأحدهم من القتال. أريد العودة إلى رفاقي في السلاح. فلدي المعرفة والخبرة. وعليه، لدي فرصة أكبر في النجاة".

شعرت أن إجابتي رافت له، لكنه لم يتكلم مباشرة، بل اختتم حديثه فجأة بقوله: "إن الأمر غير وارد بالنسبة إليك. هل يمكنك إجراء بعض العمليات الحسائية؟"

نظراً إلى ذهولي من مثل هذا التحول في الحديث أوامات برأسي. تناول ستالين قلم رصاص، وسحب لوحة ضخمة على الطاولة نحوه، وأخذ يشرح مثل معلم في مدرسة: "إذا كنت تريدين العودة إلى الخط الأمامي، ستقتلين مئة فاشي. ويمكنهم أن يردوك أيضاً. لكن إذا درّبت مئة قناص، ونقلت إليهم معرفتك القيّمة، واستطاع كلّ منهم قتل عشرة نازيين، فما هي الحصيلة؟ ألف. ذلك جوابك. أنت مطلوبة أكثر في هذا المكان، أيتها الرفيقة، الملازم".

تركت كلمات القائد العام أثراً في نفسي؛ كان لها أساسها البالغ. ففي بداية الحرب وتبعاً لبرنامج ”مفوضية الدفاع الشعبية“ الرسمي المُصدّق في نيسان/ أبريل ١٩٤١ (بموجب الأمر رقم ٤٠٢/٠٤)، يُخصّص ثمانية عشر قنصاً فقط لكل فوج رماة؛ مع ذلك، عملاً بالتغييرات في الأنظمة العسكرية عام ١٩٤٢ اقتضى امتلاك الفوج سبعة وثمانين قنصاً، والسرية تسعة، والصيدلة ثلاثة. كان لدى ”الجيش الأحمر“ مئات الأفواج، ولذلك لا يُقاس عدد ”القناصين الممتازين“ سلفاً بالآحاد المفردة، بل بالعشرات، وحتى بالمئات. فعلى أحدهم تدريبهم بسرعة وبمهارة وبمستوى عالٍ. كانت عملية إعداد القناصين الشاملة في الجيش تقتضي وجود مدرّبين مؤهلين في القنص. لهذا السبب، أُحدثت في آذار/ مارس ١٩٤٢ مدرسة لمدرّبي القناصين في قرية Veshnyaki القريبة من موسكو، باتت معروفة لاحقاً بالمدرسة المركزية لمدرّبي القناصين. برهن ذلك الأمر أنه لا يفي بالغرض. فسرعان ما أُعدّت دورات للقناصين مدتها ثلاثة أشهر في ذلك المكان، ومُدّد التدريب ستة أشهر بدءاً من تموز/ يوليو. على العموم، تمّ خلال الحرب في أرض الآباء والأجداد العظيمة تدريب ما يفوق أربعمئة ألف قناص ضمن إطار Vsevobuch و Osoaviakhim (تدريب عسكري عام دون تعطيل الإنتاج) في مدارس لنبخبة الرماة-القناصين التي تديرها المناطق العسكرية، وفي مراكز تدريب الجيش.

كان لقاء مجموعة من ”قناصي الخط الأمامي الممتازين“ بستانين في الكرملين في الثامن والعشرين من تموز/ يوليو ١٩٤٣ خطوة مهمة في النهوض بإعداد القناصين في القوات السوفياتية. شاركت وفلاديمير بشلنتسف في هذا الأمر. فضلاً عن ذلك قدّم عشرة أشخاص آخرين تفوق حصيلتهم من قتلى جنود وضباط العدو ١٥٠ إلى موسكو من جبهات مختلفة. للأسف، لم أذكر أسمائهم كلّهم. لكنّ الشخص الذي برز من بينهم على نحو ملحوظ كان السيبييري فاسلي زائتسف، بطل الاتحاد السوفياتي، الذي تفوّق في ستالينغراد، حيث أباد ٢٢٥ نازياً في ثلاثة أشهر.

عُقد الاجتماع في جوّ عملي. طلب القائد العام الأعلى منّا الحديث بصراحة وفي صلب الموضوع عن الصعوبات التنفيذية، وتقديم طلباتهم ورغباتهم. تحدّثنا عن الحاجة إلى قيادة موحّدة، أي يجب أن يكون الجنود الذين اكتسبوا مهارات القنص

الممتاز بقيادة شخص واحد في فوج بدلاً من كتيبة وسرية أو قادة آخرين. لم يكن التغيير في قائمة الميادين العسكرية المتخصصة المُسجَّلة أقل أهمية، أي آن الأوان لإضافة كلمة قناص إليها. وثمة مطالب بضباط إعاشة، أي لم يُبدل اللباس الصيفي والخريفى والشتوي المموه في كثير من الوحدات المقاتلة حينذاك، ولم توزع الدروع المصفحة التي تساعد القناصين على تفادي إصابات خطيرة، وحتى الموت أحياناً. تحدث كثيرون عن تحسين بندقية Mosin، إذ كان الزناد القاسي عائقاً بالنسبة إلى الجنود الجدد خاصة.

استُديعت في بداية آب/أغسطس ١٩٤٣ إلى احتياط قيادة "الجيش الأحمر" العليا، وبت طالبة في دورة "الراية الحمراء" Vystrel التكتيكية للرماية في كلية قادة الكتائب من أجل تحسين ملاك ضباط المشاة. عُقدت الدورة في مدينة سولنتشوغورسك Solnechnogorsk بإقليم موسكو، غير البعيدة عن بحيرة Senyevsk. ففي ذلك المكان، كان الضباط المتمتعون بخبرة قتالية يرفعون مستويات مهارتهم، بعد العلاج في المستشفى غالباً. كان البرنامج مكثفاً، إذ كانت الجلسات تستمر اثنتي عشرة ساعة في الميدان بصورة رئيسية. كنا ندرس أساليب القتال الحديثة في كتائب الرماة والإشراف عليها في ظروف أقرب إلى ظروف المعركة، وأسلحة الرمي اليدوية التي كنتُ، بطبيعة الحال، أمارسها باستمتاع خاص وإتقان متميز. فبعد ثلاثة أشهر من الجلسات العملية المكثفة، انطلق زملائي في الدورة إلى الجبهة من أجل الإشراف على كتائب المشاة. وبعد التخرج في كلية قادة الكتائب، الدورة التي كنت المرأة الوحيدة فيها، بقيت في منشأة التدريب العسكرية الشهيرة والفريدة تماماً هذه حتى أيار/مايو ١٩٤٤، وانخرطت في عمل تعليمي مدرّبة قناصين.

أثناء سنوات الحرب في أرض الآباء والأجداد العظيمة، خضع قرابة عشرين ألف ضابط لتدريب في دورات Vystrel، ومُنح قرابة مئتين منهم لقب "بطل الاتحاد السوفياتي" لخصالهم البارزة في المعارك مع القوات النازية الألمانية. كما ظهر اسمي في سجل الشرف في الخامس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٣، إذ مُنحت هذا اللقب الرفيع بموجب مرسوم رئاسة مجلس السوفيات الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية.

إني مُهمّشة!

أخذت هزيمة ألمانيا هتلر الشاملة بالاقتراب. فبعد تحرير كييف، عادت جامعة كييف الحكومية، التي نُقلت إلى كازاخستان عام ١٩٤٢، إلى العاصمة. لقد ألحق الألمان أضراراً فادحة بها، أي فجروا الكتلة الرئيسية، ونهبوا مخابر ومكاتب كليات مختلفة. لكن بفضل جهود الأساتذة والأكاديميين والمعلمين، استأنفت الجامعة نشاطاتها في كانون الثاني/يناير ١٩٤٤، فاتحة الصفوف أمام الطلاب في المسابقات العليا. لقد اكتشفت هذا الأمر، وعدت إلى مدينة شبابي؛ أردت إعادة ارتباطي بكلية التاريخ، والنجاح في الامتحانات الحكومية، وإنهاء أطروحة الدبلوم التي قد عملت عليها قبل الحرب. قدمت طلباً إلى القيادة العليا، وسُرّحت من الجيش لعام من أجل إكمال تعليمي العالي.

بعد استبدال سترتي العسكرية بفستان، ووضع أوسمتي وميدالياتي جانباً في علبة، بتّ طالبة سنة خامسة في كلية التاريخ بجامعة كييف الحكومية. وجب عليّ مجدداً الانكباب على الكتب الدراسية، وتذكّر ثوابت الماركسية-اللينينية، ومبادئ علم الآثار، والتاريخ الإغريقي-الروماني، وتاريخ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وإجراء اختبارات وامتحانات في اللغات الروسية والأوكرانية واللاتينية. لم يكن الفشل مستبعداً لأنني بلغت الثامنة والعشرين. صحيح أنه ثمة عدد لا بأس به من الطلاب ممن شاركوا في الحرب تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والثلاثين،

لكنني كنت أكبر الطالبات في الفصل.

بعد أن فرغت من العمل على أطروحتي ونيلتي درجة "ممتاز"، عدت إلى موسكو في أيار/ مايو ١٩٤٥، حيث سبق أن خُصّصت لي شقة أقامت فيها والدتي وابني رستسلاف. كانت خدمتي العسكرية اللاحقة في صفوف سلاح البحرية؛ بتّ مساعداً لشؤون البحث في أركانها العامة، أي في قسم التاريخ في الأسطول. كانت جراحي الناجمة عن الجبهة وصدمة القصف تؤلمني أكثر فأكثر مع مرور السنين. فبينما كنت رائداً في خفر السواحل عام ١٩٥٣، أُجبرت على التقاعد لأسباب صحية (أي عجز من الدرجة الثانية) مع احتفاظي بحق ارتداء البزة.

على أيّ حال، لا يُعدّ راتب الضابط التقاعدي باعثاً على البقاء في البيت والتوقف عن فعل كل شيء. شهد أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦ تأسيس "رابطة المحاربين القدامى" في موسكو، الهيئة الحاكمة لمنظمة المحاربين القدامى السوفياتية التي آلفت بين آلاف المقاتلين في مختلف الأقاليم والمناطق من بلادنا. ثم عُقد مؤتمرها الأول الشامل لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية الذي انتخب رئاستها، ورئيس رابطتها (مارشال الاتحاد السوفياتي، إي. إم. فاسيليفسكي (A. M. Vasilyevsky)، وسكرتيرها التنفيذي (الطيار وبطل الاتحاد السوفياتي، إي. بي. مارسيف (A. P. Maresyev)، ومكتب رئاستها الذي كان يدير عمل الهيئات العامة الدائمة (التنظيمية، والدولية، وتلك المسؤولة عن الدعاية، وشؤون المعوقين، والعلاقة مع المؤسسات التعليمية، وتخليد ذكرى الجنود الذين فقدوا حياتهم). أدّت دوراً نشطاً جداً في التحضير لهذه الفعالية وإدارتها، وانتُخبت لرئاستها.

باشرنا بأنشطة منتظمة لترويج تقاليد الجيش السوفياتي العسكرية المجيدة، وكنا نلتقي مع الشباب في المدارس، والكليات التقنية، والمعاهد التعليمية العليا، في غالبية الأوقات. كما أجرينا رحلات لزيارة الوحدات العسكرية. في تلك الأماكن، كانوا يطلعوننا بحماسة على قوات اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية المسلحة المعاصرة، ويدعوننا إلى دورات تدريبية، ويعرضون أسلحة جديدة.

من المحزن أن ترى فن القنص، الذي ازدهر في بلادنا أثناء مقاومة الفاشية إلى مستويات غير مسبوقة، آخذاً بالتلاشي والانتكاس تدريجياً بلا داع. ثمة تغييرات في

العقيدة العسكرية. ووزارة الدفاع ترى أن استخدام القنبلة النووية سيُجنّب الجيوش البرية الاشتباكات مع العدو في ميادين المعارك. فبعد انفجار نووي-حراري سيُخلف صحراء محروقة لن يكون القناصة بحاجة إلى الرمي على أحد، وسيُتلاشى العدو مثل الغبار. وعليه، أغلق كثير من مدارس ودورات القنص، وسُرح الضباط المتمرسون في منتصف الخمسينيات. ذهبت أعراف تدريب وتعليم القناصين أدراج الرياح. مثلاً كانت الأنظمة العسكرية الجديدة تحمي مفارز الرمي المتنقلة التي كانت تتضمن قناصاً ممتازاً واحداً! لم تأت الأنظمة الجديدة الخاصة بالقوات البرية على ذكر عمليات القناصين في سياق أعمال قتال عسكرية عامة. على ما يبدو، كان مؤلفوها يزعمون أنه ليس للقناص تأثير مهم في نتيجة معركة ما.

بطبيعة الحال، ثمة وحدات قوات خاصة تعين عليها القيام بعمليات عسكرية في الغابات والجبال والمراكز السكانية، أي الأماكن التي كان استخدام السلاح الثقيل فيها مستحيلاً تماماً. سرعان ما حظيت هذه القوات بتطوير ملائم. ففي مثل هذه الأوضاع، تؤدي إصابة الهدف من الطلقة الأولى دوراً حاسماً حقاً أحياناً، وتحدد نجاح العملية برمتها.

مع نهاية الحرب العالمية الثانية، بدت بندقية Mosin المزودة بمخزن، التي خدمتنا بأمانة وثقة، نوعاً قديماً بحاجة إلى تحديث. وجرّت محاولات لتبديلها. فقدّم المصمّم إس. جي. سمونوف S. G. Simonov، في ١٩٤٥ و ١٩٤٧ على وجه الخصوص، نماذجه من القناصات استناداً إلى بندقيته القصيرة الخفيفة S.G، لكن كان للنوعين عيوبهما الأساسية. أصدرت إدارة المدفعية والصواريخ عام ١٩٥٨ صلاحيات لتطوير قناصة جديدة لتلقائية الإلقام من عيار ٧,٦٢ ملم. تولّى إنجاز هذه المهمة ثلاث مجموعات من المهندسين (من أجل خلق منافسة صحية وتحقيق أفضل النتائج).

ترأس المجموعة الأولى مصمم السلاح الشهير سيرغي غافرلوفتش سمونوف Sergei Gavrilovich Simonov، بطل العمال الاشتراكيين والفائز بجائزة الدولة مرتين. لقد نال هذه الجوائز لقاء تصميم سلاح مضاد للدبابات عام ١٩٤١، والبندقية القصيرة الخفيفة التلقائية الإلقام SKS-45. كما كان مبتكر بندقية AVS-36 التلقائية الإلقام التي اعتمدها "الجيش الأحمر" عام ١٩٣٦. صادفت هذا السلاح في سيفاستوبول. كانت

بندقية سمونوف المضادة للدبابات من عيار ١٤,٥ ملم رائجة بين القوات. فكانت تخترق تصفيح الدبابة الألمانية العادية. أوقف جنود مشاتنا عدداً لا بأس به من العربات المصفحة النازية المهاجمة في سيفاستوبول، مستخدمين PTRS، أي بندقية سمونوف المضادة للدبابات بسبطانيتها الطويلة المميّزة.

برز مهندسون شبان كمنافسين لسمونوف البالغ خمسة وستين، الحائز التقدير العام مطولاً. شكّل هؤلاء جيلاً جديداً من مخترعي أسلحة روسية خفيفة. لقد تلقوا علومهم في الخدمة العسكرية، وكانوا يستهلون حياتهم العملية في مواقع العمال في معامل الدفاع السوفياتية. أما المجموعة الثانية، فترأسها ألكساندر سميونوفتس كونستانتنوف Alexander Semyonovich Konstantinov، المهندس القادم من مدينة Kovrov، الذي كان يعمل في إدارة تصميم بقيادة ديكتاريوف Degtyarev، مخترع رشاش DP الخفيف الأسطوري.

باشرت المجموعة الثالثة المهمة بعد مدة وجيزة، وكانت تعمل في مدينة إيجيفسك Izhevsk في مصنع Izhmash العسكري بإشراف يفغني فيودوروفتس درغونوف Yevgeny Yevgenyovich Dragunov. ولّد وترعرع في هذه المدينة، وكانت وظيفته صانع دروع في ورشة الفوج أثناء الحرب. كان يتمتع بمعرفة ممتازة بأسلحة الرمي اليدوية، وعاد بعد إلى مصنعه القديم، وبات معروفاً بمخترع بعض الأنواع المثيرة للاهتمام من البنادق الرياضية. في الواقع، التقية، وفلاديمير بشلنتسف، وفاسلي زائتسف، في مدينة إيجيفسك، لأن إدارة المصنع دعّتا بصفتهما جنوداً سابقين للمشاركة في المشروع بصفة مستشارين. كنا مسرورين من هذا الأمر على نحو لا يصدق؛ كانت المشاركة في اختراع قناصة عصرية جديدة شرفاً عظيماً بالنسبة إلى ممارسي القنص. فشرعنا في العمل بشغف.

تمثّلت نماذج درغونوف الأولى في بنادق رياضية. نقل هذا الطراز الرياضي إلى تصميمه خدمةً للقناصة. فأصابنا الدهول عندما رأينا رسومات لما يُدعى تصميماً "هيكلياً" (مزوداً بفتحة في المنتصف) لأخمص بندقية، إضافة إلى قبضة طراز مسدس. مع ذلك، يتعين على السلاح الحربي تحمّل عبء أكبر بكثير من الطراز الرياضي، والعمل دون تقصير في أي ظروف مناخية، والتعامل معه بشكل مريح ليس على الخط

الأمامي فحسب، بل في المسير أيضاً.

كانت متطلبات إدارة المدفعية والصواريخ تحتوي عدداً من التناقضات. مثلاً يجب تركيب أجزاء آلية التشغيل كلها بإحكام من أجل مصلحة تحسين دقة الرمي. لكن في الوقت نفسه، كانت فتحات كبيرة بين هذه الأجزاء تساعد على تفاعل متزن في الرمي والإلقام. تقتضي تلبية هذه المتطلبات عملاً مدروساً وطويلاً.

في النتيجة، قدم فريق درغنوف، في المرحلة الأولى عام ١٩٥٩، نوعاً أولياً من البندقية كان يلبي المتطلبات الصارمة نسبياً لدقة الرمي. خرجت القناصة التي عرضتها مجموعة سمونوف من المسابقة فوراً. أظهرت بندقيتان، تعودان إلى درغنوف وكونستانتنوف، النتائج نفسها في تجارب الرمي المقارنة واختبارات أخرى. مع ذلك، انتقى المختصون في إدارة المدفعية والصواريخ تصميم درغنوف عام ١٩٦٢. كان المخترع الموهوب قادراً من الناحية العملية على تحقيق الأهداف كلها التي حددها الأفراد العسكريون لفريق التصميم. لقد ذلل الفريق كثيراً من الصعوبات. رغم بساطة التطوير في تركيب الطرف الأمامي للوهلة الأولى، تبين أنها الأكثر صعوبة. فعملوا قرابة عام لتحسين مخزن علبة الرصاصات العشر. كان آي. إي. سمایلوف I. A. Samoilov وراء تصنيع سبطانة ذات دقة عالية. بالمناسبة، كان يُرحَّب في هذا المكان بمناظير جديدة أكثر تعقيداً بكثير من مناظير PE و PEM و PU، التي كنت ضليعة جداً بها.

أظهر منظار PSO-1، الذي طوره إي. آي. أفشنيكوف A. I. Ovchinnikov وإل. إي. غلايزوف L. A. Glyzov، شعيرات متصالبة مزودة بمؤشر تسديد على شكل رقم ٧ صغيراً ومحاطاً بتصويبات جانبية من ١٠ ملم على كل جانب. كانت نقاط التسديد ١١٠٠ و ١٢٠٠ و ١٣٠٠ متر، تقع عمودياً تحت شارة التسديد. جعل هذا الأمر برمته التسديد أفضل وأسرع. بمعزل عن ذلك، تحتوي البندقية منظاراً مكشوفاً تقليدياً أيضاً. مع ذلك، نظراً إلى ارتفاع الطرف العلوي من الأخمص، لم يكن استخدام المنظار الخلفي ملائماً على وجه الخصوص.

تمت الموافقة عام ١٩٦٣ على استخدام SVD، أي قناصة درغنوف، في الجيش السوفياتي. اعتقدت أن قواتنا المسلحة حظيت بنوع ممتاز، وزن ٤,٥٢ كلغ، طبيعي

للمشاة (يتضمن مخزناً ومنظراً)، ويبلغ طوله ١,٢٥٥ ملم، وسرعة رميّه بمعدل ثلاثين طلقة بالدقيقة. ويبلغ مدى الرمي المباشر للنوع المزوّد بتلسكوب ١٣٠٠ متر. أما المزوّد بمنظار مكشوف، فيبلغ مدى رميّه المباشر ١٢٠٠. كان العمل الآلي يعتمد على استخدام غازات البارود الناجمة عن الرمي. خلافاً للبندقية SVT، لم يكن إطار المغلاق مدمجاً بأسطوانة الغاز. كان المكبس وعتلة الدفع مُركبتين كمكوّنين منفصلين.

ثمّن مدير مصنع Izhmash إسهام قدامى القناصين الممتازين في اختراع سلاح قص جديد. ففي جلسة رسمية، مُنحت وبشلتنسف وزايتسف شهادات فخرية وهدايا؛ نال كلّ منا مسدساً قتالياً مُجمّعاً يدوياً رفيع التصميم.

تسنى لي السفر أثناء تلك السنوات ليس إلى شرق بلادنا، وإلى جمهورية أودمورتسكيا الاشتراكية المستقلة فحسب، بل إلى الجنوب، وإلى القرم، وسيفاستوبول التي لطالما كانت موطناً لي أيضاً. احتفل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية عام ١٩٦١ بالذكرى السنوية العشرين لليوم الذي بدأت فيه الحرب في أرض الآباء والأجداد العظيمة. تمّ توقيت إصدار أعداد المجلات والصحف المعنية بالموضوع، ونشر مذكرات الشخصيات العسكرية، والمؤتمرات المجسّدة لكل من النظرية والتطبيق، لتتزامن مع هذا التاريخ. بالنسبة إلى الأجيال الجديدة من الشعب السوفياتي، بقيت خصال مقاومة الفاشية إنجازاً عظيماً لا ريب فيه.

تلقيت دعوة من سيفاستوبول لحضور اجتماع نظّمه مجلس المتحف للمنح الدراسية يتناول الدفاع عن المدينة وتحريرها، والتحضير لإلقاء خطاب في ذلك المكان. وقع هذا الأمر في الخامس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦١. كان طول الخطاب عشرين دقيقة، وتمت الموافقة سلفاً على موضوعه: "قناصو سيفاستوبول في اشتباك مع الغزاة النازيين الألمان". أما مجريات الاجتماع، فسيتم نشرها لاحقاً.

بدأت خطابي قائلة: "لقد صار مقبولاً بيننا، على الأغلب، الحديث مطولاً عن القناص الفلاني الذي يقتل جندياً أو ضابطاً معادياً. لكن ماذا كانت تكلفة هذا الأمر للقناص؟ وهل ثمة مناسبة مؤخراً لمناقشة هذه العملية الخطيرة والمضنية على الخط الأمامي بالتفصيل؟"

أولاً: سميت القناصين الذين لم تُكتب لهم الحياة ليشهدوا هذا اليوم المجيد: ضابط الصف البحري نوي أداميا، من مراتب لواء مشاة البحرية السابع، "بطل الاتحاد السوفياتي"، والعريف إيفان لفكين ورفيقه في الفوج العريف إيفان بوغاتير، من مراتب فوج جهاز الأمن الداخلي ٤٥٦، اللذين مُنح لقب "بطل الاتحاد السوفياتي". ثمة من فقدوا حياتهم دون نيلهم أي جوائز مع أنهم أظهروا مقدرة كبيرة في فن القنص. على سبيل المثال: يوري فيودورنكو Yuri Fyodorenko، الشاب المقيم في سيفاستوبول. كان جمهور مجلس المنح الدراسية مجموعة مختارة، أي موظفين من ثلاثة متاحف في المدينة، ومؤرخين، وقدامى محاربي حصار المدينة الثاني. لم تكن ثمة حاجة إلى إقناع أي من هؤلاء الناس لأنهم كانوا مُلمّين بكل ما يتعلق بالقناصين. أمّا أنا، فأخذت نصّ الوقائع المنشور بالحسبان، وعليه قررت الحديث عن أساليب القناصين الممتازين في ميدان المعركة، وعن تدريبهم. فأن تكون قناصاً ليس مجرد حرفة، بل إنه نمط في الحياة.

أشرتُ إلى النافذة التي كانت شمس تشرين الأول/ أكتوبر تسطع خلفها قائلة:

"في يوم مثل هذا، يستيقظ القناص في الثالثة صباحاً ليكون في موقعه في الرابعة. كان القناص يتمركز في المنطقة المحايدة، أي في المنطقة المنزوعة السلاح، وآخر مخافه العسكرية خلفه، بينما النازيون أمامه. فأنتم على علم بأن نطاق المنطقة المنزوعة السلاح في منطقة سيفاستوبول المحصنة ضيق، أي بعرض ١٥٠ متراً في بعض القطاعات، لكنه أضيق بشكل ملحوظ عموماً. لذلك، كان القناصون، بحكم الضرورة، على مسافة قريبة جداً من الألمان. فخلال يوم ما، كان إطلاق خمس إلى عشر طلقات أمراً وارداً. ولم يكن القناصون في سيفاستوبول سيئين، أليس كذلك؟ كانوا قناصين ممتازين... لقد لاقت فكرة أننا خدعنا بعضنا بعضاً بقطع صغيرة من أوراق النبات قبولاً إلى حد ما. لم يكن الأمر قضية أوراق نبات. تخيل أنك صادفت قناصاً في قطاعك من الجبهة. فيجري إبلاغ بأن القناص يعترض الطريق ويعوق الحركة. ثم يصدر أمر لقناصنا للقضاء على العدو، وعليك قضاء يومين أو يومين ونصف في محاولة لتحديد موقعه. القناص يعمل بمفرده طوال هذا الوقت. وعملية مراقبته تتركه وحيداً لأن وجود أفراد إضافيين يعني ضحايا وهدايا مجانية إضافية. يمكن استخدام طرائق كثيرة لإغواء قناص على إطلاق طلقة. استخدم الزجاج والعلب المعدنية وأي شيء في متناول اليد؛ لم تكن لدينا أدوات خاصة. لكن عندما تحدد موقع

قناص معاد، تبدأ ما يطلق عليه مبارزة القناصين. فأنت ترى القناص وعينه ولون شعره عبر منظارك، لكنه يراك أيضاً. في هذه المرحلة، يمكن تقرير كل شيء في جزء من الثانية. فمبارزة من هذا النوع تُخرج القناص من المعركة ساعات عدة؛ هو منهك للغاية لدرجة يصعب فيها انتزاع أي شيء منه.

لقد تمكنا من ضمان عجز النازيين عن التنقل بين مواقعهم نهراً. أما الآن، فيجب قنص النازيين وإبادتهم. سيكون لكل جندي أو ضابط فرماخت مُباد وقعه النفسي على العدو. كان يعني هذا الأمر إيجاد طريقة عمل جديدة، أي مخابئ للقناصين. تم إعدادها على مسافة خمسمئة إلى ستمئة متر من مؤخرة قوات العدو. فتمشى ليلاً متجاوزاً الخط الأمامي برباطة جأش ظاهرة، لكن هذا الأمر يجعل الدم يجمد في عروقك. كان المتطوعون فقط يلجؤون إلى تلك المخابئ لأن فرصة عودتك على قيد الحياة ضئيلة للغاية، أي أقل من ١٠%.

تصل المخبأ في الثالثة صباحاً، وتراقب حتى الثامنة تماماً. ثمة ثلاثة إلى خمسة قناصين يراقبون العدو. ثم يصدر الأمر، ويبدأ هجوم بالقناصين، متبوعاً بالصّراخ. فالنازيون يصيحون أنهم يتعرضون لهجوم من محاربين. ويصيبهم الذعر. ثم يتمالك الألمان أنفسهم، وتنهال عشرات قذائف الهاون علينا. ثمة أمثلة كثيرة على حالات قُتل فيها رفاقي في المخابئ. مع ذلك، لم نترك جثامينهم بأيدي العدو على الإطلاق، بل كنا نحملها بأنفسنا.

كان القناصون يلعبون دوراً كبيراً في المعركة. عندما صدر الأمر لمشاتنا بالتقدم، وجب تأمين تغطية متارس الرشاشات. كان يخرج قناص للتصدي لهذا الأمر. فبعد ساعة أو ساعتين من الزحف، يخرج قناص قاصداً المنطقة المنزوعة السلاح، ويتسلل إلى خط العدو الأمامي، مراعيًا بقاء سلاحه على المترس مُهيأً. وهذا الأمر يعني أن يكمن أمامه مباشرة. كنا نقوم بمثل هذه المهمات أيضاً.

تمت القيادة العليا للقناصين أثناء الدفاع عن سيفاستوبول، وكنا أهلاً لها تماماً. ليس مهماً أن تجيد التسديد بدقة فقط كي تصير قناصاً. أما الأمر الآخر المهم، فيتمثل في كراهية باردة للعدو، وعليه جعل العواطف أقل شأنًا من التفكير المتروي. في هذا الصدد، تؤدي إرادة الجندي الصلبة دوراً. لم تغفل عيون القناصين عن العدو نهراً أو ليلاً. ويتم التثبت من معلومات سجلات الاستطلاع عبر عمليات القناصين غالباً. كان يتعين على القناص معرفة كل تنوء في الأرض، وكل شجرة أمام موقعه عن ظهر قلب.

كان التوتر العصبي المميز لعمليات القنص في سيفاستوبول وقطاعات أخرى من الجبهة السوفياتية-الألمانية يؤثر في صحة المرء. فالمرض المعروف بـ"عُصاب ما بعد الصدمة" كان واقعة طبيعية بالنسبة إلى القناصين في حال قضائهم وقتاً طويلاً دون استراحة مناسبة.

أتذكّر أول اجتماع لقناصي سيفاستوبول الذي عُقد بمبادرة من اللواء بتروف، قائد الجيش الساحلي. كان أول من أولى اهتماماً بظروف عمل القناصين المضنية، وأصدر أوامر بمنحنا مخصّصات جافة إضافية أثناء مناوبة قنص؛ لا يمكنك تقديم عشاء ساخن إلينا في ذلك المكان، وكنا نأكل في وقت متأخر من الليل عادة. وأمر بتروف بمنحنا يوم عطلة أسبوعياً أيضاً.

بدأت عمليات القناصين في الجيش الساحلي في نهر Prut، ضمن فرقة شباييف الخامسة والعشرين. كما كان الملازم المتمرن فاسلي كُفتون، الذي تخرج في مدرسة القناصين قبل الحرب، على رأس عمله أثناء تلك الأيام. وعندما وصلت التعزيزات الأولى إلى بروت، انضممنا، نحن القناصين، إلى فصيلته. كنا ننظر إليه بحسد. كان لديه حصيلة من خمسين نازياً مقتولين، في حين كان لدى كلّ منا واحد أو اثنان.

لا بدّ من الإشارة إلى زيارة القناص المخبأ الأول الذي كان يصادفه عند عودته من عملية، إذ لم تكن لديه القوة أحياناً لبلوغ مخبئه الشخصي. وكل جندي وملاح يعدّ التخلي عن حيّز ودعوته لأخذ قسط من الراحة واجباً عليهم. كانوا يقدمون إلى القناص الشاي الساخن، إذ يغلي الشاي بمسحوق لا دخاني؛ كان الجميع يرون تيسير حيوات القناصين واجباً عليهم. عندما كنا نحصل على إجازة ليوم واحد أسبوعياً، كنا نذهب إلى سيفاستوبول. وكان الأطفال أول المرحبين بنا عند اقترابنا من المدينة. ثمة أوقات يُطارِد فيها القناص ويُطارِد دون تسجيل صيدة وحيدة لأن العدو يكون متخفياً، فنحط الرحال في سيفاستوبول لقضاء الإجازة، ولنلقى ترحيب الأطفال. فيأتيك طفل قرم، من دون سروال ويعاني من سيلان بالأنف، ليسألك سؤالاً ذا شأن: ما عدد الألمان الذين قتلتهم؟ فقد لا تكون قتلت أحداً. وقد تشرح لقائلك أنه لم يكن هناك ألمان في الجوار. لكن جرّب تفسير هذا الأمر لطفل. إذا أجبت أنه لا وجود للألمان في الجوار، فستنال الجواب الآتي: أنت لا تدافع عني جيداً. كان أطفال سيفاستوبول يعرفون أن لدينا نقصاً في الرصاص والذخيرة، وتلقيت في إحدى المرات منجنيقاً كهديّة من بعض أطفال تل Matyushenko. سألتهم عن السبب، فأجابوني: القناص بحاجة إلى التدريب يومياً، لكن ليس لديك رصاصات كثيرة. لا تُبدد الرصاص؛ تدرّب بالمقلع. قد يبدو مُسلِياً. لكن كان الحدث شاهداً على وجود فهم شائع في مدينة الأبطال عن وضعنا على الخط الأمامي، ليس بين اليافعين فقط، بل بين الأطفال أيضاً.

اجتهد سكان سيفاستوبول لمساعدة قوات الجيش الساحلي من النواحي كلها. كانت المدينة تعاني من مشكلات في تقنين مياه الشرب. كنت أصل المدينة وأنا على ثقة بأن

أول امرأة كنت أصادفها تعتبر منحي حصتها المُقننة من الماء، وغسيل بياضاتي وملابسي، وتوفير مكان للراحة مهما كان متواضعاً، واجباً عليها. هذا الأمر مكمّن قوة دفاعنا. فالقوى الثلاث، أي الشعب والجيش وسلاح البحرية، تضافرت لتشكيل قبضة واحدة حطّمت الغزاة الألمان النازيين لمتنين وخمسين يوماً. أما اليوم، فنحن ممتنون لشعب سيفاستوبول لأنهم لم ينسوا تلك الأيام الأسطورية وتخليد ذكرى مجدنا العسكري. فالحماة يأتون ويذهبون. أما سيفاستوبول، فتبقى! ١٦

لدى زيارتي سيفاستوبول مراراً وتكراراً (على سبيل المثال، في أيار/ مايو ١٩٦٤ لحضور الذكرى السنوية العشرين لتحرير سيفاستوبول، وفي أيار/ مايو ١٩٦٥ لحضور يوبيل النصر العظيم)، كنت أشعر بجو سائد معيّن دوماً. لم تكن حكايات المحاربين القدامى عن مقاومتهم الشرسة للعدو مجرد كلمات فارغة بالنسبة إلى سكانها. لقد نهضت المدينة مجدداً وعادت إلى جمالها السابق بعد تدميرها وحرقتها من العدو، لكن خلّدت مبانيها وشوارعها وميادينها الجديدة ذكرى المعارك السالفة. كان ظهورنا في المدارس والكليات التقنية ومختلف أنواع المشاريع يستدعي استجابة حماسية من الحاضرين دوماً. كنا نسعى إلى إطلاع الشباب والراشدين على كثير من خصال الجنود والضباط السوفييات على خطوط معارك سيفاستوبول أثناء ١٩٤١ و ١٩٤٢، وعلى أن مرور الزمن لن يحجب جوهر تلك الأحداث بالنسبة إليهم.

لذلك، كان لقاء الشباب من الرياضيين والرياضيّات الذين استمتعوا بالرمي أمراً سارّاً خاصة. حدث هذا الأمر بمبادرة من مدير حقل الرمي في نادي Dynamo الرياضي، فيليب فيودوروفتش موجاييف Filipp Fyodorovich Mozhayev. بوصفه من كبار المدربين لقطاع القرم في النادي، ومدرباً فخرياً لأوكرانيا، وأستاذ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيياتية في رياضة الرمي الموجه، بعث إليّ رسالة يبلغني فيها اقتراحه إجراء مسابقات رماية على مستوى المدينة لنيل جائزة مسماة إكراماً لبطله الاتحاد السوفيياتي، لودميلا بافلتشنكو، ورغبته في الحصول على موافقتي. فكرت بيني وبين نفسي: "لَمْ لا؟" وأجبتة بالإيجاب. مع ذلك، كانت الرماية هواية ممتازة للشباب. كان قناصو المستقبل قادرين على إثبات مهارتهم العالية في أندية الرماية

على البندقية أو المسدس.

كان موجايف ضابطاً بتشتته؛ تخرج في كلية لينينغراد للرماة وقاذفي الهاون بامتياز عام ١٩٤٤. وحاز "وسام النجمة الحمراء" وميدالية "تقديراً لخدماته العسكرية" أثناء الحرب في أرض الآباء والأجداد العظيمة. كانت خدمته اللاحقة في إقليم Trans-Baikal العسكري، حيث كان يُدرّب القناصين. ولدى تقاعده، انتقل فيليب فيودوروفتش إلى سيفاستوبول. ونظراً إلى تفرّغه للرماية قلباً وقالباً، أسّس نادياً رياضياً في هذا المكان أيضاً، أو مركزاً للتدريب على الرماية، على وجه التحديد، إذ صمم حقلاً له، وتمكّن من ترجمة تصميمه إلى حقيقة واقعة.

كان الحقل وسط المدينة، في Krasny Spusk، في الطريق المؤدية إلى محطة القطار، وليس بعيداً من ساحتي Ushakov و Pushkin. هذه المنشأة الرياضية تتمتع بأرفع المعايير. بمعزل عن الحقل نفسه وخط رميهِ وأهدافه الموضوعة على مسافات تقدر بـ خمسين وخمسة وعشرين وعشرة أمتار (للبنادق الهوائية)، كان يتضمن قاعتين دراسيتين، وغرفة للمدربين، وخزنة بنادق مزودة بباب مُصَفَّح، حيث تم تخزين قرابة مئة بندقية وخمسين مسدساً إضافة إلى علب رصاص. تم تقسيم المباني والمرافق بشبكات معدنية قابلة للقفل ومزودة بأزرار إنذار متصلة بأقرب مركز قوات شعبية. أمّا ليلاً، فثمّة حارس أمني مناوب.

بطبيعة الحال، يؤدي التمويل دوراً كبيراً في أيّ مشروع. لكن من المهم جداً أن يرأسه شخص ما شريف، وواسع الاطلاع، ومتمتع بالمبادرة، وقادر على إلهام الآخرين. كان موجايف يُذكّرني بمعلمي الأول بوتابوف، من كبار المدربين في مدرسة أوسوافياكم في كييف، في بعض النواحي. كانت إحدى التشابهات الرئيسية تتمّعه بسمة القنص الحقيقية، أي الهدوء والاتزان، إضافة إلى قدراته الفائقة. كان لديه كثير من الطلاب من مختلف الفئات، أي أطفال مدرسة وطلاب وعمال وضباط من أسطول البحر الأسود. على العموم، درّب قرابة مئة أستاذ في الرياضة في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وأساتذة مرشحين في الرياضة، وحاملي مرتبة "رياضيو الدرجة الأولى". وتلامذته ينافسون في المسابقات على المستوى الدولي والجمهوري واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية بنجاح. كما التحقت طفلتنا

موجايف بحقل الرمي، ومارستا الرمي الموجّه. وباتنا أستاذتي اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية في الرياضة، أي ابنته الكبرى، يلينا Yelena، في رماية البندقية، وابنته الصغرى، آيرينا Irina، في رماية المسدس.

قررت وفيليب فيودوروفتش، بعد التشاور، افتتاح مسابقات المدينة من أجل الحصول على "جائزة لودميلا بافلتشنكو لرماية المسدس". كما أردت أن آخذ مكاني على خط الرماية، وإطلاق طلقة أو طلقتين من أجل أن تأخذ الأمور مجراها، إذا جاز التعبير. لقد بدأت الأسلحة المزودة ببسطانات قصيرة تستهويني أكثر في السنوات الأخيرة. فلم تعد لدي القدرة على التعامل مع البندقية جيّداً.

في اليوم المحدد، اجتمع كثير من الناس في قاعة دراسية في حقل الرمي، ليس المشاركين في المسابقات فحسب، بل تلاميذ موجايف الآخرين أيضاً. تحدثت بإيجاز عن ملحمة سيفاستوبول. فبدأ الشبان طرح الأسئلة، وأبدوا اهتماماً بموضوعات متخصصة جداً، أي أنواع القناصات المستخدمة في الحرب في أرض الآباء والأجداد العظيمة ومناظيرها، وطرائق التمويه والاشتباك مع القناصين المعادين. أشارت هذه الأسئلة إلى الأساس النظري الفائق الذي تلقاه أعضاء النادي. أما اليوم، فهم رياضيون تحت سماء سيفاستوبول الآمنة، لكن سيصبحون قناصين بارعين على الخط الأمامي غداً، إذا اقتضت بلادنا ذلك.

ثم توجه المشاركون إلى الحقل. تمّ تنظيم المسابقات بصورة رائعة، بلا إرباك ولا تسرع، فكان كل شيء واضحاً ومنسجماً مع الخطة الموضوعية. قدمت ابنة موجايف الصغرى، آيرينا، الطالبة في سنتها الرابعة في معهد سيفاستوبول لصناعة الآلات الموسيقية، أفضل أداء. استخدمت مسدس Margolin، وأجرت تدريبات MP-5 و MP-8 نظامية (أي الرمي السريع على أهداف دائرية من مسافتي ٢٥ و ٥٠ متراً). فوسط تصفيق الحاضرين، زودتها بشهادة فخرية. ثم تبادلنا حديثاً طويلاً، وتمشينا حول المدينة. كانت سيفاستوبول في أيار/ مايو ١٩٧٠ جميلة كسابق عهدها في أيار/ مايو ١٩٤٢، أي شمس ساطعة، وسماء زرقاء، وبحر أزرق، وكثير من الحدائق المزدانة بأزهار وارفة في الجادة البحرية: أقحوان، وورود، وأزهار الأفراح، والزنبق.

شارك في اليوم اللاحق في حفل رسمي لإثارة الشعلة الخالدة على تل Sapun، أي

موقع المبنى المحتضن مجسماً ثلاثي الأبعاد تمّ افتتاحه قبل عشر سنوات يُصوّر اقتحام تلّ Sapun في السابع من أيار/ مايو ١٩٤٤. وثمة نصب تذكاري ومعرض لتكنولوجيا الحرب العالمية الثانية العسكرية. حدث اجتماع على مرتفعات Malakhov مستقطباً حشداً كبيراً. كانت فرقة نحاسية تعزف الموسيقى، والرايات الحمراء ترفرف مع نسيم البحر، وخطابات عن خصال جنود وضباط ”الجيش الأحمر“، وتشبّث وشجاعة وبسالة مَنْ دافعوا عن قاعدة أسطول البحر الأسود البحرية الرئيسية من هجمات قطاعان النازية، ومَنْ هزموا النازيين لاحقاً أثناء تقدم سريع ودحروهم من المدينة المنيعّة. أشعلت مشعلاً من الشعلة الخالدة التي كانت تحترق فوق البرج الدفاعي عن مرتفعات Malakhov، وناولته لـ ”بطل الاتحاد السوفياتي“ إف. آي. متفايف F. I. Matveyev الذي شارك في تحرير سيفاستوبول بصفة رقيب في فوج الحرس ٩٩٧ للرماة الذي اقتحم التحصينات الألمانية على تلّ Sapun في السابع من أيار/ مايو ١٩٤٤.

نقلنا المشعل بناقلة مصفحة مصحوبة بمرافقة فخرية على طول شوارع Korabelnaya Storona، ومركز المدينة، ثم على طول جادة اللواء أوسترايكوف Ostryakov، وصولاً إلى طريق يالطا السريع المؤدي إلى تلّ Sapun. في هذا المكان، حُمِل المشعل على طول المسلك المركزي لمجمّع النصب التذكارية. فأضاء متفايف الشعلة الخالدة أسفل مسلة المجد بمشكاة خاصة.

قبيل الرحيل إلى موسكو، أجريت رحلة إضافية عبر ضواحي سيفاستوبول. كانت زوارق صغيرة تبحر من أرصفة الميناء القريب من رصيف Graf، وتعبّر الخليج الرئيسي، وتنقل مسافرين إلى الجانب الشمالي، وإلى Inkerman، وتحصين ميخايلوف المثلي، ومراكز المدينة السكانية المحيطة بالبحر. فعلى الجانب الشمالي، يتعين عليّ أن أستقل حافلة إلى مقبرة الأخوة. لم تكن رحلة طويلة بل مؤثّرة بالنسبة إليّ.

كان مسلك المقبرة الرئيسي يؤدي إلى التلّ وكنيسة القديس نيكولاس. رغم القتال في محيط النصب التذكاري في حزيران/ يونيو ١٩٤٢، لم تتأثر معظم القبور الحجرية الجميلة المشيدة في القرن التاسع عشر. كانت الكنيسة الواقعة فوق التلّ، التي كانت أشبه بهرم عالٍ نسبياً، لا تزال مغلقة. والجزء العلوي، الذي سبق له احتضان صليب، مدمّر. وجب عليّ السير حول الجانب الأيمن من الكنيسة نزولاً إلى أسفل

التل إلى الجدار الشمالي الشرقي من الكنيسة، حيث كانت تقع قبور مَنْ شاركوا في الدفاع عن سيفاستوبول. كان كل شيء في هذا المكان بسيطاً ومتواضعاً بلا نصب من الرخام الأبيض والأسود، ولا مدافن مزودة بأبواب معدنية مصبوبة، ولا أعمدة مخددة، أو تماثيل أبطال تتوّجها. وضعت باقة من زهور القرنفل الحمراء على النصب التذكاري، وجلست على مقعد خشبي طويل تحت شجرة أكاسيا كانت تُرخي ظلالها على المنطقة بكاملها من أشعة الشمس الساطعة.

كان يخيم على مقبرة الأخوة صمت مهيب مُذهل باستثناء زقزقة العصافير المرفرفة بين أشجار الأرز، وعصف الرياح التي كانت تهب من البحر أحياناً وتُصدر حفيف أجسام الورد البري، والمدفن الواضح وضوح الشمس بفعل زرقة السماوات البراقة فوق الممرات والدروب، والنصب التذكاري لشواهد قبور الجنود المفصول عن العالم بجدار مُصمّت عالٍ. لم يتغير أي شيء في هذا المكان منذ الوقت الذي دُفّن فيه جنود وضباط الفوج الرابع والخمسين للرماة الملازم المتمرن ألكسي كتسنكو الذي كان ضابطاً باسلاً، وزوجي.

لقد سقط في حرب لا نظير لضراوتها. كنا معاً على خط النار. نجوت لأشهد النصر لكنه لم يفعل. بتذكري تلك الأيام البائسة الآن، خطر لي أن ما يتعين على جيلنا مكابדתه ليس محنة جلاً، بل شرفاً عظيماً. فأفلحنا في الدفاع عن البلاد. تبدّى الأمر كأننا وُلدنا وترعرعنا ودرسنا وعملنا من أجل ذلك فحسب، أي التضحية بأنفسنا من أجل وطننا في وقت شدته.

موسكو-سيفاستوبول، ١٩٦٧-١٩٧٢

‘سيستمع القراء حتماً برفقة بافلتشنكو’

Publishers Weekly

لُقِّبَتْ بـ‘سيدة الموت’. لودميلا بافلتشنكو، القناصة السوفياتية الأكثر نجاحاً وإثارةً للرعب في زمن الحرب العالمية الثانية. تصحبنا في ذكرياتها وننتقل معها من موقع إلى آخر على جبهات المعارك. تروي لودميلا ذكريات الفتاة التي استفزتها الحرب وأيقظت فيها ما هو أبعد من الأنوثة، فاندفعت للانخراط في لعبة الموت.

من وراء البندقية، فجأة تجد نفسها وجهاً لوجه أمام القيادة السياسية الأولى لدول الحلفاء: ستالين وروزفلت وتشرشل، فتخوض رحلة سياسية دولية تكشف فيها مواهبها في الإقناع والتواصل لتعمل على جبهة تغيير الرأي العام الأميركي من الحرب.

كتابٌ مثير يستفز الحواس قبل المشاعر ويدفعك إلى الانتباه والتركيز. حكاية مختلفة من زمن الحرب نعيشها من وراء منظار قناصة، تراقب وتقتنص الحياة من مكان لإيمانها أنها تساهم في حمايتها في مكان آخر.

مكتبة

t.mc/soramnqraa



www.daralsaqi.com

ISBN 978-614-03-2156-4



9 786140 321564 >

